

حاجتنا إلى تجديد الإيمان
د. يوسف القرضاوي

ملف ثقافي هام: الكلمة سلاح والشعراء يقاتلون

أطفال العرب سنة ٢٠٠٠؟

قلعة صناعية قطرية على شاطئ أم سعيد

من هنا يبدأ الرّد العربي

معركة فكر وثقافة بِقَدْر ماهي معركة أرض وكرامة

بقلم: الدكتور محمد جابر الأنصاري

يكاد يكون قانوناً ثابتاً في التاريخ العربي الحديث بل هو قانون ثابت متكرر لا تخطئه العين .. هذا القانون باختصار : انه مع كل فترة انحسار وتقهقر للحركة العربية الاسلامية العامة ، الجماعية ، الشاملة الموحدة لهذه الأمة .. تنمو وتشرئب وتتكاثر حول مستنقع الانحسار والردة طفيليات ونباتات سامة ذات خواص معينة . هي هي ذاتها في كل فترة انحسار ، وفي كل حقبة انحطاط وفي كل خريف للردة .. وكأن مياه المستنقع الانحطاطي الآسنة تمدها وحدها بالحياة والغذاء في كل زمان تغمر فيه الأرض العربية ، وتحل فيه محل الشلالات النقية الصحية لحركة التوحيد والتقدم .

فما ان تقع هذه الأمة ، في أي بقعة من بقاعها ، تحت سيطرة عدو غاشم ، أو مستعمر استيطاني ، أو طغيان متخلف مستسلم ، أو حروب طائفية وتجزيئية (وهذه كلها ظاهرة واحدة لا تتجزأ) ..

ما إن تقع هذه الردة السياسية للحركة العربية الاسلامية ، حتى تنمو حول المستنقع ذاته ، وفي وقت واحد ، الطفيليات والنباتات الشيطانية التالية :

١ ــ الدعوة الى إحلال اللهجات العامية محل العربية الفصحى .

٢ ــ الدعوة إلى إلغاء الحرف العربي واستبداله بالحروف اللاتينية .

٣ ــ الدعوة الى إلغاء النحو العربي بحجة صعوبته واستبداله بمختلف أشكال وصيغ (التبسيط) الغامضة ..

٤ ــ انتشار الشعر العامي والنبطي والمنثور وانحسار الشعر العربي الحقيقي بمختلف أشكاله ومدارسه الحية .

٥ ــ غياب الفنون الأدبية الحقيقية الرفيعة من رواية ومسرحية ومقالة وأقصوصة والعودة إما الى الأشكال التقليدية الميتة أو الى المحاولات التجديدية الزائفة والفارغة من أى محتوى .

٦ ــ اختفاء ثقافة وفكر القضايا الحياتية والحضارية الكبرى وغلبة ثقافة وفكر الخلافات والمذاهب الفرعية والشكليات والصغائر التافهة ، مع التكالب على إلحاق الابناء بالمدارس الخاصة والأجنبية !

٧ ــ تصاعد الحديث فجأة عن الحضارات المحلية البائدة ، التى تخطاها التاريخ وتخطتها حياة الشعوب العربية وأحيلت منذ زمن طويل الى المتاحف وقاعات الآثار .. يتصاعد فجأة الحديث عنها في صحف الانحطاط وأجهزته ومنابره ومعاهده وكأنها حضارات المستقبل .. وطوق النجاة .. والقصد طبعاً في منتهى الوضوح : إحياء الميت من تلك الآثار المحلية البائدة في محاولة لدفن الحضارة الحية الوحيدة القابلة للنهوض على هذه الأرض : الحضارة العربية الاسلامية .. والوجوه التى خلف هذه المحاولة وجوه معروفة أيضاً في




رفاعة رافع الطهطاوى

الشيخ محمد عبده

محمد على

منتهى الوضوح : مستشرقون من صنف الموظفين فى دوائر الاستخبارات الأجنبية ، وأساتذة يهود بولاء عميق لاسرائيل .. وحفنة من الكتاب من الناطقين بالعربية ، ولكن بولاء عميق أيضاً لاسرائيل وللأوصياء الكبار عليها فى الغرب .

٨ ـ المبالغة فى احياء الفولكلور المحلي والمبالغة فى العادات والخصائص المحلية ، وغلبة الحديث عن شخصية محلية متميزة فى كل قطر عربى ، بل فى كل مدينة وناحية عربية ، والايهام بوجود كيانات تاريخية ثابتة لتلك المدن والقرى والأحياء والدساكر ! ! هذا مع زرع العداء والفرقة بين كل بلد عربي وآخر ، وكل طائفة وأخرى ، وكل ناحية وناحية ، والتشهير بالعروبة بمفهومها الحضارى الراقي .. وبعث قبلياتها وبداواتها لاخفاء وجهها الحقيقي .

٩ ـ تحويل الإسلام من مفهومه الحضارى العظيم ومن منطلقاته الالهية والروحية والتحريرية كما جاءت فى كتابه السماوي المنزل على رسوله الكريم ، وكما تبلورت فى سيرة الرسول الأعظم وصحابته وتابعيه فى صدر الاسلام ، تحويل هذه الثروة الروحية والحضارية كلها الى جدل وخلاف ، بين جماعات عديدة متناحرة ، أبعد ما تكون عن روح الجماعة الاسلامية الواحدة .

١٠ ـ انتشار روح البلادة واللامبالاة فى المجتمعات العربية والاهتمام الشديد بالناحية الاستهلاكية والمظهر الترفي الاستهلاكي ، والتهرب من حياة العمل والجد والانتاج ، وفقدان التقدير الجماعى لمن يضحون بأرواحهم وأرزاقهم وراحتهم فى سبيل المجموع . وعدم الاهتمام بالتحرك لرد أي ظلم أو إجحاف أو عدوان ، وسيادة النزعة الفردية الأنانية المطلقة القائلة .. ومن بعدي الطوفان !



هذه النباتات الطفيلية فى اللغة والأدب والثقافة والفكر والاجتماع والحياة العامة تكون فى كل فترة انحسار وتراجع ، بمثابة (الأبناء الشرعيين) لحركة الردة فى الحياة العربية الاسلامية .. الردة عن التوحيد والكيان الجماعي الكبير ، الردة عن التمسك بالحقوق ، الردة عن التمسك بالكرامة ، الردة عن الشوق الى التقدم الحقيقى ، الردة عن الحياد والاستقلال الفعلي بين الأمم .. والردة عن فلسطين !!

وما أشبه الليلة بالبارحة

يوم نهضت مصر العربية فى عهد محمد علي الكبير ، كانت حركة الاستقلال القومى والتوحيد العربى الاسلامى والنهوض الحضارى أما حانية لبعث اللغة العربية الفصحى ، لغة القرآن الكريم والعلم والتقدم والمشاعر المشتركة والقيم الواحدة على يد رجال النهضة من الطهطاوي الى محمد عبده .. وكان بعث الأدب الرفيع .. والتراث الحضارى الاسلامى .. والانفتاح المتزن الواثق على حضارات الأمم .. والبحث عن الروابط المشتركة والاهتمام بالقضايا الحيوية الكبرى .. والشعور بالكرامة ورفض المهانة .. كلها نبتة واحدة مباركة واسعة الانتشار ، رائعة الاخضرار ، على الأرض العربية من وادى النيل الى ديار الشام الى أقاصى المشرق .. الى تونس الخضراء .. وبعكس ذلك عندما ضربت القوى المعادية لهذه الأمة ضربتها الموجعة ، وأجهضت النهضة الأولى ، واستطاعت أن تضع قلعة العروبة ـ مصر ـ فى ظل الاحتلال ، المقنع أولاً ، والمباشر بعد ذلك ، إذا بكل تلك الزهور الجميلة تتساقط من الحياة المصرية والحياة العربية ، وإذا بالنبات الشيطاني الذى أشرنا الى خواصه وأنواعه وطعومه وألوانه السوداء وأشواكه السامة ، ينمو بشراسة حول مستنقع الاحتلال البريطاني فى مصر ، والاحتلال الفرنسى للجزائر وتونس ، ثم لسوريا ولبنان .

وفى ظل الاحتلال البريطاني لمصر ارتفعت أصوات ممثلي الغزو الثقافي أنفسهم ، بأرديتهم الرسمية ، وبلا أقنعة ..

فهذا السير وليم ويلككس يقف عام ١٨٩٣ فى نادى الأزبكية ويقول : إن العامل الأكبر فى ضعف قوة الاختراع لدى المصريين استخدامهم اللغة العربية الفصحى فى القراءة والكتابة ، وانه لابد من اتخاذهم اللغة العامية أداة للتعبير الأدبي والعلمي ليصبحوا فى عداد الأمم المتقدمة ..

هذا الصوت المنكر متى ارتفع ؟

بعد ١١ عاماً من وقوع مصر تحت الاحتلال البريطاني فى عام ١٨٨٢ .. وكأن الاحتلال جاء لينمي قوة الاختراع لدى المصريين !

فهى إذن نبتة واحدة ..

الدعوة إلى العامية بمبادرة مندوب انجليزى هى الصوت الآخر لهدير البوارج الانجليزية المحتلة .. فى المياه المصرية .. ولا يمكن الفصل بين الجانبين ..

ولنتأمل فى عمق هذا الاختراق الثقافى الذى لم يقل عن الاختراق العسكرى السياسي : « وكان هذا الرجل (أي وليم ويلككس) من أشد أعداء اللغة الفصحى . وقد بذل غاية جهده لمحاربتها والقضاء عليها .. وقد ظل يكيد للعربية ، ويوحى الى أهلها بأنهم ليسوا عرباً ، وإن لا صلة لهم ولا للغتهم بالعرب .. إذ زعم أن اللهجة التى يتكلمها المصريون تمت الى اللغة الفينيقية أو البونية كما سماها ، انحدرت إليهم منذ كان الهكسوس بمصر ، وأن لا صلة لها بالعربية . وأخذ يتلمس لذلك براهين مضحكة فى كتابه (سوريا ومصر وشمال أفريقية ومالطة تتكلم البونية لا العربية) .

ومن ثم نشط ، ونشط غيره ممن يضمر نيته الى التأليف بالعامية . فترجم قطعاً من بعض روايات شكسبير الى العامية المصرية .. فجاءت ترجمة



معركة فكر وثقافة بقدر ما هي معركة أرض وكرامة

سخيفة . وفقدت هذه الآثار الأدبية قيمتها وجمالها ، لأن العامية لم تسعفه بالتعبير الصحيح ، ولم تستطع أن تنهض بتلك المواقف الخالدة العنيفة . بل جاءت عبارتها سوقية مبتذلة .. ثم ألف كتاباً علمياً باللغة العامية هو كتاب (الأكل والايمان) ليبرهن على أن اللغة العامية صالحة لأن تكون لغة العلم . فخانته العامية ، ولجأ في كثير من تعابيره الى الفصحى .. ولكن كتبه هذه لم تأته بالثمرة المرجوة ، ولم يستجب المصريون لدعوته ودعوة غيره من المستعمرين .. » ــ (راجع كتاب في « الأدب الحديث » تأليف عمر الدسوقي ، ج٢ ، ط٦ ، ص٤٢ ــ ٤٤) .

إذن الفكرة القائلة إن العربية الفصحى هي المسئولة عن حجب العبقرية المصرية وهي السبب في غياب روح الاختراع لدى المصريين .. متى ظهرت وعلى لسان من ؟

ظهرت تحديداً في ذروة السطوة البريطانية على مصر ، عندما كانت سياسة الانجليزي « دانلوب » في التربية تجتث كل جذور النهضة الحضارية والتعليمية التي بدأت في عهد محمد علي ، وتتجه لتخريج الموظفين والكتبة الصغار للدوائر والدواوين الخاضعة للادارة الاستعمارية .

وعلى لسان من ؟

على لسان مندوب انجليزي لم يخف أياً من نواياه وغاياته ، هو وليم ويلككس . لنتذكر هذا جيداً . ولنقارن بين الأشباه والنظائر ..

مع عودة الروح الى مصر والعرب في عهود النضال اختفت هذه الدعوة ، واستأنف المصريون وأشقاؤهم العرب نهضتهم وأدبهم وتعليمهم وحياتهم باللغة العربية الفصحى .. كما هي طبيعة الأشياء ومنطق التطور .

ولكن ما أن عاد عصر الردة الجديدة في هذه السنين واستعرت الخلافات بين العرب ، وتمت التراجعات عن التضامن العربي ومنطلقات الوحدة ، وضربت القوى المعادية وطليعتها اسرائيل ضربتها في عمق الوطن العربي ... كما حدث يوم وقع الوطن العربي تحت براثن الاحتلال في القرن التاسع عشر .. (وان اختلفت الأشكال والمسميات والمظاهر) .. نقول ما أن عاد عصر الانتكاسة والتراجع في هذه السنين ، حتى عادت معه وصاحبته بصورة ملحوظة تلك الدعوات المشبوهة التي تصور الكثيرون انها انتهت بانتهاء عصر الاستعمار القديم .

ففي عام ١٩٧٨ نجد أن دعوة وليم ويلككس تنبعث حية على لسان لويس عوض من جديد ، واذا به يعيد سيرة اللغة اللاتينية واللهجات العامية الأوربية التي تفرعت الى لغات مستقلة منفصلة . وهو نموذج تمويهي يقصد به : لماذا لا تتحول اللهجات العامية العربية الى لغات مستقلة منفصلة وتعلن انفصالها عن الفصحى التي يود لويس عوض أن تلقى مصيراً يشبه مصير اللاتينية . (راجع عرضاً ونقداً جذرياً لهذه الدعوة في كتاب الأستاذ رجاء النقاش . الانعزاليون في مصر ، ص ٥١ ــ ٩١) .

ولم يفت لويس عوض ، في أبحاث أخرى ، أن يكرر المعزوفة ذاتها التي وضعها وليم ويلككس وهي أن اللغة الفصحى هي المتهم الأول والأخير في قضية اغتيال العبقرية المصرية !

فاذن هذا الشبل من ذاك الأسد ..

وهذا النبات الشيطاني الذي نرى حصاده المر اليوم في الدعوة الى العامية وأخواتها من نبات عصر الردة ، هو النبات الشيطاني ذاته الذي ظهر ، مع فصيلته كلها ، في زمن الاندحار قبل مئة سنة(١) .

ونحن لو أخذنا الخصائص الأخرى من إحياء للحضارات البائدة ، أو إحياء للشعوبية ، أو إحياء للنزعات المحلية والاقليمية والطائفية الضيقة .. لوجدنا أن « الفصيلة » الشيطانية كلها قد نمت بشراسة في وقت واحد مجتمعة ، الأمر الذي يؤكد ما ذهبنا إليه من أن هذه الدعوات والاتجاهات والنزعات تمثل قانوناً ثابتاً متكرراً ، وخصائص مميزة لكل فترة من فترات الردة والانحطاط والتراجع في تاريخ العرب ، وأنها ، أي هذه الدعوات والنزعات ، هي التعبير الفكري والثقافي عن الهزيمة العربية في المعترك السياسي والحربي .

لذلك لم نستغرب عندما سمعنا من أديب عربي نثق به ، أن رئيساً عربياً سابقاً قد فكر ، ضمن خطه السياسي الذي سار عليه ، أن يستبدل الحرف العربي بالحرف اللاتيني ، زيادة في التقرب من الغرب ، واحياء لاتجاه كمال أتاتورك الذي كان ذلك الرئيس شديد الاعجاب بما فعله في تركيا من فصل تام بينها وبين عالمها الاسلامي وجيرانها العرب تمهيداً لالحاقها بالغرب .

فليكن لدينا واضحاً وضوح الشمس ، أنه عندما نسمع صوتاً يدعونا للعامية أو للحرف اللاتيني ، أو للحضارات البائدة المفرقة لوحدة عروبتنا واسلامنا . فان هذا الصوت ــ أياً كان وبأي زي تلبس ــ ما هو إلا مجرد صدى ثقافي لصوت مجنزرة اسرائيلية في أرضنا العربية بالجنوب اللبناني ، أو الضفة الفلسطينية أو الجولان السورية أو طابا المصرية ... تماماً مثلما كانت الدعوة للفرنسة في الجزائر الصدى الثقافي لصوت الآلة العسكرية الفرنسية المحتلة على التراب الجزائري ، ومثلما كانت الدعوة للعامية على لسان وليم ويلككس وأذنابه الصدى الثقافي للاحتلال العسكري البريطاني في مصر .

إن هذه الدعوات والنزعات هي الاختراق الأعمق والأخطر في دخائل النفس العربية ومخزوناتها ، بعد الاختراق السياسي العسكري . والمعركة النهائية ستتقرر هنا . هل سنقبل التجزئة والتمزيق والاندحار من الداخل ، بنبذ الفصحى ، والتخلي عن وحدة التراث العربي الاسلامي وقيمه ، والانخداع بدعوات الفرعونية والفينيقية والقرطاجية ، وأشباهها ؟

واذا كان الانسان العربي يشعر بعودة الروح اليوم عندما يرى أبطالاً من أمته يستشهدون في الجنوب اللبناني ويحررون الأرض والكرامة والارادة باصرارهم على الموت المشرف ، فإن الانسان العربي ، في أي مكان كان ، وبامكاناته المتاحة يستطيع أن يكون بطلا أيضاً في موقعه ، لأن المعركة أصبحت معركة وجود على امتداد الأرض العربية كلها ، وأصبحت معركة تراث ولغة وفكر بقدر ما هي معركة أرض وكرامة .

وفي معركة التراث واللغة والثقافة والفكر لا يكفي أن يتقدم فدائيون قلائل ويبقى المجموع العربي في حالة تفرج ولا مبالاة ، أو حالة تألم بلا عمل .

هنا يستطيع كل انسان عربي أن يقوم بدوره وواجبه ، وأن يكون بطلاً أيضاً في هذه المعركة المعنوية الهائلة المتعلقة باللغة والثقافة والقيم .

فالانسان العربي عندما ينتصر للغته العربية الفصحى ضد دعوات العامية المشبوهة ، في كتابته وقراءته ومخاطباته ومواقفه ، فإنه يقوم بعمل من أعمال الصمود ، لأن المعركة اليوم هي معركة القضاء على اللغة العربية الواحدة الموحدة ..

والانسان العربي عندما يبقى متمسكاً بانتمائه العربي الاسلامي الواحد ، رافضاً النزعات الاقليمية التافهة ، رافضاً الشعوبية ، رافضاً التجزئة الجديدة والطائفية ، فإنه يمارس عملاً من أعمال البطولة ..

والانسان العربي عندما يرفض اللامبالاة السائدة ، والبلادة المنتشرة ، والنزعة الاستهلاكية المهلكة ، ويلتزم بالعمل المنتج المنظم النظيف ، ويعمق وعيه ليكون في مستوى المواجهة لأبعاد هذا التراجع الشامل كله .. فإنه في واقع الأمر يخطو الخطوة الأولى في طريق الرد على الهجمة الشرسة التي وصلت الى الأعماق .. الرد الذي ليس منه بد .

فيا أخي العربي .. اذا أردت أن تقول لا للهجمة الشرسة ضد وجودك .. فقل : لا للعامية ، لا للحرف اللاتيني ، لا للفرعونية والفينيقية ، لا للطائفية .

فمن هنا يبدأ الرد .

محمد جابر الأنصارى

هامش

(١) قارن مثلا بين شيوع الحديث عن الفرعونية والفينيقية في العهد الاستعماري وعودته في الحقبة الاسرائيلية .

العالم الثالث بين الحقائق والأوهام

بقلم: فؤاد كامل

«العالم الثالث» مصطلح شاع في الستينات ليصف مجموعة البلدان المتخلفة من العالم. ولاشك أن للعالم الأول الذي يضم الدول الأوروبية الغربية والولايات المتحدة الأمريكية دخلاً كبيراً في إطلاق تلك التسمية، إذ يأتي بعدها في ترتيب بناء القوة العالمي دول الكتلة الشرقية. والسمة المشتركة بين دول العالم الأول والعالم الثاني أنها دول متقدمة صناعياً وتكنولوجياً، على حين أن السمة المشتركة بين دول العالم الثالث هي أنها فقيرة ومتخلفة تكنولوجيا، وإن كانت تمتلك – في مجموعها – موارد ضخمة من المعادن والطاقة والثروة البشرية والحيوانية، ولكنها تفتقر إلى التجانس الذي يميز كلا من العالمين: الأول والثاني.

بيد أننا نستطيع أن نصف «العالم الثالث» بأنه «العالم الأكبر» من حيث المساحة، ومن حيث عدد السكان، إذ يحتل من العالم ٦٠٪ من مساحته، ويربو عدد سكانه على ٧٠٪ من سكان الكرة الأرضية! فهو أكبر من العالمين الأول والثاني مجتمعين!

وهذه النسب المئوية الهائلة التي يتمتع بها العالم الثالث يقابلها اختلاف مريع في توزيع الثروة بين هذا العالم والعالمين الآخرين. والفرق شاسع بين شمال الكرة الأرضية الذي تحتله دول العالم المتقدمة وبين جنوبها الذي تشغله دول العالم المتخلفة من حيث الدخل الفردي. ومن المعروف أن الجوع والحرمان والأمية والتبعية آفات تستشرى في جسد العالم الثالث الذي أنهكه الاستعمار ردحاً طويلا من الزمان. وإلى هذا الاستعمار يرجع الشطر الأكبر من المشكلات التي يعانيها ذلك العالم. كما ترجع إليه السياسة التي وضعها لاستمرار تلك المشكلات وبقائها لتنخر في ذلك الجسد الذي تركه عليلا مستنزف الموارد، ومنهك القوى. وحقيقة الأمر أن تخلف دول العالم الثالث لا ينفصل عن تقدم دول الأول الرأسمالية، وبينهما علاقة تضايف، كما يقول المناطقة.

ولا يغرنك ما تقدمه تلك الدول وغيرها من الدول الشرقية من مساعدات للعالم الثالث، فهي مرتبطة أولا وأخيراً بمصالح تلك الدول المانحة، سياسياً وتجارياً واقتصادياً، وهي تهدف في نهاية المطاف إلى المحافظة على ذلك البون الشاسع القائم بينها وبين الدول الفقيرة. وهذا تقرير أصدره البنك الدولي في عام ١٩٧٢ يؤكد فيه «أن عبء الفقر في العالم في تزايد مستمر وليس في تناقص».

فإذا دخلنا إلى العالم الثالث نفسه، بعد كل هذه المقارنات التي عقدناها بينه وبين العالمين الآخرين – وجدنا تفاوتا هائلا بين بلدان العالم الثالث بعضها والبعض الآخر. فثمة بلدان وطبقات اجتماعية تعيش في تلك البلدان أبعد من أن توصف بالفقر، بل إنها تتمتع في حقيقة الأمر بثراء فاحش قد يفوق ثراء بعض الدول المتقدمة، ومع هذا كله فإن هذه الدول التي تتمتع بالثراء الفاحش تحسب في عداد دول العالم الثالث. وهنا تكمن المفارقة. أعني في تعريف الفقر الذي توصف به بعض دول العالم الثالث، وإن تكن غنية من حيث دخل الفرد، ومن حيث الدخل العام.

والفقر بعامة معناه غياب شيء ما.. الرجل الأصلع مثلا يفتقر رأسه إلى الشعر، والأرض البور إلى الخصوبة.. وهلم جرا. والفقر بهذا المعنى يحدث تلقائياً في الطبيعة. أما الثراء –بالمعنى الدولي– فلا يحدث تلقائياً في الطبيعة، وإنما يحتاج إلى تفسير، وبخاصة أن معظم الأمم الغنية في الوقت الحاضر، كانت أمما فقيرة في الماضي القريب. فالسؤال الذي ينبغي أن يطرح هو: ما هي الظروف والملابسات التي توافرت لتحدث تلك الأحوال السعيدة، وذلك المستوى من الرفاهية والوفرة الذي يتمتع به شطر ضئيل من البشر في الوقت الحاضر؟ وإلى أي مدى يمكن أن نقوم بتحليل هذه التوليفة العجيبة من الظروف التاريخية والطبيعية. أو إعادة تركيبها في مجتمعات أخرى، أو تطعيم تلك المجتمعات بشيء من هذه الظروف لكي تنهض من عثرتها، وتتحرر من تبعيتها؟

المشجب العتيق

ثمة مشجب شائع تعلق عليه بلدان العالم الثالث معظم مشاكلها، ألا وهو زيادة عدد السكان. وكان «مالتوس» المفكر الانجليزي هو أول من استخدم نظرية إرجاع فقر الأمم إلى زيادة السكان التي تتم على أساس متتالية هندسية، على حين تتم زيادة المواد الغذائية على أساس متتالية حسابية (والفرق في الزيادة بين المتتاليتين شديد الضخامة)، ومن ثم، فقد تنبأ بحدوث مجاعة هائلة في المستقبل، تجتاح العالم إذا لم يضع حداً لهذا النمو السكاني المخيف من جهة، ولم يعمل على تنمية موارده الغذائية من جهة أخرى.

ولكي تكون لدى القارئ فكرة مجسدة عن

العالم الثالث بين الحقائق والأوهام

مدى ازدحام السكان على الأرض في واقع الأمر ، فليتصور أن أهل الأرض جميعاً أسكنوا في ولاية واحدة من الولايات المتحدة الأمريكية ، ولتكن ولاية تكساس مثلا ، وتبلغ مساحتها ٦٧٨,٦٢٣ كيلومتراً مربعاً ، على حين أن تعداد السكان في العالم هو ٤٤١٤ مليون نسمة . في هذه الحالة سوف يكون نصيب الفرد الواحد من الأرض حوالى ١٥٧ متراً مربعاً تقريباً ، ونصيب الأسرة المؤلفة من أربعة أفراد ٦٢٨ متراً مربعاً . وهذا معناه أن كل فرد في العالم سيتمكن من السكن مع عائلته في منزل رحب تحيط به حديقة واسعة ، في ولاية تكساس وحدها ! !

الشعور بالازدحام يأتي إذن من تكدس الناس في المدن حيثما كانت ، على حين أن معظم بلدان العالم — وبخاصة بلدان العالم الثالث — تضم مساحات واسعة من الأراضي تكاد تكون خالية من السكان . فالمشكلة ليست في جوهرها مشكلة ازدياد عدد السكان في البلدان الفقيرة ، بقدر ما هي مشكلة سوء توزيع هؤلاء السكان على الأراضي المتاحة . ولا علاقة حتمية في واقع الأمر بين الفقر وبين الكثافة السكانية . فثمة بلدان « مرتفعة » الدخل ، و « متوسطة » الدخل ، و « منخفضة » الدخل ، تدخل في عداد البلدان ذات الكثافة السكانية المرتفعة . الحبشة — مثلا — ذات كثافة سكانية تعادل كثافة الولايات المتحدة الأمريكية ، بيد أن متوسط دخل الفرد السنوي فيها لا يكاد يزيد عن مائة دولار . وسنغافورة تعاني من كثافة سكانية هائلة (٣٩٠٠ نسمة للكيلو متر المربع) ، غير أن دخل الفرد فيها يزيد ثلاثين ضعفاً عن دخل الفرد في اثيوبيا . ويتمتع الفرد في اليابان بدخل يزيد على دخل الفرد في كثير من البلدان الأوروبية ، وإن تكن الكثافة السكانية في اليابان أعلى منها في الهند .

الصحاري المخصبة

وهنا يمكن أن تساق الحجة القائلة بأن المعول على الأراضي الصالحة للزراعة ، وأن الصحاري والجبال والأراضي البور لا يمكن أن تدخل في الحسبان . وهذه الحجة وإن بدت مقنعة لأول وهلة ، إلا أنها تتعرض للشك عندما نتذكر أن صحاري الكويت والمملكة العربية السعودية — على سبيل المثال — تضم آبار النفط التي جعلتهما من أغنى دول العالم . وحتى إذا استخدم المرء الأراضي الصالحة للزراعة معياراً للحكم ، فلن يغير ذلك من النتيجة شيئاً ، إذ تملك الهند من تلك الأراضي أكثر مما تمتلكه اليابان من الأراضي بوجه عام ، وبالمثل تمتلك إثيوبيا منها أضعاف ما تمتلكه بريطانيا .. ولا سبيل إلى المقارنة من حيث مستوى المعيشة بين الهند وإثيوبيا من جهة ، وبين اليابان وبريطانيا من جهة أخرى .

ولا يحفظ لنا التاريخ أمثلة على ارتفاع معدل النمو السكاني الذي أدى إلى نتائج اقتصادية خطيرة ، على خلاف ما تذهب إليه الآراء النظرية . ولعل أبرز مثال على ذلك ما حدث في العالم الغربي . فمنذ منتصف القرن الثامن عشر حتى الآن ، تضاعف عدد السكان إلى أربعة أضعاف ، على حين أن الدخل الحقيقي للفرد ازداد إلى خمسة أضعافه ، وقد حدث هذا الارتفاع في مستوى المعيشة في وقت كان عدد السكان ينمو في العالم الغربي بمعدل يفوق في سرعته المعدل الذي ينمو به سكان العالم الثالث في الوقت الحاضر .

وتشكل الموارد الطبيعية ذريعة أخرى تلجأ إليها معظم حكومات العالم الثالث لتبرير تخلف شعوبها . والواقع أن هذا التبرير قد يكون مضللا وخادعاً في كثير من الأحيان . وذلك أن التعريف الحقيقي للمورد الطبيعي هو أنه شيء موجود في الطبيعة « نعرف كيف نستخدمه » لتحقيق أغراضنا . في هذا التعريف لا تنفصل « المعرفة » عن مفهوم المورد الطبيعي ، بحيث تؤلف مع الشيء الطبيعي نفسه كلا متكاملا . وحصر الموارد الطبيعية منذ قرنين لم يكن يتضمن اليورانيوم أو توليد الطاقة الكهربائية من مساقط المياه ، لأنهما لم يكونا معروفين أو صالحين للاستخدام في ذلك الزمان . فإذا وقر في أذهاننا هذا المفهوم للموارد الطبيعية ، لم نستطع أن نقول إن هذه الموارد تنضب أو تتناقص بمرور الأعوام ، إذ تتجدد المعرفة دائماً ، وبتجددها يتحقق لنا الكشف عن موارد جديدة ، أو يتهيأ لنا أن نحسن استخدام الموارد الموجودة فعلا ، وقد يحدث أحياناً أن تصبح بعض الموارد « عتيقة » ، حتى قبل أن تستنفد تماماً ، أو قبل أن ينضب معينها ، وذلك نتيجة للكشف عن بدائل أفضل .

فالتفاوت في الثروة بين الأمم لا يمت كثيراً بصلة إلى اختلاف في الموارد الطبيعية . اليابان — مثلا — لا تملك شيئاً من النفط ، كما أنها تستورد معظم الموارد الطبيعية من الخارج لانتاج صناعاتها الضخمة ، ومع ذلك فإن دخل الفرد فيها يفوق دخل الفرد في المكسيك التي تملك معادن وفيرة ، وتربة خصيبة ، ومقادير غزيرة من البترول ، وأنهاراً كافية لتوليد طاقة كهربية هائلة . فالتفاوت في الثروة بين الأمم يرجع في معظمه إلى حسن أو سوء « استغلال » الموارد الطبيعية لا إلى وجود هذه الموارد نفسها . وقد كانت الأرجنتين — التي تعد من أكبر الدول المصدرة للقمح في العالم — دولة مستوردة للقمح طيلة أجيال متعاقبة ، حتى هاجر إليها أناس من نوعية مختلفة ، ومن ثقافات مختلفة ، وذوي قيم ومهارات مختلفة ، فاستحالت إلى دولة من أكبر الدول المصدرة للقمح في العالم بأسره .

تصنيع الجوع

« وأنت تقرأ هذه الكلمات ، يموت ثلاثة أطفال جوعاً ، ويولد أربعة وعشرون طفلا آخرون » .. هذه العبارة نشرت على غلاف كتاب ذاع صيته تحت عنوان : « القنبلة السكانية » . فهل هناك علاقة حقيقية بين هلاك الأطفال جوعاً ، وبين ولادتهم بهذه الكثرة ؟ الواقع أن المجاعات تحدث في العالم ، على الرغم ، من وجود فائض غذائي فيه ، بل قد تحدث المجاعة في بلد يكون فيه هذا الفائض . وحقيقة الأمر أيضاً — كما تثبت ذلك الاحصاءات المتاحة — أن المواد الغذائية تزداد في العالم بأسرع مما يزداد عدد السكان . ومقدار الطعام الذي يخص الفرد الواحد ارتفع اليوم بعامة ، عما كان عليه منذ قرن مضي . وما تعانيه بعض مناطق العالم من مجاعات يأتي في معظمه من النظم السياسية أكثر مما يأتي من حجم السكان . وكثير من دول العالم الثالث تمنع استخدام المحاريث والأجهزة الآلية الزراعية (الميكنة) بحجة أنها تقلل من فرص العمل .

وجرياً على سياسة النعام في دفن الرءوس في الرمال ، يلقي كثير من مفكري العالم الثالث مسئولية التخلف على كاهل الاستعمار الجديد ، بعد أن تخلصت معظم دول هذا العالم من الاستعمار القديم . ويتناسى هؤلاء المفكرون الظروف التي تحياها هذه الدول ، والتي هيأت للاستعمار الجديد أن يوطد أركانه فيها ، وأن يفرض سيطرته عليها . فمن ضعفها يستمد قوته ، ومن هوانها يكتسب عزته . صحيح أن الدول الكبرى تسعى إلى الابقاء على حالة التخلف والتبعية التي كانت عليها دول العالم الثالث ما وجدت في ذلك مصلحة لها ، ولكن من الصحيح أيضاً أن هذه الدول كانت متأخرة داخلياً ، ومتخلفة بعوامل باطنية ، قبل أن يفكر الاستعمار الجديد ، والامبريالية الحديثة في الابقاء على هذا التأخر والتخلف . وليس معنى هذا أن دول العالم الثالث قد كتب عليها أن تعاني الفقر والتبعية إلى الأبد ، وأنها كلما نفضت عن كاهلها نير استعمار قديم ، رسفت في أغلال استعمار جديد ، وهكذا دواليك .. كلا ، إن هذه الدول تستطيع أن تخرج من هذه الحلقة المفرغة ، وأن تحطم ما يفرض عليها من ضعف وتخلف ، بأن تنظر إلى الأمور نظرة واقعية ، وبأن تضع لمشكلاتها حلولا مبتكرة تتناسب مع ظروفها وبيئتها . فقد نجد في كثير من الأحيان أن بعض دول العالم الثالث تعاني من أبنائها أنفسهم مالا تعانيه من الغرباء الأجانب . وكثير من دول العالم الثالث التي نالت استقلالها بشق الأنفس ، والتي انتزعت حريتها بعد عناء شديد من براثن الاستعمار ، عادت

فبددت هذا الاستقلال ، وأضاعت تلك الحرية ، لا لشيء إلا لأنها لم تحسن استغلال مواردها ، ولم تحقق كل إمكاناتها ، وضل سعيها وهى تحسب أنها تحسن صنعاً . وكانت النتيجة أنها انتكست على أيدى حكامها المتطلعين إلى تحقيق الأمجاد الشخصية انتكاسات يصعب الخروج منها ، والتقدم بعدها .

حماقات اقتصادية

ويقودنا هذا الخاطر إلى الحديث عن آفة مشتركة تعانى منها معظم بلدان العالم الثالث ، ألا وهى إنشاء المشاريع الضخمة التى تبهر السمع والبصر : ولكنها لا تتمخض فى واقع الأمر عن نتائج اقتصادية مفيدة تعادل ما أنفق فيها من أموال ، وما بذل فيها من جهد . وقد تبدو هذه المشروعات فى بداية الأمر على أنها ضرورة قومية تحتمها أوضاع التحرر والاستقلال الجديدة ، وأنها وسيلة لتأسيس حياة صناعية حديثة ومتقدمة لا غنى عنها ، ولكنها تؤدى فى نهاية الأمر إلى خسائر مادية فادحة . هذا فضلا عن مظاهر الاسراف والترف التى تكبد ميزانيات تلك الدول نفقات باهظة هى فى أمس الحاجة إليها لتحسين مرافقها وإصلاح بنيتها الأساسية . ولا نشير إلى المغامرات العسكرية التى تتورط فيها تلك الدول ، فهى ليست فى حاجة إلى فضل بيان .

* * *

ومن آفات العالم الثالث أن كثيراً من حكامه وحكوماته يدفعون أبناء الشعوب التى يحكمونها ، وبالذات أولئك الذين يرجى منهم إصلاح الأوضاع فى الداخل ، أو ما يطلق عليه اسم « رأس المال البشرى » ــ يدفعون أولئك الأشخاص الذين يملكون تلك القدرة ــ على الهجرة ، وبذلك يهدرون مورداً هاماً من موارد بلادهم ، كان يمكن أن يساعد فى تنمية تلك البلاد ، وفى تحسين أحوالها . ولا يعد هذا عملا لا أخلاقياً ولا إنسانياً فحسب ، وإنما هو حماقة اقتصادية فى المقام الأول : حماقة لا سبيل إلى تبريرها إلا من وجهة النظر السياسية لهؤلاء الحكام الذين يبغون التربع على دست الحكم أطول مدة ممكنة .

* * *

وتتفرع عن هذه الآفة آفة أخرى لا تقل خطراً ، ألا وهى تفشى البيروقراطية فى بلدان العالم الثالث . وترجع هذه الآفة إلى نظامين : نظام الحكم ونظام التعليم ، إذ يسعى الحكام إلى توطيد مراكزهم وتشديد قبضتهم على الشعوب المحكومة بفرض نظم إدارية تكفل لهم التغلغل والتوصل والسيطرة على مقدرات الحياة الفردية ، وتشكيل المواطنين وفقاً لقوالب وأنماط سهلة التوجيه ، قابلة للخضوع والإذعان . وتتوسل نظم الحكم للوصول إلى هذه الغايات بما تضعه من نظم تعليمية وتربوية .

وتكون النتيجة الحتمية لهذا كله أن تصبح هذه « البيروقراطيات » نفسها عوائق كئودا فى سبيل التنمية بما تفرضه من قيود ، وتتخذه من إجراءات . وبدلا من أن تسهم فى التقدم الاقتصادى والثقافى لتلك البلدان ، تؤدى إلى تخلفها عن الركب الحضارى ، وتمنعها عن المشاركة فى حركة التقدم العالمى .

وعندما لا تستطيع « البيروقراطية » استيعاب الأعداد الضخمة من الشبان الذين تفرزهم الجامعات والمعاهد عاماً بعد عام ، والتوسع فى بسط نفوذها على كافة مناحي الحياة ، فإنها لا تجد أمامها بديلا عن هذا إلا بأن تجعل فئة كبيرة من هؤلاء الخريجين الذين يفتقرون إلى كل مهارة اقتصادية ذات معنى ــ فئة عاطلة ، ساخطة ، خطرة مدمرة من الناحية السياسية .

معونات لغير أغراضها

وتتمثل تبعية العالم الثالث فى « المعونة الخارجية » التى تتلقاها من الدول الكبرى . وهى معونة تلجأ إليها حكومات العالم الثالث بحجة مساعدتها على تنفيذ خطط التنمية . أما إن كانت هذه « المعونة » تساعد حقا فى التنمية أو تعوقها ، فأمر متروك للاستقراء فى كل حالة على حدة . ذلك أن هذه المعونة كثيراً ما تستخدم فى غير الأغراض التى طلبت من أجلها . ومن هنا يمكن أن تكون عاملا معوقاً للتنمية لا مساعداً لها . وإليك بعض الأغراض التى تستخدم فيها هذه المعونة : (١) الحصول على الأسلحة التى تلجأ إليها حكومات العالم الثالث لقمع أعدائها ونقادها السياسيين ، وضرب الحركات المناهضة لها فى الداخل ، (٢) اضطهاد الأقليات العنصرية والعرقية ، وبخاصة الأقليات التى تعد أكثر إنتاجاً ونشاطا من الناحية الاقتصادية ، (٣) تغطية العجز فى الميزانية ، ذلك العجز الناجم عن القصور وعدم الكفاءة واللامسئولية التى تعانيها البلدان المتلقية للمعونة ، وبذلك تتيح لحكومات تلك الدول البقاء أطول مدة ممكنة فى السلطة بحمايتها من عواقب أفعالها المرتجلة غير المدروسة . وأياً كانت صنوف الفشل التى تصيب الدول الممنوحة فى تنفيذ أغراضها ، فإن الدول المانحة تظل غير مسئولة عن النتائج ، وتظل بمنأى عن كل ضرر . ولا يصيب الضرر والشر إلا شعوب العالم الثالث التى تعانى من الكوارث والمصائب .

● العالم الثالث يمثل ٦٠٪ من مساحة الأرض و٧٠٪ من سكان العالم

● ولاية تكساس وحدها يمكن أن تتسع لكل سكان المعمورة .. فلماذا يُقال إن الأرض قد ضاقت بمن فيها؟

المخرج الصعب

والاختيار الذى تواجهه شعوب العالم الثالث اختيار صعب بحق .. فهى إما أن ترضى بالتبعية والانسياق وراء نموذج من النماذج التى تفرضها الدول العظمى ، وفى هذا فقدان لشخصيتها ، وانطماس لهويتها ، وسقوط فى هاوية لا منجاة منها ، أو أن تبحث فى صدق عن هويتها ، وتلتمس طريقها الخاص ، وتهتدى إلى الحلول الخلاقة التى تمكنها من الخروج من أزمتها الحالية .. فإن لم تستطع ، فيكفيها فخراً أنها حاولت وأقدمت وسعت ما وسعتها القدرة ، وأسعفتها الموارد والإمكانات ، وسط نظام عالمى شديد التعقيد ، مسرف فى الأنانية ، مغرض فى نواياه ، حريص كل الحرص على أن يزداد العالم الثالث تخلفاً وانحلالا ، وأن تشتد تبعيته وعبوديته والأغلال الملتفة حول عنقه ، بعد تجريده من كل أسلحته ، وإجهاض كل قواه ، وإهدار طاقاته جميعاً .

والاختيار الأخير يتطلب عدة تحديدات :

١ ــ تحديد الهوية القومية ، وهذا يستلزم تحديد موقف كل بلد من بلدان العالم الثالث من تراثه ، ومن الفكر العالمى المتقدم ، ومن احتياجات الأغلبية فيه .

٢ ــ تحديد القوى الحقيقية التى ينبغى أن تتحمل عبء التنمية ، والتى ينبغى أن تشارك دون استثناء فى صنع المستقبل . وتحديد أغراض التنمية ذاتها وطبيعتها .

٣ ــ تحديد طبيعة العلاقة بالنظام العالمى ، ومحاولة خلق توازن فى هذه العلاقة فلا جنوح إلى الانغلاق المفرط أو الانفتاح العشوائى ، والأمثلة على مثل هذا التوازن واضحة فى موقف اليابان الناجح ، وكذلك فى علاقة الصين بذلك النظام .

٤ ــ تحديد دور الفرد العادى فى الدولة ، والاهتمام ببناء الانسان بناء قويماً سوياً ، بحيث لا يشعر بالقهر والغربة ، وإنما يشارك بحرية فى تنمية ذاته ووطنه على السواء .

٥ ــ تحديد دور الصفوة فى تشييد المجتمعات الجديدة . فعلى كاهل الصفوة يقع عبء القيادة والقدوة ، وهو عبء ليس هيناً أو يسيراً .

فؤاد كامل

لماذا خَفَت صوت الإيمان في هذا العصر؟



بقلم: الدكتور يوسف القرضاوي

يعتقد كثير من الغيورين من أهل العلم والفكر، ان الذى ينقصنا لكى نسعد ونرقى أفراداً وجماعات. انما هو التقدم العلمى والتكنولوجى. الذى يساعد مجتمعاتنا على أن تنمو وتتطور، وتلحق بركب العالم المتحضر، الذى حطم الذرة. وغزا الفضاء. وصنع (الكومبيوتر) وأصبح على أبواب ثورة بيولوجية لا ندرى ماذا تصنع بالانسان.

ومن حسن حظنا نحن المسلمين أن ديننا لا يضيق بالدعوة إلى العلم والتقدم. كما قد يتوهم الذين لا يعرفون الاسلام. ويريدون أن يجروا عليه ما جرى على الأديان الأخرى.

ونحن نعتبر التقدم العلمي وما يثمره في الحياة من استخدامات تكنولوجية نافعة ـ تيسر على الانسان حياته ، وتوفر عليه جهده البدني والعقلي ـ عبادة بالنسبة للفرد المسلم ، يتقرب بمعرفتها واتقانها الى ربه ، كما يتقرب بالصلاة والصيام ، وهي ـ بالنسبة للمجتمع ـ فريضة كفائية ـ يأثم المجتمع كله إذا لم يقم من أبنائه عدد كاف يسد كل الثغرات ، ويلبي كل الحاجات ، التي يتطلبها المجتمع في كل مجالاته المدنية والعسكرية .

ولكن الذي نؤكده هنا هو حاجة مجتمعاتنا ـ وكل المجتمعات البشرية ـ الى العلم والايمان جميعاً . فالانسان جسم وروح ، وعقل وقلب ، ولابد من رعايته كله ، وامداده بما يغذي كل جوانبه وطاقاته ، مما ينبت من الأرض ، ومما يتزل من السماء .

وهذا هو التوازن أو التكامل الذي تميز به الاسلام .

فمن مظاهر التكامل في نظام الاسلام أن التقى به العلم والايمان جنباً الى جنب ولم يقم في مجتمعه ما قام في المجتمعات الأخرى من نزاع بين العلم والدين ، راح ضحيته الألوف من أهل العلم والفكر ، ومن رأى رأيهم أو سار على دربهم . وتاريخ أوربا في العصور الوسطى حافل بالمجازر البشرية الرهيبة التي سيق إليها العلماء والدارسون في ظل محاكم التفتيش وغيرها .

وقد حكى الشيخ محمد عبده في كتابه « الاسلام والنصرانية ، مع العلم والمدنية » جملا من هذه الوقائع تقشعر لمجرد ذكرها الجلود ، وتستنكرها في عصرنا أدنى العقول .

إن الشيء الذي تميز به الاسلام عن غيره هو احترامه للعقل ، ودعوته إلى النظر والتفكير ، وحثه على العلم والتعلم واشادته بالعلماء وأصحاب العقول ، وحملته على الجمود والجهل ، وتمجيده للقراءة والكتابة والقلم ، منذ أول آيات أنزلت من القرآن .

لم يقل في الاسلام ما قيل في أديان سابقة من مثل : « اعتقد وأنت أعمى » أو « اغمض عينيك ثم اتبعني » أو « الجهالة أم التقوى » ! ! بل قرر من يعتد بهم من علماء المسلمين : « ان ايمان المقلد لا يقبل » . ولا عجب ان طالب القرآن المشركين وأمثالهم من أصحاب العقائد الباطلة بقوله : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (سورة البقرة : ١١١) .

وقال في شأنهم : « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ان الظن لا يغني من الحق شيئاً » (سورة يونس : ٣٦) .

لقد شاع في تاريخ الكنيسة الغربية طوال العصور الوسطى عندهم : أن العقل ضد الوحي ، وأن العلم عدو الدين ، وأن الفكر خصم الايمان ، وأن الشريعة نقيض الحكمة . اما الاسلام فلم يعرف هذه المشكلة ، فالعقل والوحي عنده أثران من آثار الألوهية ، لا يتعارضان ولا يتناقضان . ولهذا نرى الوحي يمجد العقل ، ويحث على الانتفاع به . ونرى العقل هو الدليل على صدق الوحي ، وهو الأداة لفهمه وشرحه .

ومن هنا قرر المحققون من أئمة الاسلام : أنه لا تعارض أبداً بين صحيح المنقول وصريح المعقول . وما ظنه بعض الناس من تعارض ، فلابد أنه نتيجة خطأ في فهم ما هو من العقل أو ما هو من الدين .

ولقد مضت أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم ، نشأ فيها كثير من المعارف والأفكار ، ورغم هذا لم تخالف آية من آياته حقيقة ثابتة ، وهذا من دلائل الاعجاز في هذا الكتاب العظيم .

ومع أن القرآن ليس كتاب « علم » بالمعنى الاصطلاحي للعلم الآن ، فقد تضمن اشارات كثيرة الى حقائق علمية ، لم تكن تخطر على بال أحد في عصر نزوله ولا بعد عصره بقرون . وألفت في ذلك كتب كثيرة كشفت عن لون جديد من اعجاز القرآن ، يمكن تسميته « الاعجاز العلمي » .

وأكثر من ذلك ان القرآن ينشيء بتعاليمه « العقلية العلمية » التي تنكر الخرافة ، وترفض اتباع الظنون والأهواء ، وتستعصى على التبعية والتقليد ، وتؤمن بالبرهان في العقليات . وتعتمد على الملاحظة والتجربة في الماديات ، وتعتقد أن العقل نعمة منحها الانسان ، لينظر بها . ويفكر في الانتفاع بالكون وما فيه والاستفادة من سير التاريخ ، وما يجرى فيه من سنن الله لا تتبدل . ففيه آيات (لقوم يعقلون) و (لقوم يتفكرون) و (لقوم يعلمون) و (لأولى الألباب) و (أولى النهى) .

ويشيد القرآن بالعلماء في آيات كثيرة من سوره : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . ويجعلهم وحدهم أهلا لخشية الله تعالى ومخافته : « انما يخشى الله من عباده العلماء » . وقد ذكر القرآن العلماء هنا بعد ذكر السماء والماء والنبات والجبال والحيوان والانسان ، مما يشير الى ان العلماء هنا هم الراسخون في العلوم الكونية والحيوية وما يتعلق بها . فان علمهم هذا يعرفهم بقدر الله عز وجل ، وعظيم نعمته ، وواسع رحمته .

وذكر القرآن من قصص النبيين والصالحين ما يلفت الأنظار ـ بقوة ـ الى قيمة العلم ومنزلته ، في اعانة الانسان على وظيفته في خلافة الله في الأرض واستخدامه في كثير من الأمور النافعة . كما في قصة آدم وتفوقه على الملائكة بالعلم ، وقصة يوسف ، وتدبيره أمر مصر في المجاعة بالعلم ، وقصة سليمان واحضاره عرش بلقيس بالعلم ، وغيرها من قصص النبيين والمؤمنين .

العلم لا يغني بغير الايمان

ومع هذا فليس العقل كل شيء في الانسان ، ولا العلم كل شيء في الحياة .

إن العقل له ميدانه الذى لا يتجاوزه ، والعلم له مجاله الذى لا يتعداه ، وبعد ذلك يقف العقل والعلم حائرين . فسر الوجود ، وغاية الحياة ، ومبدأ الكون ومصيره ، وقضية الموت والحياة ، وما يتصل بذلك من قضايا الوجود الكبرى ، لا يستطيع العقل أن يدركها وحده ، ولا يستطيع العلم أن يمد إليها سلطانه ، لأن سلطانه فيما يخضع للملاحظة والتجربة ، أى في الماديات والمحسوسات .

فكان لابد من معرفة أخرى تنبع من مصدر آخر ، لتحديد مركز الانسان وغايته ، ومهمته في هذه الأرض ، وعلاقته بالكون والحياة ، وخالق الكون والحياة ، وليس هذا المصدر إلا الوحي الالهي . ولا سبيل الى التلقى عنه إلا بالايمان . وقد حاول بعض مفكرى البشر في مختلف العصور أن يصلوا الى الحقائق الكبرى بعقولهم ، وأن يحلوا مشكلات الوجود بأفكارهم فلم يستطيعوا ، وخرجوا بنتائج متناقضة ، لا يطمئن بها قلب ، ولا تستقيم بها حياة . ان الايمان وحده هو الطريق المأمون .

إن الايمان هو الذى يفسر قضايا الوجود الكبرى ، ويصل الانسان بالوجود الكبير وبالأزل والأبد ، ويجعل لحياته طعماً وهدفاً ورسالة .

وهو ـ مع ذلك ـ الذى يعصم العلم من الانحراف ، ويحول دون استخدامه في الشر والعدوان ـ ولهذا رأينا سليمان حين احضر إليه عرش بلقيس بواسطة (الذى عنده علم في الكتاب) يرجع الفضل الى الله ولا يطغى أو يغتر . بل قال ما قصه القرآن :

« فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم » .

وفي قصة ذى القرنين بعد أن أتم بناء السد ،

يقول فى تواضع المؤمنين : « هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكا ، وكان وعد ربى حقاً » .

ورأينا العلم الذى قام بتوجيه الايمان فى ظل الحضارة الإسلامية يبنى ويعمر ، ويعمل لخدمة الانسان ، وتزكية الانسان ، واسعاد الانسان .

ورأينا حين قام العلم فى الغرب ــ لظروفه التاريخية مع الكنيسة ــ بعيداً عن هدى الله ، مقطوعاً عن الايمان بالله ، كانت نتيجته الأسلحة الكيماوية والجرثومية وآلات الفتك والدمار ، التى جعلت البشرية تبيت على أحلام مزعجة ، وتصحو على مخاوف مفزعة ، لقد أعطاها العلم الوسائل . ولكنه لم يعطها الغايات ، وحقق لها المتعة المادية ، ولكن لم يحقق لها السكينة النفسية . انتصرت به على الطبيعة ، ولكن لم تنتصر به على نفسها وشهواتها .

ومن هنا كان لابد من ايمان العلماء ، وعلم المؤمنين . وهذا ما تقوم عليه الحياة الاسلامية المتكاملة .

ولهذا جمعت أول آية نزلت من القرآن بين العلم والايمان . وهى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » فالقراءة ــ وهى مفتاح العلم ــ انما يريدها الاسلام قراءة باسم الله الخالق وإذا كان مفتاح الاسلام هو العلم والفهم ، فإن جوهر الاسلام هو الايمان ، وجوهر الايمان هو التوحيد . بل هو جوهر الرسالات السماوية كلها . ولهذا كان النداء الأول فى كل رسالة : « يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .

مكانة الإيمان من حياة الانسان

إن حقيقة الدين ومهمة الإيمان تتجلى :

أولا : فى وصل ما بين الإنسان وربه ، وإشعاره بقربه وحبه ، وملء ما بين جنبيه ثقة به ، واعتماداً عليه ، واطمئناناً إليه ، وأنساً به ، ويقينا بكل ما جاء من عنده .

وتتمثل ثانياً : فى الارتفاع بقيمة الإنسان من مجرد « حيوان متطور » كما تصوره أو صوره بعض الناس ، إلى كائن مكرم مكلف مسئول ، مخلوق فى صورة الخالق ، مخلوق فى أحسن تقويم ، مستخلف فى الأرض ، مغبوط من الملأ الأعلى ، فلا غرو أن يعمل الدين على إعلاء « نفخة الروح الإلهى » فى كيانه على « قبضة الطين والحمأ المسنون » فيه . وبذلك لا يعيش الإنسان مشدوداً إلى أسفل .. إلى المتاع الأدنى ، بل يحيا دائماً مشرئباً متطلعاً إلى الأفق الأعلى .

وتتمثل ثالثاً : فى توسيع صلته بالكون العريض من حوله ، فهو ليس كائنا طفيلياً فى هذا الوجود الكبير ، ولا هو ــ أي الكون ــ بالعدو الذى يصارعه ، أو المجهول الذي يطارده ، بل هذا الكون كله مسخر لمنفعته ، وهو كذلك آية تدله على ربه . كما أن الناس ــ كل الناس فيه ــ اخوة له ، يشاركونه فى العبودية لله ، والبنوة لآدم .

وتتمثل رابعاً : فى مد عمر هذا الوجود إلى ما بعد هذه الحياة القصيرة الأمد ، أى الى حياة الخلود والأبد ، فليست قصة البشرية مجرد « أرحام تدفع ، وأرض تبلع » أو كما قال قوم « ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين » بل الأمر كما قال عمر بن عبد العزيز : « إنكم خلقتم للأبد ، وإنما تنقلون بالموت من دار إلى دار ! » وهذه المعانى كلها ، إنما يغذيها ويحييها الايمان : الايمان بالله ، والايمان باليوم الآخر ، وهما ركنان أساسيان فى كل دين .

خفوت صوت الإيمان فى عصرنا

ولا يخفى أن جمرة الايمان فى هذا العصر ، قد فقدت كثيراً من توهجها واشتعالها فى القلوب ، وأن صوت الايمان قد خفت فى حنايا الضمائر ، ولم يعد له من السلطان والتأثير ما كان من قبل ..

ويرجع ذلك إلى جملة أسباب ، منها :

* ــ غلبة التفكير المادي والحياة المادية على جمهور الناس ، فى أنحاء العالم ، نتيجة لسيطرة الحضارة الغربية . وانتقل ذلك بالعدوى والاختلاط وأجهزة التأثير المختلفة ، من الغرب إلى الشرق ، ومن غير المسلمين إلى المسلمين . وألهى الناس التكاثر ، حتى كادوا ينسون أن بعد الحياة موتاً ، وبعد الموت بعثاً ، وبعد البعث حساباً ، وبعد الحساب ثواباً وعقاباً ، وجنة وناراً .

* ــ يتبع ذلك اهتمام جمهور الناس بالعلوم الوضعية والمادية ، وما ينبثق عنها من استخدامات تطبيقية (تكنولوجية) ساعدت الناس على الاستغراق والاستمتاع بالحياة ، على حين قل الاهتمام بعلوم الدين ، وما تشتمل عليه من « غيبيات » لا يألفها كثيراً العقل المعاصر ، حتى أن بعض علماء الدين ودعاته ، يحاولون تأويلها بما يرضي نزعته الحسية ، أو يهربون من الحديث عنها ، حتى ان الذى يتابع الاستماع إلى خطب الجمع فى المساجد أو من المذياع ، لا يكاد يجد خطبة منها تتحدث عن الموت أو القبر أو البعث والحساب ، أو الجنة والنار ، كأن هذا من دلائل التخلف والمنافاة للعصرية !

* ــ اهتمام الدعاة إلى الإسلام فى العقود الأخيرة من سني القرن الرابع عشر ، بالتركيز على عرض النظام الإسلامى ، وبيان محاسنه ، والدعوة إلى تطبيقه ، ولم تعط أهمية مماثلة لعرض العقيدة والدعوة إليها ، وتعميق أثرها فى العقول والقلوب ، نظراً لظهور الفكر العلماني الذى يعتبر الدين ــ كل دين ــ مجرد صلة خاصة بين المرء وربه ، ولا علاقة له بنظام الحياة ، فاقتضى الرد عليه التأكيد والتركيز على النظام الاجتماعي والاقتصادى والسياسي والتشريعى فى الاسلام ، دون أن تأخذ العقيدة حظاً مماثلا من هذا التأكيد . والواجب هو الموازنة بين تعاليم الاسلام كلها ، وان كانت العقيدة ــ ولا ريب ــ هى أساس البناء .

* ــ إغفال الأجهزة الاعلامية والثقافية والتربوية لهذا الجانب المهم ، الذى يمثل غاية حياة الإنسان ، وسر وجوده ، والذى يجعل لحياته طعماً ومعنى ورسالة ، وذلك ثمرة لإغفال أمر الدين كله عقيدة وشريعة ، وأخلاقاً وآداباً ، ونظام حياة ..

وليت الأمر وقف عند الإغفال والإهمال ، بل تجاوزه إلى اللمز والسخرية ، بل إلى الطعن والهجوم ، أحياناً فى صورة سافرة بلا خوف ولا حياء ، وأحياناً أخرى ــ وهي الأكثر والأخطر ــ فى صور مقنعة ، وبأساليب ملتوية ، ووسائل خفية ناعمة مسمومة ، تقتل وتدمر ، ولكن دون أن يسمع لها أزيز كأزيز الرصاص ، أو دوى كدوي الألغام .

* تركيز الفلسفات والأنظمة التعليمية والتربوية على الجوانب المادية والتكنولوجية والعلمية فى مناهجها وكتبها ومدارسها ، والنظرة إلى الدين نظرة إهمال أو عداء ، تقليداً للعلمانيين فى الغرب ، أو الماركسيين فى الشرق ، فالأولون يسقطونه من الحساب ، والآخرون يعادونه سراً وعلانية .

فإذا دخل الدين المدرسة أو الصف ، لم يدخل دخول صاحب البيت ورب الدار ، بل دخل كأنه زائر دخيل ، أو ضيف ثقيل .. ساعة فى آخر اليوم المدرسي ، تسد بها خانة أو يملأ بها فراغ ، حتى تسكت ألسنة المتدينين المتزمتين المتعبين !

ولاعجب ، أن أصبح التعليم يشكو الجفاف والجفاء والخواء .. ويحتاج إلى الروح الذى يوقظ القلوب ، ويحرك المشاعر ، ويرد إلى الجثث الهامدة الحياة ! ورحم الله الفيلسوف والشاعر المسلم محمد إقبال الذى قال عن هذا التعليم

- ليس في الإسلام مبدأ يقول: "الجهالة أم التقوى"
- عند علماء المسلمين: "إن ايمان المقلد لا يقبل"
- قصص آدم ويوسف وسليمان عليهم السلام كلها تعلي من شأن العقل

« الحديث ، كما كان يسمى في عصره : « انه لا يعلم العين الدموع ، ولا القلب الخشوع » !

حاجة عصرنا إلى تجديد الإيمان :

إن العالم كله أحوج ما يكون الى الايمان ، ولكن الإيمان بالنسبة لنا نحن العرب والمسلمين ، يعتبر جوهر وجودنا ، وسر خلودنا وهو لنا روح الحياة ، وحياة الروح .

إن الايمان هو سبيلنا إلى رضوان الله تعالى ، وعدتنا في طريق الآخرة ، فقد حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ، ولن نقدر على احتمال المكاره في طريق الجنة ، ولا أن نقاوم الشهوات المفضية إلى النار ، إلا بقوة روحية داخلية ، تستحب المكاره ، وتستعذب العذاب في سبيل الله ، كما تركل الشهوات ولذائذ الدنيا كلها ، إذا كان من ورائها سخط الله .

وهذه القوة الروحية إنما يصنعها الايمان . إنه هو الذى يحفزنا إلى أداء المهمة التى خلقنا لها ، وهى عبادة الله تعالى ، ويحبب إلينا هذه العبادة حتى تغدو لنا قرة عين .. وهو الذى يأخذ بيد المرء ليتقرب إلى الله تعالى بأداء فرائضه الواجبة عليه ، ويزداد تقرباً إليه بنوافل الطاعات ، حتى يربح حبه له ، فإذا أحبه سبحانه كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، وإذا دعاه أجابه ، أو سأله أعطاه .

على أن الايمان ليس سبيلا إلى سعادة الآخرة فحسب ، بل هو السبيل أيضاً إلى سعادة الدنيا التى يحرص كل الناس عليها ، ولا يجدها منهم إلا القليل ، أو أقل القليل . وكم من أشياء يخطف بريقها أبصارهم ، فيلهثون وراءها يحسبون أن فيها السعادة المنشودة ، فإذا هى سراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

إن الايمان وحده هو الذى يمنح الإنسان الطمأنينة وسكينة النفس التى هي روح السعادة وسعادة الروح « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

قد يستطيع الإنسان بواسطة المال والثراء أن يوفر لنفسه كثيراً من اللذائذ ، وأن يعب من الشهوات ما يمكن أن يشترى بالدرهم والدينار ، ولكن السعادة الحقيقية لا تعرض فى الأسواق ولاتشترى بالنقود ، ولا بالنفوذ ، لأنها تنبع من أعماق النفس ، وليست سلعة نستوردها من هنا أو هناك ، وهى التى قال عنها أحد السلف الصالح على شظف عيشه : اننا نعيش فى سعادة ، لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف !

وقد يستطيع الإنسان بواسطة العلم أن يعيش فى عالم أوتوماتيكى ، يضغط بأصبعه على زر عن يمينه أو يساره أو أمامه أو خلفه ، فيدنو له البعيد ، ويلين له الحديد ، ويتحرك الساكن ، ويسكن المتحرك ، ويعيش ناعماً مرفها ، كأن عشرات من الخدم بين يديه ، فهو لا يقل — بل يزيد — فيما يتمتع به عن قارون العتيد ، أو هارون الرشيد ..

ولكن العلم — وإن هيأ للإنسان رفاهية الجسم — لم يهيىء له طمأنينة القلب ، منحه الوسائل ، ولم يمنحه غاية يعيش لها ، لأن هذه ليست مهمة العلم ، بل هى مهمة الايمان .

والإيمان الذى نعنيه ، هو الذى ينمي فى الإنسان حوافز الخير ، وكراهية الشر ، ويملأ ما بين جنبيه شوقاً إلى التزكي ، ورغبة فى الترقي من جاذبية الطين الأدنى ، إلى أفق الروح العليا ، وهو الذى يعطي الإنسان الطاقة والقدرة للتحليق بأشواقه الصاعدة ، فوق مستوى الغرائز الهابطة ، وهو الذى يهب الشباب فى عنفوانه أمام الشهوات العارمة إرادة كإرادة يوسف الصديق ، تقبل ذل السجن ، وترفض إغراء المعصية ، وشعاره : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » .

إن الإيمان الذى ننشده ، هو وحده الذى تثبت فى تربته شجرة الأخلاق ، وتنمو فى ربوعه أزهار الفضائل المثلى ، والقيم العليا ، ولقد أثبت التاريخ والواقع ، أن الأمم بدون أخلاق ، لا تنهض بعبء جسيم ، ولا تقوم بعمل مبدع .

وإن أمة بلا أخلاق ، كبنيان بلا أساس ، فهو مهما علا وامتد حتمي الانهيار ، ورحم الله شوقي إذ قال :

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم
فأقم عليهم مأتمـــاً وعويلا !

ولطالما حاول كثير من الحكام والزعماء والمسئولين ، أن يضبطوا سلوك مجتمعاتهم بالقوانين والقرارات وحدها ، ناسين أن الانسان إنما يقاد من داخله لا من خارجه ، فلم تغن عنهم قوانينهم ولوائحهم شيئاً ، وعادوا بالخيبة والخسران ، وغلب الهوى على الحق ، والأنانية على الخير ، وعلا صوت الشهوة على صوت الواجب ، ولا غرو أن شاعت جرائم كبر ، وظهرت مآس وفضائح على أعلى المستويات ، وكان مما كتبه أحد القضاة في بريطانيا تعليقاً على الحكم في إحدى هذه القضايا الكبيرة المثيرة : بدون قانون لا يستقر مجتمع ، وبدون أخلاق لا يسود قانون ، وبدون ايمان لا تسود أخلاق !

والايمان هو الذي يفجر الطاقات الكامنة في إنسان شعوبنا المسلمة ، فتندفع بقوة العقيدة في الله وفي الدار الآخرة ، ليزرع الاعاجيب ، ويصنع البطولات ، وينشيء الروائع ، كما رأينا ذلك في التاريخ الماضي ، وفي الواقع الحاضر .

إن الايمان هو الذي يحل مشكلة النزعة الذاتية الفردية عند الانسان — وهي نزعة فطرية أصيلة — حين يعلمه أن ما يقدمه من خير ، وما يضحي به من جهد ، وما يبذل من مال أو نفس ، لن يضيع عندالله منه مثقال ذرة ، بل كله مكتوب له ، ومردود إليه ، ومضاف إلى رصيده عند الله « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلماً ولا هضما » « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما » .

والايمان هو الذي يضع بين يدي الإنسان قوة هائلة ، حين يغرس في نفسه : أن قدر الله نافذ لا محالة ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما يخاف عليه الناس من رزق أو أجل ، مكتوب عندالله ، لا مجال فيهما لزيادة أو نقصان ، فالأرزاق مقسومة والآجال معلومة ، ولو اجتمعت الأمة على أن ينفعوا أحداً بشيء لم ينفعوه ألا بشيء قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه .

هذا اليقين بالقدر ، يجعل المؤمن به يشعر أنه في جهاده ودعوته يمثل قدر الله الذي لا يرد ، وقضاءه الذي لا يغلب ، كما قال أحد الصحابة في حرب الفرس لأحد قوادهم ، وقد سأله : من أنتم ؟ فقال : نحن قدر الله ! ابتلاكم الله بنا ، كما ابتلانا بكم ، فلو كنتم في سحابة لصعدنا اليكم ، أو لنزلتم إلينا ! !

والايمان كذلك هو الذي يوثق الروابط بين أهله ، فيجمعهم في ظل الآخرة ، ويصل بينهم بأوثق عرى المحبة ، فالايمان رحم بين أهله كما قال تعالى : « إنما المؤمنون اخوة »

واذا كانت هناك أشياء تفرق بين الناس بعضهم وبعض ، من اختلاف العرق أو اللون أو اللغة أو الإقليم أو الطبقة أو النسب ، أو الثروة أو غير ذلك ، مما يحجز الناس بعضهم عن بعض ، فان الايمان بحرارته وقوته هو الذي يذيب هذه الحواجز ، ولا يعترف بها ، ويجعل من وحدة العقيدة رابطة فوق رابطة الدم أو أقوى ، ولحمة كلحمة النسب أو أوثق ، حتى أن المؤمن ليؤثر أخاه

حاجتنا إلى... تجديد الإيمان

في العقيدة على أخيه من النسب ، بل على ابنه من الصلب .

وفي رحاب هذه الأخوة الكبيرة ، تختفي الأحقاد الصغيرة ، وتهون الدنيا التي يتهارش عليها الناس ، وهي أهون عند الله من جناح بعوضة ، وتنكمش مشاعر الحسد والبغضاء التي سماها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « داء الأمم » وقال عن البغضاء بحق : انها الحالقة ، لا بمعنى أنها تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين .

ولا يقف الأمر عند سلامة الصدر من الحسد والبغضاء ، بل يعمر القلوب حب كبير ، منبثق من حب الله تعالى ، إنه حب لكل من والاه وآمن به . حيث يرتفع بالانسان من الأنانية الدنيا إلى الغيرية العليا . وفي هذا جاء الحديث الصحيح « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » « والذي نفسي بيده ، لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا »

وتتمثل الغيرية في أجلى صورها عندما تتجسد في هذا المعنى الذي لم يعرف ولن يعرف في غير مجتمع المؤمنين ، وهو معنى « الايثار » أن تجود بالشيء لأخيك وأنت محتاج إليه ، وان تتعب ليرتاح أخوك ، وتعرض صدرك لتلقي ضربات السيوف وطعنات الرماح لتحمي أخاك . وأن تبيت على الطوى لتقدم كل ما عندك من زاد عشاء لأخيك . وهذا هو الذي وصف الله به الأنصار في قوله « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

وهنا تتحول المشاعر الرقيقة من الأخوة والمحبة والايثار إلى تلاحم في الخير ، وتراحم في السراء والضراء ، وتعاون على البر والتقوى ، صوره النبي بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضاً » « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »

شهر لتجديد الإيمان

وشهر رمضان فرصة لتجديد الإيمان ، واحياء القلوب به ، ورد الشاردين الى ساحة الله ، فينتبه الغافل ، ويتذكر الناسي ، ويتوب العاصي ، ويقف الجميع على باب الرحمن الرحيم ، قائلين ما قال أبوهم من قبل : « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا لنكونن من الخاسرين » .

إنه شهر لتصفية الروح والسمو بها :

فالانسان ـ بحكم طبيعته المزدوجة ـ يسمو تارة ويهبط أخرى ، يحلق حيناً في آفاق روحية عليا ، كأنه ملك ذو جناح ، ويتمرغ حيناً في أوحال المادة والشهوة كأنه حيوان من ذوات الأربع .

فلا عجب أن نراه يعثر كما ينهض ، ويخطىء كما يصيب ، ويعصي كما يطيع ، ولكن الله جعل له أكثر من مصفاة وأكثر من مطهرة يغتسل بها من أدرانه ويتطهر بها من خطاياه ، يخرج منها نظيفاً نقياً ، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس .

فهناك مصفاة يومية هي الصلوات الخمس .

وهناك مصفاة أسبوعية هي صلاة الجمعة .

وهناك مصفاة سنوية هي صيام رمضان وقيامه .

يقول الحديث النبوي الذي رواه مسلم في صحيحه : « الصلوات الخمس ، والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر »

فمن لم تطهره الصلوات اليومية ، ولا الجمعة الأسبوعية ، كانت لديه فرصة في رمضان ليتطهر فيها بحسن الصيام والقيام ، ويحوز مغفرة الله تعالى لما فرط منه ، فان فاتته هذه الفرصة فهو الشقي المحروم وورد أن جبريل عرض للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يرتقي المنبر فقال : « بعد من أدرك رمضان فلم يغفر له » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : آمين ! فيابؤس من دعا عليه أمين الوحي وأمن عليه خاتم الرسل (١)

فالصلوات الخمس هي ميزان اليوم ، والجمعة ميزان الأسبوع ، ورمضان ميزان العام .

شهر الاخلاص لله

ورمضان شهر لانتصار الانسان : انتصار ارادته على شهوته ، وعقله على هواه . على أن أعظم ما يكون انتصار الانسان حين يفعل الخير ، ويعمل الصالحات ، أداء للواجب ، وابتغاء رضوان الله وحده ، فهذه هي ذروة الاخلاص والتجرد ، وهي ذروة السمو الانساني .

والصوم الذي يأمر به الاسلام ويثيب عليه ، ويفتح لصاحبه أبواب المغفرة والجنة ، ليس مجرد الامساك عن الطعام والشراب ومباشرة النساء ، فمن الناس من يصوم حمية من مرض ، أو سعياً الى صحة ، أو احتجاجاً على مظلمة ، أو خضوعاً لمراسيم ، أو اتباعاً لعادة ، أو نحو ذلك من البواعث والأغراض ، ولكن هذا كله لا يقيم له الاسلام وزناً ، والصوم المعتبر في ميزان الاسلام هو الذي يقوم به صاحبه « ايماناً واحتساباً » أي تصديقاً بوعد الله ، وطلباً لما عند الله ، وكذلك القيام ولهذا حرص الرسول على ذكر هذه العبادة حين قال : « من صام رمضان ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام رمضان ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » (٢)

ان الاسلام رسالة توحيد وتحرير : جاءت تحرر الناس من عبادة ما سوى الله ،من عبادة الطبيعة وعبادة الاشخاص ، وعبادة الأوهام ، وعبادة الأهواء ، وتوجيه العبادة الى كائن واحد ، هو الرب الأعلى « الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى » .

وهكذا كان الصوم عبادة خالصة موجهة الى الله وحده . وفي هذا جاء الحديث عن الله عز وجل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فانه لي وأنا اجزي به . يدع الطعام من أجلي ، ويدع الشراب من أجلي ، ويدع لذته من أجلي ويدع زوجته من أجلي » (٣)

وعلامة الصوم المقبول ـ الذي هو ثمرة الايمان والاخلاص لله ـ أن يكف الصائم لسانه عن الزور واللغو ، ويده عن الأذى ، وجوارحه كلها عن المعصية ، وأن يصوم ظاهره وباطنه عما يسخط الله تعالى ، وأن يدفع السيئة بالحسنة ،واذا جهل عليه أحد أو سابه أو قاتله قال بلسانه وقلبه : اللهم اني صائم !

بهذا ينتصر الانسان ، ويكون الصيام له جنة ووقاية ، والا كان صياماً صوريا لا يعد صاحبه ـ في الدنيا ـ لتقوى ، ولا يحقق ـ في الآخرة ـ لأهله مغفرة ولا رحمة ولاعتقاً من النار . وفي الحديث « رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع.(٤) » « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » (٥)

ونسأل الله أن يجعل من رمضان موسماً لتجديد إيماننا واحياء قلوبنا ولاصطلاح على الله تعالى ويجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأن يجعل حظنا من هذا الشهر المغفرة والرحمة والعتق من النار .

يوسف القرضاوي

هوامش :

(١) رواه الحاكم عن كعب بن عجرة وقال : صحيح الاسناد واقره المنذرى فى الترغيب .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه ابن خزيمة في صحيحه .

(٤) رواه ابن ماجه واللفظ له ـ والنسائى وابن خزيمة في صحيحه والحاكم وصححه على شرط البخارى .

(٥) رواه البخارى وأصحاب السنن .

يواصل الكاتب العربى الكبير أكرم زعيتر فى هذا العدد دراسته التى بدأها فى الشهر الماضى حول الشاعر « بدوى الجبل » ، وفى هذه الحلقة الثانية يقدم لنا أكرم زعيتر صورة حية من شعر بدوى الجبل وصوره الفنية النادرة ومواقفه الوطنية الصادقة .

بدويّ الجبل .. وإخاء أربعين سنة

عبقرية فنية

لم تولد في مدرسة ولا جامعة

بقلم : أكرم زعيتر

الشاعر العربى بدوى الجبل

البواكير

كانت العرب تقول لمن يهتف أو يهذى بالشعر قبل أن يجيده : « إنه يقرزم » وأشهد ان البدوى طلع على الدنيا شاعراً مجيداً وما عرفه الشعر قرزاماً ، وأنت اذا قرأت بواكير شعره رأيتها متينة السبك رائعة المعاني مما جعل الشاعر الكبير بشارة الخورى يقول : « إن شعر البدوى أرجح من عمره » . وجعل العلامة المجمعي الشيخ عبد القادر المغربي يصفه بالشاعر الذى تمردت عبقريته على ناموس التدرج ..

ولو أن الأصمعي القائل فى شعر أبى العتاهية : « انه كساحة الملوك يقع فيه الخزف والذهب » استشرف ما يبدعه البدوى لهتف به : هذه ساحة لا خزف فيها ، انها سوق الذهب واللؤلؤ والمرجان .

ثقافتــه

وثقافة البدوى لم يستمدها من مدرسة أو معهد ، وفى ديوان أبيه درس القرآن والحديث والنهج وقرأ الأغانى والأمالى وآثار الجاحظ وأبى حيان . ثم قرأ وحفظ الكثير مما فى دواوين الشريف الرضي والمرتضى ومهيار والمتنبى والبحترى وأبى تمام وأبى فراس والمعرى .. وعوض من حرمانه معرفة لغة أجنبية بقراءة مترجمات فى الأدب والتاريخ والاجتماع والمذكرات وأذكر أنه قرأ مترجمات شقيقى المرحوم عادل فى الفلسفة والتاريخ والاجتماع وحرثها وأشاد بها .

وعلى أنه عب دواوين أئمة الشعر فإننى اقطع بأنه شبيه بذاته ، له كيان شعرى مستقل بأدواته ، ديباجة وخيالاً ، ومعانى ونغماً ، وقد يقال فى شعراء مجيدين إنهم متأثرون بالبدوى ولاسيما بعد أن يذهب زبد الشعر الطلسمى الهاذر المتفشي جفاء ويمسى هباء .

أدوات الشعر العالى

يمتلك البدوى أدوات الشعر العالى : الخيال واللفظ والعاطفة واللغة والنغم أو الموسيقا ، والأسلوب هو الذى يوائم بينها . خياله يتسم بالجدة والطرافة والعمق . إنه مخترع أخيلة وألفاظه أنيقة . مصطفاة فصيحة تساير الأخيلة والمعانى شرافة وجزالة . أو رقة ولوناً . وكأن لها أرواحاً كما يقول الشهيد سيد قطب . وعاطفته ذات سرادة ولغته متينة . وفى بحوره وأوزانه ايقاع موسيقى يناسب الموضوع فللعاصفة أو البركان بحر يختلف عن السلسبيل الرقراق . ثم ان ديباجة البدوى — وهى كما يدعوها وطن الشعر . وبدونها يكون الشعر غريباً ، ولا يكون شعراً — تجعل من المعنى المتداول شعراً . وفى شعره حكمة ، والشعر اذا نبع من القلب لاغنية له عن العقل أو الفكر . وشعرنا العربى لا يستكمل مراميه اذا تجرد عن الحكمة . وقولك إن المتنبي حكيم . لا ينفي عنه عظامة شعره . وقد طعم دانتى وغوتيه وشكسبير شعرهم بالحكمة . وصاحبنا البدوى كثيراً ما سكب الحكمة فى قوالب من جمال اللفظ وروعة النغم معتبراً أن الحقائق مظاهر جمال فى الكون . ولكنه على أى حال مع العاطفة قبل المنطق ويرى قدامى النقاد أن الحكمة

عبقرية فنية
لم تولد في مدرسة ولا جامعة

في الشعر لا يجوز أن تكون إلا كالملح في الطعام .
وجعل البدوي من أغراض شعره استثارة الحس الوطني والذياد عن الأهداف القومية العليا شأن من يستودع قلبه ضمير وطنه فيجيء شعره صورة فنية لخواطره وهواجسه ونبضات فؤاده . وهنا قد تفتقد وحدة قصيدته في الرثاء مثلاً ، ذلك لأنه حين يرثي مجاهداً وطنياً تراه يثب الى الحديث عن وطنه وأمته ويقحم آراءه الوطنية في اتساق ويسكب روحه الثائرة في أبيات ، ثم يعود فيبدع الختام إبداعه المطلع ، وفي اجتهاده أن الذين يعتمدون وحدة القصيدة يغلب عليهم التصنع ويفتقدون العفوية .

مراثيه

ومراثي البدوي ليست مما ألفناه نحيباً وتعداد محاسن ، ولكنها تقري الأخيلة بصورة أخاذة لأخوانه الراحلين ، تحمل اللوعة وتضفي على الحزن وسامة وسحراً ، ووالله إنني أتمثل صديقي الكبير الأثير سعد الله الجابري أمامي حين أتلو قول البدوي في رثائه :

طلعة تفرح العيون وتسبيها
وتغزو القلوب كبراً ومجداً
بدعة الظرف والأناقة يرضيك
دعاباً عفاً ويرضيك جدا
تنهل العين من بشاشة سعد
ريها والعيون تروى وتصدا
مترف في رجولة واعتداد
راع زياً وراع وجهاً وقدا

وعرفت شخصياً الزعيم السوري الثائر الكبير ابراهيم هنانو ، وراصفت البدوي في رثائه ، ولكن من ذا الذي يحسن أن يصف الزعيم الذي ضوى جسمه ولم يضو عزمه وصف البدوي اياه ؟

وضاو من السقم ضجت في شمائله
عواصف الحق والأمواج والزبـد
اذا أثير نضا عنه مواجعـه
كما تفلت من أشراكه الأسـد
يروع في مقلتيه بارق عجب
وعـالم عبقري السحر منفرد
يغالب البشر أسقاماً تزلن به
أبى له الكبر أن يأسى لها أحد

وعرفت السياسي العربي العبقري الكبير فارس الخوري ونعمت منه في شبابي بعطف وتشجيع وحنان ، وأعياني رثاؤه ، وهات من يقول فيه قول البدوي :

وله الطرفة المليحة تغني
عن نقاش وتسكت المنطيقا
وبيان تخاله الوشي ، والأطياب
شتى واللؤلـؤ النسـوقا
فيه عمق البحار تزخر بالدر
وفيـه متـارف الموسيقـا
وضمير نديان يسرف في الحس
فيجزي حتى الخفي الدقيقا

والبدوي داعية الحقد الوطني على المحتل الظالم فما يذكي مقاومة الغاصب مثل هذا الحقد الذي أدعوه (الحقد المقدس) .

آمنت بالحقد يذكي من عزائمنا
وأبعـد الله اشفاقاً وتحنانا
ويل الشعوب التي لم تسق من دمها
ثاراتها الحمـر أحقاداً وأضغانا

واما الحقد الشخصي فما أسرع ما يغسله الأسى ويمحوه الحنان

غسل الأسى قلبي وحسبك بالأسى
من غاسل حقد القلوب وماحي
ووددت حين هوى جناح حمامة
لو حلقت من خافقي بجنـاح

واذا استشرى حقده على خصوم عقيدته رشقهم بسهمه :

عصابة شر راح يبرأ منهم
الى الله ابقاء على نفسه ـ الشر

فلسطين

وفلسطين قضية العرب الأولى كانت تساوره كلما نظم قصيدة وطنية وما نظم فيها يؤلف ديواناً من الفلسطينيات ، يثير فيه النخوات ويؤجج الثارات ، يبكت ويندد ، وينذر ويهدد ، فإذا اعتمر العراق ليحتفل بتتويج فيصل الثاني هدر متفجعاً :

قد استرد السبايا كل منهزم
لم تبق في رقها إلا سبايانا
وما لمحت سياط الظلم دامية
إلا عرفت عليها لحم أسرانا
ولا نموت على حد الظبى أنفاً
حتى لقد خجلت منا منايانا

ولكنه يختم قصيدته التي أربت على المائة صادحاً :

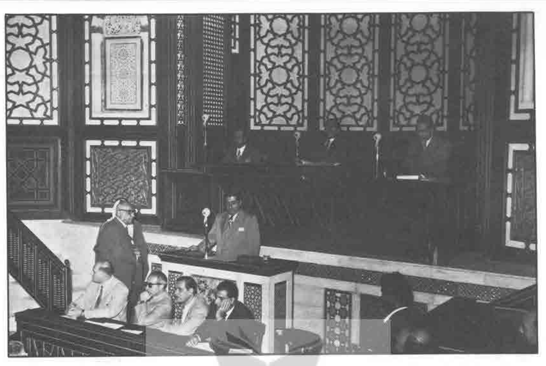
ما في العراق ولا في الشام موعدنا
على الثنية من حطين لقيانا

وفي أغرودة الجلاء عن سورية :

يا فلسطين هوى مستعر
من ربى الشام ونصر وولاء



الشاعر الكبير بدوي الجبل طريح الفراش في المستشفى الألماني ببيروت على اثر هزيمة ١٩٦٧



بدوى الجبل يقسم اليمين النيابية فى البرلمان

وتحيات الرضى من دجلة
وسلام الله من غار حراء
أين من ثأرك والثأر دم
خالد الفتح وأين الأمراء

وحسبى أن أذكر أن أربعين بيتاً من قصيدته « من وحى الهزيمة » تتغنى بالقدس ثم تندبها ، والمسجد الأقصى :

هل درت عدن أن مسجدها الأقصى
مكان من أهله مهجور
أين مسرى البراق ، والقدس والمهد
وبيت مقدس معمور
لم يرتل قرآن أحمد فيه
ويزار المبكى ويتلى الزبور
طوي المصحف الكريم وراحت
تتشاكى آياته والسطور
تستبى المدن والقرى هاتفات
أين .. أين الرشيد والمنصور

ومنها :

لا تشق الجيوب فى محنة القدس
ولكنها تشق الصدور

حبست أدمع الأباة من الخوف
ويبكي الشذا وتبكي الطيور

وأما اللاجى ، فهيهات هيهات أن يقول شاعر مثل قول البدوى بلسانه :

انا حزن ، شخص يروح ويغدو
ومسائي مع الأسى والبكور
طردتني الأكواخ - والبؤس قربي -
وتعالت على شقائي القصور
يحتويني الهجير حيناً ، ولا يرحم
أسمال فقري الزمهرير
وعلى الجوع والضنى والرزايا
فى دروبي أسير ثم أسير
نقلتني الصحراء حيناً وحيناً
نقلتني الى الشعوب البحور
حاملاً محنتي أجرر أقدامي
ويومي سمح الغمام مطير
محنتي الغيث ان ارادوا وإلا
فهدير البركان والتدمير
حاملاً محنة الخيام ، فتزور
وجوه عني وتغلق دور
الخيام المزقات وأم
فى الزوايا وكسرة وحصير

على أنه بعد وصف مؤثر مفاض يتنبأ :

تنتخي للوغى سيوف معد
ويقوم الموتى وتمشى القبور
عربي فلا حماى مباح
عند حقدى - ولا دمي مهدور

موسيقا الشاعر

وشعر البدوى ذو نغم هو الذى يسمو به عن أبدع اللوحات الزيتية لأكابر الرسامين ويميزه عنها .. إنه يحفظ ويرتل ، ويرنم وينغم ، ويرتسم فى الحافظة فينشد ، وبه يستشهد :

جاء أمير الشعراء أحمد شوقي لبنان ، وأرسل قصيدته اللبنانية ومطلعها .

السحر من سود العيون لقيته
والبابلى بلحظهن سقيته

وما أكثر ما ينوه اللبنانيون بقوله فيها :

لبنان والخلد اختراع الله لم

ثم يهتف :

بكيت من السراب ، فحين ولى
وأوحدني بكيت على السراب
وأشقاني اليقين فيا حنيني
الى الخدع المنضرة السوابي

الهمـــوم

وما رأيت شاعراً عبقر الألم وجمل الهم ونضر الحزن كالبدوى ، وقد جعل من قبور أحبائه ورفاق دربه رياض إخاء ، وبساتين وفاء ، ومجمع ذكريات وأحرام مقدسات . إنها تفجر بيانه وتطلق بالحنان لسانه : ففي رثاء سعد الله :

إن قلبي خميلة تنبت الأحزان
ورداً ونـــرجســـاً وشقيقـا
لو على الصخر نهلة من جراحي
راح مخضوضل الظلال وريقا

وفي رثاء هنانو :

لا أوحش الله قلبى من مواجعه
ولا تحـول عن نعمائها الحسد
إنـى أدلل آلامـى وأمسحـها
مسح الشفيق وأجلوها وانتقد

وفيهـــا :

أفدى القبور التي طاف الرجاء بها
يا للقبـــور غدت ترجى وتفتقد
مصارع بعطور الحق زاكيــة
كأنما سكبوا فيها الذى اعتقدوا
مسحت دمعي من ذكراهم بيـــد
وأمسكت كبدى ألا تذوب يـــد

الغـــزل

وللبدوى شعر غزل يزرى بدواوين في النسيب ، وشاعر مبدع مركب من عواطف وخيال مخصاب ، يجيء في هذا الباب بالعجب العجاب ، وقصائده « خالقة » و « شقراء » و « سمراء » أشير إليها ، وأعجز عن المفاضلة بينها واجتزاء بعضها عن كلها .. على انه إذا استراب بعذرائه التي « يخشى على حسنها من خطرة الفكر ونجوى العيون » عيرها بقبل العاشقين وراح يصنف القبل مبتدعاً :

من قبلة خـائنـة مـرة
وقبلة تمتمت : لا أخون



بدوى الجبل في عنفوان شبابه

وقبلة مجنونة في اللمى
وقبلة وارعة في الجبين
وقبلة حمراء مثل اللظى
وقبلة بيضاء مثل اليقين

الســـائرات

وقد لا تخلو قصيدة للبدوى من بيت سائر يستشهد به ، تلخص فيه حكمة وتختصر تجربة ، ويكون مسند حديث أو فصل خطاب . وهات في الأمثال المضروبة ما يغني عن هذه السائرات :

قد تطول الأعمار لا مجد فيها
ويضم الأمجاد يوم قصـــير
انا البرىء ولكن حرمة وهوى
أقر بالذنب كى ترضى واعترف
إن دين العظيم في كل شعب
لا يوفى وحقـه لا يؤدى
ولا وفاء لقلب حين نؤثره
حـتـى تكون رزايانا رزاياه
لا تحاسب أخا هوى في هواه
كل ثغر على الهوى معسول
يفتك الظلم بالضعيف ويردى
بعد حـين بشؤمه الظلامـا
سبة الدهر أن يحاسب فـكر
في هواه . وأن يغـل لسان
كل علم يغزو النجوم ، ويغزو
بـالمنـايا الشعوب علم حقير
لايهـيـن الشعوب الا رضاهـا
رضى الناس بالهوان فهانوا

* * *

نثر البدوى

وللبدوى نثر رفيع أنيق ، إنه شعر منثور ، وان كان لا يرضيه أن يطلق عليه لفظ شعر . وكونه في أكثره مسجوعاً بلا تكلف ، وفر له عذوبة الوقع على الآذان ، واذا كان الشعر ـ كما سترى في الذكريات ـ هو الذى يمتلك الشاعر فلا يواتيه ساعة يريد ، فإن النثر يأتيه طائعاً ، سهلا ، مسلساً قياده ، لا يتأبى عليه حين يشاء ، ومما يسترعى النظر أن نثره ، خلا رسائله الإخوانية ، يكاد يقتصر على المراثي ، وكل مرثاة مقامة بليغة أو قصيدة منثورة . على أنه يتدفق محلقاً مجلياً في نثره إذا ثار على مظلمة أو ثار لكرامة أو رد على فرية أو أدحض شبهة أو عاتب أو استعتب ..

وأراني قبل انتباش الذكريات من منجمها اقتبس مثالا لنثره الفنى الأبدع في المطلع الأروع ، لمحاضرة ألقاها في جمعية العروة الوثقى بالجامعة الأمريكية ببيروت وجعل عنوانها : « القومية العربية في الجاهلية والاسلام » وقد غنانا صادحاً !

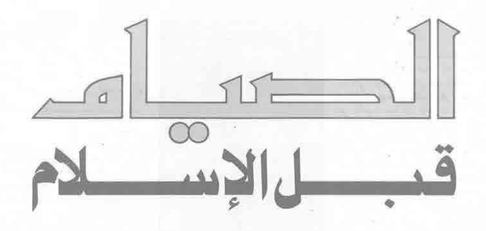
« لكل شاعر سدرة منتهى يتوهج بضيائها قلبه ، ويندى برفيف أقحوانها حبه ، وتفيء الى ظلالها لباناته ، وتتبرج بصورها وألوانها خيالاته ، ويعب من سلافتها بيانه ، ومن قدرتها ايمانه ، ومن عذوبتها وجدانه .. والعروبة يا سيداتي وسادتى هى :

سدرة المنتهى لبيانى ووجدانى وايمانى من بداوتها صغت إبائي ، ومن فتوحها سلسلت كبريائي ، ومن شمائلها وثقت لطموحى ورجــائى . ومن حضارتها ادللت على الدنيا بضيائي . ومن لياليها القمراء ، تغفو على رمال الصحراء معطرة بالطيوف والأنداء فضضت بيانى ، ومن النسيم يهب على واحاتها ، ثم يحمل الطيوب الى فلواتها ، نمنمت ألحانى ، وسكبت أوزانى ، ولم اته على الدنيا لأننى خلقت عبقرياً ، ولكنني تهت على الدنيا لأنني خلقت عربيا .

لقد آمنت بالعروبة ، لأنني آمنت بالحق والخير والجمال ، آمنت بها وطناً للحق والخير والجمال ، وأمة للحق والخير والجمال ، وعقيدة للحق والخير ، فمن أراد العروبة ايماناً في قلبه ، وفناء في حبه ، وأنساً في وحشته ، وهناءة في سريرته ، وعالماً في وحدته ، فليتقرب الى نعمتها بالحق والخير والجمال .

أكرم زعيتر

البقية في العدد القادم



الصيام قبل الإسلام

بقلم: الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر



ما إن يقرب حلول شهر رمضان ، حتى تتداعى المعاني السامية ، وتتوارد الصور ، وتتلاحق الذكريات منبثقة عنه ، ويستعرض الفكر مواكب التاريخ الانساني من فجره وحتى يوم الناس هذا مستحضراً صورة النهار الصائم ، والظمأ في الهواجر ، والليل القائم وأنفاس المستغفرين بالأسحار وهي تتصاعد إلى الملأ الأعلى ، ودونها وقريباً منها صور أخرى للسلوك الإنسانى فى صيامه عن الشهوات ، وحبسه النفس على المكرمات ، مترقياً ومتسامياً بصور شتى تتهادى أمواجها بالنفس نحو تطهير الصائم فكره ، وبيانه ، وسلوكه ، ومنطقه .

ولكى ندرك قيمة ذلك التدريب والتطهير نتخيل ماذا يكون الإنسان لو فقد ذلك ؟

ماذا يكون الانسان لو فقد السلطان على شهواته وصار أسيراً لها ، بل ماذا يكون إحساسك نحو إنسان فقد الطهر فى فكره فلا يدور فى خواطره إلا كل شر وسوء لنفسه وللناس وللحياة ، وكم شقيت الحياة بهذا الصنف من الآدميين .

ماذا تحس نحو إنسان فقد الطهر فى قوله فلا تسمع منه إلا هجراً فى القول وفحشاً فى النطق ، وكم تقطعت أواصر واهتزت قيم بكلمة جارحة تطير كالسهم الطائش لا يملك عليها سلطاناً .

ماذا تحس نحو إنسان فقد الطهر فى سلوكه ، فأساء إلى نفسه وإلى الحياة والأحياء معاً وما مُج صوت المصلحين وترددت فى جنبات الدنيا دعوات الرسل إلا من أجل تصحيح الكلم والعمل بل إن حصاد الإنسانية إلى ربها لا يتصاعد منه إلا الطيب منهما (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) من أجل هذا ــ وأكثر منه ــ كان الصيام هو البلسم الواقى والعلاج الناجع بل وكادت تجمع عليه رسالات السماء ودعوات الرسل والمصلحين من كل دين حتى لقد تجاوز أمره أمم الديانات السماوية إلى غيرها من الأمم الوثنية .

وإن دل ذلك على شيء فأقرب دلالة له أنه الشريعة التى تتواءم مع الفطرة الإنسانية فى كل زمان ومكان ، سواء هديت إليها فطرة مركوزة فى طباعها أو تلقتها استحساناً وتقليداً لأهل الديانات من حولها ، أو حفظاً واعتزازاً بميراث نبوة سابقة .

فتاريخ الأمم والشعوب ينطق بكل دلالة على أنه لم تخل شريعة من الشرائع من التكليف بالصيام على وجه من وجوه التكليف التى عرفتها الأمم ، وتلك حقيقة يسلم بها جميع أهل الأديان والملل والنحل من كتابية وغير كتابية ، وسماوية وغير

● الصيام من العبادات البدنية ، ويكاد يشترك فيه كل من قبلنا كما أشار القرآن الكريم

● جاء الصيام في الإسلام وسطاً في الكمّ والكيْف ، وذلك لإنهاض همم المسلمين حتى لايتميز بها من كان قبلهم

سماوية ، وحتى الوثنية منها ، بل وحتى عصر الناس هذا مازال الصوم منسكاً من مناسك الأمم يتعبدون به إلى اليوم بصورة أو بأخرى .

وصدق الله العظيم (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) وقوله (ولكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه) .

وقد قال المفسرون فى بيان المراد بالذين من قبلنا أقوالا منها : أن المراد بالذين من قبلنا ، أى الذين كتب عليهم الصيام كما كتب علينا إنهم أهل الملل من قبلنا بإطلاق ، ونقلوا هذا عن حبر الأمة ابن عباس وهو من الصحابة الأجلاء وعن سيد من سادات التابعين هو قتادة ، نقل ذلك عنهما شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى .

ذلك أن مدار الدين ــ وهو فطرة فى الناس ــ يكون متعلقاً بالاعتقادات والعبادات ، والمعاملات والزواجر .

وأديان البشرية التى عرفت عنها فى تاريخها البعيد والقريب وأشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد) لها نهجها فيما سنته لأتباعها من معتقدات وعبادات لها أثرها فى شتى جوانب النفس الانسانية من روحية وبدنية ومالية وغيرها .

اختلافات الأمم

ومعلوم أن الصيام فى الذروة من العبادات البدنية وتكاد تشترك فيه كل الأديان المذكورة آنفاً بشكل أو بآخر .

وهو عبادة تقوم ــ أساساً ــ على كف النفس وحبسها عن شهواتها وعزفها عن أهوائها وصبرها على أمور ينجذب إليها طبعها وتدفعها دواعيها إلى الاخلال بها .

وقد جاء القرآن الكريم فى الذروة السامقة يعبر عن المضمون والهدف بهذا الايجاز المعجز (لعلكم تتقون) .

وإذا كان هدف الصوم ومقصوده الأساسى هو (التقوى) فإن هذا الهدف نفسه يمثل ركناً أساسياً وهدفاً أصيلا من دعوات الرسل جميعاً ، فالتقوى حكمة كامنة وراء كل دين بكل مضامينه وأخلاقه مصداق ذلك قول الله تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) .

وقوله تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) والله سبحانه (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) .

ومع هذا الوضوح فى مضمون الصوم وهدفه اختلفت الأمم والملل فيه اختلافاً تقارب وتباعد من الوسيلة والغاية ، وأتى هذا الخلاف على صور شتى من حيث الزمان والمقدار والصائم والمصوم عنه وداعى الصيام وغايته ، شتيت من الصور والأشكال يجمع شتاتها مجمل من القول : أنه فى الكم والكيف .

• فمن حيث الكم منهم من أطاله حتى أمل به وخرج به عن غايته كصوم الرهابين ومن على شاكلتهم .

ومنهم من قصره حتى أقله فأفقده أثره حتى لم يصر فى عداد مسمى الصوم فى قليل ولا كثير ، كصوم المجوس ومن على نهجهم .

• ومن حيث الكيف : منهم من حرم نوعاً من الطعام كاللحم تسلطاً على النفس بالنحول والهزال .

ومنهم من فرقه فى أيام السنة على صورة لم يستقر له معها نظام واختص العلم بها أحبار ورهبان .

• وجاء الاسلام وسطاً فى الكم والكيف فأقامه شعاراً ومنهجاً وعبادة وسلوكاً فعلق أمره برؤية الهلال الظاهر للأعين (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته) وأقامه تطهيراً للنفوس عن جميع ما يدنسها من الآثام ، وكفها ــ أثناء صيامها ــ عن اللذات الثلاث المأكل والمشرب واقتراب النساء مع الاعتقاد بأنه وإن وجب الامساك عنها فإنه ليس بمحرم عليها ، فجاء الصيام محدد الأحوال والأوقات والكيفيات .. واضح المعالم والأهداف .. متمايزاً ومتميزاً ، جامعاً ، ومانعاً .

وليست المماثلة لمن قبلنا فى الكم والكيف ، وإنما هى فى أصل الوجوب .

وقد جاءت تلك الإشارة بهذه المماثلة (كما كتب على الذين من قبلكم) لتحقيق أغراض تضمنها هذا التشبيه .. منها :

• الاهتمام بعبادة الصوم والتنويه بها لأنها شرعها الله قبل الاسلام لمن كانوا قبل المسلمين ، وشرعها للمسلمين ، وذلك يقتضى اطراد صلاحها ووفرة ثوابها ، وانهاض همم المسلمين لتلقى هذه العبادة كى لا يتميز بها من كان قبلهم .

• أن فى هذا التشبيه بالسابقين تهوينا على المكلفين بهذه العبادة لئلا يستثقلوا هذا الصوم ، إذ أن فى الاقتداء بالغير أسوة فى المصاعب ، وقد أكد هذا المعنى الضمنى قوله تعالى (أياماً معدودات) .

• إثارة العزم للقيام بهذه الفريضة حتى لا يكونوا مقصرين فى قبول هذا الفرض ، بل ليأخذوه بقوة تفوق ما أدى به الأمم السابقة .

من أنواع الصيام

فكيف كان أداء هذه الأمم السابقة لهذه العبادة ؟

هذا ما سوف نعرض له فى عجالة فيما نستقبل من سطور ..

أما بالنسبة للملل والنحل غير الكتابية وغير السماوية فقد ذهبت فى صيامها إلى حدى التطرف : إفراط وتفريط ، حسب مذهبها ونظرتها للحياة .

فنجد ــ مثلا ــ الديانة « الزرادشتية » نظراً لأنها تكره كل ما يؤدى إلى إضعاف الجسم ، وبالتالى ترفض الرهبانية ، فإنها بناء على ذلك تنهى عن الصوم إلا فى ظروف خاصة نادرة .

وعلى النقيض من ذلك ــ تماماً ــ الديانة « البرهمية » ، فإنها وهى تتجه بعبادتها إلى غاية واحدة هى فى نظرها (الفناء فى الله) والاندماج فى الكائن الأسمى حسبما تزعم وتعتقد ، فإنها ترى أن مما يساعد على الوصول إلى هذه الغاية الإنابة إلى الله والرجوع إليه والندم على ما فرط من المعاصى والآثام والورع والتقشف فى الحياة وإهمال مطالب الجسم لتصفو الروح التى هى قبس من الخالق .

ومن ثم فإنها تحث ــ على عكس الديانة الزرادشتية ــ على الاكثار من الصوم لما يؤدى إليه من إهمال المطالب الحيوانية ، وإضعاف القوى الجسمية وإضعاف تحكمها فى الإنسان ، بل إنها لتفرضه فرضاً على جميع الطبقات بعامة ، وعلى بعضها فى مناسبات كثيرة بخاصة وهذا فيما يختص بالصيام المفروض .

أما الصيام العام فإنه عندهم تطوع ونوافل وليس شيء منه فرضاً وله أنواع كثيرة ، وقد أشار ــ البيرونى ــ فى كتابه (تحقيق ما للهند ص ٤٨٥ وما بعدها) إلى بعض المراسم والطقوس التى ترتبط عندهم ببعض أنواع الصيام مثل : (ومن كان من شيعة (باسيديو) اجتنب فيها ــ أى فى أيام صوم معين ــ اللحم والسمك والحلوى واقتراب النساء وجعل أكله مرة كل يوم وجعل الأرض وطاءه من غير فرش ولا ارتفاع) .

الصيام
قبل الإسلام

ومن ذلك أيضاً ما يذكره عن بعضهم فى بعض صيامهم (وفيه يتلوثون بأخثاء البقر ، ويفطرون بلبنها وبولها وأخثائها مقطوبة . وهذا اليوم أول أيام خمسة يسمونها (بيشم بنج راتر) . ويصومونها لباسديو ..) الخ .

كذلك عرف المجوس الصوم ، ومن نحلهم نحلة (الصيامية) تجردوا للعبادة . وأمسكوا عن الطيبات من الرزق تزهداً ، وأمسكوا عن اقتراب النساء والذبح .. الخ !

كذلك عرف الصوم ملل ونحل من عبدة الأوثان ، فقد عرفه وثنيو الهند ولايزالون وغيرهم يصومون إلى الآن . ذلك أن الهند ــ بعامة ـ عرفت الصيام قبل الميلاد بعدة قرون وكان جزءاً من عباداتهم الشاقة القائمة على الرياضة القاسية الهادفة إلى تطهير النفس على حساب البدن .

كما عرف قدماء المصريين الصوم منذ أزمان سحيقة فى أيام وثنيتهم ، فكانوا يصومون أيام الأعياد . وكان الكهان يصومون ستة أسابيع فى العام ، وكان صومهم من طلوع الشمس إلى غروبها .

كذلك عرف اليونان الصوم إذ انتقل إليهم من قدماء المصريين وكانوا يفرضونه ولاسيما على النساء .

وكذلك عرف الرومان الصوم وكانوا يعنون به .

تفسير لصوم وثنى

وللإمام محمد عبده تفسير وتوضيح لصوم الوثنيين إذ يعلله : بأنهم كانوا يصومون لتسكين غضب آلهتهم ــ فى زعمهم ــ إذا عملوا ما يغضبها ، أو لإرضائها واستمالتها إلى مساعدتهم فى بعض الشئون والأغراض . وكانوا يعتقدون أن إرضاء الآلهة والتزلف إليها يكون بتعذيب النفس وإماتة حظوظ الجسد .

وانتشر هذا الاعتقاد فى أهل الكتاب حتى جاء الإسلام يعلمنا أن الصوم ونحوه إنما فرض لأنه يعدنا للسعادة بالتقوى وأن الله غنى عنا وعن عملنا وما كتب علينا الصيام إلا لنفعتنا .

الصوم عند أهل الكتاب

وأبرز أهل الكتاب ومن يراد بهذه الصفة عند الاطلاق هم :

• أهل الديانة التى جاء بها رسول الله موسى عليه السلام ونزل عليه بها كتاب من عند الله هو (التوراة) .

• وأهل الديانة التى جاء بها رسول الله عيسى عليه السلام ونزل عليه بها كتاب من عند الله هو (الإنجيل) .

وبنزول هذين الكتابين على رسوليهما ــ صلوات الله وسلامه عليهما وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ــ لقبوا بأهل الكتاب .

أما أهل الكتاب من اليهود فكان لهم صوم هو :

١ ــ صوم اليوم العاشر من الشهر السابع من سنتهم وهو الشهر المسمى عندهم (تسرى) . يبتدىء الصوم من غروب اليوم التاسع إلى غروب اليوم العاشر . وهو يوم كفارة الخطايا ويسمونه (كبور) !

٢ ــ ثم إن أحبارهم شرعوا : صوم أربعة أيام أخرى : وهى الأيام الأول من الأشهر : الرابع ، والخامس ، والسابع ، والعاشر من سنتهم تذكارا لوقائع بيت المقدس .

٣ ــ صوم يوم (بوريم) تذكارا لنجاتهم من غضب ملك الأعاجم (أحشويروش) فى واقعة (استير) .

٤ ــ وعندهم صيام التطوع : ومنه صيام نوح وموسى عليهما السلام . ففى سند الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« مر النبى صلى الله عليه وسلم بأناس من اليهود قد صاموا عاشوراء . فقال : ما هذا من الصوم ؟ قالوا : هذا اليوم الذي نجى الله عز وجل موسى عليه السلام وبنى اسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون . وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم فأمر أصحابه بالصوم » .

ومعنى سؤاله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو السؤال عن مقصد اليهود من صومه لا تعرّف أصل صومه .

وما روى من أن موسى عليه السلام لما قربه الله نجيا كان قد ترك الأكل أربعين يوماً ــ ثلاثين ثم عشراً ــ على ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) سورة الأعراف (١٤٢) ، وتابع قومه من بعده الصيام كل (اثنين) وكل (خميس) يوم صعد الجبل ويوم نزل منه .

ومن صيام التطوع عندهم ــ كذلك ــ صوم نبى الله داود عليه السلام . فعن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أفضل الصيام صيام داود عليه السلام كان يصوم يوماً ويفطر يوماً) رواه البخارى . وكان أحب الصيام وأفضله ــ تطوعاً ــ لأنه أشق على النفس . فإنه لا يعتاد الصيام ، ولا الفطر : وفاعله يمكنه أن يؤدى حق نفسه وأهله وزائره أيام فطره بخلاف من يتابع الصوم . فإنه لا يمكنه القيام بهذه الحقوق .

ومما ورد عندهم من نصوص التوراة التى فى أيديهم بشأن الصيام ما جاء فى :

• سفر (عزرا) الإصحاح الثاني ص ٧٥٠ (٢١) .

(وناديت هناك بصوم على نهر أهوا لكى نتذلل أمام إلهنا لنطلب منه طريقاً مستقيمة لنا ولأطفالنا ولكل مالنا) .

• سفر يوئيل : الإصحاح الأول ص (١٢٩٩) (١٤) : (قدسوا صوماً) .

• وفى الإصحاح الثانى ص ١٣٠٠ « ولكن الآن يقول الرب : أرجعوا إلي بكل قلوبكم ، وبالصوم ، وبالبكاء والنوح » (١٢) .

« ومزقوا قلوبكم لاثيابكم . وارجعوا إلى الرب إلهكم لأنه رءوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرأفة » (١٣) .

« قدسوا صوماً نادوا باعتكاف » (١٥) .

من صوم أهل الكتاب

ليس فى شريعة النصارى نص على تشريع صوم زائد على ما فى التوراة . فكانوا يتبعون صوم اليهود .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس :

(قالوا : يارسول الله إن يوم عاشوراء تعظمه اليهود والنصارى) .

(ثم إن رهبانهم شرعوا صوم (أربعين يوماً) اقتداء بالمسيح ، إذ صام أربعين يوماً قبل بعثته) .

(ويشرع عندهم نذر الصوم عند التوبة وغيرها) .

* * *

إلا أنهم يتوسعون فى صفة الصوم فهو عندهم :

ترك الأقوات القوية والمشروبات ، أو هو : تناول طعام واحد فى اليوم يجوز أن تلحقه أكلة

خفيفة . هذا ولهم صيام كثير أشهره صوم (الميلاد) وعدته ثلاثة وأربعين يوماً ويرخص فيه بأكل السمك .

وصوم (يونس) ، وصوم العذراء ، والرسل ، وصوم يونان ومدته ثلاثة أيام ، وصوم النذر والكفارة والتوبة الخ ثم الصوم الكبير وهو الذى صامه السيد المسيح عليه السلام ومدته خمسة وخمسون يوماً وهو أشهر صومهم وأقدمه قبل عيد الفصح ، وهو الذى صامه موسى عليه السلام ، وكان يصومه (عيسى) عليه السلام هو والحواريون ويمسكون فيه عن أكل المواد الغذائية والحيوانية . والمتشددون منهم ينقطعون عن الطعام من منتصف الليل حتى الساعة الثالثة تقريباً بعد ظهر اليوم التالى .

ثم وضع رؤساء الكنيسة ضروباً أخرى من الصيام وفيها خلاف عندهم بين المذاهب والطوائف ومنها : صوم عن اللحم ، وصوم عن السمك وصوم عن البيض واللبن .

وكان الصوم المشروع عند الأولين منهم كصوم اليهود يأكلون فى اليوم والليلة مرة واحدة فغيروه وصاروا يصومون من نصف الليل إلى نصف النهار .

ومن عاداتهم أمر الصائم يدهن الرأس وغسل الوجه حتى لا تظهر عليه امارات الصيام فيكون مرائياً .

ومما ورد عندهم من نصوص ما جاء : فى إنجيل متى : الإصحاح السادس (ص١١) :

« وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك »(١٧) لكى لاتظهر للناس صائما ، بل لأبيك الذى فى الخفاء . فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية »(١٨) .

وفى الإصحاح السابع عشر (ص٣٢) :

« لما رأى عيسى عليه الصلاة والسلام فتى وأخرج منه الشيطان قال لأصحابه : وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم »(٢١) :

وفى الاصحاح الرابع (ص٦) . « فبعد ما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً » (أى المسيح عليه السلام) (٢) .

ومما ورد من آثار فى ذلك ما أخرجه البخارى فى تاريخه والطبرانى عن دغفل بن حنظلة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« كان على النصارى صوم (شهر رمضان) فمرض ملكهم فقالوا : لئن شفاه الله لنزيدن عشراً ، ثم كان آخر فأكل لحماً فأوجع فوه . فقال : لئن شفاه الله ليزيدن سبعة ، ثم كان عليهم ملك آخر فقال : ما ندع من هذه الثلاثة الأيام شيئاً أن نتمها . ونجعل صومنا فى الربيع ففعل فصارت خمسين يوماً .

وجه التشبيه

يبقى بعد ذلك ان نتساءل ما هو وجه التشبيه فى قوله تعالى (كما كتب على الذين من قبلكم) ودلالته ؟

• هل هو تشبيه الفرضية بالفرضية ، أى فرض عليكم كما فرض عليهم ولا تدخل فى هذه الفرضية صفة الصوم ولا عدة أيامه ؟

• أم هو فى اتفاق الصومين المكتوب عليهم والمكتوب علينا فى الوقت والمقدار الذى هو لازم لنا اليوم فرضه ــ وهو شهر رمضان ــ بالذات ؟

(أم هو رمضان بالذات مع زيادة قيد وهو أنه كتب عليهم أن لا يأكلوا ولا يشربوا ولا يقربوا النساء بعد النوم . ولم يزل المسلمون على ذلك يصومون حتى نزل قول الله تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) سورة البقرة .. وصارت أكلة السحر فصل ما بين صيامنا وصيامهم .

والجواب عن ذلك أنه بكل واحد من هذه الأقوال قال بعض العلماء والمفسرين :

ويقول شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى بعد أن ساق كل قول ودليله :

وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : إن معنى الآية : يأيها الذين آمنوا فرض عليكم الصيام كما فرض على الذين من قبلكم من أهل الكتاب أياماً معدودات وهى شهر رمضان كله لأن من بعد (ابراهيم) عليه الصلاة والسلام كان مأموراً باتباع (ابراهيم) وذلك أن الله جل ثناؤه كان قد جعله للناس إماماً . وقد أخبرنا الله عز وجل أن دينه كان الحنيفية المسلمة فأمر نبينا صلى الله عليه وسلم بمثل الذى أمر به من قبله من الأنبياء .

وأما التشبيه فإنما وقع على الوقت ، وذلك أن من كان قبلنا إنما كان فرض عليهم (شهر رمضان) مثل الذى فرض علينا سواء . والله ولى التوفيق .

حسن عيسى عبد الظاهر

● كيف كان أداء الأمم السابقة لعبادة الصيام ؟ ولماذا تطرفت بعض الملل فى أدائه ؟

● لماذا رأى الرسول الكريم ، أن أفضل الصيام هو صيام داود عليه السلام ؟

الفكر الاجتماعي وقضية التنمية

بقلم: الدكتور علي الدين هلال

من التعبيرات التي ذاعت في الفكر العربي في العقدين الأخيرين مفهوم التنمية ، ونجد الكلمة تستخدم في الوثائق الرسمية والخطط الحكومية وفي أبحاث ودراسات الأكاديميين الذين يتحدثون عن التنمية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية إلى غير ذلك من مجالات . وبقدر ما اتسع استخدام التعبير وذاع بين الناس ، بقدر ما استخدم في مجالات تخرج عن معناه ومقصده . فالبعض يستخدم مفهوم التنمية بمعنى التقدم ، والبعض الآخر يستخدمه بمعنى التحديث ، والاتجاه إلى أشكال أكثر عصرية من التنظيم الاجتماعي . والبعض يستخدمه كمرادف لتعبير التغير ، وهذه الاستخدامات رغم أنها غير دقيقة إلا أنها تشير إلى معان ودلالات ارتبطت من فترة تاريخية أو أخرى بمفهوم التنمية .

رغم أن مشكلة التنمية لم تطرق أبواب العلم الاجتماعي إلا في نهاية الحرب العالمية الثانية . فمنذ القرن السادس عشر على الأقل والمفكرون الاجتماعيون يعالجون موضوع التغير والتطور في المجتمع ، ويكفي في هذا المجال أن نستعرض بسرعة أهم معالم هذه المعالجة . فكل من فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) ورينيه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) تصورا أن الإنسان يستطيع أن يحقق تقدماً لا حدود له بفضل جهوده الارادية الواعية . ووضع فونتنيل (١٦٥٧ ـ ١٧٥٧) نظرية للتقدم الاجتماعي تقوم على أساس أن تراكم المعرفة العلمية هو أفضل طريق لتحقيق التقدم ، وتأكدت فكرة التقدم وحتميته بالنسبة للمجتمع الإنساني ، فرأى سانت بيير (١٦٥٨ ـ ١٧٤٣) أن الحضارة تسير دائماً نحو التقدم . ونظر تيرجو الى تطور التاريخ والحضارة على أنه عملية تراكمية بحيث يعجل كل تطور حضاري بذلك ، ويؤكد كوندرسية (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤) أن التقدم أمر حتمي للحياة الإنسانية . وأن أساس تقدم الإنسانية هو تقدم العقل البشري ، وعلى يد سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) الذي بشر بالعصر الذهبي الذي ستصل إليه الإنسانية في مستقبلها نتيجة للتقدم العلمي . أصبحت فكرة التقدم هي محور عملية التطور وقدم أوجست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) نظريته المشهورة عن المراحل الثلاث التي تعكس عملية التقدم في التاريخ . وحتى بداية القرن العشرين إختلطت فكرتا التغيير والتقدم لدى عالم الاجتماع الإنجليزي هربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٢) الذي رأى أن التقدم الاجتماعي يسير في وفاق مع التقدم الكوني والبيولوجي ، وأن التطور الاجتماعي هو جزء من عملية طبيعية شاملة تحدث في الكون .

والفكر الاجتماعي في القرن التاسع عشر يقدم لنا أيضاً بداية التمييز بين أنماط متعددة من المجتمعات . فالسير هنري مين في كتابه القانون القديم (١٨٦١) يميز بين مجتمعات قائمة على المكانة الاجتماعية وأخرى على التعاقد ، وأن جوهر التطور هو الانتقال بالمجتمع من وضع المكانة الاجتماعية إلى وضع التعاقد . كما ميز تونيير (١٨٨٧) بين الجماعة والمجتمع حيث يسود الأولى طابع المحلية والعلاقات التلقائية الطبيعية أو ما يسميه بالإرادة الطبيعية التي تجد أساسها في العائلة أو القبيلة . وفيه تعد الجماعة بمثابة تنظيم طبيعي يرتبط به الإنسان من الميلاد إلى الممات ويشعر بالانتماء إليه وتسود الوحدة العضوية والقيم المشتركة والتناسق الداخلي . أما المجتمع فيعرف الارادة العاقلة أو الرشيدة . حيث تسود قيم التعاقد والعمومية والانتماء إلى جماعات غير طبيعية كالنقابة أو الحزب . كذلك يفرق أميل دوركهايم (١٨٩٣) بين مجتمعات بسيطة وأخرى مركبة .

الأولى يسودها التضامن الآلي ، الذى يقوم على التشابه في الأبنية والقيم السائدة والأفكار ، والثانية تقوم على التضامن العضوي الذي يعتمد على التباين الذي يؤدي إلى التكامل وحيث يكون البناء الاجتماعي تنظيماً للعناصر المتباينة .

هذه النماذج الثلاثة ـ مين وتونيير ودوركهايم ـ ليست سوى أمثلة لعديد من الثنائيات التي قدمها الفكر الاجتماعي في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ومنها التمييز بين التقليدي والحديث ، والحضري والريفي ، والزراعي والصناعي . لكن كل هذه المحاولات لم تخرج عن إقامة ثنائية بين نوعين من المجتمعات دون أن توضح لنا كيفية الانتقال من أحدهما إلى الأخرى والقوى التي تحكم هذا الانتقال .

وتنتقد هذه الثنائيات على أكثر من أساس فهي ..

أولا : تخلط بين مفاهيم التغير والتطور والنمو والتقدم .

ثانيا : فان لها طابعاً سكونياً جامداً وتفترض أن كل المجتمعات لابد أن تنضوي تحت أي من النمطين .

ثالثا : تتضمن في ثناياها انحيازاً للنموذج الغربي في التنمية وافتراض أن نموذج المجتمع الغربي هو غاية عملية التنمية ونهايتها .

من التنمية الاقتصادية الى التنمية المجتمعية

ذكرنا أن موضوع التنمية فرض نفسه على دراسات العلوم الاجتماعية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وبالذات مع استقلال دول آسيا وأفريقيا . ومرة أخرى كانت سرعة التطور التاريخي أكبر من التراكم العلمي والأكاديمي . فقد

وضح مدى تخلف الدراسات العلمية عن استيعاب الحقائق الجديدة ، ومعالجة المشاكل المستحدثة التي طرحتها هذه البلدان . وكان علم الاقتصاد أسرع العلوم الاجتماعية استيعاباً للموضوع ، وبرزت التنمية الاقتصادية كأحد اهتمامات العلم الرئيسية وربما كان سبق علم الاقتصاد في هذا المضمار مرجعه أربعة أسباب ..

أولها ـ أن الحكومات شجعت ذلك من حيث تركيزها على مشكلات التخلف الاقتصادي .

ثانيها ـ أن الآثار الاقتصادية الناجمة عن التخلف من بطالة وفقر ... الخ لها طابع العجلة .

ثالثها ـ أن علم الاقتصاد أكثر قدرة على التعبير الرقمي عن متغيراته .

رابعها ـ أن موضوع التنمية السياسية والاجتماعية قد يثير حساسيات وخلافات لاتوجد رغبة في إثارتها .

وتطرف البعض في التركيز على البعد الاقتصادي الى حد اعتباره العنصر الوحيد لعملية التنمية ، ووصلوا إلى نوع من الحتمية الاقتصادية أو التكنولوجية مؤداها أن كل المتغيرات التي تطرأ على المجتمع يمكن ارجاعها في نهاية الأمر إلى عوامل إقتصادية أو تكنولوجية : يترتب على ذلك أن تصبح المدخلات الاقتصادية أو التكنولوجية هي السبيل الوحيد لاحداث التغيير الاجتماعي .

ولا شك أن في ذلك تبسيطا شديدا لمفهوم التخلف لتداخل مختلف ظواهر الحياة الاجتماعية جدلياً وتساندها وظيفياً ، وبتقدم الدراسة في الموضوع اتضح شمول ظاهرة التنمية ، وأن التنمية الاقتصادية ما هي ألا إحدى متغيرات الظاهرة التي تشمل متغيرات اجتماعية وسياسية أخرى . وأنه ينبغي أن نأخذ في الاعتبار عوامل اجتماعية أخرى مثل طبيعة البناء الاجتماعي والعدالة في توزيع الدخل والتكوين الفكرى وبناء القيم في المجتمع والنظام السياسي والسياسات المتبعة .

كما اتضحت العلاقة الوثيقة بين مختلف جوانب عملية التنمية ، فالتنمية الاقتصادية ترتبط بعديد من الجوانب الاجتماعية من حيث شروطها ونتائجها . فنجاحها يتطلب وجود مؤسسات اجتماعية معينة وقيم ونظام تعليمي وخبرات فنية وتكنولوجية . فالقيم الاجتماعية التي تضبط السلوك الاجتماعي وتوجهه تمارس تأثيراً على عملية التنمية من حيث آثارها المباشرة على الحوافز وأنماط الاستهلاك وحجم المدخرات وحجم الأسرة . ويدخل في ذلك أيضاً دور المعتقدات والتقاليد والعادات والأوضاع والالتزامات العائلية والقبلية . كما تتطلب التنمية الاقتصادية اعتبار التعليم وما يتصل به كالتدريب المهني والبحث نوعاً من الاستثمار وتوجيه سياسته وفقاً لاحتياجات التنمية . ومن حيث الآثار والنتائج فإن التنمية الاقتصادية تطرح آثاراً على أشكال وأبنية المجتمع سواء فيما يتعلق بوضع الأسرة أو بدرجة العمران (التحضر السكني في المدن) أو بنسق القيم السائدة والعلاقات الاجتماعية والعلاقة بين الأجيال . كما أنها تستهدف في التحليل الأخير هدفاً اجتماعياً وهو توفير حد أدنى من الإشباع الاقتصادي اللازم لتحقيق رفاهية الإنسان .

التنمية الاجتماعية من الناحية الأخرى تستهدف إقامة بناء اجتماعي يضمن استثمار إمكانات المجتمع البشرية والمادية أفضل استثمار ممكن ، ويضمن توزيع عائد التنمية الاقتصادية توزيعاً عادلاً ، فالتنمية الاجتماعية تستهدف إحداث تغييرات اجتماعية في أبنية المجتمع ووظائفه ، ويتضمن ذلك البناء السكاني والمؤسسات الاجتماعية وأنماط العلاقات الاجتماعية ونسق القيم والمعايير السائدة .

وهناك علاقة وثيقة بين البناء الاقتصادي لمجتمع ما ، والشكل السياسي له والقوى الفاعلة فيه . ومن ناحية أخرى فان التنمية الاقتصادية تتطلب درجة من الاستقرار السياسي الذي يدفع إلى ازدياد معدلات الادخار ويخلق إطاراً نفسياً ملائماً للعمل المشترك ، كما تتطلب جهازاً إدارياً على درجة عالية من الكفاءة .

نتج عن ذلك على المستوى الاكاديمي حركة مزدوجة من ناحية ازدياد اهتمام الاقتصاديين بالعوامل غير الاقتصادية في عملية التنمية ولعل دراسات روستو وهاجن وميردال أفضل أمثلة في هذا المجال . ومن ناحية أخرى تطور الاهتمام بموضوع التنمية في مجال الدراسات الاجتماعية الأخرى كعلم الانسان (جيرتز) وعلم النفس (ماكليلاند) وعلم الاجتماع (مور وليرنر) وعلم السياسة (الموندو فيربا ، وباي وكولمان وفيربا) .

وعلى المستوى الحكومي اهتم المخططون بدور العوامل الاجتماعية في عملية التنمية مثل الاعتراف بدور القيم أو النظام الاداري في تعويق عملية التنمية أو الاسراع بها . وأشارت العديد من برامج التخطيط في البلدان النامية الى هذه الحقيقة ، وكانت نتيجة هذه الحركة أن أصبحت التنمية الاقتصادية جزءاً من كل ، وازداد الادراك بأن تنمية الاقتصاد لا يمكن فصلها عن تنمية المجتمع ككل واطلاق قواه الكامنة .

ما هي التنمية ؟

هي عملية شاملة متعددة الأبعاد والجوانب : بمعنى أنها تشمل المجتمع بأسره بكل ما يتضمنه من أنماط سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية . فمن المسلم به لدى أغلب الباحثين أن المجتمع يمثل وحدة عضوية كلية مترابطة يتأثر كل جزء بها بالتغير الذي يطرأ على باقي الأجزاء .

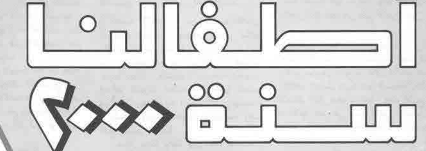
موضوع التنمية إذن من الموضوعات التي تشكل اهتمام كافة الدراسات الإنسانية : فعلم الإنسان (الأنثروبولوجي) يدرس تطور الأنماط المعيشية والثقافية للإنسان من أشكالها البسيطة البدائية إلى الأشكال الأكثر تعقداً وتركيباً . وعلم التاريخ يقدم لنا الاطار التاريخي لعملية التطور والعوامل التي ساهمت في تحديد مسارها . وعلم الجغرافيا يدرس البيئة الجغرافية للإنسان من موقع ومناخ وتضاريس والعلاقات المتبادلة بين البيئة والإنسان تأثيراً وتأثراً . وعلم الاقتصاد يتناول تطور الأنماط الاقتصادية . وكيفية تنظيم المجتمعات المختلفة لنظمها الانتاجية . وعلم النفس يدرس العلاقة بين التغيرات من الأبنية الاجتماعية والسياسية وبنية الوعي الفردي والأمراض النفسية أو أشكال الاختلال وعدم التوازن التي يمكن أن تنتاب الإنسان نتيجة لهذه التغيرات ، وعلم الاجتماع يدرس المشاكل المرتبطة بالتطور من حيث نشوء أبنية اجتماعية جديدة وأدوار ووظائف مستحدثة ، والانتقال بالولاء من العائلة إلى جماعات جديدة أوسع نطاقاً . وعلم السياسة يدرس طبيعة العمليات والنسق السياسية المرتبطة بتطور الأبنيةالاجتماعية .

قضية التنمية إذن هي قضية تغير حضاري شامل يتناول كافة أبنية المجتمع وأدواره . ويشمل الجوانب المادية والانسانية فيه . يترتب على ذلك أن أية نظرية في التنمية الاقتصادية أو السياسية مثلاً لابد أن تنبثق عن . وترتبط بنظرية عامة في تطور المجتمع ، وأن تأخذ في اعتبارها جوانب المجتمع المختلفة التي تتعرض لعملية التنمية ، لذلك لابد من الأخذ بمنهج ينظر الى الظاهرة التنموية في تكاملها ويسمح بالنظرة الشاملة للبناء الاجتماعي ككل .

وهكذا نخلص إلى أن التنمية ليست مجرد زيادة مستوى الدخل ولا مجرد تحقيق أهداف اقتصادية . وليست مجرد استعارة الأنماط التكنولوجية المتقدمة من الدول المتقدمة . فالتنمية كقضية حضارية جوهرها تحقق الغايات الجماعية للأفراد في إطار المجتمع . والسياسة التنموية هي تلك التي تسمح للأفراد وتنظيماتهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مواجهة العقبات التي تحول دون ذلك . وتمكنهم من إطلاق قواهم الكامنة لتحقيق هذه الأهداف وبحيث يمتلك المجتمع قواه الدافعة من داخله . ويصبح قادراً على تحقيق استقراره وتوازنه على طريق الغايات الجماعية للمجتمع .

● التنمية ليست مجرد زيادة الدخل وتحقيق أهداف اقتصادية فقط ، بل هي عملية أشمل وأوسع

انتبهوا أيها العرب



بقلم: الدكتور السيد فهمي الشناوي

- أخطر التحديات التي لم نستوعبها حتى الآن: تطبيع الطفل العربي على الكمبيوتر والاليكترون
- كيف نقاوم «المغناطيسية» العلمية الغربية التي تسرق من الوطن العربي أعظم الكفاءات والمواهب؟
- أهمّ من الجامعات: مراكز البحث العلمي في الذرّة والفضاء وزرع الأعضاء وعلاج السرطان

لم يبق الا ١٥ عاماً ويبدأ ــ بمشيئة الله ــ القرن الحادى والعشرون الميلادى ، واذا كانت النظرة الى المستقبل أهم من النظرة الى الحاضر ، فإن الغد المأمول قد يحقق للأمة العربية ما افتقدته فى أمسها أو يومها . ولا تحسبن الأمل فى الغد هو خيال فإن الخيال دائماً يسبق الواقع ويلده . والتخطيط للطفل العربى يجب أن يسبق التنفيذ . ويمكن للعرب أن يخططوا لطفلهم ما افتقدوه هم فى أمسهم أو يومهم . وقد يحقق الأبناء ما افتقده الآباء من أماني عزت عليهم . واذا كان هناك فارق ملحوظ بين واقع العالم الصناعى المتقدم وواقع العرب المعاصر ، واذا كان التقدم العلمى يمضى بخطى الساحر وبسرعة البرق ، فإن تشكيل الطفل على أساليب المدنية الحديثة وأدواتها ، وتمهيد عقله لتقبل أدواتها التكنولوجية هو الأمل الوحيد لطي المسافة بين وضعنا والوضع العالمى المتقدم .

والله عادل . إنه يخلق أطفال العالم كلهم على قدر واحد من المساواة المطلقة : فوجبة الطفل ابن الفقير هى هى وجبة الطفل ابن الغنى . وانما هما أبواه بعد ذلك اللذان يشكلانه . وانما هو الطريق الذى مهده له أو لم يمهده له مجتمعه هو الذى يسلكه الى حيثما ينتهى به . فيحسن اذن بالعرب أن ينظروا فى واقع أنفسهم ليحددوا أوجه نقصهم فيتداركوها عن أبنائهم . فإن هم فعلوا ذلك كان مردودهم أوفر غلة من أى استثمار مالى أو صناعى أو تجارى . فالطفل أسرع الأشياء نموا وإن لم تلحظ عيونكم ذلك . والطفل أسرع ما فى الوجود تطورا .

فخمسة عشر عاماً من حياة طفل يمكن أن تحوله من خلال التعليم من مخلوق صفر ضعيف ، معتمد على أبويه عاجز عن اطعام نفسه أو سقياها الى خريج جامعة يرتاد الفضاء ويحطم الذرة ويشق الانفاق ، ويزرع الصحراء ويشق الجبال . وهو بعد هذه الطفرة لا ينمو الا ببطء أشبه بالعدم وربما يبدأ الانحدار . فترة التطور الحقيقية ، اذن ، هى من الطفولة الى الشباب . وموقع التطور الحقيقى فى أى مجتمع هو مجموع الأحداث . أما الرجل أو المرأة فقد فاتهم التطور فى معظمه .

حذار أن يكون أطفالنا فى ساحة أطفال العالم متفرجين على أبناء الفرنجة فقط . وتذكروا أنه يمكن لابن التابع أن يبدل مركزه مع ابن السيد — بالتعليم وحده — فى فترة لا تتجاوز ١٥ عاماً وتذكروا أن العدالة الاجتماعية الحقيقية لا تحققها القوانين ولا النظم السياسية . وانما يحققها التعليم وحده ويحققها فى سلم وسلام سريعين جدا . وتذكروا أنه ممكن — عن طريق التعليم وحده — إتاحة المساواة السياسية أو حتى التفوق السياسى للعرب على المجتمعات الدولية الأخرى ، وأن هذا الانفاق فى هذا الباب هو أقل كلفة مرات ومرات عن الانفاق فى السلاح أو التناور السياسى أو حتى عن البذخ الفردى .

فاما عن أن نفقة التعليم أقل كثيراً من البذخ الفردى ، فمن الحقائق الاقتصادية السليمة — وربما غير المعروفة للعامة — هى أن الهالك لدى أى فرد متوسط لا يعيش حياة مترفة اطلاقاً من فاقد فى الطعام أو فى اللباس أو فى التغيير الذى لا مبرر له يصل الى عشرين ضعفاً — على الأقل — مما ينفقه فى باب طلب العلم ؟

فالعلم اذن هو السحر الحقيقى الحديث . السحر المتاح للجميع والسريع المفعول .

الكومبيوتر

ان أول ما ينقص الطفل العربى فى باب التعليم وما يجب أن توفره له ونحن نعده للقرن الحادى والعشرين الذى سوف يهل علينا فى غمضة عين قدرها ١٥ عاماً — هو تطبيع الطفل على الكومبيوتر والألكترون . لقد تطورت أداة التعليم من اللوح الأردواز الى الريشة والدواة الى القلم الحبر الأمريكانى الذى يحمل دواته داخله الى القلم الجاف الى المسطرة الحاسبة . ثم قفز قفزة واحدة الآن الى الكومبيوتر والالكترون . وعقول الآباء العرب لم تستوعب حتى الآن هذه الحقيقة البسيطة ويصرون على ارسال أولادهم الى المدارس بالقلم الجاف !

ان الفرق بين استخدام الكومبيوتر فى العملية التعليمية أبعد أثرا مرات ومرات لا حصر لها عن الفرق بين استخدام المطبعة فى طبع الكتب والمجلات وبين نسخها باليد . هل تتصور أنه فى عصر النساخين كانت هذه المطبوعة تصلك حيث أنت الآن ، وتصلك بسعرها الزهيد هذا وتصلك معها آلاف وآلاف غيرها ؟

ان الفرق بين من يستخدم الكومبيوتر فى العملية التعليمية ومن لا يستخدمه قد يكون أكثر من الفرق بين من تتاح له كل كتب مكتبة الكونجرس أو الاسكوريال وبين من لا يملك الا هذه المطبوعة .

وقد يكون أكثر من الفرق بين من تتاح له أخبار العالم كلها عبر الراديو ومن هو مسجون فى معتقل فى قلب الصحراء .

وليس الكومبيوتر بباهظ الثمن ، بل هو أقل كلفة من المدرس ، خصوصاً أن كان مدرساً خاصاً ، ثم هو مدرس تحمله معك حيث تكون وفى كل آن وأوان ، ويدرس لك كل العلوم وكل المعلومات وبأسرع مما يتيحه المدرس التقليدى وأكثر منه دقة ، ويمكنه أن يمتحنك ويصحح اجابتك دون أن يجللك بخزى الرسوب أو يرميك بقاذع اللفظ أو يضع قلمه الأحمر على خط سير حياتك .

ثم ان له فائدة قصوى قد لا تدركها العقول الآن وهى أنه سوف يمنع تماماً هجرة العقول العربية أو نزيفها الى أوربا وأمريكا لأنه سوف يتيح لها وهى مستقرة فى دارها وأهلها كل الجو العلمى والحقائق العلمية التى تجذب حاليا ضحيتها الى الخارج بالمغنطيسية العلمية حتى تسلمه الى مغنطيس آخر سياسى أو اجتماعى أو عقائدى .

ان نزيف العقل العربى سوف يتوقف تماماً عند من يستعملون الكومبيوتر .

وفى باب الاحتفاظ بالعقول العربية ، كم نود لو أن الدول القادرة أنشأت عندها كلها مراكز بحث علمى متعمق بدلا من الجامعات التى تتنافس فى انشائها ثم يتخرج خريجوها ويتغربون أو يتأوربون أو يتأمركون . هذه الجامعات أكثر من الحاجة الحقيقية للمجتمع العربى . وقد أنفق عليها فى سخاء كان يمكن أن ينشىء مراكز بحث علمى فى الذرة والفضاء وزرع الأعضاء وعلاج السرطان . وهذه المعاهد كفيلة بجذب العقول العربية الجامعية للبقاء فى الوطن ، بل هى كفيلة بعملية هجرة معاكسة للهجرة الحالية . واعنى هجرة عقول أوربية الى هذه المعامل والمراكز العلمية .

قد تكون مهمة الجامعة هى جعل العلم فى خدمة المجتمع أو الدولة . ولكن مهمة مركز البحث المتقدم هى شىء غير هذا : هى العلم من أجل العلم ، هى البحث العلمى من أجل علم جديد . هى فتح مناجم العلم التى هى أوفر من مناجم الذهب وآبار البترول .

إن كل قرش يصرف على البحث العلمى هو تحويل معدن خسيس الى معدن نفيس . وتحويل التراب الى ذهب ولكنكم لا ترونه ذهبا الا بعد فترة .


حذار أن يكون أطفالنا فى ساحة أطفال العالم متفرجين فقط



ان جانباً بسيطاً من فائض الغاز الذي يحترق أو جانباً بسيطاً من تذبذب أسعار البترول أو جانباً من فرق سعر القطن في الأسواق العالمية كفيل بأن يؤسس مراكز بحث علمي عالمي . ان كل مراكز البحث العلمي الغربية التي تجذب شباب علمائنا لم ينشئها الا أفراد بتبرعات وهبات . وهؤلاء الأغنياء المتبرعون يعتبرون بالنسبة لاغنيائنا فقراء .

وفي مجال الاحتفاظ بالعقول العربية في الوطن العربي يمكن أن تقوم مؤسسة تبحث عن الطلاب النابهين في الجامعات العربية وترعاهم أبوياً في مراقبة تطورهم العلمي بحيث يصلون الى مستوى دولي . ان هذا العالم الصغير أو الشاب عندما يرى أن له أباً روحياً في الوطن العربي وأنه يساعده ويستحثه للتنافس الدولي وانه يعده للسباق العالمي كما يعد خيوله سوف يثبت له جدارته بهذا التنافس العالمي الحر وسوف يرتبط بالوطن العربي .

ومراكز البحث العلمي العربي كما أتخيلها يجب أن تشمل أيضاً مراكز بحث في العلوم الانسانية والاجتماعية . فليس عالمنا العربي عالماً للآلات ولكنه عالم للانسان والروح والعاطفة أيضاً ، على كل الأحوال يجب أن يحول جانب كبير من اعتمادات إنشاء الجامعات الى انشاء مراكز بحث علمي متعمق أو متطور . أن سياسة وانشاء الجامعات قد تجاوزت المدى المعقول حتى أصبح أجر الخادمة الأمية خمسة أمثال أجر الجامعية المتعلمة . وأصبح أجر سائق الآلة أو خفيرها أضعاف أجر مهندسها . وأصبح ايراد الميكانيكي اليدوي أضعاف الجامعي ذي العمل الحر المهني . وأصبح الهرم مقلوباً .

الالكترون

تطورت اليابان الى مركز الصدارة عن طريق رؤيتها قبل غيرها لأهمية الالكترون . وسبقت غيرها في مجال استخدامه ، فقفز بها الى الصف الأول في نحو عشر سنوات رغم خروجها من الحرب العالمية الثانية محطمة وارادتها مرغمة .

اذا كان الكومبيوتر هو القلم والورقة بالنسبة للتلميذ والطالب والجامعي ، فان الالكترون هو العدة الجديدة للصانع والزارع والتاجر والحرفي في عصرنا وسوف يكون أكثر أهمية في المستقبل القادم القريب . ان الالكترون قد حول العامل من حداد أوعتال أو شيال يبيع قوته وصحته ويعرض بصر عينيه للشراء ويعرض صحته للبخار والتراب ، الى صانع حديث يشغل بالالكترون كل شيء من أول لعبة الطفل الى أدوات الزراعة والطب والصناعة الى السيارات والسفن والطائرات ومالا أدرى من أشياء .

ان المدارس الصناعية والتجارية والزراعية في طول الوطن العربي وعرضه قد خرجت فئات نهضت بالعمل اليدوي والفني نهضة أغنتنا عن الخضوع الكامل للاستعمار بفنونه وآلاته ووسائل مدنيته . ورغم أن هذه المدارس لم تحظ بالاهتمام الذي حظيت به جامعاتنا بل لقد تحول بعضها الى جامعات . رغم هذا كله فان هذه المدارس تحتاج الآن الى تطوير شامل وسريع يقوم أساساً على استخدام الالكترون في كل ميدان يمكن استخدامه فيه : زراعياً أو صناعياً أو تجارياً .

ان الكهرباء على قدر ما قدمت للعالم كله من تقدم مثلها مثل مصادر الطاقة الأخرى من بترول وفحم وخلافهما ـ قد أصبحت الآن بعد الالكترون كما يصبح الرجل العاجز امام الساحر المعجز . فالراديو بعد أن كان بالكهرباء ، لا يقوى على حمله رجل فحل ، أصبح هو نفسه بالالكترون يوضع في جيب الصبي وأصبحت أجهزة التجسس الالكترونية من خلف الجدران المحكمة تقوم بما لم نكن نتخيله عن الجن والعفاريت . ان العامل العربي يحتاج الآن الى من ينبهه الى ضرورة استعمال الالكترون ويذهب إليه في دكانه ويفتش على وجود الالكترون ويشترطه في رخصته . لأن هذه هي الأداة الى التحرر السياسي الحقيقي ، والى التقدم الاقتصادي السريع والى تطور المجتمع من مجتمع نائم الى مجتمع متيقظ ويسابق الريح .

البحث العلمي

اذا كانت بعض الدول تزرع في كل مصنع مندوباً يراقب الانتاج حتى تتم لحظة السباق الدولي ، فاننا نحن العرب في حاجة الى أن يكون في كل موقع مندوب عن وزارة للبحث العلمي أو اكاديمية العلوم أو أي جهة رئيسية يكون هدفها هو تطوير الواقع العربي الى وضع علمي متسابق مع العالم الخارجي . ان مثل هذا الملاحظ في أي مصنع أو شركة أو مؤسسة سوف يستحث تطبيق أحدث وسائل العلم في الانتاج والتصنيع ، والتوزيع وسوف يطور الانتاج أضعاف أضعاف ما ينفق على الاعلان أو التسويق أو السمسرة أو خلاف ذلك .

ومثل هذا الملاحظ العلمي سوف يطور الجو الى جو علمي متفتح منسجم وموحد ومندفع نحو هدف واقعي . ان الملاحظ العلمي لا يقل أهمية للعرب حالياً عن الطبيب أو المهندس أو القاضي أو الضابط أو الأديب . فهذه الوظيفة الى جانب « مدن العلماء » أو « مدن العلم للعلم » يمكن أن تعيد العصر الذهبي للمدارس العربية العلمية القديمة في قرطبة وفي بغداد وفي خوارزم . ويمكن أن تفرخ ابن سينا آخر ، وابن رشد جديد !

الوحدة العربية للطفل العربي

لقد عاني العرب في تاريخهم مرارة فشلهم في قيام وحدة بينهم ويجب أن يحققوا لأبنائهم ما حرموا هم منه .

لم يحقق العرب قدراً معقولا من الاتحاد والتجمع الا في مواجهة الحرب فقط . في حرب ٧٣ حققوا قدراً معقولا باتحاد جيشي مصر وسوريا ثم بالمقاطعة البترولية . وفي حرب ٦٧ حققوا قدراً من الوحدة في مقررات مؤتمر الخرطوم . وفي عدوان ١٩٥٦ هبوا متعاطفين مع مصر وقطعوا البترول بمبادرات شعبية . وفي حرب ٤٨ كان هناك بعض التجمع أيضاً .

ولكن في زمن السلم تتمزقهم الخلافات والتفرقة . والأساليب السلمية لا يلجأون إليها كأسلوب تكتل وتوحيد . فمثلا لو أن هناك خطاً حديدياً من طنجة الى القاهرة ينقل البضائع والركاب أو على الأقل طريقاً برياً ــ اوتوستراد ــ لحقق هذا ــ وبمكاسب مادية ــ ما عز تحقيقه بالمناورات السياسية والحملات الاعلامية والمؤتمرات العربية رغم كل ما تنفقه بدون عائد .

لقد كانت بريطانيا قبل أن تفاجئها الحرب العالمية الثانية تخطط لاقامة امبراطورية أفريقية لها عن طريق مد طريق برى من القاهرة الى كيب تاون .. لا أكثر .

ولقد كانت تركيا العثمانية حتى في أواخر أيامها تمد خطا حديديا من اسطنبول الى المدينة المنورة ومن اسطنبول الى بغداد .

ان طبيعة الأرض العربية تجعل سكان الوطن العربي متجمعين في جزر تفصل بعضها عن البعض بحار من الرمال الشاسعة . فواحة وادى النيل تفصلها عن ليبيا الصحراء الغربية . وعرب الشمال يفصلهم عن وادى النيل الصحراء الشرقية . وعرب العراق يفصلهم عن عرب الشام بيداء شاسعة . وان اتصالات الطيران والاتصال اللاسلكي وحتى اتصالات القمر الصناعي العربي لن تغني أبداً عن الاتصال الأرضي الذي يخلط الشعوب ويصلها كما تصل الأسرة أبناءها .

ان فقد الاتصال الأرضى بين مصر والأردن عبر صحراء النقب كان عاملا حاسماً فى نزع أرض فلسطين من الجسد العربى ثم كان عاملا حاسماً أيضاً فى فك الوحدة المصرية السورية عام ١٩٦١ .

لقد قامت محاولات اقليمية للوحدة فشلت جميعها لعدم وجود الاتصال الأرضى : قام مشروع الهلال الخصيب . ومشروع سوريا الكبرى . ومشروع الوحدة العربية الناصرية . ومشروع وادى النيل وأفشلها جميعاً عدم وجود اتصال أرضى يمكن رجل الشارع من التجوال .

ولقد كان وجود الاتصال الأرضى ــ عبر ممرات سيناء ــ هو العامل الوحيد الذى جعل جولدا مائير تحلم بالنزول الى القاهرة لتتسوق مشترواتها !

ان الاتصال الأرضى هو أبجدية العمل السياسى الوحدوى . وهو مشروع يصرف على نفسه ويحقق عائداً مادياً ويفرز وحدة واقعية عملية .

لقد استطاع العمال الحرفيون العرب فى البلاد ذات الكثافة السكانية مثل مصر والسودان وتونس أن يعملوا فى البلاد البترولية ويحققوا بذلك وحدة فعلية وعملية وناطقة دون جعجعة السياسيين والاعلاميين وانتكاساتهم الضارية . لقد حقق العامل والفلاح البسيط ما عز تحقيقه على كثير من الزعماء وحققوا بهذه الوحدة الصامتة العاملة عائداً مادياً لهم ولبلدهم وللبلد المضيف . وهذا ما سوف يحققه أضعافاً مضاعفة وجود وسائل الاتصال الأرضى من سكك حديدية واوتوسترادات وما تفرزه من سياحة مشتركة وسوق تجارية ممتدة ومتنوعة ومستطرقة كالأنابيب المستطرقة تحتفظ كل أنبوبة بانبعاجاتها الخاصة ولكن مستوى الماء فيها كلها واحد .

اذا كان العرب الكبار قد حرموا من الوحدة وفشلوا فى تحقيقها فى محاولاتهم المتعددة وأحسوا مرارة الفشل : فيجب أن يحموا أولادهم عام ٢٠٠٠ من هذا الفشل بأى صورة .

هناك صور كثيرة لتنمية صورة الوحدة بين أطفال العرب . اذا كنا لا نطمع فى برنامج تعليم موحد لأن الآباء الكبار مختلفون على هذا ، فلنتفق على توحيد فرع واحد وليكن مثلا كتاب القراءة والأدب العربى الذى يتداوله أى طالب من اللاذقية شمالا الى جوبا جنوباً ومن طنجة الى مسقط . كتاب واحد بحيث تكون ثقافة الطفل متجانسة .

من الممكن أن تكون هناك معسكرات للأطفال العرب تمزجهم عقلياً وعاطفياً .. أن لم نتمكن من معسكرات للمعلمين العرب فضلا عن برنامج موحد لاعدادهم . من الممكن أن يتمتع الطفل العربى بحق التعليم فى أى دولة عربية وفى كل المدارس بدون حواجز ان لم يكن لهم جواز سفر طلابى حر تفتح لهم الحدود حالياً .

من الممكن أن تتبنى الجامعة العربية جميع أطفال الدول العربية وتتيح لهم وسائل التراسل والتزاور وتبادل البرامج وتخطيط الوظائف ومواقع العمل بعد التخرج .

ليت الجامعة العربية تعطى اهتماماً أكبر للطفل العربى وتوفر جهودها للطفل العربى قبل الرجل العربى .

الاهتمام بالطفل أجدى من الاهتمام بالبالغ

وهذا موقف حضارى ، وهو أيضاً موقف عربى قديم . فالعرب أقدم الأمم اهتماماً بالطفل من باقى الأجناس . كانوا يرسلون رضيعهم بعيداً عن المجتمع الحضرى لا انتجاعاً للصحة فحسب ولكن كانوا يختارون مرضعة محسبة مؤصلة فيها من الصفات الذهنية والخلقية ما يحبون أن يكون مثلها فى نسلهم . وهذا هو ما يحاوله الآن علماء الغرب فى تجاربهم بأطفال الأنابيب أو فى لعبهم بالجينات والكرموسومات وان لم يصلوا بعد الى شىء مما وصل إليه العرب فعلا وتمتعوا به أجيالا وراء أجيال .

وفى التاريخ العربى لمعت سلسلة من الأطباء العرب كانوا يعالجون الطفل العربى ويهتمون به غير ناظرين الى الصحة الجسدية إلاعلى أنها عنصر فقط من كيان يكتمل بالعناصر الخلقية والروحية والمعنوية وهو مالم يصل اليه الطب الغربى حتى الآن . وقد لا نستطيع حصر كل هذه الأسماء ولكن علماء طب الطفولة الغربيين المعاصرين يعودون إليهم حاليا ليسترجعوا ما كتبوه يعود د . جراتسياتى الأمريكى الى طب ابن جزلة المتوفى عام ١١٠٠ م ويعود زميل له الى طب أبى على بن مندويه الأصفهانى ، ويعود يوسف حبي عضو المجمع العلمى العراقى الى طب حنين ، ويعود راينر بنيليك من المانيا الشرقية الى ابن الجزار ، ويعود دياز من أسبانيا الى عبدالملك بن حبيب هناك أيضاً من تتبع كتابات ابن النفيس وابن القف والكازدنى والسامرى والانطاكي .

● اقتراح بإنشاء "مؤسسة للنابغين" تبحث عن الطلاب النابهين في كل الجامعات العربية .. وترعاهم وتراقب تطورهم

وهناك قائمة طويلة بأطباء الأطفال العرب من الرازى الى ابن سينا الى ابن واقد والغافقى وابن زهر وابن كلس وابن الجزار وعشرات غيرهم يحاول الطب الغربي الآن أن يعيد قراءة ما كتبوه بعد أن تبين سعة أفقهم وشمول نظرتهم للطفل نفسياً وعقلياً واجتماعياً الى جانب الناحية الجسدية .

وكان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) يستحث الأبوين على الاهتمام بالطفل وبمسؤوليتهما الكاملة عنه بقوله « كل مولود يولد على الفطرة . وانما ابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . فعلى الأبوين تدريب وتهذيب الغرائز لا مجرد اطعام الطفل وكسوته . وكان فى هذا الصدد يقول « من كان له صبى فليتصاب له أى يتصاغر له بلطف فى القول والفعل . وكان اذا لقى طفلا فى الطريق يركبه ناقته ويلاطفه حتى يضحك . وكان فى بيته يربى على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس ثم الحسن والحسين رغم كل مشاكل الرسالة . وكان يقول حق الولد على والده أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية والا يذيقه الا طيبا . فجعل محو الأمية فى رقبة الأب مباشرة .. لا الدولة . وجعل اشتراط ان يكون طعام الطفل من رزق حلال مدخلا الى التقى والتعفف والبعد عن كل حرام أو مشبوه . وكان يقول ما كان الرفق فى شئ الازانه وفى هذا اختيار للأسلوب السيكولوجى المطلوب . وكان يقدر الطب فيقول العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان فكأنه يجمع الطب الروحى أو المعنوى فى علم الأديان الى الطب الجسدى المعروف وهو مازال ينقص طبنا المعاصر الأوربى .

وفى الختام

إن علماء الانثروبولوجيا المعاصرين (علماء الأجناس) يؤكدون أن الطفل العربى يأتي على رأس قائمة أطفال العالم كله ذكاء وخفة روح وسرعة بديهة ونشاطاً فى الحركة وسرعة حفظ ولماحية فى التعبير . وانما ينطفىء بريق الذهب هذا ويتحول الى زنجار وصدأ بالاهمال أو بالبرامج التعليمية المشوهة . ومعلوم أن الطفل هو ثروة الغد . وانها ثروة تزرى بالثروات الطبيعية الأخرى من معادن ومحاصيل . وعلى العرب الا يدعوا العجز الذى يحيط بهم يقيد أطفالهم أيضاً باغلاله ويطحنهم بين رحاه .

على الجامعة العربية وعلى وزارات الثقافة وعلى طبقة المثقفين أن ينقذوا أطفالهم من الغرق ليصير الغد غداً للعرب .

السيد فهمى الشناوى

قصة حياة عادية



آباء عاطفيّون وأمّهات قويّات!

بقلم : الدكتور يحيى الجمل

يواصل الدكتور يحيى الجمل : رواية مذكراته الممتعة في هذا العدد :. وكان الدكتور الجمل قد بدأ هذه المذكرات في العدد الماضي من الدوحة حيث ألقى أضواء كاشفة على الحياة الاجتماعية والثقافية في ثلاثينيات هذا القرن . وفي هذا الحلقة الجديدة يمضي الكاتب الكبير في تصويره الدقيق لحركة الثقافة والمجتمع منذ اربعين سنة من خلال أبرز كتاب هذا العصر وفنانيه وقضاياه ومشاكله المختلفة .

كان فتانا يقضي صباحه يقرأ . وقد بدأ « مشوار » القراءة مع مصطفى لطفي المنفلوطي ، ومايزال يذكر كيف استغرق في قراءة « ماجدولين » حتى أنه كان لا يحس بمرور الوقت من حوله . الا أن فترة « المنفلوطي » لم تستغرق معه وقتا طويلا وانما عبرها بسرعة الى قراءات للمازني وتوفيق الحكيم ثم محاولات بعد ذلك مع الرافعي وأخرى مع العقاد وغيرها مع طه حسين . وكان المنبع الخصب هو أعداد الرسالة . أعداد الرسالة في سنواتها السابقة وأعداد الرسالة الجديدة . كانت الرسالة هي المدرسة الثقافية التي كان يمضي فيها ومعها شهور الصيف الأربعة . وكان للرسالة شقيقة صغيرة اسمها « الرواية » وفي الرواية التقى مع كثيرين من كتاب القصة القصيرة وكثير من المترجمات . وعلى صفحات الرواية يذكر أنه التقى مع نجيب محفوظ لأول مرة من أكثر من أربعين عاما . يذكر أيضا أنه التقى بتوفيق الحكيم على صفحات الرسالة والرواية جميعا . وكان يلقى تشجيعا من أخيه ومن ابن عمه « أمين » . أما أخوه فكان يريده أن يحب الرافعي ويقرأه ويأتم به وأما « أمين » فكان لا يرى في قراءة الرافعي خيرا يرتجى وأن الثقافة كل الثقافة والعمق كل العمق هي في قراءة العقاد . وكان فتانا يسمع الى اخيه ويسمع الى ابن عمه ولا يريد أن يغلق ذهنه على أحد أو دون أحد من الكتاب الكبار جميعا .

وكان « سعد » هو رفيق الجزء الغالب من وقته خاصة عندما تقترب الشمس من الغروب . كانا يخرجان معا يسيران على الجسر ما حلا لهما السير . في يدهما كتاب أو عدد من أعداد الرسالة أو أعداد الرواية . يتحدثان في كل شيء حديثا منطلقا على سجيته لا يتركان أمرا من الأمور الا طرقاه .

وكان فتانا قد جاوز الثانية عشرة من العمر واقترب من نهاية المرحلة الابتدائية عندما خفق قلبه بالحب لأول مرة وهو في القرية . كان يحبها وكانت تحبه . وكانت تكبره بعام واحد وكانا يلتقيان خلسة في أمسيات صيف القرية . وكان يسهل لقاءهما أنهما قريبان وأن الدور توشك أن تتجاور . وكان تعبير كل منهما عن حبه للآخر يتمثل فيما قد يحتفظ به لكي يقدمه لصاحبه من بعض « كيزان » الذرة أو بعض ثمار الفاكهة عند أول ظهورها . ما كان أحلى أن يعطيها شيئا من ذلك القبيل أو أن يأخذ منها شيئا . وكان يتخيلها وهو يقرأ قصص الحب خاصة « ماجدولين » وكان يتصور أنه سيعيش معها قصة حب يكتبها يوما من الأيام .

وكان حبهما بريئا ساذجا غرا أيضا . ولكن ذلك الحب الذي بدأ به قلبه مسيرة طويلة ووعرة لم يقدر له الا أن يكون حبا موجعا على غير ما ينتظر من حب الصبية بعضهم لبعض حيث رآهما أخوها وهما واقفان في جنح الليل يتهامسان ويتناجيان . وكان أخوها يعلم منه مباشرة أنه يعيش قصة حب وقد أدرك الآن من هي « المحبوبة » وضرب أخته « علقة » وقاطع قريبه منذ تلك الليلة .

أما هي فقد أصيبت بالحمى وتأخر أهلها في احضار الطبيب وأكلت ما لا ينبغي لها أن تأكل . وفي صباح يوم حزين انطلقت الأصوات الباكية تعلن أن روحها الحلوة قد فاضت الى ربها ، وهكذا طويت صفحة حبه الأول وهي لم تكد تبدأ .

* * *

وفي أجازات الصيف في القرية بدأ يعرف أباه وأمه وبقية أخوته عن قرب . ذلك أنه كان يقضي

طوال العام الدراسي في طنطا مع أخيه « سعيد » الى أن انتهى « سعيد » من التعليم الثانوى ودخل كلية الحقوق في القاهرة وهناك استقرت الأسرة كلها بناء على إلحاح الأخ الاكبر ورغبته أن تكون أمه قريبة منه .

وفي أجازات الصيف الطويلة وفي تلك القرية من قرى المنوفية كان يرى أباه ويرى أمه ويرى بقية أفراد أسرته ، وبدأت تنطبع في نفسه مشاعر وخيالات وأفكار عنهم جميعا .

أما أبوه فكان الحنان مجسما في رجل . كان رجلا طيبا بكل ما تعنيه هذه الكلمة عند المصرى العادى من أمور منها الايجابي ومنها السلبي عند هواة تحليل الالفاظ .







نجيب محفوظ — مصطفى لطفي المنفلوطي — عبد القادر المازني

كان يحب أولاده ويتعلق بهم ويحرص على مرضاتهم ما وسعه الى ذلك من سبيل . وكان حنوناً عطوفاً لا يذكر أنه زجره أو ضربه في طفولته قط . ولم يكن الرجل موسعاً عليه في الرزق ومع ذلك كان حريصاً الحرص كله على أن ينال أولاده — جميعاً — بنين وبنات — من التعليم ما قد حرم منه ، وذلك أن هذا الوالد الطيب كان من أوائل من ذهبوا الى التعليم المدنى في منطقتهم وكان بيقين أول من دخل المدارس الثانوية من أهل القرية ولكنه لم يستطع أن يحصل على شهادة « البكالوريا » ويبدو أن ذلك ترك في نفسه أثراً عميقاً جعله حريصاً أن يحقق أولاده مالم يتح له أن يحققه .

وكان الرجل الطيب سريع التأثر بما يسمع من الناس مما كان يجعله يبدو مترددا لا يستقر على رأى إلا وتركه الى غيره ثم عاد إليه أو لم يعد ، ولكن الشيء الثابت الواضح في سلوكه هو ذلك الحب الغامر الفياض تجاه أبنائه ، وقد كان ذلك الحب يصل أحياناً الى حد الإيذاء عندما يتحول الى نوع من الخوف الذى لا مبرر له ولا سبب .

ويذكر صاحبنا وهو صبى صغير كيف أن والده هو الذى كان يشرف على « حمامه » لكى يتأكد من أن الماء لا هو بالبارد ولا هو بالساخن وإنما هو بين هذا وذاك فاتر لا يؤذى الغلام ولا يسبب له نزلة برد بعد ذلك . وكيف كان يلف الصبى لفا بعد الحمام في بطانية من الصوف ولا يتركه الا وهو في سريره يتهيأ لنوم عميق أو غير عميق حسب ما يكون قد أصاب في يومه . وقد أثر ذلك على صاحبنا طوال حياته اذ اضعف مقاومته لنزلات البرد وتقلبات الجو وأصبح المرض الذى يعاوده بين الحين والحين هو تلك « الانفلونزا » الكريهة التى توشك أن تلم به عند مخارج الفصول ومداخلها وبين ذلك أحياناً أخرى .

وكان ذلك الوالد الطيب الحريص على أولاده وعلى تعليمهم ومستقبلهم كثيراً ما يضرب لهم الأمثال الطيبة من وجهة نظره لكى يشجعهم ويحفزهم على الاقتداء بها ، ولكن الفتى يذكر أن والده الطيب لم يذكر مثلا واحداً يصلح لاحتذاء . كان يضرب لهم الأمثلة ، دائماً بأشخاص هم دونهم في كل شيء ولكن الوالد كان يراهم خيراً من أولاده . ويبدو أن كثيرين من الآباء لا يرون في أبنائهم خيراً ويرون الخير كله في أبناء الغرباء .

وكم كان يحز في نفس الفتى أن يضرب له أبوه مثلا بهذا أو ذاك من فتيان القرية الذين كان هو يراهم دونه في كل شيء . وتمضى الأيام فاذا بكل تلك الأمثلة لا تنجح في شيء قط لا في الفلاحة ولا في غير ذلك ، ويحلو للفتى وقد شب عن الطوق أن يذكر أباه بتلك الأمثلة الخائبة التى كان يذكرها له يريد من ورائها أن يحفزه الى ما هو أفضل ، وقد حاول الفتى عندما كبر أن يفهم سر ذلك ولكنه لم يستطع أن يصل الى شيء ، ولعل الشيء الوحيد الذى دار بذهنه هو أن والده كان يحب والد هذا أو والدة ذاك لقرابة أو صلة وكان حبه للوالدين يدعوه الى شيء من الاعجاب بالأبناء فلا يرى فيهم الا محاسنهم ولا يفتأ يذكر تلك المحاسن — الموهومة — أمام أبنائه حتى ليكاد يضجرهم في حياتهم وحتى ليكاد يدفعهم دفعا الى كراهة تلك الأمثلة بل والسخرية منها .

ولم يكن ذلك الوالد الحنون من الشخصيات الآمرة الناهية المستبدة بأبنائها . كان عكس ذلك تماماً وكان مسالماً لا يحب المشاكل وينأى بنفسه ويود لو نأى بأولاده جميعاً عنها . وكان متديناً في غير تطرف ، محباً للحياة في غير تكالب . يسره من دنياه رؤية أولاده ناجحين ويسعده أن يأكل من الطعام ما يشتهيه ويستطيبه .

وكان الفتى يلحظ أن أسارير ذلك الرجل الطيب كانت تمتلىء بالرضا وهو على مائدة الطعام يأكل ما يحبه من ألوانه ، وكان من محبى الأسماك واللحوم بصفة عامة — وكان يكمل سعادته أن يكون حوله بعض أبنائه إن لم يتيسر أن يكونوا جميعاً معه . لم يكن شرهاً وإنما كان ذواقة في غير تكلف ولا تزيد .

كان يحب الخير كل الخير لنفسه ولأولاده . وكان يحب الخير لمن لا يعرف من الناس ولكنه بالنسبة للآخرين من أهل القرية فإنه ما كان يسعده كثيراً أن يمتاز عنه أحد منهم بشيء فإن امتاز أحدهم فإن ذلك لم يكن محل قبول حسن أو رضا صادق من نفسه وان أظهر ذلك الشعور أمام الغير . وكان أظهر ما يبدو ذلك واضحا تجاه بعض الذين لم يكن الوالد يرتاح لهم أو حتى لسماع حديثهم ولم يكن بالتالى يرتاح عندما يسمع أن خيرا أصابهم خاصة إذا كان ذلك الخير يتمثل في شراء بضع قراريط من أرض .

ولم يكن ذلك الشعور بغير سبب . كان والد الفتى يوشك أن يضطر في شهر اكتوبر من كل عام — وهو بداية العام الدراسي — أن يبيع بضعة قراريط من أرضه لكى يواجه تكاليف بداية العام الدراسي خاصة عندما كبر أولاده ودخلوا المدارس كلهم أو أغلبهم وكانوا في مراحل التعليم المختلفة من الابتدائى الى الجامعة . ولم يكن هناك من سبيل الى مواجهة أقساط المدارس وشراء ما يحتاجه هؤلاء الأبناء غير اللجوء الى بيع أرض أو رهن شيء أو اقتراض من أحد . وكان أبوه يقدم على ذلك غير

آباء عاطفيون وأمهات قويات!

نادم ولا متأفف ولكن والدته كانت على عكس ذلك تماماً. كان يوماً حزيناً بالغ الحزن اليوم الذى تضطر فيه الأسرة الى بيع شيء أو اقتراض مبلغ من المال مهما كان سبب ذلك أو دواعيه حتى ولو كان دفع أقساط مدارس الأبناء.

والحقيقة ان أمه كانت شخصية مختلفة عن أبيه كل الاختلاف.

كانت لا تقرأ ولا تكتب ومع ذلك كانت حادة الذكاء قوية الشكيمة متميزة الشخصية. وكانت أقرب الى القسوة على نفسها وعلى أولادها لا تكاد تترك خطأ صغيراً دون أن تعنف مرتكبه من الأولاد أو من الغير أشد التعنيف. وكانت متحفظة فى عواطفها لا تكاد تعبر عنها أو تبديها، حتى حنانها نحو أولادها كان أمراً يندر أن يظهر على وجهها وإن امتلأ به قلبها. بل إنها كثيراً ما كانت تبدو بالغة القسوة خاصة فى الأمور التى تخاف منها على مستقبل أولادها وعلى ماتريده لهم من سلوك، ولم يكن يخيفها شيء قدر اختلاط أولادها بأولاد عمومتهم ـــ خاصة البعض منهم ممن خابوا فى كل شيء وكانوا في سن أخيه الكبير ـــ وكان معها الحق في خشيتها ولكنها كانت تبالغ أشد المبالغة فى ردود أفعالها وقسوتها عندما كانت تضرب أحد أبنائها لكى تقوم ما تراه اعوجاجا.

ويبدو أن صاحبنا كان أقل الإخوة الثلاثة الأوائل تعرضاً للضرب من أمه. ويبدو أن الأخت الكبرى نالت من هذه القسوة أكثر مما ناله هو أو ناله «سعيد». ورغم أن سعيداً لم يسلم من بعض مظاهر القسوة من والدته الا أنها كانت مع ذلك تحوطه بقدر من الرعاية والتدليل والاهتمام قل أن يدانيه فيه أحد من الابناء الآخرين. وكان ذلك يحنق فتانا ويجعله يحس بنوع من الغيرة نحو أخيه الكبير. وكانت مظاهر رعاية أمه وتدليلها لسعيد تبدو فى كل شيء حتى فى أصناف الطعام التى تختصه بها وحتى فى طريقة الكلام أو فى تركه ينام حتى الظهر ـــ فى أيام الأجازات ـــ أو فى غير ذلك من أمور. وكان نجاح سعيد فى الامتحانات حدثاً تهتز له القرية وتعلم به من أقصاها الى أقصاها، وتوزع من أجله أكواب «الشربات»، ذلك على حين أن نجاح صاحبنا ـــ وكثيراً ما كان ترتيبه الأول على لداته ـــ فكان يمر فى صمت لايكاد يشعر به أحد ولا يحتفل له أحد.

ولم تكن العلاقة بين الوالدين ـــ وهما على هذا الاختلاف فى الشخصية ـــ علاقة ود وسكن وهناءة كان يشوبها كثير من التوتر وكثير من النزاع «والنقار» والخلاف وكثيراً ما كان يسمع والدته تقول إنه بودها أن تذهب الى مكان بعيد لا يعرفه أحد لترتاح من زوجها ومن أولادها، وكثيراً ما كانت تبدى برمها وضجرها بتصرفات الوالد المالية بل انها فى الأغلب الأعم لم تكن ترضى عن أى تصرف من تصرفاته. وكانت لا تكتم ذلك ولاتخفيه. وكانت الأمور بينهما تمر أحياناً هادئة رغم الخلاف وما ذلك الا لأن الوالد كان يترك الأمور تسير ويلزم جانب الصمت، الا أنهما فى أحيان أخرى كانا يبلغان من التوتر حدا يوشك أن يهدد الحياة الزوجية كلها تهديداً خطيراً. ورغم كثرة هذه الأزمات ورغم حدة الخلافات بين هذين الزوجين الطيبين فإن رابطة الزوجية بينهما لم تنفصم قط إلى أن لقيا وجه الله بعد عمر طويل.

وكان الفتى يشعر بتعاطف مع أبيه كلما دب الخلاف بينه وبين أمه. وكان يرى أن والده على حق وأن أمه بما جبلت عليه من حدة طبع تدفع الأمور دفعا إلى مالا يحسن أن تدفع إليه.

واستمر الفتى حتى بعد أن كبر يحس بتعاطف أكثر مع أبيه وبتقدير أكثر لأمه. كان أبوه حنونا عطوفا. وكانت أمه حادة الذكاء قوية الشخصية. ومن هنا كان هواه لأبيه وكان عقله لأمه وهو أمر عكس المعتاد فى الحياة. ذلك أن الأب هو الذى يفترض فيه أن يمثل القوة على حين تمثل الأم الحنان والحب. وكانت الصورة مقلوبة فى تلك العائلة. كان الأب هو مصدر الحب والحنان، وكانت الأم هى مصدر القوة والحسم والاصرار. ولعل هذا هو الذى يفسر أن الفتى يشاركه فى ذلك اخوته جميعا باقدار قد تختلف ـــ كانوا يهابون أمهم ويتعلقون بأبيهم وهم صغار وأنهم عندما اشتد عودهم وتقدمت بهم الحياة كانوا أكثر حديثا عن أمهم وأكثر رواية لنوادرها وأكثر ذكرا لما كانت تضرب من الأمثال الشعبية البليغة.

ومازال فتانا بعد أن تقدم به العمر وتقلب فى أوضاع عدة من أوضاع الحياة وبلغ من الحياة الأكاديمية اقصاها، مازال مع ذلك يحفظ الكثير من الأمثال الشعبية التى كانت أمه ترويها وتتمثل بها فى مواجهة أحداث الحياة.

وقد ورث الفتى عن أبيه ذلك الحنان المفرط، ولم يبرم الفتى بذلك الميراث رغم أن أكثر ما لاقاه فى حياته من عناء وأكثر ما ظهر عليه من ضعف كان يرجع الى حنانه ذلك الذى لم يستطع أن يتحكم فيه أو أن يخفيه عندما ينبغى له ذلك فى بعض تصاريف الأيام.

ولكن الشيء الذى لاشك فيه أن الفتى، واخوته جميعاً رغم أنهم كانوا يحسون احساساً قوياً بحرص كل من والديهما عليهم وعلى مستقبلهم الا أنهم لم يتمتعوا بذلك الدفء العائلى الذى تهيئه الحياة المستقرة التى يسودها التفاهم بين الزوجين. ولعل ذلك قد ألقى كثيراً من الظلال على نفس الفتى وعلى نظرته لكثير من الأمور.

* * *

لم يكن «أمين» مجرد ابن عم كبير ولم يكن شخصاً عادياً على أى حال.

كان أخاً غير شقيق لسعد. وكان «أمين» وأمه وأخوته يمثلون الجانب المهضوم آنذاك وإن تغيرت الأحوال بعد ذلك ـــ وكان سعد وأمه وأخوته هم الأثراء لدى والدهم. وكان الفتى على تلك العلاقة الوثيقة بسعد، يتبادلان الخطابات فى الشتاء ولا يمضى يوم واحد فى الصيف الا والتقيا بعض اللقاء أو أكثره. ولا تمضى فترة من الفترات الا كانت لهما نادرة من النوادر.

ولم يكن «أمين» من سنهما وانما كان يكبرهما بعشرة أعوام على الأقل. عندما كان الفتى يقترب من الرابعة عشرة ـــ وهى السنة التى أنهى فيها تعليمه الابتدائى ـــ كان أمين قد جاوز الرابعة والعشرين.

وكان شعور الفتى نحو «أمين» مزيجاً من الإكبار والخوف والاعجاب والنفور. وكان شعور «أمين» نحوه أيضاً مزيجاً من كثير من المتناقضات، الا أنه كان يبدى بالفتى اهتماماً ويوليه حدبا ويشيد بمواهبه ويشجعه على الاستزادة من القراءة ويطريه دائما ويتوقع له مستقبلا مزهرا فى عالم الفكر والأدب.

وكان أمين يستقل طوال الصيف بحجرة فى ملحق من ملاحق «الدوار» الى جوار حجرة

● كيف تتفاوت حظوظ الناس في الحياة وتتفاوت دون أسباب واضحة؟

التليفون ، والسلامليك ، وكانت تلك الحجرة هي منتدى المثقفين من أهل القرية . وجلهم من الأزهريين وأغلبهم في عمر ، أمين ، وأصغر جيلهم هو أخوه ، سعيد ، ومع ذلك فكثيراً ما كان الفتى يحضر مجلسهم وينصت الى مناقشاتهم بل وقد يلقى بكلمة هنا أو هناك .

وكان ، أمين ، يحب أن يخلو إليه بعد أن ينفض الجمع ويحب أن يحدثه كما لو كان واحداً من لداته . ويبدو أنه كان يجد منه من الاصغاء والانتباه مالم يكن يلقاه من الآخرين .

وحرص ، أمين ، على أن يحببه في قراءة العقاد وإن لم يفرض عليه ذلك فرضاً .

وكانت أعداد الرسالة ترد الى أمين كل أسبوع في البريد فقد كان من المشتركين فيها وكذلك أعداد الرواية وكان أمين واحداً من القلائل في القرية ــ إن لم يكن الوحيد ــ الذين يقتنون مجموعة من الكتب الأدبية يحتفظون بها في خزانة خاصة عبارة عن تجويف في أحد جدران الحجرة له باب من خشب مفتاحه دائماً في جيبه . ويستطيع الفتى أن يقوله إن حفظ القرآن في ، كتاب ، الشيخ عبد الحميد قشطة مع كل ما صاحبه من معاناة وقسوة من قبل الشيخ . وحمل أخيه له على أن يحفظ أو يقرأ في كليلة ودمنة . وتردده على مكتبه البلدية في طنطا ثم مكتبة الحجرة ــ حجرة أمين ــ وخزانة المكتبة بها كانت هي بدايات تكوينه الأدبي والثقافي وكانت سر ما يقال عن تمكنه من اللغة العربية .

كان ، إمين ، صاحب فضل عليه من غير شك .

ولكن أمين لم يكن شخصاً عادياً . كان أميل إلى الاكتئاب يغلب عليه الحزن ويحس دائماً أنه مظلوم مهضوم وأن الدنيا قست عليه . وكان الفتى الصغير الذى لم يجاوز الرابعة عشرة يسمع ذلك كله من ابن عمه الكبير . كان يسمعه مشفقاً أحياناً حزيناً أحياناً أخرى برما بهذا الحديث المقبض في غير ذلك من الأحايين .

ومن يدرى لعل ميل الفتى الى بعض الاكتئاب يرجع فيما يرجع اليه من أسباب أخرى الى تلك الجلسات الطويلة في أجازة الصيف والى تأثره بعض التأثر بما كان يسمعه من أحاديث . وليس معنى ذلك أن الفتى لم تكن لديه أسبابه الخاصة للشعور بالمرارة والاكتئاب أحياناً أخرى فما كان أكثر تلك الأسباب ولعل أكثرها أهمية ما كان يحس به من جفاف حنان أمه وميلها كل الميل لأخيه الكبير وما كان يحيط تلك السيدة من هالة حزن لا تكاد

● هكذا يتسرب الحزن إلى الطفل ويظل معه إلى النهاية عندما يفرق الآباء بين الأبناء في المعاملة

تفارقها بعد وفاة والدتها .

وكان من خصائص ، أمين ، أنه يحب أن يصنع الشاى بنفسه ويحتفل بذلك احتفالا شديداً . وكان عنده في حجرته الخاصة ، منقد ، من الفخار وكومة في ركن الحجرة من ، قوالح ، الذرة المحفقة وكان يحسن ، رص ، القوالح ، ويحسن إذكاء النار ثم يضع عليها براد الشاى في عناية بالغة واهتمام شديد . ولم يكن الفتى يطيق أن يشرب من ، الدور الأول ، من ذلك الشاى الأسود وكان نصيبه من الشاى يبدأ عند الدور الثاني ويحلو عند الدور الثالث حيث يخف لون الشاى كثيراً ويميل الى الاصفرار . ومازال صاحبنا حتى يومنا هذا لا يشرب الشاى الا خفيفاً حتى أن بعض من يعرفه يتندر عليه بأنه يشرب الشاى قبل ، تلقيمه ، أى قبل أن يوضع به نبات الشاى نفسه كناية عن أنه انما يشرب ماء يقال له تجاوزاً شاى .

ولم يكن ، أمين ، مدخناً ولكنه كان يشرب سيجارة بين الحين والحين . ويذكر الفتى أن أميناً كان يعطيه قرشاً صاغاً ويرسله ليشترى به عدداً من السجائر ، الفرط ، كانت أحياناً ثلاث سجاير وأحياناً أربعا . وكانت من ماركة يقال لها ، واسب ــ Wasp ، اذا كانت ذاكرة الفتى مازالت تعي اسم تلك السجائر . والشيء الذى لم يستطع الفتى أن يدرك له تعليلا حتى يومنا هذا أن ، أمينا ، هو الذى أغراه ــ وهو في تلك السن المبكر ــ أن يدخن سيجارته الأولى . لاشك أن أمينا كان يدرك مخاطر التدخين . كذلك لاشك أنه كان يعلم أنه ليس من الخير لفتى صغير أن يدخن . وقبل ذلك كله وبعد ذلك كله فقد كان يغريه بعمل لا يستطيع أن يجهر به وكان العلم به معناه أن يناله من أهله غضب شديد .

ترى لماذا أغراه أمين بشرب السيجارة الأولى ولماذا ظل يعطيه طوال عطلة الصيف سيجارة بين الحين . والحين وقد يكون ذلك الحين يوماً أو أسبوعاً أو أقل من ذلك أو أكثر ولكنها كانت بداية سيئة على أى حال . ومنذ اليوم الأول لم يشعر الفتى برغبة أو متعة في أن يمسك سيجارة وينفث منها سحائب الدخان . ولكنه فعل واستمر يفعل . ينقطع أحياناً ويعرض أحياناً ويلعن دائماً ذلك اليوم الذى بدأ فيه التدخين ذلك على حين أنه لم يصبح مدمناً أبداً في يوم من الأيام .

ويذكر الفتى من بعيد يوماً قاسياً بالنسبة لابن عمه هذا الكبير الذى كان له في نفسه منزلة كبيرة . كان أبوه غاضباً عليه لأمر من الأمور وكان يعنفه بصوت عال ــ وكان عمه ذلك عالي الصوت قوى البنية ــ ولم يكن ابنه صغيراً فقد كان يقترب من الخامسة والعشرين وكان في التعليم الأزهرى الجامعي ويذكر الفتى أن ، أميناً ، ظل مطرقاً صامتاً محزوناً وأبوه مندفع كسيل العرم يكيل له الشتائم والسباب .

أدرك الفتى معنى الظلم وأحس بالحزن الشديد وكان عنده استعداد لادراك معنى الظلم والتعاطف مع المظلومين فقد كان يحس أن أهله ــ وأمه بصفة خاصة ــ لا يعدلون في المعاملة بينه وبين أخيه الكبير الذى كان يستأثر بالعطف كله والاهتمام كله ولا ينال صاحبنا من ذلك الا أقل القليل إن ناله من ذلك شيء قط . وكان هذا هو شعوره حتى لو لم يكن هو الواقع فعلا كما يحب أخوه أن يقول .

وكان الفتى يود لو استطاع ، أمين ، ان يدفع عن نفسه بعض هذا الضيم الظالم ولكنه كان يعلم انه لن يستطيع الا أن يصمت حزيناً متألماً الى أن تنتهى ثورة والده . ولعل صمته وحزنه وألمه كان سيزداد عمقاً اذا رأى والده نفسه ذلك الثائر الغاضب قد أخذ يظهر من العطف والحنان لابنه الصغير من الأم المفضلة آنذاك ــ مالم يكن في حاجة اليه قدر حاجة ، أمين ، الى بعضه .

وأحس الفتى ــ في غير وعي ــ كيف تتفاوت أنصبة الناس في الحياة وكيف تتفاوت تلك الأنصبة لا لميزة هنا ولا لنقص هناك ولكن لأن تصاريف الحياة وأوضاعها أرادت ذلك وفرضته فرضاً .

يحيى الجمل

تذكرة دخول إلى ....

مسرح العصور الوسطى

بقلم : الفريد فرج



الغناء والاستعراض بمسرح العصور الوسطى

المسرح التجريبى أو مسرح الطليعة أو المسرح المجدد فى بريطانيا يسمونه « مسرح الهامش » أو مسرح الحافة Fringe Theatre .. وله قاعدة كبيرة من الفنانين ومن الجمهور ، ومغامرات فنية كثيرة ومتنوعة .

فاذا كانت مدينة لندن وحدها تضم أربع فرق للمسرح القومى تمتلك سبع منصات مسرحية ، وتضم حوالى أربعين مسرحاً تنتمى إلى القطاع المسرحى الخاص أو التجارى غير المدعوم من طرف الدولة .. فى لندن أكثر من ستين منصة مسرحية تشغلها فرق مسرح الهامش أو الطليعة .. وتجتذب حوالى النصف من الحجم الكلى لجمهور المسرح كل ليلة

وهى فرق محترفة وليست من فرق الهواة ، غير أنها تتنافس على الأرض التجريبية وتتبارى فى التجديد والابتكار والبحث فى المجهول وفى غير المألوف .

ويحار المرء فى ملاحقة هذه الفرق أو تصنيف هذه التجارب .. أو فى محاولة تقسيمها نوعياً أو تحديد وضبط انتماءاتها الفنية .

فالتجربة بحد ذاتها هى خروج على التقسيمات النوعية المألوفة .. فكيف لنا أن نحاول ادخالها قسراً تحت عناوين لقوالب فنية عمدت هى إلى الافلات منها وإلى التمرد عليها ؟!

وعلى هذه المساحة العريضة للتجريب ينبسط مسرح الهامش أو مسرح الطليعة أمام المتفرجين بكل ألوان قوس قزح وظلالها الفنية ، وبكل ما يتخيله المرء من مبادرات مسرحية أو احتمالات ثقافية فوق المنصة السحرية للمسرح .

واذا شاء متفرج مثلى محب للفنون أن يصف ما يجرى على المسرح التجريبى وصفاً جامعاً مانعاً .. سيجد فى ذلك صعوبة تغريه أن يدع مثل هذا الوصف لغيره . لكن ذلك لا يمنعنى من محاولة التقاط طرف خيط واحد من كرة الخيوط المتشابكة ، ومحاولة تقصيه وترشيحه للنظر والتأمل فى وسطنا الفنى والمسرحى العربى .

هذا الخيط الذى اخترت التقاطه وتقصيه هو مسرح العصور الوسطى الذى يعرفه دارسو المسرح باسم المسرح الأخلاقى وباسم مسرحيات الأسرار .

ومع أن هذا المسرح القديم قد طالما حط الناقدون والدارسون من شأنه ووصفوه بالسطحية والضحالة والركاكة . ونسبوه إلى عصر الانحطاط الأوروبى .. فقد لحقه التجريب وأدركته الطليعة فى محاولة رد الاعتبار له ومناقضة التقييم الشائع عنه .. بحيث صادفته منذ سنوات فى احدى فرق الهامش التى تسمى نفسها « فرقة ممثلى العصور الوسطى » (١) .

ابتعاث التراث الشعبى

استهوتنى فكرة ابتعاث التراث المسرحى الشعبى التى أعلنت عنها الفرقة ، واجتذبتنى نبرة التحدى التى قدمت بها تجاربها .

فهذا المسرح الذى غرق فى طوايا النسيان أربعة قرون أو نحوها .. كان قد سبق شكسبير ومعاصريه ، كما كان قد سبق راسين وكورنى وموليير ومن تبعهم ، ونقاه عصر النهضة الأوروبية .. ودرج النقاد والدارسون على تسخيفه والتهوين من شأنه .

والمسرح الأخلاقى قد عرف بنبرة الوعظ وبتشخيص الأفكار المجردة فى شخصيات مسرحية .. كالرحمة والعدل والحسد والطمع ..

انتشر هذا المسرح فى أوروبا خاصة فى القرن



الشحاذ (!!) يحتج على الآخرين

الرابع عشر ثم ذاب فى فورة عصر النهضة وتضاءل شأنه حتى اندثر .

أما مسرحيات الأسرار فقد كانت أيضاً تقوم على تشخيص المعانى المجردة ، ومن شخصياتها الخير والشر ، العناية الآلهية والموت .. وكانت مواضيعها تدور عادة حول القصص الدينية وتستخلص منها المواعظ الحسنة .

ولم يكن مسرح العصور الوسطى يخلو من الفكاهة أو من الحيل المسرحية المبهرة أو من الغناء والرقص وجاذبيات العرض المسرحى ، وكان يتميز أيضاً بفواصل من ألعاب الأكروبات وألعاب الحواة والموسيقى والحيل الميكانيكية والأقنعة المسرحية .

فهل يجد هذا المسرح فرصة مجددة فى نهاية القرن العشرين ؟!

« الرجل الذى يبيع الغفران »

شاهدت فى فرقة ممثلى العصور الوسطى مسرحية « حكاية الرجل الذى يبيع الغفران » ، وهى مقتبسة من « حكايات كانتربرى » للشاعر والقصاص الانجليزى القديم « جيوفرى تشوسر » (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠ م) .

وحكايات كانتربرى من أشهر الآثار الأدبية للعصور الوسطى . وقد كتبها تشوسر على لسان فريق من المسافرين الذين أخذوا يقطعون وقت الرحلة بتبادل القصص ذات المغزى الأخلاقى .

واقتبست الفرقة النص المسرحى عن إحدى هذه القصص وصاغتها للمسرح على النسق الفنى لمسرح العصور الوسطى بما يمكن أن نسميه المسرح ذا المغزى المباشر . فالمسرحية كتبت بأسلوب العصور الوسطى بما فى ذلك الشخصيات المثبتة المسطحة ، والخطاب المباشر للجمهور ، وبساطة السرد والانتقال فى الزمان والمكان .

ولم يقصر أحد من أفرادها فى بناء ذلك العالم المسرحى القديم بكل التفاصيل الواردة فى الكتب ..

فنحن أمام مجموعة من الممثلين : إذا جاء أوان الغناء انشدوا على أنغام الموسيقى القديمة بالصوت المنتظم ، وإذا كان فاصل الرقص ، أبدعوا فيه ، وإذا بلغ النص مساحة الألعاب الأكروباتية مشوا فوق العصى الطويلة وتبارزوا بالرماح الطويلة فلا يختل توازنهم ، وزملاؤهم يتشقلبون من حولهم فلا يسقط أحدهم سقطة موجعة ..

مجموعة من الممثلين المدربين المطمئنين ، متعددة قدراتهم ، وملكاتهم حاضرة ..

وقد أثارت الفرقة عجبى واعجابى ، فحرصت على حضور مسرحياتها ابتداء من ١٩٨١ ـ السنة التى تكونت بها الفرقة ـ وشاهدت لها مسرحية « إبرة جامركيرتون » ومسرحية « الانسان » فضلا عن مسرحية « الرجل الذى يبيع الغفران » .

وعلمت من مطبوعات الفرقة أن نسخة مسرحية « إبرة جامركيرتون » محفوظة بمكتبة جامعة كمبردج منذ أن مثلها طلبة « كلية المسيح » بالجامعة عام ١٥٧٥ ، وأنها قد كتبت ومثلت قبل هذا التاريخ ، وأن مؤلفها مجهول ، وترمز إليه نسخة كامبردج الباقية بحرف « س » .

وهى مسرحية فكاهية تدور حول البحث عن إبرة فى كومة من القش .

أما مسرحية « الانسان » فترجع نسختها على الأرجح إلى عام ١٤٧٣ . وهى موجودة ضمن مجموعة مسرحيات « ماكرو » وهو اسم آخر من اقتنى مجموعة المسرحيات المخطوطة ، ويرجح أنها كانت فى ملكية كنيسة سانت ادموند قبل أن تؤول الى « ماكرو » .

وتدور مسرحية « الانسان » حول الصراع بين الخير والشر . وانسان المسرحية فلاح بسيط تعلمه « الرحمة » (وهى شخصية مسرحية) أن واجب الانسان العمل والصلاة .. إلا أن الفلاح اجتمع عليه خمسة أشرار يحاولون صرفه عن واجبه ، وهم (شخصيات مسرحية) : « الشقاء » ممثل هزلى يحتال على الفلاح ليصيبه بالشقاء ، ويعاونه فى ذلك « النكران » و « الزمان » و « الشر » .. ورائدهم الأكبر بالطبع هو « الشيطان » ذاته .

ومن الحيل الطريفة التى ألهبت حماس الجمهور أن الراوى حين آن أوان ظهور الشيطان أهاب بالجمهور اذا كانوا يحبون رؤيته أن يلقوا بالبنسات فى أتون ملتهب على المنصة .. وهى حيلة كانت تلجأ إليها الفرق المسرحية المتجولة لانتزاع الدراهم من المتفرجين ، وقد استجاب لها شباب

القرن العشرين من المتفرجين فألقوا فى الأتون ببنساتهم وشلناتهم حتى تفجر الأتون وخرج منه الشيطان بحيلة بارعة !

أما مسرحية « الرجل الذى يبيع الغفران » فتبدأ بخطاب طويل يلقيه الراوى وهو يتجول فى صالة المسرح يحض الجمهور على شراء أشياء مباركة يحملها فى كيس .. منها قطرات من مياه القدس ، وخيوط من رداء المسيح عليه السلام ، ويعظ الناس بعظة فكاهية طويلة ويغريهم بدفع ملاليمهم العزيزة بتكرار القول : ان البخل أصل الشرور جميعاً !

ثم يروى مع الممثلين فى مشاهد متتابعة وحرة قصة تدور حول ثلاثة من الأفاقين الذين يتمرغون فى أوحال الرذائل .. الميسر والسكر والسب القبيح ، وأعظم شرورهم هو الطمع ، الذى يقودهم إلى البحث عن كنز مدفون لرجل مات . فلما عثروا على الثروة أعماهم الطمع حتى قتل كل منهم الآخر فماتوا جميعاً !

ما قبل شكسبير .. ما بعد الفيديو

أعود لمطبوعات الفرقة لأقرأ بها أنها أول فرقة محترفة تضع مسرح العصور الوسطى على الخارطة المسرحية من جديد عام ١٩٨١ . وتتحدى التحيز الأكاديمى والفنى الطويل ضد ذلك المسرح .

ويعلنون انهم لا يقصدون ابتعاث النصوص وأسلوب التأليف القديم فحسب . وانما يريدون قبل هذا أن يعيدوا الحيوية لحرفة الممثل .. البهلوان .. الراقص .. المنشد .. لاعب الأكروبات .. القادر على ألعاب الحواة .

ويذكرون فى مطبوعاتهم أن أهمية ذلك المسرح لا ترجع فقط إلى ما يدين به شكسبير لفنانيه ، وهو ما تنكره الدراسات المسرحية المجحفة . ولكن أهميته ترجع أيضاً إلى أن المائتى سنة التى تفصل « جيوفرى تشوسر » عن « وليام شكسبير » قد كانت حافلة بنشاط ذلك المسرح وشهدت ازدهار الحرفة التى بلغت آنذاك ذروة مهنية لم يبلغها المسرح بعد ذلك .

ان رسالتهم ــ يقولون فى مطبوعاتهم ــ « هى النظر إلى الأمام والنظر الى الخلف ، وتعنيهم الحياة بعد عصر الفيديو مثلما تعنيهم الحياة قبل عصر شكسبير » .

ولكن دع مطبوعاتهم جانباً وتعال معى نراجع ما صدقناه وما لم نصدقه من مزاعم الأكاديميين .

فقد كانت قناعة الأكاديميين فى الماضى تؤكد ضرورة مطابقة اللوحة الفنية لقواعد المنظور ، وكان العمق فى اللوحة الفنية من ضرورات الفن ، ولكن الفن الحديث عرف الرسم على أساس من المساحة لا الحجم ، وبذلك استردت الرسوم البدائية ورسوم الأطفال قيمتها ..

وقد عرف المسرح الحديث قيماً جديدة شاعت وذاعت حتى أصبحت معياراً جمالياً ثابتاً يناقض القيم التقليدية . كقوة القص فى المسرح الملحمى ، وهدم الحائط الرابع لدمج المنصة بالصالة . وقوة الخطاب المباشر للجمهور فى المسرح التعليمى ، وامتزاج الفنون التعبيرية فى المسرح الشامل .

ومن شأن هذه القيم الجديدة للمسرح الحديث أن تدعونا لمراجعة التقييم التقليدى لمسرح العصر الوسيط .

وفرقة ممثلى العصور الوسطى ليست بعيدة عن هذه المراجعة ، وهى فى الواقع تنظر الى الأمام بالنظر إلى الخلف .. وهى تتمثل فى الأعناق لا تجثر .. ومن ثم جهدهم الفنى الظاهر والخلاق لابراز ما يتميز به المسرح القديم من قوة المعالجة الملحمية للمسرح ، ومن موضوعات انسانية ، ومن قوة القص ، وقوة المؤثرات الفنية والتقنية ، وحكمة الأمثولة .

انهم يعيدون بناء المعمار المسرحى القديم أمام المشاهدين .. يمثلون ويغنون ويرقصون وينقلبون فى الهواء أو يمشون على العصى المرتفعة ، ويخلطون الدرامى بالغنائى بالاستعراضى بألعاب السيرك ، ويؤكدون التداخل بين المنصة والجمهور ..

يفعلون ذلك فى الواقع بقدر كبير من الدهاء والمكر الفنى . اذ يزاوجون فى الواقع بين التقليدى والحديث .. بل يقدمون الحديث بملابس قديمة ، وكأنهم يقولون : انظروا جيداً .. أليست أحدث مودات المسرح هى بذاتها أقدم مما تظنون ؟!

الجباه العالية

ولأول وهلة تدخل هذه الفرقة من الشباب فى روع المتفرج أنهم لابد أن يكونوا من أبناء مدارس السيرك أو من شباب غناء « البوب » الحديث .. ولكن المرء يدهشه أن يجد فى هذه المجموعة التى تضم ١٩ فناناً نخبة من زبدة المثقفين ذوى الجبهات العالية كما يقول الانجليز .

فأحد عشر فناناً منهم من الحائزين على الدرجات العلمية فى الأدب والفلسفة والفنون بجامعات اكسفورد وكيمبردج وريدنج وانجليا وبريستول ..

ومنهم أربعة تخرجوا فى الكلية الملكية للموسيقى ودرسوا الموسيقى القديمة ، وثلاثة من خريجى أكاديمية الفنون الدرامية والمقارنة .

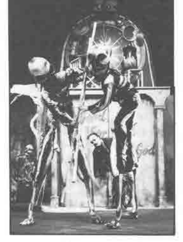
فمجموع الخبرات الأكاديمية التى تضمها هذه الفرقة لا تقارن بأية فرقة أخرى من فرق الشباب .

الدنيا مسرح كبير

وقد اكتسبت فرقة ممثلى العصور الوسطى فى سنوات قليلة شهرة معتبرة ، فمنحها مجلس الفنون إعانة سنوية وقامت برحلات إلى استراليا وأوروبا .

وقدمت هذا العام مسرحيتها القديمة الجديدة « الدنيا مسرح كبير » للكاتب الأسبانى الشهير « دون بيدرو كالديرون دى لاباركا » .. أو كالديرون (١٦٠٠ ــ ١٦٨١ م) وهو يمثل مع سلفه الكاتب الكبير « لوب دى فيجا » العصر الذهبى للمسرح الأسبانى .

وقد بلغ المسرح الأسبانى على يدى هذين الكاتبين ذروته فى أسلوب الفن للعصر الوسيط ، ولم يتطور ليكتسب سمات مسرح عصر النهضة فى ذلك



مشهد من مسرح العصور الوسطى



الأقنعة المسرحية من التقاليد الفنية لمسرح العصور الوسطى



ألعاب الحواة .. فاصل ترفيهي ضمن المسرحية

الزمن المبكر كما حدث فى بريطانيا على أيدى شكسبير ومعاصريه أو فى فرنسا على أيدى كورنى وراسين وموليير.

وقد كان كالديرون من رجال البلاط ، وانتقل من خدمة أمير قشطالة الى خدمة الملك فيليب الرابع ثم التحق بسلك رجال الكنيسة وواصل التأليف لمسرح القصر الملكى.

وكتب كالديرون مائتى مسرحية (!) .. وهذه المسرحية التى نتحدث عنها كتبت عام ١٦٤٩ م وقدمت للمرة الأولى أمام الملك فيليب الرابع.

وتبدأ المسرحية بخطاب ــ طويل لشخصية «الدنيا» .. التى تروى أن الأدوار قد تم توزيعها بين البشر كما يحدث فى المسرح . فكان من نصيب أحدهم أن يكون ملكاً ، والثاني أن يكون ثريا نبيلا . والثالث فلاحاً . والرابعة امرأة غانية فاتنة والخامس شحاذاً معدماً ..

وتتمثل العناية الالهية فى نصيحة الدنيا لهؤلاء البشر : «افعل خيراً لأن الله هو الباقى» .. وهى عبارة تطلق حرية الانسان فى الاختيار بين طيبة النفس وبين قسوة الضمير.

وتعيش هذه الشخصيات المسافة بين الميلاد .. والموت تنعم أو تتعذب ، وتتقاطع مصائرها ، ويسلك كل أمرئ حسب اختياره.

وفى يوم الحساب تجد الشخصيات أن مقياس الفضيلة هو أسلوب كل منهم فى معاملة الشحاذ الذى يتقدمهم جميعاً ليشهد عليهم ويدل على من تصدّق عليه ، وعلى من آذاه.

قوة المسرح .. وقوى السـوق

وتتمثل رسالة المسرحية وانسانيتها أيضاً فى أنها تدحض «قوى السوق» بقوة «العناية الألهية» ..

وكانت قوى السوق الشائعة فى زمن المسرحية كما هى اليوم تتمثل فكرياً فى وضع الصلحة الاقتصادية فى اطار من هالات المجد ومعانيه ، وكأن الثراء والنجاح قانون طبيعى لا بديل عن التسليم به ، بينما كان الفكر الشائع ينظر الى الفقر والعوز نظرة الانكار والذم .. كأنه عقوبة من السماء أو كأنه نقص أخلاقى ..

وقد أبرزت المسرحية مغزاها الأخلاقى الداحض لقوة السوق .. فى اتزان جمالى وفى اطار من المرح ، وجددت بقدرات فنانيها المتنوعة الفاصل المسرحى الراقص الملازم للعروض المسرحية للعصور الوسطى ، فدفعت الى منصة المسرح ملكين للموت يحصدان البشر بالمنجلين ويلاحقانهم ويتنافسان على اصطيادهم من فوق العصى الطويلة ومن خلف الأقنعة المهولة فى جو من المرح والموسيقى ..

صعود المسرح القديم

ولعله قد اتضح لبعض القراء السبب الذى اجتذبنى للاهتمام من بين التجارب المسرحية الكثيرة .. بهذه التجربة لتجديد وابتعاث مسرح العصور الوسطى.

إنها تؤيد ببساطة دعاوانا المسرحية بمصر والوطن العربى كله حول ضرورة ابتعاث الشكل المسرحى الشعبى .. مسرح السامر الريفى ومسرح الحلقة المغربى ومسرح المحبظين وبابات خيال الظل والأراجوز.

تلك الدعوة قد شارك فى اثارتها توفيق الحكيم فى كتابه «قالبنا المسرحى» . ويوسف ادريس فى مسرحيته «الفرافير» ومقدمتها النظرية . والدكتور على الراعى فى كتابه «الكوميديا المرتجلة» . والطيب الصديقى فى انتاجه الفنى، وكاتب هذه السطور فى مسرحيته «عسكر وحرامية» ..

هذه الدعوة الى اعادة تقييم مسرحنا الشعبى فيما قبل القرن التاسع عشر وآثاره الباقية الى القرن العشرين .. هى التى اجتذبتنى لتقصى تجربة ذوى الجباه العالية من الفنانين الانجليز بفرقة ممثلى العصور الوسطى بلندن.

ويبدو أن تجربتهم الفريدة لم تجتذبنى وحدى . ولا اجتذبت الجمهور وحده ..

فمنذ نشأة الفرقة عام ١٩٨١ .. اجتذبت الفكرة الشاعر المسرحى الشاب «أدريان ميتشيل» .. واجتذبت معه الفرق القومية البريطانية.

فى عام ١٩٨٢ أعد ادريان ميتشيل مسرحية «عمدة زالاما» من تأليف كالديرون للمسرح القومى البريطانى.

وفى عام ١٩٨٣ أعد نفس المؤلف مسرحية «الحياة حلم» لكالديرون أيضاً وقدمتها فرقة شكسبير الملكية.

وفى عامنا هذا قدمت فرقة ممثلى العصور الوسطى مسرحية «الدنيا مسرح كبير» التى سبق الحديث عنها .. كما افتتحت ملكة بريطانيا موسم فرقة المسرح القومى الاسكتلندى الذى يقدم مسرحية من العصور الوسطى للمؤلف «سير دافيد ليندساى» (١٤٨٦ ــ ١٥٥٥) .. أحدثكم عنها فى موضوع لاحق.

الفريد فرج

علي الشرقاوي
شاعر يستمد إلهامه من هموم العصر ورموز التراث


الشاعر علي الشرقاوي

بقلم: أحمد محمد عطية

علي الشرقاوي شاعر عربي من البحرين، يغترف شخصياته وصوره وقصائده من التراث العربي عامة ومن تراث بلده ومنطقة الخليج بوجه خاص. هكذا يصل الشرقاوي الماضي العربي بالحاضر العربي، ويوظف خبرة الماضي وحكمته في خدمة الحاضر المعاش. فيحيي التراث ويشحنه بمضامين عصرية وهموم اجتماعية وسياسية معاشة، ويقدم أنموذجاً حياً لامتزاج الأصالة والمعاصرة، في ابداع شعري جديد تتألف كلماته وصوره من الطبيعة البحرينية الجميلة، حيث البحر والزرع والنخل..

وهو شاعر مفكر يمتزج لديه العام بالخاص والذات بالموضوع، من جراء احتضانه لقضايا وطنه وأمته ورؤيته للشعر كأداة للتغيير الاجتماعي والسياسي والحضاري. وبقدر ما هو مهموم سياسياً واجتماعياً، فإنه حريص على التجديد والابتكار والاضافة في الشكل الشعري وفي ابداع مفردات قاموسه الخاص، في صوره وقصائده ودواوينه الكثيرة والمتتابعة منذ نشر أولى قصائده سنة ١٩٦٧ في أعقاب النكسة حتى اليوم، حيث تزايد نشاطه وامتد الى المسرح وأغاني الأطفال والشعر العامي، حتى رئاسته لأسرة الأدباء والكتاب في البحرين.

فقد أصدر الشاعر علي الشرقاوي حتى اليوم ستة دواوين شعرية هي: «الرعد في مواسم القحط» (١٩٧٥)، «نخلة القلب» (١٩٨١)، «تقاسيم ضاحي بن وليد الجديدة» (١٩٨٢)، «هي الهجس والاحتمال» (١٩٨٣)، «رؤيا الفتوح» (١٩٨٣)، «المزمور (٢٣) لرحيق المغنين شعر شين» (١٩٨٣)، مع ديوان من الشعر العامي بالاشتراك مع زوجته الشاعرة فتحية عجلان عنوانه «أفا يا فلان» (١٩٨٣)، وذلك بالاضافة الى قصيدة طويلة عن حصار بيروت وقصائده الأحدث المتتابعة.

وقد تحدث إلى الشاعر علي الشرقاوي عن تجربته الشعرية والأدبية ورؤاه وطموحاته، رداً على سؤال لي حول هذا الموضوع قائلا: «صادقت الصعاليك وعايشت الزنج والقرامطة وسكنت في عشق الصوفيين، وسافرت في أحزان السياب وأحلام صلاح عبد الصبور، وتسكعت مع لوركا وناظم حكمت وبابلو نيرودا. كلهم كانوا أصدقائي. كنت أبحث ومازلت عني وعن الانسان والمجتمع في داخل نفسي أو في الواقع المعاش».

الشاعر رماد قصائده

والكتابة عند الشرقاوي «هم يومي، قلق، معاناة، واحباطات أقفز فوقها بالاستمرارية والمواصلة. الكتابة هم، مثلما يفكر الأديب في زوجته، في عمله، في أطفاله، فلابد أن يفكر في كتابته، تطورها، تجددها، ابتكارها.. إنه الاحتراق يا صديقي، ان لم تحترق لن تستطيع الكتابة. الشاعر رماد قصائده».. (جريدة «أخبار الخليج» البحرينية ١٥ أكتوبر ١٩٨٢) أو كما يقول في مقطع من قصيدته الطويلة «رسائل»:

اكتبيني
أنا ظلمة من دم
تتضور عيني لحرف يضيء
لكلمة حب تحيل دمائي المحاطة بالقبر
طيرا جريء.
فإن السطور تعمدني
أتحول في ومضها قامة كالندى
وربيعاً أصير على الكون
كل الحقول حروفي
فهل توقفين نزيفي؟ (نخلة القلب ص٩)

فإبداع الشعر فى سطور علي الشرقاوى هو الذى يعمده ويمنحه الحياة والتواجد . والشعر هو أداته ووسيلته للتواصل مع الناس والأحبة واكتشاف المجهول ، كما يقول فى قصيدته « فتوحات » :

يغلقون النوافذ
أفتح بالشعر نافذتى
وأغادر فى نسغ الكلمات الطرية نحو المجاهيل
أعزف بالورقات الصبية عذب المواويل .
(نخلة القلب ص ١٤٥) .

ولعل أبلغ وصف لرؤية الشرقاوى لأهمية الشعر فى حياته قوله فى مقدمة ديوانه الخامس : « رؤيا الفتوح » « لست إلا رؤيا فى حرف » .

وأضاف علي الشرقاوى ، فى شهادته لمجلة « كلمات » البحرينية (العدد الأول خريف ١٩٨٣) ، قائلا : « المهم بالنسبة لى أن لا أكرر تجاربى . ان أبتكر ما يستحق أن يقرأ . فالشعر الذى لا يخلق الجديد والمختلف لابد أن يجد له مكاناً فى متحف الغبار » فالمهم لدى الشاعر الشرقاوى هو التجديد : « الهاجس الجدة ، الابتكار ، الشكل المغاير ، الصورة الحية الفنية الثرية ذات الأبعاد المتفجرة . انه البحث عن التنوع الذى هو الحلم » .

التجديد والأصالة

والتجديد عند علي الشرقاوى يرتبط بالأصالة ، ببعث التراث واستلهامه وتوظيفه فى شعره الحديث وشحنه برؤاه العصرية . فهو شاعر عربى أصيل لا يجنح إلى التغريب أو الرموز والأساطير الغربية . فمن التراث العربى ، المتصل بتراث الخليج أيضاً ، ينتقى علي الشرقاوى شخصيتين من التاريخ العربى . فى ديوانه الأول « الرعد فى مواسم القحط » ، فيحييهما ويبث فيهما رؤاه العصرية ومفاهيمه وهمومه الاجتماعية والسياسية ، من خلال صوره المتزجة بالطبيعة ، الغابة والورد والحقول والرعد والماء والنخل .. اضافة الى صور البحر ، فى قصيدته « تصريح علنى بعد اغتيال أحد الخوارج » :

تسافر بين تجاعيد وجهك قافلة الموت
تكتشف اللذة موطنها ــ غابة الدم
بوابة صار صوتك
هل كان معزوفة الورد ؟

(كان فصول شتاء وكان حقول مجاعة)
تسافر ، يعرق فى وجهك القيظ .
يطلع نسغ الترقب من زهرة الملح ،
فهل خطواتك رعد وماء ؟
« ص ٦،٥ » .

وبكلمات أكثر تقريرية ومباشرة يحدد الشاعر هدية « سلطان » ، المقتال من الخوارج ، ويسقط من خلالها هموم القهر والفقر المعاصرة ، فى رؤيته الاجتماعية والسياسية لحركة الخوارج واضاءته الجديدة لها :

سلطان ..
أعرف أنك تبحث فى سعف الكوخ
عن كتب خبئت منذ عام
وأعرف أنك تبحث فى زرقة البحر
عن جزر لن تراها
وتبحث ..
(فى البحث ظل مذاق الغربة موتا
وظل اشتهاء)
سلطان ، أعرف أنك عشت احتجاج
يتابعك المخبرون
لأنك متهم بالتوحد بالفقراء
ومتهم بتعاطى الخضور
(البلاد التى تتحول فيها الزوايا
مخافر للقتل ، ليست بلادى)
تطالب بالخبز
يتابعك المخبرون

ولكن الشاعر بعد أن يكشف مغزى الاتهامات القديمة ، وأهمها التوحد مع الفقراء وحمل همومهم والمشاركة فى قضاياهم ، يرفض انكاره لبلاده ويربط بينه وبين أبناء الوطن فى حبهم جميعاً لهذا الوطن قائلا :

ولكنها لن تكون على الأرض إلا بلادك
فى الحزن والعيد تبقى بلادك
فى الصحو والنوم تبقى بلادك
فى كل شيء بلادك
أنت بلادك
سلطان .. أعرفك الآن أكثر
أعرف أنك عشت بسيطاً
كنخل بلادى ، كأحزانها يوم عيد
وحين يردد اسم الحبيبة فى جلسات المساء
تصلى وتكتم حبك ،
تحمله ارخبيلا من الوجد
(حين تصيرين أنت دمى أستحيل أنا ساعديك) (ص٩ و ١٠)

ويختتم الشاعر قصيدته مخاطباً « سلطان » ، قائلا بأنه يكفيه انه طرح سؤالا ظل ينتظر الإجابة :

فأنت خلقت سؤالا
هل يقتلون السؤال ؟ (ص١٤)

الماء والورد

وفى قصيدته « هكذا تكلم أحد القرامطة » يقدم الشاعر علي الشرقاوى رؤيته العصرية لحركة القرامطة ، مخاطباً « وردة الجوع » ، مغترفاً فى تراكيبه « مع القرامطة » من دمع الصعاليك « المستحمين فى أنهر الجوع » ، مستخدماً صور البحر والشواطىء والماء والورد فى التعبير عن بؤس القرامطة وفقرهم وتعبيرهم عن الحلم الباقى ، فحتى فى الجوع والقهر والقبر ومياه البحر المالحة تورق الوردة وينهض النخل من بين القبور ويولد الأطفال رمزاً للأمل فى الغد الأفضل :

يا وردة الجوع ، يا كل شيء لدى
نهاراً أراك
نخيلا تقايض شاهدة القبر بالقبر ،
أنا البحر ،
جلدى الشواطىء ،
أسكن فى قطرة الماء ، فى الطلع أسكن ،
فى التربة المستحمة بالانتفاضات
فى مطلع الصيف أسكن ،
يا وردة الجوع
هزى جدار الأزقة يطلع طفل
وهزى الصدى
صنما يسقط الحقد ، فى الوحل يسقط
فى الوحل ،
فى الوحل
يا وردة الجوع
قد يمنعون النعاس عن العين .. لكن
سأبقى أنا الحلم .
كل الجهات طريقى . (ص٤٥ ــ ٤٧)

إذا كانت هذه القصائد الأولى للشاعر علي الشرقاوى قد شابها المزيد من الكلمات المباشرة والجمل والتراكيب التقريرية المألوفة ، فإنه لم يلبث أن تقدم نحو مزيد من التكثيف والترميز والتجديد والتراكيب الجديدة فى قصيدته الطويلة ، التى تشكل وحدها ديوانه الثالث المعنون : « تقاسيم ضاحى بن وليد الجديدة » .

التراث الشعبى

فمن التراث الشعبى البحرينى ينتقى الشاعر علي الشرقاوى شخصية فذة هى شخصية الفنان

علي الشرقاوي

شاعر يستمد إلهامه من هموم العصر ورموز التراث

البحريني المرتبط بفن البحر وغناء البحر وشقاء البحر كذلك ، المولود عام ١٨٩٠ والمتوفى عام ١٩٤٥ . الذى اشتغل بالطرب والغناء والتلحين . واشتهر في منطقة الخليج بألحانه المتميزة وأدائه المتفرد في غناء « الصوت الخليجي » ، كما فاق سواه حتى أستاذه محمد بن فارس في براعة ريشته وعزفه على آلة العود . وقد عمل قبل ذلك « نهاما » ، أى مغنيا يصاحب الغواصين ويرفه عنهم على ظهر السفينة في عرض البحر . وكان أسمر اللون قاتمه مع بعض الجدرى في الوجه . وقد اختتمت حياته بنهاية مأساوية إذ مات بعد ان تجرع زجاجة من الكحول (السبيرتو الحارق) ، كما يقول الشاعر البحريني علوى الهاشمى في دراسته « مستويات الرمز وفاعلياته » (المنشورة بمجلة « كلمات » البحرينية العدد الأول خريف ١٩٨٣) .

فى هذه القصيدة الطويلة : « تقاسيم ضاحى بن وليد الجديدة » (٦٤ صفحة قطع صغير) . يعبر الشاعر علي الشرقاوى عن غربة هذا الفنان الشعبى إزاء سيطرة الآلات الغربية : على الفن العربى البدوى الأصيل والنقى والبسيط . ويرمز من خلال ذلك الى سيطرة الغرب على الانسان البدوى العربى الطيب وعلى مقدرات الأمة العربية وثرواتها وعقلها . مركبا تعبيراته الجديدة من حياة البحر ومعالمه وتراثه العربى والخليجي .

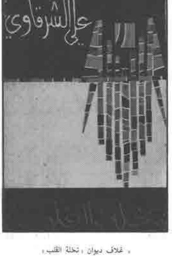
وفى إحيائه لهذه الشخصية الفنية الشعبية يمزج الشاعر بينها وبين شخصية البدوى العربى ويسقط من خلالها رؤاه العصرية . أو كما وصف الشاعر الشرقاوى هذه التجربة الجديدة ، في شهادته لمجلة « كلمات » البحرينية العدد الأول خريف ١٩٨٣ : « أنا أكتب ضد تشيؤ الانسان وتحوله الى رقم فى ترس الآلة . ولذلك أكون البدوى الذى لا يعرف غير الحب والطيبة والعلاقات الانسانية الفطرية ضد الآلة وليس الآلة كآلة محددة ومصنوعة من الحديد . وهذا ما حاولت ان أطرحه من (تقاسيم ضاحى بن وليد الجديدة) .

انه يحتج على ضياع صوت الفنان البدوى البكر « ضاحى » في صخب الآلات الغربية التى لوثت مواله العربى الأصيل . موال النرجس المعطر بالداء المعدى الخبيث . حتى غدا الفن العربى والبدوى منفياً مغترباً فى وطنه كالمخطوطة فى الزمن الأمى حيث لا أحد يقرأ أو يسمع :

أحاول
مبحوح صوتى
ويدى لا يتحرك فيها وتر
والريشة ذاكرة الوقت البدوى تنوء على
كتفى
لكأن الطفل غفا فى الجوع
كأن دموع الصباح تفيض دما
أتفقد بين صعود الضربة صحوتها
وأحاول
مجروح وقتي
من لوث بالآلات الغربية موال النرجس ؟
من عقلنى ؟
..... مركون مثل المخطوطة فى الزمن
الأمى

أما الأنغام البدوية التى تنساب من شفتى الفنان ضاحى بن وليد فيبدع الشاعر فى تصويرها ومزجها بمفردات الطبيعة . فهى تغزل أيام الرعد حجراً وشجراً وطفلا . وهى كالنورس يحرك ألحان الوجد ليغزو بها « نهار اليم » ، مؤكداً ضرورة تجاوز الممكن بالحلم فى الغد الأفضل :

والأنغام البدوية من شفتيه
تطل على أيام الرعد وتغزلها
حجراً
شجراً
طفلا
مركون
الأنغام البدوية يجهلها
من لم يسق السنوات جنون الرمل



« غلاف ديوان « نخلة القلب »

من لم يمتص فى الفجر حليب النخل ..
الحزن هنا خمر
وأنا أشرب فى قدح الممكن لابد الحلم
أثقف بالوجد المنغوم شفار الهم الواقف
كالنورس
فوق نهار اليم

العازف فى الظلمات

و« ضاحى بن وليد » ، الذى يحييه الشاعر علي الشرقاوى ، رائد عازف فى الظلمات ، عارف بخارطة الحزن العربى وقادر على كشف الأنغام المعبرة عن الوجدان العربي . ولكنهم شيأوه ، أى تحول الى شيء فى فحيح الآلات الغربية أيضا تحت سقف الحياة المادية النفعية حتى اضطرت أوتاره للصمت ، بالرغم من عمق الصوت البدوى وقدرته على التعبير والايقاظ :

مبحوح قلبى
وفحيح الآلات الغربية
تحت السقف الديناري المغزول من الآهات
على الوتر الصامت علبني
من شيأ صوتك يا عود النار ؟
من شيأنى ؟
اشرب
وتحول فى شفتى
أتنقل فيك اليك
وألقى الأيك وراء يديك يحاورنى
فارحم هذا القلب اللاجىء فى بدنى
أشرب
لجنونى أشرعة الحرف السابح فى صحو الليل
أجرب فيه مزج الفرحة بالكشف البدوى
ولج الخطف يجربنى
جاور شجنى
غامر فى النفس وعلمنى
هل غيرك يوقظ صوت الفيروز الراقد بين
فمى ؟
هل غيرك يسمع حمحمة البحر الطالع من
نغمى (ص١١ و ١٢)

وتمتزج معاناة الانسان العربى ، البحار العربى بالبدوى العربى والفنان العربى . وتتصاعد آمالهم وطموحاتهم فى أنغام « ضاحى بن وليد » وكلماته الصادقة الأصيلة بتراكيب الشاعر المكونة من مفردات عالم البحر :

ضاحى يرفع أشرعة الممنوع
ضاحى بالعود يهز وقود الفعل ويسقيها
بدم الأشلاء

فتخضر الصرخات البدوية شاهرة
بالرقصة سيف الجوع
ضاحي كالجدول يرحل
ضاحي كالمنهل يأتي
يرحل
ويحول بين تقاسيم العود تقاسيم الأشياء
وفي الصدر يعطر بالكلمات تجاعيد الميناء
ويسيرها .. نحو الداخل
(ص٥٣و٥٤)

أبو ذر الغفارى

ومن التراث العربى أيضاً ينتقى الشاعر علي الشرقاوى ، فى ديوانه الرابع « هى الهجس والاحتمال » ، ثلاث شخصيات بارزة وموحية ، ويعيد تشكيلها وصياغتها وشحنها بمفاهيم ورؤى عصرية . الشخصيات هى : « أبو ذر الغفارى » ، « أحمد بن ماجد » ، و « السهر وردى » .

وفى قصيدته عن الصحابى الجليل أبى ذر الغفارى ، بعنوان « أبو ذر يعبر المستطيلات » ، ينادى الشاعر أبا ذر نصير الصعاليك ومخرج الممكن من المستحيل ، يقولها الشاعر بأبسط الكلمات وأرقها تعبيراً عن ثراء التراث العربى وامكانية توظيفه فى خدمة أدبنا وشعرنا وحياتنا المعاصرة :

تقدم أبا ذر منى
فلا الذئب منى برىء
ولا الجب
هذا قميصى
سأرفقه راية للدماء
وأدعو جموع الصعاليك للحب جيشا
تقــــدم
ودعنى أشم الخطى فى عيونك
أشرب من نسمات هواك
فأنت قريب كصوتى ولكننى لا أراك
أنت أليف كأهداب عينى
تقدم وخذنى
فحين توجهت فى المستطيل
تداعى فؤادى اليك
(ص٢٥و٢٦)

ابن ماجد

أما قصيدته « السفينة » عن الملاح الشاعر أسد البحار ورائد الاكتشافات البحرية أحمد بن



غلاف ديوان « أفآ يافلان »

ماجد ، فهى تلتقط لحظة مبهرة عند احياء ذلك الزائد العربى العظيم هى شوقه لرؤية الوطن ، ولكن الوطن الذى يراه ليس هو الوطن الحقيقى ، إذ يشحنه الشاعر بصور معاصرة مرفوضة ، تعبيراً عن نقده ورفضه لها . وخلال ذلك يغترف الشاعر صوره وكلماته من تراث البحر وعالم البحر الثرية والموحية .

إن ابن ماجد الذى قاد سفينة المكتشف البرتغالى فاسكو دى جاما وهداه إلى كشوفاته يقدم الخليج كفاتح لعصر الكشوفات . فمن النار والجرح وخوض الأسفار بالسفينة فى الغيم يولد الصباح الجديد والكشف الجديد ، وهو ينادى « بالبدء » من هذا الخليج :

ابن ماجد : اهتك سر البحار
فللنار وحم الصباح
وللجرح نزف الولادة
والدرب والاختيار
السفينة فى الغيم تعرف أسرارها
يتداخل همى بأسفارها
أينكم .
ابدأوا من خليج سيومض عصر الكشوفات
(ص٤٦)

ويصف الشاعر علي الشرقاوى « ابن ماجد » بأنه « كوكب » فوق السفينة ، وانه « يأتى اذا الماء يذهب » وان يديه تمتدان للبحر قائلة انهض فيطيع انه الملاح القائد والمكتشف المبدع ، ولكنه عندما يطلب ان يرى وطنه فإنه يظل يصيح « لا أرى وطنى » ، ويكرر الشاعر صيحته تكراراً موحياً مع كل صورة مرفوضة للوطن :

ابن ماجد ماذا ترى ؟
ــ لا أرى وطنى
البنوك شهيق وزوادة للملل
ــ لا أرى وطنى
السياحة نهر حليب ونهر عسل
ــ لا أرى وطنى
الصراصير تضربنى بالهراوة
تحت الجدار يراقبنى أنفها المستريب
آه تدخل بين أمسى ولون فمى
آه جائعة كلماتى
وقلبى حزين . حزين . حزين .
فمن أين يبدأ هذا المحاصر ؟
أضرب صدر القواقع (ص٥١)

ومع ذلك فالشاعر لايدعو لليأس ولكنه يؤكد امكانية تحقيق الحلم وتجاوز الواقع ، لأن الخليج هو صاحب الكشوفات ومنه ستنبثق الكشوفات الجديدة والمستقبل الجديد :

فياحلم شعبى الذى فى السفينة
وشعبى الذى فى المدينة
من خليج سيبدأ ومض الكشوفات
غير ضجيج القواقع
تضربنى بالهراوة
أضرب فى صدرها
ثم أضرب (ص٥٣)

ثم يناديه الشاعر مختتماً قصيدته الطويلة :

يا ابن ماجد انظر
نظرت .
هى الأرض ممتدة فى دمى
ارفعوا حلمكم
عالياً
عالياً
عالياً كى أرى (ص٥٦)

وبعد ، ان عالم علي الشرقاوى الشعرى هو عالم واسع مترامى الأطراف ، حافل بالقضايا العامة ، الرؤى السياسية والاجتماعية ، إذ تتقلص فيه هموم الشاعر الذاتية لتندمج فى همومه العامة ، فهو شاعر مهموم بوطنه وأمته . وهو يرى فى التراث العربى والخليجى وفى شخصياته التراثية خير معين على تحقيق الحلم العربى لهذا اهتممت فى هذه المقالة باتجاهه التراثى ورموزه وأساطيره العربية ، كنموذج لاحياء التراث فى الشعر العربى المعاصر فى الخليج ، وتحقيق صحيح لمعادلة الأصالة والمعاصرة .

أحمد محمد عطية

بعض المدن .. تصنع التاريخ

صيدا..
عروس الجنوب اللبناني التي دوّخت الإسرائيليّين

بقلم : عصام شريح



ليس الرجال غير العاديين هم وحدهم الذين يصنعون التاريخ ، فالمدن ــ بعض المدن ــ تلعب هذا الدور خلال حقب معينة من الزمان ، وكما أن هناك رجالا خالدين أو سيدات خالدات ، لقيامهم أو قيامهن بأدوار بارزة تركت بصماتها على صفحات التاريخ ، فهناك أيضاً مدن ، تبرز أمام دارسي التاريخ أو الباحثين ، وكأنها منارات لا يملك الدارس أو الباحث إلا أن يحط رحاله في ربوعها لبعض الوقت ، قبل استئناف رحلته .

من المدن صانعة التاريخ هذه ، مدينة صيدا أو « صيدون » قديماً في لبنان ، فهذه المدينة التي دوخت الاسرائيليين بالأمس القريب ، فاضطروا مرغمين على الانسحاب منها ، تلقن نفس الدرس اليوم لوكلاء الاسرائيليين ، وما فعلته صيدا بالأمس القريب ، وما تفعله اليوم ، ليس دوراً عابراً أو مقطوع الجذور ، بل هو دور تاريخي ، ومستمد من مسيرة المدينة عبر العصور والأجيال .. ولصيدا شقيقة لعبت دوراً شبيهاً هي مدينة « صور » ، وهي التي دغدغتها مآثر التاريخ ، وعفرتها منزلقاته وعثراته ، « صور التي جاء تساؤل في التوراة عنها : « من بلغ يوماً ما بلغته صور ملكة البحار؟!! » ، « صور » التي تعتبر واحدة من أهم الحواضر في التاريخ القديم ، « صور » التي ساهمت في ازدهار الحضارة اليونانية ، وزرعت وجودها العمراني والتجاري والحضاري في البحر المتوسط ، والتي اشتقت أوروبا اسمها من اسم ابنة ملكها « أوروب » ، والتي أبحرت منها « أليسا » أو « أليسار » ، لتؤسس « قرطاجة » التي أدخلت الرعب في قلب روما عاصمة الامبراطورية الرومانية القديمة .

جنوب لبنان

وصيدا ، هي حاضرة الجنوب ، هذا الجزء من لبنان ، الغني بسكانه المجدين الصامدين ، والغني بأرضه ومياهه ، غني هو أيضاً بتاريخه والآثار



أم تحمل طفلها الرضيع أثناء الاشتباكات التي تعرضت لها المدينة



لقطة لابتهاج صيدا بعودة الجيش إلى الجنوب

الباقية فيه ، والناطقة بحضارته وأمجاده الغابرة .
وللتذكير بأهم معطياته الحضارية ، نشير الى ما أكدته في هذا المجال ، كتب القدماء ، من هوميروس ، الذي أتى على ذكر صيدا وصور مراراً في الالياذة والأوديسة في القرن التاسع ق . م ، ، الى هيرودوتس ، في القرن الخامس ق . م ، ، الى ديودورس الصقلي وسترابون ، القرن الأول ق . م ، .

وجنوب لبنان ، يعني تاريخياً بالدرجة الأولى ، صيدا وصور ، اللتين يرجع تاريخهما ، بحسب آثار مدينة صيدا ، الى ما لا يقل عن خمسة آلاف سنة ، على أقل تقدير ، ولم يقتصر نشاطهما على التجارة والملاحة ، ومختلف الصناعات والفنون الحرفية (الزجاج والعاج والمعادن والصباغ الأرجواني ..) فحسب ، بل شمل مجالات أخرى ، كعلم الفلك والرياضيات ، حيث قال المؤرخ ، سترابون ، جملته المشهورة : « .. وحتى الآن — أى القرن الأول ق . م — يمكننا تلقي العلم في صيدا وصور ، ليس في علم الفلك والرياضيات فقط ، بل في جميع فروع الفلسفة ! » .

ومن الناحية التاريخية ، فإن المنطقة المعروفة حالياً باسم جنوب لبنان ، كانت جزءاً من دولة الكنعانيين ، التي امتدت حدودها في بعض الفترات ، من صيدا شمالا حتى أريحا جنوباً .

وقد عرفت هذه المنطقة هجرات عربية مبكرة إليها ، منها هجرات الكنعانيين والفينيقيين (الفينيقيون شق من الكنعانيين انساحوا على طول شاطىء فلسطين ولبنان وسوريا) ، ثم الأنباط (واليهم تنسب بلدة النبطية) ، وقبائل من قضاعة وقحطان ، ومن هذه الأخيرة قبيلة ، عاملة ، التى اطلق البعض اسمها على الجنوب اللبناني ، فأصبح يعرف أحياناً باسم ، جبل عامل ، أو ، جبل عامله ، .

وفي العصر العباسي دخلت قبائل فارسية الى المنطقة ، بعد أن نزحت من منطقة كسروان .

وفي العصر الحديث ، دخلت هذه المنطقة ضمن حدود لبنان ، الذي أصبح دولة ، استناداً الى اتفاقية سايكس — بيكو ، ، التى جزأت بلاد الشام .

ويبلغ عدد سكان جنوب لبنان ٨٥٠ ألف نسمة ، أى ما يزيد على ربع سكان لبنان ، وهم موزعون على ٥٠٧ مدينة وقرية ، منتشرة على مساحة تبلغ ٢٢٨٧ كيلومتراً مربعاً ، في سبعة أقضية ، داخل محافظتين اثنتين هما محافظة صيدا ومحافظة النبطية ، وينتمى سكان جنوب لبنان الى الطوائف الرئيسية في لبنان : مسلمين شيعة ، ومسلمين سنة ، ودروزاً ، ومسيحيين : موارنة وكاثوليك وأرثوذكساً .

ومن أهم موانىء جنوب لبنان ، ميناء صيدا ، وميناء صور ، وميناء (أو مرفأ) مصفاة الزهراني لتكرير النفط المصدر والآتى من السعودية (أنبوب النفط متوقف عن العمل حالياً) .

وأهم جبال جنوب لبنان : جبل الشيخ ، وجبل مراح البقرة ، وجبل تبحا ، وجبل الريحان ، وجبل عامل .

وأهم الأنهار : نهر الليطاني ، ونهر الأولى ، ونهر الزهراني ، ونهر الحاصباني ، ونهر الوزاني .



أما أهم المدن فهي : صيدا (عاصمة الجنوب وعدد سكانها ١٤٠ ألفاً) ، وصور (٥٣ ألفاً) ، والنبطية ، وجزين ، ومرجعيون ، وبنت جبيل ، وحاصبيا والخيام .

الصهاينة وجنوب لبنان

وقد يكون من نافل الكلام أن نكرر أن الصهاينة يطمعون بأرض الجنوب ، بل وبكل لبنان وغير لبنان من البلاد العربية ، وهذه المطامع تاريخية ، وليست ظرفية ، وتستند الى مزاعم دينية ، تتمثل في تحديد ما يسمى ، بأرض الميعاد ، أو ، اسرائيل الكبرى ، التى تمتد من الفرات الى النيل ، كما هو مكتوب على مدخل الكنيست الصهيوني (البرلمان) : « حدودك يا اسرائيل من الفرات الى النيل » ، ومن هذه المزاعم أيضاً ما ورد في سفر التثنية : « كل مكان تدوسه أقدامكم يكون لكم ، من البرية ولبنان » ، وما ورد في سفر يشوع : « كل موضع تدوسه بطون أقدامكم ، لكم أعطيه كما كلمت موسى ، من البرية ولبنان الى النهر الكبير (نهر الفرات) ، جميع أرض الحثيين ، والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » ، وما ورد في سفر يشوع أيضاً : « أرض الجبليين (أى أرض مدينة جبيل ومنطقتها في وسط الساحل اللبناني) ، وكل لبنان نحو شروق الشمس ، من بعل جاد تحت جبل حرمون الى مدخل حماة » .

وانطلاقاً من هذه المزاعم قال مؤسس الحركة الصهيونية ، تيودور هرتسل ، عندما سأله السلطان العثماني عبدالحميد الثاني تحديد ، دولة ، اليهود المزعومة ، وما إذا كانت تمتد الى بيروت أو ما هو أبعد منها : « سنطلب من الأرض ما نحتاج إليه ، وتزداد المساحة المطلوبة بازدياد المهاجرين » ، وقد لخص ، دافيد بن جوريون ، هذه المقولة بعبارة واحدة هي : « التجمع والاقتحام » .

أما الأسباب غير الدينية للمطامع الاسرائيلية في جنوب لبنان ، فتتلخص بالمطامع في مصادر المياه وخاصة نهر الليطاني ، ثم السيطرة الاقتصادية ، يضاف الى ذلك سبب سياسي ، يتمثل في ضرب نموذج التعايش اللبناني بين مختلف الطوائف ، وتفتيت لبنان الى دويلات طائفية ، مما يدعم النظرية الصهيونية ، بأن المنطقة العربية لا تشتمل على أمة موحدة ، وإنما على طوائف دينية متصارعة ، وهو ما يبرر أن يكون للطائفة اليهودية كيان سياسي في المنطقة أيضاً ! !

ولا يفوتنا هنا أن نشير الى تصريح خطير أدلى به الحاخام الأكبر للطوائف الشرقية في الكيان الصهيوني ، في أعقاب الغزو الاسرائيلي للبنان في عام ١٩٨٢ ، فقد قال عندما سئل عن حدود « اسرائيل » الشمالية ، « هناك نظريتان بالنسبة للحدود الشمالية : الأولى تقول إنها تصل الى الحدود مع تركيا ، والثانية تقول إنها تتوقف عند



نهر الليطاني . أما بالنسبة لي فإنني اكتفي بالنظرية الثانية حاليا ! ».

دويلة الشريط الحدودي

بعد قيام الكيان الصهيوني ، بدأ قادة هذا الكيان ، بانتهاج سياسة عدوانية ضد جنوب لبنان ، وذلك انطلاقاً من المطامع التاريخية الصهيونية فيه . ففي عام ١٩٤٩ ، واستناداً « لاتفاقية الهدنة » المعقودة بين لبنان و« اسرائيل » ، جرى تخطيط جديد للحدود احتفظت « اسرائيل » بموجبه ، بمساحات واسعة من الأراضي اللبنانية ، التابعة للقرى الأمامية من الجنوب مثل قرى : يارون ، رميش ، عيترون ، بليدا ، ميس الجبل ، حولا ، عديسه وكفركلا وغيرها . وفي حرب ١٩٦٧ ، استولت « اسرائيل » على احدى عشرة مزرعة في خراج بلدة « شبعا » هي : مزرعة المغر ، مزرعة فشكول ، خلة غزالة ، مزرعة زبدين ، مزرعة برتعيا ، مزرعة الربعة ، مزرعة بيت البراق ، مزرعة بزحتا ، مزرعة كفر دوره ، مزرعة العقاسب ومزرعة رمثا .. اضافة الى مساحات واسعة من جنوب جبل الشيخ ، بيد ان اسرائيل ، بدأت بشن أعمال حربية متتابعة ضد جنوب لبنان منذ عام سبعين ، بحجة الرد على رجال المقاومة الفلسطينية والعمليات الفدائية ضد المستوطنات والمستوطنين . وكان أعنفها الاجتياح الاسرائيلي لمنطقة الجنوب في عام ١٩٧٨ ، (١٥ آذار – مارس) .. لكن الاسرائيليين انسحبوا من جنوب لبنان تحت ضغط الرأى العام الدولى ، وخاصة الضغط المتولد عن قرارات مجلس الأمن ، بيد أنهم احتفظوا بمنطقة أصبحت تعرف بمنطقة الشريط الحدودى ، وفي ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٩ ، أعلن العميل سعد حداد من مستوطنة « المطلة » ولادة دويلة في منطقة الشريط الحدودي أسماها « دولة لبنان الحر » ، وهي المنطقة نفسها التى أعلن الصهاينة أنهم سيحتفظون بها بعد استكمال انسحابهم من جنوب لبنان ، لاقامة « حزام أمني » من سكان هذه المنطقة من المسيحيين ، ضد الهجمات على المستوطنات الصهيونية بشمال فلسطين المحتلة .

جنوب لبنان وفلسطين

تعتبر العلاقات بين سكان شمال فلسطين وسكان جنوب لبنان ، علاقات تاريخية ، حيث كانت فلسطين تحتضن الجنوب اللبناني قبل قيام الكيان الصهيوني في عام ١٩٤٨ ، والى فلسطين كان ينتقل أبناء الجنوب للعمل الموسمي أو الدائم ، الى درجة أن العملة الفلسطينية (النقد) كانت الأكثر تداولاً في عموم جنوب لبنان ، وخاصة في قريتي بنت جبيل وشبعا ومدينة صور ، والعلاقات الاقتصادية والتجارية بين مدن وقرى جنوب لبنان وبين مدن حيفا وعكا وصفد الفلسطينية كانت أعمق منها ، بين تلك المدن والقرى اللبنانية والعاصمة بيروت ، كما كان لبنانيو الجنوب ، يعرفون المدن الفلسطينية جيداً ، ويترددون عليها ، أكثر من معرفتهم ببيروت .. وحتى أن الاقتصاد في جنوب لبنان واقتصاد شمال فلسطين كانا اقتصاداً واحداً الى حد كبير ، وكانت السوق الفلسطينية ، رغم جميع الحواجز الاستعمارية ، مفتوحة أمام اللبنانيين الجنوبيين ، تماماً كما كانت مفتوحة للفلسطينيين ، وفيها كانت تتم المبادلات الاقتصادية والتأثيرات السياسية . ومن الطبيعى والحال كذلك أن يكون النضال ضد الاستعمار البريطاني في فلسطين ، والنضال ضد الاستعمار الفرنسي في لبنان ، خلال الثلاثينات والأربعينات ، نضالاً مشتركاً ، انعكست آثاره فيما بعد على النضال ضد الصهيونية الباغية .

صيدا عروس الجنوب

أعود الى صيدا ، والحديث عن جنوب لبنان حديث طويل وذو شجون ، لأقدم للقارىء العزيز نبذة عن هذه المدينة المناضلة ، التي أرغمت جيش الاحتلال الاسرائيلي ، أن يجرجر أذيال الفشل وينسحب منها ومن بقية الجنوب خاسئاً كسيراً .

فمدينة صيدا ثغر على ساحل لبنان الجنوبي ، يبلغ عدد سكانها حالياً أكثر من ١٤٠ ألف نسمة ، وهى تبعد عن بيروت ٤٧ كيلومتراً ، وصيدا إحدى المدن الفينيقية القديمة التى اشتهرت بالتجارة والملاحة ، وكانت قاعدة للدولة الكنعانية في بعض مراحلها ، وقد فتحها العرب أثناء خلافة عمر بن الخطاب في عام ٦٣٨ ، واغتصبها الصليبيون ، وحررها صلاح الدين الأيوبى منهم في عام ١١٨٢ ، ثم تداول الفريقان احتلالها خلال مائة عام ، حتى استقرت في أيدى العرب في عام ١٢٩٢ ، وقد أعاد الأمير اللبناني فخر الدين بناءها ، ودمرتها الزلازل في عام ١٨٣٧ ، بيد أن العثمانيين أعادوا بناءها من جديد ، وقد ازدادت أهميتها التجارية بعد استقلال لبنان بسبب مد خط للبترول السعودي الى منطقة الزهراني في جنوبها . أما أهم آثارها فهي قلعة البحر ، وقلعة القديس لويس وخان الفرنج .

تلك هى الملامح العامة لصيدا ، لكن لا بأس بالتفصيل قليلا ، لأن صيدا هي عروس الجنوب وعاصمته ، ولأنها دخلت أخيراً التاريخ من أبوابه الواسعة ، عندما تصدت للغزاة الصهاينة منذ أيام الغزو الأولى في صيف عام ١٩٨٢ ، حتى أجبرتهم على الانسحاب مطأطئي الرؤوس في ١٦ – ٢ – ١٩٨٥ .

يقول الدكتور فيليب حتى ، إن صيدا وصور ، أصبحتا في العصر الفينيقي ، سيدتي البحار ، لكن صيدا تعتبر أقدم عهداً من جارتها صور ، لا بل إنها تعتبر أماً لها . فقد جاء في سفر أشعيا في التوراة : « إن صور ابنة صيدا » ، كما أن صيدا ، كما هو مثبت على نقودها كتابة ، أم لمدينة « هيو » بشمال أفريقية ، وأم لمدينة كيتيوم في قبرص .

وقد كانت الزعامة لصيدا على المدن الفينيقية ، كما كانت لها السيادة البحرية ، فمارست هذه



الاعلام اللبنانية تملأ شوارع صيدا بعد إنتهاء كابوس الاحتلال

الزعامة وهذه السيادة على جنوب لبنان ، بما في ذلك مدينة صور .. وكان كتاب التوراة ، كما كان الشاعر اليوناني هوميروس ، يسميان الفينيقيين صيدانيين ، مما يدل على أن صيدا كانت أقدم من صور . وتصف التوراة صيدا . بأنها « صيدون » العظيمة ، أما هوميروس فيقول في أشعاره ، إن تجارة الأقمشة والنحاس هي من احتكار مدينة صيدا . مما يدل على أهميتها التجارية في ذلك الزمان ، كما يمتدح هوميروس الصيدانيين ، والاشارة في « الالياذه » الى « الثياب المطرزة من صنع الصيدانيات » . إنما هي اشارة صريحة الى مهارة النساء الفينيقيات ، كما وصف هوميروس « جاماً من الفضة ، صنعه صيداويون » . بقوله :

« إن الصيدانيين أصحاب الحذق والمهارة في الأعمال اليدوية الدقيقة . هم الذين صاغوا هذا الجام الذى لا مثيل لجمال صنعه في الدنيا » . وبالطبع فإن هذه الشهادة من هوميروس . إنما تصف لنا أهمية الفن الفينيقي أو الصيداني وشيوعه في جميع بقاع حوض البحر المتوسط ، فكأنه كان يسير جنباً الى جنب مع التجارة التى اشتهر بها الفينيقيون .

ومن الصناعات التى راجت على الشاطىء الفينيقي : صيد السمك ، واسم مدينة صيدا ذاتها يرد الى جذر سامي يفيد « الصيد » . كما اشتهرت صور « بمهندسي « البناء » ، وهؤلاء المهندسون والبناؤون الصوريون هم الذين بنوا ما يعرف « بهيكل سليمان » ، بأمر من ملك صور « حيرام » ، مستخدمين فيه خشب الأرز من لبنان ، كما اشتهرت صور ، ومعنى اسمها « صخر » ، بالصباغ الارجواني (اللفظة الاغريقية فونيكس) . وقد استخرج الفينيقيون هذا الصباغ من حيوان بحرى يعرف باسم المريق ، الذى لا يعيش قرب الشاطىء الفينيقي أو اللبناني فحسب ، وانما نجده قرب شواطىء البحر الأبيض المتوسط جميعها . غير أن أشهر وأجود أنواع هذا الحيوان . كانت تعيش على شواطىء صيدا وصور .

وقد بنى الفينيقيون مستعمرات عديدة لهم في قبرص ورودس وكريت ومالطة وصقلية وسردينيه وغيرها من جزر البحر المتوسط ، لكن أعظمها كانت على شاطىء تونس كما تعرف اليوم ، وهي مدينة قرطاجة التى حاربت روما وانتصرت عليها لفترة من الزمن ، قبل ان يمحوها الرومان من الوجود لحقدهم عليها . وقرطاجة هى ابنة صور ، أنشأتها في عام ٨١٤ ق . م ، واسمها يعني المدينة الحديثة ، مقابلة لها بمدينة « يوتيكا » التى بنوها في تونس أيضاً . واسمها يعني المدينة القديمة أو العتيقة .

وفي العهد الآشوري ، استسلمت صيدا وصور في عام ٧٠١ ق . م . للملك أسرحدون . لكن صيدا استعادت قوتها ونشاطها فيما بعد ، فعاد إليها أسرحدون وخربها في عام ٦٧٥ ورمى بحجارة سورها الى البحر .

وعندما تقدم الفرس الى لبنان ، اختار داريوس الأول (٥٢١ — ٤٨٥ ق . م) مدينة صيدا لتكون عاصمة الأيالة (الولاية) الخامسة التى شملت لبنان وسوريا وفلسطين وقبرص . وقد ازدهرت العلاقات بين الجانبين . بسبب حاجة الفرس للمراكب والبحارة الفينيقيين أو الصيدانيين في حروبهم وخاصة ضد الأغريق . حيث زود الفينيقيون الفرس بـ ٢٠٧ مركبا وخاضوا معهم غمار معارك بحرية عديدة . لكن لما خسر الفرس معركة سلاميس ، أمر ملكهم احشوميروش بقطع رؤوس بعض القواد الفينيقيين . فأبى القادة الباقون استئناف الحرب الى جانب الفرس ، وانسحبوا بمراكبهم تحت جنح الليل عائدين الى بلادهم . ولمدة خمس عشرة سنة . لم يرد ذكر لاشتراك مراكب فينيقية مع الأساطيل الفارسية . ويقول مؤرخ أغريقي : « ان إكليل الغار في هذه الحرب استحقه الأثينيون (نسبة لأثينا) في المعسكر الأغريقي : والصيدانيون في معسكر (البرابرة) » . وقد بدأت العلاقات بين الفينيقيين أو الصيدانيين والفرس تتدهور منذ ذلك الحين ، وزاد نفور الفينيقيين من الفرس في عهد الملك أرتحشتا بسبب الغطرسة والفظاعة التى عوملوا بها والضرائب التى فرضت على الأهالي ، وثار الفينيقيون ضد الفرس في طرابلس أولاً ، وامتدت الثورة الى جميع أنحاء الشاطىء اللبناني ، وكان انتقام الفرس من صيدا رهيباً ، عندما صمموا على الموت أباة أحراراً ، بعد أن قتل ارتحشتا ١٠٠ وجيه من وجهاء المدينة كانوا قد خرجوا لملاقاته وبأيديهم أغصان الزيتون ، وفي ساعة قنوط ويأس احرق الصيداويون جميع مراكبهم في الميناء ، لئلا يفكر أحد بالهرب بحراً ، ودخلوا بيوتهم واستسلموا للموت حرقاً ، ويقال إن أكثر من أربعين ألف شخص هلكوا في هذا الحريق الهائل ، ومن نجا قبض عليه وسبي الى بابل . وهكذا أصبحت صيدا سيدة مدن البحر المتوسط ، كومة من رماد في عام ٣٥٠ ق . م ، ولم تدم سيطرة الفرس بالنار والدم أكثر من ١٨ عاما بعد ذلك . حيث سقطت الامبراطورية الفارسية تحت ضربات الاغريق وملكهم الاسكندر المقدوني .

أما صور . فلم يكن مصيرها أقل تعاسة من مصير صيدا . فقد دمرها الغزاة الجدد : المقدونيون ، حيث استسلمت بعد سبعة أشهر من المقاومة في عام ٣٣٢ ق . م ، بعد أن قتل من سكانها نحو ثمانية آلاف رجل سقطوا في المعركة ، وصلب المقدونيون ألفي رجل على الشاطىء ، وباعوا في سوق النخاسة ٣٠ ألف نسمة كما يباع العبيد .

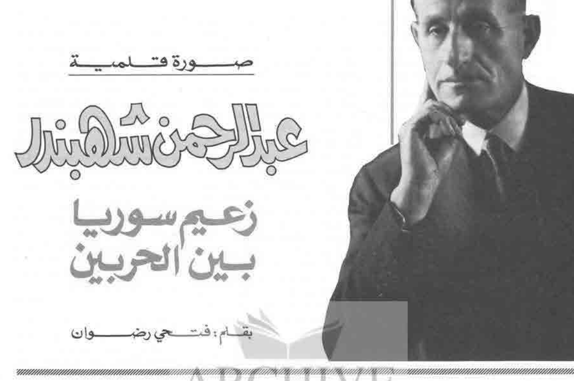
صيدا وفلسطين

نكتفي بهذه اللمحات من تاريخ صيدا : بل وتاريخ جنوب لبنان ، لنشير الى أن هذا التاريخ المجيد لهذه المدينة العظيمة ، ولكل بلد ومدينة وقرية في الجنوب اللبناني . قد وجد صداه الواسع في تاريخنا المعاصر ، وأيامنا هذه ، حيث كانت في صيدا الشرارة التى اشعلت الحرب اللبنانية ، والتى هي انعكاس في أحد أهم وجوهها للقضية الفلسطينية . عندما قتل ابن صيدا البار معروف سعد في ٢٦ شباط ١٩٧٥ ، اثناء ترؤسه تظاهرة قام بها الصيادون في صيدا ، احتجاجاً على منح شركة « بروتين » التى يرأس مجلس ادارتها الرئيس الأسبق كميل شمعون ، احتكار صيد السمك على طول الشاطىء لمدة ٩٩ عاماً ، فبعد أن اطلقت قوات الجيش النار على المتظاهرين في صيدا ، وقتلت النائب معروف سعد ، كانت حادثة الهجوم الكتائبي في منطقة « عين الرمانة » ببيروت على حافلة كانت تقل عدداً من أهالى مخيم تل الزعتر الفلسطيني ومنطقة الدكوانة المحيطة بالمخيم ، فقتل ٢٦ شخصاً ، وجرح ٢٩ آخرون ، من ركاب الحافلة ، بتاريخ ١٣ — ٤ — ١٩٧٥ ، وكانت هاتان الحادثتان السبب المباشر لاندلاع الحرب الأهلية في لبنان التى مضى عليها حتى الآن أكثر من عشر سنوات .

ولقد تجاوبت صيدا في وقت مبكر مع النضال الفلسطيني ضد الصهيونية : حيث شهدت المدينة تظاهرة ضخمة بتاريخ ٢٦ — ٨ — ١٩٢٩ ، ضمت المسلمين والمسيحيين واليهود في المدينة ، تأييداً لعروبة فلسطين ، واستنكاراً للصهيونية ووعد بلفور ، كما شهدت صيدا تظاهرة أخرى في ١٢ — ٧ — ١٩٣٦ ، تضامناً مع الثورة الفلسطينية المعروفة بثورة عام ستة وثلاثين والتى استمرت ثلاث سنوات حتى عام ١٩٣٩ ، وقدم فيها الفلسطينيون ألفي شهيد . وقد سقط قتيلان في التظاهرة في اشتباك مع قوات الأمن الاستعمارية الفرنسية ، اضافة الى سقوط ثمانية جرحى ، ومنذ ذلك الحين لم ينقطع تأييد صيدا ، وجميع أهل جنوب لبنان للثوار الفلسطينيين وبأشكال شتى .

أما خلال الغزو الاسرائيلي الأخير لجنوب لبنان ، فقد لعبت صيدا أبرز دور لها في تاريخها الحديث ، في مقاومة الغزاة ، واضطرتهم أخيراً تحت ضربات رجال المقاومة البواسل الى الرحيل منكسرين منهزمين ، ويكفي صيدا فخراً ما قاله فيها قائد القوات الغازية في لبنان الجنرال « أوري أور » : « انني لم أزرع شجرة في صيدا ، وليس ثمة ما يربطني بها ! ! » .

عصام شريح



صـــورة قـلـمـيـة

عبد الرحمن شهبندر

زعيم سوريا بين الحربين

بقلم: فتحي رضوان

كانت القاهرة فى الفترة ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى ، فى سنة ١٩١٨ ، وبداية الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ ، تزدان محافلها وندواتها الأدبية والاجتماعية ، ومقاهيها الشهيرة ، بعدد من الشخصيات العربية ، ذات المقام العالى ، والتاريخ الحافل والتجربة الغنية ، والصيت الواسع . كنا نراهم سائرين فى الطرقات مع أصدقائهم وأندادهم ، من المصريين من زعماء السياسة وأئمة الأدب ، وفقهاء الدين .

وكنا نسمعهم يخطبون فى المناسبات العامة ويحاضرون فى أندية الفكر والثقافة ، ويتصدرون الجنازات ، وسرادقات المآتم ، وتنشر أنباؤهم بين الحين والآخر ، وكأنهم من أبناء البلاد وقادتها ، وكثيراً ما نقرأ لهم فى الصحف المقالات والبحوث ، فنرى أن هؤلاء الضيوف الأجلاء ، يجمعون بين أمرين عظيمين : الخبرة بالشئون السياسية ، والمساهمة فى معارك الوطنية ، والتمكن من الثقافة العربية القديمة ، فالشعر يجرى على ألسنتهم وكأنه من الكلام الدارج ، والاستشهاد بالقرآن والحديث النبوى ، يطاوعهم ، كلما التمسوا منه السند ، وطلبوا عنده الحجة ، وكان ذلك هو الفارق الكبير بين زعماء مصر ، وزعماء العرب ، فمحصول الزعيم المصرى بعد سنة ١٩١٩ ، من الأدب العربى القديم ، والمأثور من أقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وآيات القرآن البينات ، قليل غاية القلة ، قد يعوضون أنفسهم عنه بالالمام بطرق الأدب الغربى ، والثقافة الأوروبية ، وان كان عدد الذين تزودوا بهذا الضرب من الثقافة الأجنبية ، كان فى تناقص مستمر .

من بين هذه الشخصيات طبيب تزعم بلاده ، وخاض معها المعامع ، وطارده الاستعمار ، بمحاكماته الظالمة ، وأحكام الموت المخوفة ، الدكتور عبد الرحمن شهبندر الذى كان فى الرابعة والخمسين عندما تعرفت عليه بالقاهرة سنة ١٩٣٠ ، عند بدء اتصالى بالحياة العامة عند التحاقى بكلية الحقوق بجامعة القاهرة . فقد ولد عبد الرحمن شهبندر فى سنة ١٨٧٩ ولكنه حينما وقع نظرى عليه كان مليئاً بالصحة ، فياضاً بالحيوية . حسبته فى أوائل العقد الرابع من عمره .

وقد كان أول لقاء لى مع الدكتور عبد الرحمن شهبندر اللاجىء السياسى بالقاهرة بوصفه زعيم سوريا الذى حكمت ضده فرنسا بعقوبة الموت . فاستقبلته حكومة مصر لأن الأمر فى مصر كان مرده للاستعمار البريطانى وممثله الأكبر المندوب السامى البريطانى ، الذى كان يحتل على النيل ، قصراً ضخماً ، فسيح الأرجاء ، يعرف منذ سنوات فى لغة السياسة المصرية (بقصر الدوبارة) لأن الحى الذى يقع فيه هذا القصر ، يعرف بهذا الاسم . وكانت سياسة بريطانيا فى الشرق العربى : هى استمرار التنافس بين الاستعمارين البريطانى والفرنسى ، الا أن هذين الاستعمارين لم يكونا يتنافسان إلى الحد الذى تستطيع فيه حركات التحرر العربية أن تظفر لمصر وسوريا والعراق

- كان أول لقائي به عندما حكمت عليه فرنسا بالإعدام
- تجربته السياسية الطويلة جعلت لحديثه مذاقاً خاصاً في القلوب والعقول
- قطع على قدميه بادية الشام في ثلاثة أشهر لينجو بحياته!
- كيف أغروا أحد المجرمين باغتياله وهو يؤدي واجبه الإنساني كطبيب؟

بالاستقلال التام . فأقصى ما تمنحه مصر لزعماء الحركات الوطنية فى الشرق العربى ، هو أن يجد الزعيم السياسى المطرود من منطقة نفوذ فرنسية كسوريا أو لبنان ملجأ فى مصر كما يجد اللاجىء السياسى العراقى ملجأ فى سوريا أو لبنان .

لذلك كان عبد الرحمن شهبندر وعدد غير قليل من زعماء سوريا ولبنان المطاردين فى وطنهم يجدون الملجأ السياسى فى مصر ، يروحون ويغدون ، ويكتبون ويخطبون وربما يمارسون وظائفهم . أو يشتغلون ببعض التجارة ان شاءوا ، ولذلك فقد ذهبت فى سنة ١٩٣٢ الى فندق (الكونتننتال) فى ذات مساء لأستمع الى خطباء عرب . بمناسبة الاحتفال باليوم الأول للثورة العربية التى قادها الشريف حسين بن علي ، باطلاق رصاصة من مسدسه . من قصره الخاص .

وكان المحتفلون بهذا اليوم لا يلقون فى مصر ، تأييداً شعبياً لأن ثورتهم . أى الثورة العربية التى قامت سنة ١٩١٦ . كانت تعد عند المصريين طعنة فى ظهر دولة الخلافة الاسلامية . فى حربها ضد بريطانيا ، وحلفائها أعداء الاسلام . ولكني كنت أشعر بالاثم وأنا ماض الى هذا الاحتفال لأنى لم أذهب لأشارك فيه ، بل لأقابل الزعيم السورى عبد الرحمن شهبندر . وقابلته مع الحضور فى قاعة فندق الكونتننتال الذى كثيراً ما كانت تقام فى قاعته الكبرى الحفلات والاجتماعات والمؤتمرات .

وتوالى الخطباء ، حتى جاء دور الدكتور شهبندر ، فكان أحسن المتكلمين ، وأشدهم تأثيرا على السامعين . وكنت أعلم أنه طبيب ، وأن أكثر المتكلمين فى ذلك الاجتماع كانوا ممن يعتبر الكلام صناعتهم .

مؤتمر الطلبة الشرقيين

وبعد ذلك بقليل نبتت فى رأسى فكرة مؤتمر الطلبة الشرقيين ، وكانت فكرته تتلخص فى عقد مؤتمر للطلبة الذين ينتمون للجامعات من أقصى الشرق فى اليابان الى أقصى الغرب فى مراكش ، على أن يكون الى جانب المؤتمر ، مباريات رياضية ، شبيهة بمباريات الأولمبياد وأن تقتصر على طلاب هذه المنطقة التى تضم اليابان والصين والهند واندونيسيا والملايو وبورما ، وأبناء المشرق العربى : العراق وسوريا ولبنان وفلسطين ، وبلاد المغرب العربى ، ليبيا (وكانت تعرف فى مصر آنذاك بطرابلس الغرب) وتونس والجزائر ومراكش .

وقد تحمس لهذه الفكرة عدد من أساتذة الجامعة كان فى مقدمتهم جميعاً المرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهورى ثم الدكتور عبد الوهاب عزام ، ثم الشيخ أمين الخولى واحمد أمين . وقبل أن يشارك فى لجنتها التحضيرية السيد عبد العزيز الثعالبى زعيم تونس اللاجىء الى مصر . وأخيراً الدكتور عبد الرحمن شهبندر زعيم سوريا ، وهذا ماوثق العلاقة بينى وبينه فكنت أتردد على عيادته الكائنة بشارع الملكة نازلى ، الذى يطلق عليه الآن شارع رمسيس على مقربة من حي غمرة ، وكنت أجد فى الاستماع الى حديثه فائدة دقيقة ، إذ كان ممن يفضلون قراءة الكتب العربية والانجليزية ، ويتابع الحديث عنها ، ومن ثم فقد كان لديه ما يقوله عن مجريات الأمور فى الوطن العربى ، وفى العالم قاطبة ، وكانت تجربته السياسية الطويلة فى وطنه ، واتصالاته منذ مطلع شبابه برجالات العرب والغرب تجعل حديثه طريفاً ومتنوعاً ومليئاً بالنوادر . ودرساً شيقاً لخصائص النفوس ، فى مواقف الشدة والامتحان ، ونقائص العظماء الذين تكشفهم وتعريهم ساعات الحرج .

ولقد كان العرب خارج مصر ، يتابعون ما يجرى فيها ، ويتعصبون لمن تتعصب لهم الأغلبية المصرية ، ويكرهون ما تكرهه هذه الأغلبية . فى ذات يوم طلبنا من وزير التربية فى مصر . وكان يسمى وزير المعارف ، موعداً لنعرض عليه فكرة مؤتمر الطلبة الشرقيين . وكان الوزير يومذاك منتمياً لحزب الاتحاد المتحالف مع حزب الشعب الذى يرأسه اسماعيل صدقى باشا الذى كان أكره الشخصيات السياسية للناس فى الوطن العربى ، لشدة مخاصمته لحزب الأغلبية ، ولذلك كان الدكتور شهبندر متحرجاً من مقابلة هذا الوزير وكان يخشى أن يأخذ عليه أنصاره والمعجبون به فى سوريا وسائر البلاد العربية فى المشرق ، لذلك قال لى ونحن ندخل الى غرفة الوزير المصرى :

يجب أن نؤكد فكرة أننا جئنا لنقابل وزير المعارف ، لا لنقابل شخص الوزير ، فوافقته ، فما كدنا ندخل الى الوزير ، حتى قال الدكتور شهبندر ، معالى وزير معارف مصر ، لقد جئنا لنقابل وزير معارف مصر ، ولنعرض على معالى وزير معارف مصر فكرة مؤتمر الطلبة الشرقيين ، وأدرك الوزير ما يعنيه الزعيم السورى ، فلم يغضب ، واتممنا الزيارة وخرجنا : فالتفت الى الدكتور شهبندر : أظن أننى أكدت بوضوح كاف أننا ما جئنا إلا لنقابل الوزير . فقلت له اطمئن ، فقد كان تأكيدك واضحاً تماماً ، ولما أذعنا بياناً عن هذه المقابلة ، تضمن البيان هذا المعنى جلياً ملفتاً للنظر .

ودعانى الدكتور شهبندر لتناول الغداء فى منزله ، وأذكر أنه قال لى وهو متهلل : لقد جاءنى اليوم غلامان .. وقد كانت قرينته حاملاً . فأسميناً أولهما (صلاح) . فلما جاء بعده أخوه قلنا لنسميه (رباح) ، لأنه كان بمثابة ربح غير منتظر .

وأجريت لى عملية الزائدة الدودية فى مستشفى قريب من منزله بغمره ، فجاء يزورنى ، فغلبت عليه مهنته ، فأخذ يقرأ البيانات المعلقة على سريرى ، ولما جاءت كبيرة الممرضات راح يسألها عن أمور متعلقة بالعملية ، فشكرته على هذا الاهتمام .

أحب الأحاديث

وكان أحب الأحاديث الى قلبه ، وأجراها على لسانه : حديث الثورة السورية التى اندلعت فى سنة ١٩٢٥ فى جبل الدروز بقيادة سلطان باشا الأطرش ، والذى كان وزير خارجيتها ، ومن أطرف ما أذكره من هذه الأحاديث أن الثوار فوجئوا ، وهم ينازلون القوات الفرنسية بسلاح



عبدالرحمن شهبندر

زعيم سوريا بين الحربين

جديد ، لا عهد لهم به : هو الدبابة : التى كانت تستطيع الصعود الى معاقل الثوار فى قمم الجبال الحصينة ، وهى تدور فى طرق الجبل الثعبانية بسهولة ، ويسر ، فاسقط فى أيدى الثوار بسبب هذه القلاع الصغيرة المحصنة ، التى لا تنفع فيها البندقية ، التى كانت عدة الثائر المقاتل السورى ، ولكن مالبث هؤلاء المقاتلون أن عرفوا نقطة الضعف فى هذا السلاح . وهو أن حركة قائد الدبابة مقيدة داخل جوف الدبابة . وأن نظره يتجه الى الأمام . ولا يستطيع أن يرى ما خلفه . فكان المقاتلون السوريون يقفون على منحنيات الطرق الجبلية . ويدعون الدبابة تمر أمامهم قليلا ثم يقفزون على ظهرها ، ويرفعون قائدها من فتحة الدبابة ، ثم يجهزون عليه . وهو عاجز عن المقاومة .

وبعد قليل أدركت القيادة الفرنسية أن الدبابات أصبحت مصائد لجنودها ، وأصبح الجنود غير مستعدين للطلوع الى الجبل بها . واستمر الثوار فى قتالهم المظفر ضد الفرنسيين مع انعدام التكافؤ بين سلاح الفريقين .

* * *

ملحمة جهاد رائع

والحق ان حياة عبد الرحمن شهبندر كانت ملحمة كفاح جديرة بأن تروى ، لشباب الجيل الجديد ، يستمدون منها الموعظة ، لتثبتهم فى جهادهم اليوم .

فقد بدأ الدكتور عبد الرحمن كفاحه وهو بعد شاب فى العقد الثانى من عمره ، وقد بدأ اصطدامه بالسلطة فى عهد جمال باشا الذى عرف فى تاريخ سوريا بالسفاح الذى عينته حاكماً لسوريا ولبنان حكومة حزب الاتحاد والترقى فى تركيا وهو الحزب الذى ألفه عدد من الضباط والشباب فى الجيش التركى ، كان أشهرهم أنور باشا والى جانبه جمال باشا وطلعت باشا . وكان جمال باشا يشك فى كل حركة تقوم فى سوريا ويحسبها انتفاضاً ضد الحكم العثمانى ، فيعاجل القائمين بها بالسجن ، ثم بالشنق ــ وكان ضباط الاتحاد ، لا يطيقون حركات الشباب العرب الذين كانوا يؤمنون بأن حكومة تركيا كان يجب أن تتكون من جناحين : جناح للأتراك وآخر للعرب . وأن دولة تضم هذين العنصرين القويين جديرة بأن تكون فى هذا الموقع العظيم فى العالم ، دولة عظمى يحسب لها أعداؤها كل حساب .

أحاق خطر الموت بالشاب عبدالرحمن شهبندر . فقرر ان ينجو بحياته ، ففر الى العراق واضطر ان يقطع على قدميه بادية الشام . فى ثلاثة أشهر طويلة مليئة بالتعب الجسمانى الذى لا يحتمل ، والخوف من الخطر الذى لاينقطع . وبعد وصوله إلى العراق مجهدا ، كانت قد نالت منه الرحلة الطويلة كل منال ، سافر إلى الهند ، ثم منها الى مصر وبقى الى سنة ١٩١٩ . وفى هذا التاريخ كانت الجيوش العربية بقيادة فيصل بن الحسين : تشارك فيصل فى إقامة الدولة السورية التى لم تعمر طويلا . وفى الوزارة السورية الأولى برياسة السيد هاشم الاتاسى وهى الوزارة التى سميت بوزارة (الدفاع) أسندت الى شهبندر وزارة الخارجية . ولكن الفرنسيين لم يطيقوا مقام هذه الدولة ولا تأليف تلك الوزارة ، فسيروا جيشا فرنسيا الى دمشق فتصدى لهم وزير الدفاع . يوسف العظمة عند مدخل مدينة دمشق فى موقع (ميسلون) ومر الفرنسيون على جثته وكان استشهاده ، موقعة وطنية يؤرخ بها الى اليوم . وعاد شهبندر مرة أخرى الى القاهرة ، ولكن لم يلبث حتى نادته دواعى المقاومة الوطنية الى دمشق . وفى ابريل سنة ١٩٢٢ حضرت لجنة أمريكية بقيادة (كرين) لتسأل الشعب عن رأيه فى الدولة التى تندب لادارة شئون سوريا . وقد خرجت جموع الشعب السورى بزعامة شهبندر لتعلن لهذه اللجنة أنها لا تقبل عن الاستقلال بديلا . فنفد صبر زعماء الاحتلال الفرنسى . فاعتقلوا زعماء سوريا الداعين الى استقلالها وفى مقدمتهم شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر ، وأودعتهم المعتقل فى بيت الدين ثم نقلتهم الى قلعة (أرواد) وهى القلعة التاريخية التى أقيمت فى جزيرة أرواد منذ عهد الصليبيين . وقد حكمت محكمة عسكرية على هؤلاء الزعماء وعدد آخر من رجالات بلغت عدتهم جميعاً عشرين شخصا بالموت ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . ومن الطريف ان مصرياً كان فى طريقه الى العراق ليتولى مهنة التدريس بها شارك وهو فى طريقه الى العراق فى مظاهرات السوريين ، فاعتبر من زعمائهم . وسجن معهم فى معتقل أرواد .

الثورة السورية الكبرى

وأفرج فى سنة ١٩٢٣ عن شهبندر فسافر الى أوربا وأمريكا . وقام بدعاية واسعة النطاق لقضية بلاده هناك . ولما عاد الى دمشق بادر بتأليف حزب الشعب ، دعماً لمقاومة الاحتلال .

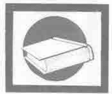
فى هذه الفترة بلغ الدكتور عبدالرحمن ما يعانيه أهل جبل الدروز من طغيان القائد الفرنسى الذى نصبه الاحتلال حاكماً لهذا الجبل ، فاتصل بزعماء الدروز وعلى رأسهم سلطان باشا الأطرش . ودبر معهم الثورة السورية الكبرى التى اندلعت فى ٢١ من يوليو سنة ١٩٢٥ والتى أصلت المستعمرين الفرنسيين ناراً حامية ، وقد ترامت الى أركان المعمورة الأربعة ، أنباء هذه الثورة المظفرة وذاعت أنباء المواقع الباهرة التى خاضها الثوار السوريون ، والتى أبلوا فيها بلاء حسناً . وقد اختير الدكتور شهبندر وزيراً لخارجية الثورة . ولما تزايدت وتوالت هزائم الفرنسيين ، ملأوا البلاد بقوات هائلة مزودة بأقوى وأحدث سلاح . واصطدمت تلك القوات الضخمة بالثورة من كل جانب ، فلم ير سلطان الأطرش مناصاً من اللجوء الى الأردن ، فى حين لجأ عبدالرحمن شهبندر للعراق ومنها لمصر . وحاكمت السلطات العسكرية الفرنسية عبد الرحمن شهبندر غيابياً وقضت عليه بالموت للمرة الثانية .

ولما عاد إلى وطنه فى مايو سنة ١٩٣٧ . زحفت الألوف من كل جانب من سوريا واستقبل استقبال الفاتحين ، ولما وصل الى العاصمة ألقى خطاباً من شرفة سراى البلدية حفظه مواطنوه عن ظهر قلب ، ورددوا فقرات منه ، وبقى فى دمشق يشرف على تنظيم المقاومة الوطنية . وكان الاستعمار يتربص به خوفاً من تأثيره الشديد على مواطنيه . فأغروا به أحد المجرمين ، فقصده الى عيادته فى دمشق بوصفه مريضاً واغتاله ، وهو يؤدى واجبه الانسانى العظيم .

والدكتور عبدالرحمن شهبندر ، وإن كان طبيباً بالمهنة والتعليم ، كان مؤرخاً وعالماً من علماء الاجتماع . كتب فى صحف ومجلات الوطن العربى المقالات والبحوث وقد ترجم وعلق وهو فى سجن أرواد عن الانجليزية كتاب (دليزل برنس) . الموسوم (سلطة السجون) وجمعت مقالاته فى مجلة المقتطف تحت عنوان القضايا الاجتماعية الكبرى ، فكانت قطعة من عقل عبدالرحمن شهبندر وعلمه الغزير . وأسلوبه الفذ الذى يدل عليه .

رحمه الله ، ونفع اخوانه العرب بجهاده وعلمه وأدبه .

فتحى رضوان



بقلم : الدكتور محمد البهي

تيسير الأمور على المطلّقة

التشريع القرآني فى سورة البقرة ، وهي السورة الأولى فى الوحي المدني ، عني فى علاقة الزوجين بالطلاق وحل ما يترتب عليه من مشاكل : كمشكلة العدة .. ومشكلة افتداء المرأة نفسها بمهرها أو ببعض منه .. ومشكلة المهر المسمى أو غير المسمى لغير المدخول بها .. ومشكلة رعاية المطلقة لفترة من الزمن بعد طلاقها .. ومشكلة خطبة المطلقة أثناء عدتها ، وذلك وقاية منه للمرأة وحفظاً لحقوقها فى حياة انسانية كريمة ..

وهذا التشريع المدنى ذاته فى تطوره يستمر يرعى كفالة الحياة الانسانية الكريمة للمرأة المطلقة ، فى سوره التى نزلت بعد البقرة :

فى السورة الثالثة عشرة فى التشريع المدنى ، وهى سورة « الطلاق » أهاب القرآن الكريم بالمؤمنين أن يتجنبوا العسر والأزمات فى معاملة المطلقة .. أى يتجنبوا التضييق عليها واخراجها : أو تفويت رغبة مشروعة عليها :

١ ــ فيطلب من الرسول عليه السلام والمؤمنين معه : أن يقع الطلاق فى طهر حتى تستقبل المرأة المطلقة عدتها بالحيضة المقبلة . وذلك للزوجة التى تحيض ، ومدخول بها ، وبذلك لا تضيع عليها فترة لا تحسب فى عدتها . يقول الله تعالى :

« يا أيها النبى : اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن (أى اذا أردتم تطليق النساء فليقع الطلاق مقترناً بالعدة .. أى تحسب العدة على أثر الطلاق مباشرة) وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم » أول سورة الطلاق ..

٢ ــ كما يطلب منهم عدم اخراجهن من المساكن التى كن بها على عهد الزوجية الا إذا أغلظن عليكم وفحشن فى القول . يقول تعالى ، متمما للآية السابقة :

« لا تخرجوهن من بيوتهن (أى لا يجوز لكم اخراج مطلقاتكم من البيوت التى كن يسكن فيها) .

« ولا يخرجن (أى بإرادتهن الخاصة دون اتفاق معكم) .

« الا أن يأتين بفاحشة مبينة (أى الا أن يغلظن فى القول معكم فيجوز عندئذ اخراجهن) وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » أول سورة الطلاق .

٣ ــ وحسماً للنزاع بين الزوجين عند الفرقة النهائية أو المراجعة ، يطلب التشريع المدنى بين الزوجين ــ كما يطلبه التشريع المدنى عامة فى كل عقد بين طرفين ــ أن يوجد شاهد عدل على الفرقة ، أو الرجعة : يقول الله تعالى فى سورة الطلاق أيضاً :

« فاذا بلغن أجلهن (أى انتهت عدتهن) فأمسكوهن (أى راجعوهن) بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف (أى طلقوهن باحسان) وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله .

« ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر (أى ينتصح به من لم يكن مادياً وثنياً) .

« ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً » سورة الطلاق ٢ ، ٣ .

٤ ــ ويؤكد مرة أخرى عدم الاضرار بالمطلقات فى أية صورة من صور الاضرار . فيقول فى سورة الطلاق كذلك :

« أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم (أى حسب مقدرتكم ــ اذا لم يكن فى مسكن الزوجية) .

« ولا تضاروهن (أى فى السكنى) لتضيقوا عليهن (أى وبالتالى تخرجوهن بمضايقتكم لهن حتى يخرجن من مساكنكم) .

« وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن (أى وبالاضافة الى السكنى يلتزم الأزواج بالانفاق عليهن طيلة عدتهن . فإن كن صاحبات حمل فعدتهن الى الوضع) .

« فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن (أى بعد الولادة وانتهاء العدة) .

« وأتمروا بينكم بمعروف (أى فى شأن الرضاعة والأجر عليها . أى ليكن أمرها بين الزوجين على أساس من المشاورة والاتفاق بينهما) .

« وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى (أى وان تضايقتم ولم يتفق الوالدان على أجرة الرضاعة بأن بالغت الأم فى اجرتها .. أو بالغ الأب فى التقليل منها ، فلا حرج على الوالدين عندئذ من أن ترضع الطفل امرأة أجنبية أخرى ، يتفق الوالد معها ، حسماً للنزاع بين الوالدين) .

« لينفق ذو سعة من سعته ..

ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا » الطلاق : ٦ ، ٧ .

٥ ــ كما يتيح الفرصة لمن لم تحض : أن تحسب عدتها بالشهر ، بدلا من القرء . يقول الله تعالى فى السورة ذاتها :

« واللائى يئسن من المحيض من نسائكم (أى بلغن سن اليأس) إن ارتبتم (أيها الأزواج وشككتم فى حملهن) فعدتهن ثلاثة أشهر .

« واللائى لم يحضن ، وأولات الأحمال : أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » الطلاق : ٤ .

شكل (١) صورة معبرة نشرتها مجلة الجغرافيا الدولية ، وفيها يظهر ذلك الفرخ الصغير وكأنما هو ينظر بحيرة الى هذا البيض الساكن ، فبعضه قد تهشم لرقة قشرته الضعيفة التى لم تحتمل جسم الأم الحاضنة ، وتبين أن سبب ذلك يرجع الى أحد المبيدات الحشرية ، والبيض الآخر لم يفقس ، لأن المبيد قتل الأجنة أثناء تكوينها ، ولذلك سوف يطول انتظار هذا الفرخ دون أن ينعم بخروج فرخ آخر يؤنس وحدته .

المبيدات الحشرية.. هل ستكون بشريّة؟



بقلم : د. عبدالمحسن صالح

هو بلاء وشر مركب .. بلى به هذا الكوكب .. البلاء تجسد فى ثلاثة لا غنى عنها فى حياتنا .. فمن هواء ملوث .. الى ماء ملوث .. الى طعام ملوث .. والتلوث فيها يصدر من الانسان .. ثم يأخذ دورته المقدرة ، لكن لابد أن يعود فيصيب الانسان .. حتى لكأنما البيئة قد رفعت ضدنا شعار الانتقام : لأننا لم نحترم شرائعها ، ودنسناها بما لايصح أن يوجد فيها ، فحق عليها أن ترد لنا الصاع صاعين ، لأن البادىء أظلم .. وليس هناك من هو أظلم من الانسان بين كل الكائنات .. هو ظالم لنفسه ، وظالم لغيره ولبيئته التى تعاملت معه بالحسنى ، فأساء اليها .. ولا يحيق السوء الا بأهله ، أو هكذا طبقت تلك الحكمة بين بيئة وانسان .. وهذا ما سنتناوله فى هذا المقال .

يحكى أن مدينة هانئة ، كانت تعيش فى توافق مع بيئتها المسالمة . فأحاطتها بمزارع طيبة ، ومحاصيل وافرة ، وفراشات محلقة ، وطيور مغردة ، وبساتين قطوفها دانية ، وزهور تتمايل بألوان زاهية .. وغير ذلك مما يؤكد للمدينة حياة رغدة هانئة .

ثم حدث أن هبت عليها آفة غريبة غيرت ما أحاطها من نعيم كانت تمرح فيه فى الأيام الخالية .. فلقد ظهرت أمراض غامضة ، فاكتسحت أمامها الطيور الداجنة ، وأصابت الماشية بأضرار بالغة ، فحل بها الهزال ، وأجهز عليها الموت . ثم بدأ الناس فى المزارع يتحدثون عن أعراض أمراض حلت بهم وبأسرهم . وعندما فحصها الأطباء فى المدينة المسالمة ، تحيروا فى تشخيص مرضاهم الذين سردوا عليهم أعراضاً مرضية لم تكن فى كتب الطب واردة .. وحدثت وفيات ، ليس فقط بين البالغين والمسنين ، بل بين الرضع والأطفال !

هناك ظاهرة أخرى غامضة خيمت على مظاهر الحياة .. فأين ذهبت الطيور التى كانت تحلق حول الناس بأعداد وافرة؟ .. وما سبب

شكل (٢) تقوم الطائرات برش مئات الألوف من أطنان المبيدات سنويا على مستوى العالم ، ولابد أن يتسرب هذا المبيد الى الماء الذى تشربه ، والنبات الذى تعيش عليه ، أو يعيش عليه أى حيوان آخر تستفيد بلحمه وشحمه ولبنه وبيضه ، فينتقل الينا المبيد مستترا على موائد الطعام.



اختفائها : اللهم إلا من أعداد قليلة ترى وهى تحاول الطيران : فلا تستطيع ، ثم ترتجف بشدة ، وتسكن الى الأبد ؟ .. وتهامس الناس حائرين : انه ربيع صامت خال من الشدو والغناء والتغريد ، ثم ذلك البيض الذى تضعه طيورهم الداجنة ، لم يعد صالحاً لتكوين الأجنة ، فكثيره قد فسد (شكل ١) ، وقليله قد حسن ظاهرا : لكنه أعطى أفراخاً لا تسر الناظرين .. وزهور التفاح والمشمش والبرتقال التى تفتحت فى ذلك الربيع ، لم يعد النحل يحوم حولها : ليجمع رحيقها ، ويلقح زهورها ، فتضاءل ثمرها ، وهزل انتاجها .. وهذه البحيرات ، وتلك الجداول والقنوات .. أين ذهبت أسماكها ، وكيف تبخرت خيراتها : ولماذا هلكت طيورها ؟ .. ماذا حدث لها حقاً بعد أن كانت تجذب الصيادين ، وتطعم الجائعين ؟!

تلك ــ اذن ــ مقتطفات اخترناها من مقدمة كتاب « الربيع الصامت » الذى كتبته الكاتبة العلمية الأمريكية راكيل كارسون ، ونشر فى عام ١٩٦٢ : ولقد عرضناها هنا بتصرف ، ودون الاخلال بالجوهر ، ثم إن محتويات الكتاب ذاته قد أحدثت صدمة وفزعاً فى الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها ، وحقق توزيعاً خيالياً ، وحازت مؤلفته ثمانى جوائز من هيئات علمية ورسمية : وعندما قرأه الرئيس الأمريكى الراحل جون كيندى أمر على الفور بتشكيل لجنة علمية لدراسته ، ولقد أدى ذلك ــ فيما بعد ــ الى ظهور وكالة حماية البيئة من التلوث ، نظراً للآراء والحقائق الخطيرة والكثيرة التى وردت فى الكتاب ، والحق أن الكاتبة قد بذلت فيه مجهودات مضنية تتضح من ضخامة عدد المراجع التى اطلعت عليها ودونتها ، فرغم أن مادة الكتاب ذاتها قد شغلت ٢٥٠ صفحة ، الا أن المراجع وحدها قد وقعت فى ثلاثين صفحة تضم ما يزيد على ٥٥٠ مصدراً .

الأذى قد حاق بالجميع

وطبيعى أن الصورة القاتمة المفزعة التى وصفت بها الكاتبة تلك المدينة المنكوبة هى صورة خيالية ، لكنها ــ فى الوقت ذاته ــ واقعية ، إذ لم يحدث كل ما حدث لمدينة بعينها موجودة على الأرض ، لكن المآسى الواردة قد حدثت فى أماكن متفرقة من العالم ، وراحت هى تجمعها وتجسدها فى مكان واحد ، حتى تضخم المأساة أمام ضمير العالم عامة ، ومنتجى المبيدات خاصة ، وهى بذلك تضع النقط فوق الحروف للذين يسرفون فى استخدام هذه السموم دون ضابط أو رابط .

فمن منا مثلا من لم يستخدم المبيد فى منزله أو مكتبه للقضاء على ذباب يطن ، أو بعوض « يزن » أو صراصير تتجول وتضايق ، وما أيسر ــ والحال كذلك ــ من تناول العبوة الأنيقة للمبيد الحشرى ، فينطلق منها رذاذ معطر يحسبه الناس منعشاً ، رغم أنه ــ فى الحقيقة ــ مهلك .. فرذاذ الموت الذى يقتل الذبابة والبعوضة والصرصار ، كفيل أيضاً بقتل الانسان ، والذى يحدد عمليات القتل هو الجرعة المناسبة .. فكم سمعنا عن حوادث انتحار بشرى ، تمت بنجاح عند استخدام مبيد حشرى .. لهذا فإن ما قتل كثيره ، فقليله ضار ، ثم إن محصلة القليل كثير ، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر ، وكذلك كان فى مستصغر الرذاذ

معظم الضرر ، ولن تتضح أبعاد المأساة الا بعد الانتهاء من قراءة هذا المقال .

ان المطلعين على بواطن الأمور التى تجرى فى السر والعلن يدركون أن البشر جميعاً يكتنزون نزراً يسيراً من أنواع المبيدات فى أجسامهم ودهونهم ، لأن بعض المبيدات تهوى الدهون وتذوب فيها ، ليس ذوبان حب بطبيعة الحال ، لكن الدهن شره لاكتنازها لسنوات قد تطول . وطبيعى أن تفاوت نسبة تلك المبيدات فى الأجسام يعتمد على الاسراف فى استخدام هذه المبيدات ، ليس فقط على مستوى الرذاذ الذى نطلقه فى منازلنا ومكاتبنا بل أيضاً فى الأماكن العامة ، حيث تقوم سيارات خاصة بنشرها فى الشوارع ، لكن المبيدات مستترة أيضاً فى كوب الماء ، وعصير الفاكهة ، وقطعة السمك ، وشريحة اللحم ، والخضراوات الطازجة والمطهوة ، والجبن والمربى وعسل النحل الذى كان فيه شفاء للناس ، فأصبح بدوره يحمل الأذى والضرر للناس !

وقد يظن البعض أننا فى هذا السرد المخيف مبالغون الى حد كبير ، أو أنه تخويف لا مبرر له ولا دليل عليه ، لكنه للأسف بلاء واقعى ومقيم ، خاصة إذا علمنا أن بعض هذه المبيدات قد اكتشف فى أجسام الحيوانات التى تعيش فى ثلوج القطب الشمالى ، رغم أنها لا تستخدم المبيدات هناك ، لكنها انتقلت إليها بطرق بعضها معروفة ، وبعضها الآخر مجهولة ، لكنها على أية حال مؤشر خطر يوضح أن الذى لوث البعيد ، أولى أن يلوث القريب ، اى الذى يعيش فى المجال أو البيئة التى تستخدم فيها آلاف فوق آلاف من أنواع المبيدات المختلفة .

ولاشك أن قائمة المبيدات طويلة عريضة ، اذ هى ليست فقط فيما نستخدمه فى مدننا أو قرانا ، فذلك لا يعتبر شيئاً مذكوراً بالنسبة لمبيدات أخرى تستخدم على نطاق واسع فى الحقول والبساتين والغابات والتربة ومصادر المياه (شكل ٢) .. فمن مبيدات حشرية نحارب بها الحشرات التى تفتك بالزرع والضرع ، الى مبيدات فطرية نقتل بها الكائنات الدقيقة التى تصيب النباتات ، الى مبيدات حشائش وفئران .. الى آخر هذا الطوفان من المركبات التى تزيد وتتنوع كل عام ، لاحلال الجديد الأكثر قتلا ، محل القديم الذى فقد فاعليته بمرور الزمن ، نتيجة للمقاومة والمناعة التى تتجلى فى حياة تلك المخلوقات الصغيرة .

محصلة لابد منها

ولكى تتجلى لنا الأمور على حقيقتها ، فلا مناص هنا من تقديم تلك الصورة التى ذكرها بيير رونديير فى كتابه الممتع « الماء » والذى ظهر بعد كتاب « الربيع الصامت » بعشر سنوات ، فيذكر رونديير أن بحيرة كلير التى تبعد عن مدينة سان فرانسيسكو بحوالى ٩٤ ميلا ، كانت موطناً لبعوضة تلدغ ، لكنها ليست ماصة للدماء ، ولا ناقلة للأمراض ، ولكى يتخلص الناس من مضايقاتها ، استخدموا مبيداً يعرف باسم « دى . دى . دى » ، أو د . د . د » ــ وهذا اختصار لاسم كيميائي طويل قد لا يهمنا هنا ، بل الأهم أن كثافة البعوض قد اختفت ، لكن الى حين ، اذ عاد الى كثافته الأولى بعد سنتين ، فاستلزم الأمر رش البحيرة مرة ثانية ، للقضاء على يرقاته التى تعيش فى الماء ، لكنه لم يكن قضاء مبرما على أية حال ، بل حل القضاء باليقين من طائر الغواص الذى كان يعيش على أسماكها ، فاختفى منه فى غضون خمس سنوات ١٩٤٠ طائرا ، ولم يتبق الا ٦٠ فقط !

ترى ... ما الذى أباد هذا الطائر أو كاد ؟
الجواب عند علماء البيئة الذين أفزعهم هذا الانقراض ، فعندما حللوا ماء البحيرة ، ودهون وأنسجة بعض الطيور الميتة ، وجدوا أن تركيز المبيد فى الماء لا يزيد عن جزء واحد فى ٥٠ مليون جزء من الماء ، لكنه ارتفع فى الطير الى ١٦٠٠ جزء فى المليون (أى ١.٦ جرام من المبيد فى كل كيلوجرام من لحم الطير) .. ولاشك أن هذا التركيز الضخم هو الذى قتل الطيور .. كيف ــ اذن ــ قفز هذا التركيز حتى وصل الى ٨٠ ألف مرة بين الماء ولحم الطير ؟

إن ذلك يتم عن طريق سلاسل الطعام التى تسير على مبدأ أن الكبير يأكل الصغير ، والقوى يلتهم الضعيف ، فالكائنات النباتية الدقيقة المعروفة بالطحالب هى أول حلقة فى سلسلة الطعام ، ولقد امتصت المبيد مع عناصر الماء ، فوصل التركيز فيها الى خمسة أجزاء فى المليون ، وعندما عاشت الأسماك الصغيرة على هذه الكائنات الدقيقة ، ارتفع التركيز الى ٤٠ جزءاً فى المليون ، وتأتى الأسماك الكبيرة لتأكل الصغيرة بما أكلت ، فتضاعف التركيز الى ٤٠٠ جزء فى المليون ، وعندما أكلت الطيور الصغير والكبير ، قفز التركيز الى ١٦٠٠ جزء فى المليون !

والآن .. ماذا قد يحدث للانسان من جراء تناوله شريحة من هذا السمك ؟ (وما يستهلكه فى الوجبة متروك لتقديرك على أية حال) .. الجواب : أنه سيكون آخر حلقة من سلاسل الطعام .. ولابد والحال كذلك أن يزيد فيه التركيز ، ثم ما قد يتبع ذلك من تدمير لأنسجة قشرة الغدة الكظرية (الغدة فوق الكلية) ، واذا حدث هذا التدمير ، نقص إفراز هرمون الأدرينالين ، ويتبعه هبوط فى النشاط الحيوى أو الفسيولوجى ، وهبوط فى ضغط الدم ، وفقدان الأوعية الدموية القدرة على الانقباض ، وأحياناً ما يحدث تدمير فى الكبد ، وقد تصاب الغدد الجنسية بأذى يؤدى الى مواليد مشوهة أو ميتة .. الخ .

وطبيعى أن أذى هذه المبيدات لا يظهر بين يوم وليلة ، ولا سنة وأخرى ، لكن الخوف يتأتى من المحصلة النهائية من مداومة تناول القليل مع القليل ، فيحدث التركيز الذى قد لا تحمد عقباه ، وهذا ما دعا البروفيسور فيليب هاندلر رئيس اكاديمية العلوم الأمريكية فى مؤلفه الكبير « البيولوجيا ومستقبل الانسان » الى الرد على مزاعم الذين يشككون فى أذى هذه المبيدات ، فيذكر « ان الذين يدعون بعدم وجود مخاطر محسوسة فى وقتنا الحاضر ، لا يعنى ذلك أن المخاطر لن تظهر مستقبلاً ، ورغم أن هذه المخاطر لازالت قيد البحث ، وأن وجهات النظر فيها لازالت مختلفة ، الا أن الشيء الواضح تماماً أن جسم أى كائن حي لا يخلو الآن من واحد أو أكثر من هذه المبيدات التى يزيد استهلاكها عاماً بعد عام » !

سوء الاستخدام عمدا وجهلا

لكن مما يزيد الطين بلة أن الدول الفقيرة أو النامية يغرر بها ، وتدفع دفعا لاستخدام هذه المبيدات فى المنازل والحقول ومصادر المياه ، دون ترشيد بخطورتها ، أو رقابة فى طرق رشها ، أو معرفة بآثارها الضارة .

فمنذ حوالى ستة أشهر فقط ، أصدرت منظمة الصحة العالمية نشرتها الشهرية « الصحة العالمية » ، وخصصت كل موضوعاتها لأخطار التلوث التى تفاقمت فى عالمنا المعاصر ، ولقد جاء فى واحدة من هذه الدراسات ــ التى كتبها البروفيسور والديمار الميدا أستاذ علم سموم البيئة بجامعة كامبيناس بالبرازيل ــ حقائق خطيرة عن استخدام المبيدات ، واستهل دراسته بمقدمة مثيرة يقول فيها : فى صباح يوم الأحد من كل موسم ، تقف عربة كبيرة فى أحد الأماكن الفسيحة لقرية تشتهر بزراعات القطن ، ومن العربة تنطلق الموسيقى عبر

مكبرات الصوت ، ومعها مناد ينادى : فليتقدم الجميع ، وليتناولوا مشروبا بالمجان ، وليشاهدوا كيف تقتل الحشرات فى الحقول .. لاتترددوا ، ولتختاروا المشروب الذى تفضلونه .. انه لذيذ ومنعش ، وبدون ثمن هذا اليوم !

وطبيعى أن يتقدم الناس .. الصغار منهم والكبار ، ويشربون ولا يدفعون ، ثم تبدأ الاغراءات والدعايات المضللة ، وباختصار يدفعون أثمان المبيدات ، ولايدفعون أثمان المشروبات .. انه نوع من الكرم اللئيم ، فكل همّ بائعى المبيدات تحقيق أكبر قدر ممكن من المبيعات ، وجمع حصيلة كبيرة من الثروات ، على حساب الفقر والجهل والمرض الذى يتفشى بين هؤلاء الناس أو غيرهم .

الاحصائيات الطبية فى مقاطعة ساوباولو قد أشارت الى أن ألف عامل من العمال الزراعيين المشتغلين فى رش هذه المبيدات قد تم فحصهم خلال عام واحد ، وتبين أن ١٠ فى المائة منهم قد أصيبوا بالتسمم بدرجات خفيفة ومتوسطة وحادة ، ولقد حدث أن أكل بعض الأطفال بطيخة أتت من حقل معامل بمبيد حشرى فوسفورى ، وبعد ساعتين نقلوا الى المستشفيات لاسعافهم ، ومات عدد آخر من الأطفال بعد أن عوملت رؤوسهم بمبيد فوسفورى لقتل القمل الموجود فيها ، فمات القمل وماتوا معه !

ويذكر « آلميدا » أيضا أن دراسة تمت فى البرازيل عن عدد ضحايا المبيدات فى الفترة مابين ١٩٦٧ ــ ١٩٧٩ ، فوصلت الى ٣٤٤٥ حالة ، مات منها ٢٠٨ فردا ويقدر بعد ذلك أن عدد حالات التسمم بالمبيدات فى الدول النامية تربو على ٣٧٥ ألف حالة سنويا ، يموت منها عشرة آلاف حالة ، وهو يذكر أيضا حقيقة معروفة ، ذلك أن الدول النامية ــ خاصة فى قراها ــ ليس لديها الاحصاء الطبى المضبوط ، ولا التشخيص الأمثل الذى يستطيع أن يرجع الحالات المرضية الى مسبباتها الحقيقة ، خاصة وأن أعراض التسمم بالمبيد ، أو حالات الموت التى تروح بسببه ، قد تكون غامضة ، كما أنها لاتقوم بالمسح الصحى الدقيق عن الآثار التى تسببها تلك المبيدات فى الناس ، ويعنى ذلك أن عدد حالات التسمم قد تكون أكثر مما ذكره بكثير ، ثم يعدد المآسى التى تسببها المبيدات ، فبعضها يسبب التشوهات الخلقية ، أو الأورام السرطانية ، أو الأمراض الوراثية وغير ذلك من أعراض خطيرة .

جناية المبيدات فى البيئة

ورغم أن أذى المبيدات واسع الانتشار بين الدول المتقدمة والنامية ، الا أن دمارها أكثر فى

● قصة طائر الغوّاص الذي اختفى بسبب المبيد الكيميائي !

● عدد ضحايا حالات التسمّم بالمبيدات في الدول النامية يربو على ٣٧٥ ألف حالة سنويًا

الدول النامية ، وبحيث تظهر آثارها على صور الحياة المختلفة .. خذ على سبيل المثال الجداول والمصارف والقنوات التى كانت فيما مضى غنية بالأسماك ، لكن الأسماك فيها ماعادت ترى الا نادرا ، لأن المياه قد تلوثت بما يعود اليها من الحقول التى رويت ورشت بالمبيدات ، أو قد تصل المأساة الى ذروتها عندما يتخلص عمال رش المبيدات من فائضها فى مصادر المياه ، بغرض قتل الأسماك ، فتصبح صيدا ميسرا ، فيجمعه الناس فرحين ليأكلوه بملوثاته ، وهو جهل فادح ، وعدم ادراك وتبصر بما تحويه الأسماك من عناصر التسمم والموت (شكل ٣) ، وفى أحيان قليلة تذكر أجهزة الأعلام فى الدول النامية بعض هذه الحالات ، وكثيرا ما تهملها .

وأحيانا ماتصدر الدول الغنية فائض انتاجها الى الدول الفقيرة على هيئة معونات ، وقد تكون ملوثة بالمبيدات ، فتسبب حالات من التسمم الذى تختلف درجاته باختلاف تركيز المبيد ، وتذكر مجلة الصحة العالمية أن مثل هذه الحوادث قد ظهرت فى المكسيك وجامايكا وكولومبيا والبرازيل ، وتذكر أيضا أن احدى الدول العربية فى القارة الآسيوية ، قد استوردت حبوبا معالجة بأحد المبيدات الفطرية ، وسلمتها الى المزارعين لزراعتها ، لكنهم طحنوها وأكلوها ، فظهرت عليهم أعراض التسمم بالجملة ، فأنقذ منهم عدد وفير ، ومات عدد قليل .. وهى حادثة حقيقية سبق أن اطلعنا عليها فى مرجع علمى آخر منذ بضع سنين .. أضف الى ذلك أن بعض المزارعين يضيفون الى الحبوب المخزونة شيئا من هذه المبيدات الحشرية بغرض حمايتها من التسوس ، ثم هم بعد ذلك يستخدمونها كغذاء ، وطبيعى أنهم لايدركون مايفعلون ، فلم يبصرهم أحد بسوء مايفعلون .

وبعد انتهاء الحرب الفيتنامية الأمريكية ، ظهرت حالات من التشوه الخلقى بين الأطفال الحديثى الولادة ، فمنهم من مات ، ومنهم من عاش بعاهات ترى صورة واحدة منها منشورة ضمن هذا المقال (شكل ٤) ولقد أرجع الأطباء الفيتناميون أسبابها الى الكميات الهائلة من مبيدات الحشائش التى رشتها الطائرات الأمريكية على الغابات ، فعرت أشجارها من أوراقها ، وأبادت حشائشها وأعشابها ، لكشف الثوار المختبئين بها .

وطبيعى أن تتنصل الحكومة الأمريكية من هذا الذنب ، وراحت تعلله بأسباب أخرى تدعى بها أن المبيد برىء ، هذا رغم أن تقريراً طبياً أمريكياً قد أوضح أن هناك علاقة بين ولادة الأجنة المشوهة والميتة وبين بعض المبيدات ، ومنها مبيد الحشائش ، وأن هذه التشوهات قد ظهرت فى بعض الولايات الأمريكية التى تستخدم هذه المبيدات ، ومن أجل هذا تدخلت وكالة حماية البيئة ، وحظرت انتاج المبيد أو استخدامه الا فى أضيق الحدود ، وقد طعنت شركة « داو » للكيماويات فى هذا الحظر أمام احدى المحاكم ، لكنها خسرت القضية .

والشىء نفسه قد حدث فى بريطانيا ، حيث أدان اتحاد المزارعين هناك المبيد ، وأشفع الادانة بسرد عشرين واقعة خطيرة لأثر المبيد المدمر على الزرع والضرع والبشر ، لكن اللجنة الاستشارية للمبيدات التابعة لوزارة الزراعة لم تأخذ بوجهة نظر اتحاد المزارعين بحجة أن دور المبيد فى انقاذ الثروة الزراعية أهم من تلك الحالات الفردية .. ويبدو أن وجهة نظر اتحاد المزارعين كانت على حق ، اذ حدث أن تسرب من أحد مصانع المبيدات نصف كيلوجرام من مادة الديوكسين (وهى موجودة ضمن مبيد الحشائش) فى منطقة مأهولة بالسكان فى شمال ايطاليا ، ولقد حدث وقتها ذعر شديد ، خاصة بين النساء الحوامل ، لدرجة أن بعضهن قد اجهض أنفسهن لعلمهن أن المبيد يسبب تشوه الأجنة ، ورغم ذلك فقد سجل الأطباء منذ ذلك الحين ارتفاعا كبيراً فى عدد الأطفال المشوهين !

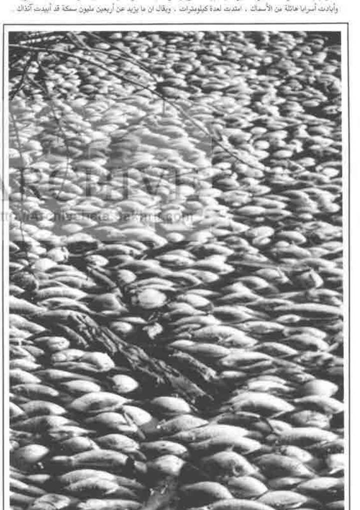
ولاشك أن الأحداث بعد ذلك كثيرة ، لكن يكفى أن نشير الى حالة أخيرة ، وفيها تذكر دراسة نشرتها مجلة « رجل العلم العصرى » البريطانية مؤخراً ظهور أعراض مرض محير أدى الى تقوس عظام الكثير من المزارعين فى جنوب الهند ، وصاحبها تآكل فى مفاصل الركب والفخذ ، وعندما فحص المعهد القومى للتغذية بالهند تلك الحالات ، وجد أن معظم السكان يختزنون كميات غير عادية من المبيدات التى تستخدم هناك بدون توعية أو ضابط ، وانتقلت بعد ذلك من الحقول الى مصادر المياه ، فتركزت فى أسماكها ، ومن الأسماك الى البشر ، وعندما حظر استخدام هذه المبيدات ، بدأت الأعراض تتناقص بعد سنوات .

هذا بلاغ للناس كافة

ومن عادة الناس أنهم لا يهتمون كثيراً الا

المبيدات الحشرية..
هل ستكون بشرية ؟

شكل (٣) عندما وجدت عبوة صغيرة من المبيدات طريقها الى أحد المصادر المائية ، تسببت في هذه الحالة المأساوية ، وأبادت أسرابا هائلة من الأسماك ، امتدت لعدة كيلومترات ، ويقال ان ما يزيد عن أربعين مليون سمكة قد أبيدت آنذاك .



بالظاهر ، ولا يستيقظون الا بالكوارث ، فكارثة تسرب المواد السامة من مصنع المبيدات في مقاطعة مهوبال بالهند ، والتي راح ضحيتها الآلاف ، غير عشرات الآلاف الذين لا يزالون يعيشون بعاهاتهم ، قد أثارت ضمير العالم ، وظلت حديث أجهزة الاعلام لأسابيع طويلة ، لكنها لا تثار بما يجرى في الباطن ، لأنه غير محسوس ولا ظاهر ، رغم أنه أخطر شأناً ، وأعظم ضرراً ، لكن خطورته لا تظهر الا على المدى الطويل ، وله ضحايا كثيرون يعدون بعشرات ومئات الآلاف كل عام ، لكنهم موزعون في أنحاء العالم على نطاق واسع ، ثم ان المبيدات تؤدى عملها وتدميرها ببطء على مدى سنوات قد تطول . ومن أجل هذا لا يتنبه الكثيرون لأذاها .

ولاشك أن هذه المبيدات تنساب الى الأجسام الحية من البيئة التى تلوثت بها ، ورغم أن الجرعات منها جد قليلة ، الا أن بعض هذه المبيدات قد لا تفقد مفعولها الا بعد سنين طويلة داخل الأنسجة وفي البيئة . وهذا يعني أنها تتركز بمرور الأعوام ، ولا مناص اذن من غزوها للمادة الوراثية ، واقتحامها للعمليات الحيوية ، وتعطيلها للتفاعلات الكيميائية . وتداخلها في الوظائف الفسيولوجية ، خاصة في الأجنة والأطفال الرضع ، لأنهم لا يزالون في بدايات النمو والتكوين . وأى خطأ في هذه البدايات . لاشك يتعاظم شأنه في النهاية .. ولا يسلم البالغون من الأذى بطبيعة الحال..

والأمراض والعجز والتشوهات التى يحدثها سوء استخدام المبيدات كثيرة ، ولاشك أن بعض أعراضها قد درست وعرفت ، لكن هناك أعراضاً أخرى جديدة وغير معروفة تعبر عن نفسها دائماً ، خاصة وأننا لازلنا حديثى عهد بهذه الملوثات الخطرة التى لازالت تشتغل في الخفاء ، ثم يظهر تدميرها على هيئات شتى . ومع ذلك . فإن ما عرف منها قد لخصه لنا دكتور الاستير هاى — أستاذ الباثولوجيا الكيميائية بجامعة ليدز في كتابه المثير الذى اختار له عنواناً مثيراً كذلك . فأطلق عليه اسم « الخنجر الكيميائي : دروس مستفادة من مبيد الأعشاب ٢،٤،٥ — ت والديوكسين » (والديوكسين مادة شديدة الخطورة توجد بتركيزات خفيفة مع مبيد الأعشاب) .. وهذه الأعراض والأمراض على حسب ما يذكر : تدمير في خلايا الكبد . وخلل في الجهاز الهضمي قد يظهر على هيئة غثيان وقيء واسهال ، وآلام في العضلات ، وفقدان في الشهية ، وضعف في جهاز المناعة ، وأضرار بالجهاز العصبي ، وفقدان السمع والشم والتذوق ، وتقوس العظام ، والصداع ، بالاضافة الى اضطرابات نفسية تتمثل في الاكتئاب



شكل (٤) بنت وولدان تشوهت منهم العظام . وحالتهم تشهد بالمأساة التى خلقتها حرب مبيدات الحشائش والأشجار فى فيتنام .. والصورة نشرتها مجلة «رجل العلم العصرى» البريطانية فى عام ١٩٨٢ ضمن مقال بعنوان «إنها تقتل الحيوانات .. فماذا عن البشر؟!» .. والصورة فيها الجواب !

وعدم التركيز والشرود والاضطراب فى النوم ، ونوبات من العصبية والغضب .. الخ . وكل هذه الأعراض من مبيد واحد يحتوى على الديوكسين .

يضاف الى ذلك أيضاً ما تحدثه المبيدات الأخرى من التشوهات الخلقية فى المواليد ، أو ولادة الأجنة ميتة ، أو نشوء أنواع غريبة من الأورام السرطانية . أو فقدان الخصوبة ، أو تغيير بعض الصفات الوراثية للخلايا الجنسية ، أو هبوط فى وظائف الغدد الصماء ، أو تغيرات فى كيمياء المخ .. إلى آخر هذه القائمة من المصائب القائمة والقادمة — أى التى لم يكتشف العلم أعراضها بعد .

كلمة أخيرة واجبة

لكن أخطر من ذلك كله أن المبيدات التى تنتج ثم تثبت خطورتها على بيئة الدول المتقدمة ، ويحظر فيها تداولها ، تصدرها تلك الدول الى العالم الثالث . وليس ذلك الكلام من عندنا ، بل ذكرته مصادر شتى نتذكر بعضها ، ولا نتذكر بعضها الآخر . فلقد ذكرت ذلك دائرة معارف الأكاديمية الأمريكية (الجزء ١٥ صفحة ١٩٨ لعام ١٩٨١) ، وذكرها البروفيسور آلميدا فى نشرة منظمة الصحة العالمية (أغسطس/سبتمبر ١٩٨٤ صفحة ١٠) ، وكأنما دول العالم الثالث قد أصبحت حقل تجارب ، ويتبع ذلك أيضا أن يكون سكانها بمثابة حيوانات تجارب كذلك !

ويذكر نفس هذين المصدرين كذلك أن بعض الحبوب والدقيق والمعلبات المصدرة من الدول المتقدمة الى الدول النامية تحتوى على بعض هذه المبيدات . وتلك حقيقة يجب أن تنبه لها الأذهان ، هذا بالاضافة الى أن بعض دول العالم الثالث التى أنشأت فيها الدول المتقدمة صناعات للمبيدات (كالهند مثلا) ، ليست لديها معايير مضبوطة عن نوعية المبيدات المنتجة ، إذ قد تحدث تفاعلات جانبية لسبب أو لآخر ، فيؤدى ذلك الى انتاج مركبات شديدة الخطورة على الحياة ، وليست واردة فى مواصفات المبيد .

أضف الى ذلك أن آثار التلوث بالمبيدات الموجودة فى لبن الأمهات فى دول العالم المتقدم قد بدأت تنخفض تدريجيا ، نتيجة للرقابة الصارمة المفروضة على بعض المبيدات الخطرة ، لكن سوء استغلالها فى دول العالم الثالث قد أدى الى زيادة ملحوظة فى ألبان حيوانات المراعى ، وكذلك فى لبن الأمهات .

وأخيراً فان الدعايات المضللة التى تنشرها شركات انتاج المبيدات ، لتحث الناس على استخدام المبيدات ، لا يهمها الا تحقيق أكبر ربح ممكن على حساب صحة الناس ، ولا يزال ذلك الاعلان الذى ينتشر فى تليفزيونات بعض الدول العربية ، ويظهر فيه رجل أنيق يعلن فيه عن مبيد له قوة قتل ثلاثية يعددها على أصابع يده ، إمعانا فى التأثير على المستمعين ، هو فى تصورنا أنه ذو قوة قتل أولى للحشرات ، وقوة قتل ثانية للبيئة ، وقوة قتل ثالثة للناس .. وتلك — فى الحقيقة — هى الثلاث موبقات القاتلات التى تتصف بها المبيدات ، وعلى كل المستويات .

لكن .. ما هو البديل ؟ .. وهل يعنى ذلك أن نترك زرعنا وضرعنا وأجسامنا نهبا للآفات ؟

ما هذا قصدنا ، فهناك سلاح بديل يتمثل فى المبيدات البيولوجية ، فربما كان فيها بعض الأمل والخلاص — ولذلك دراسة قادمة .

عبد المحسن صالح

هامش

* بعد أن انتهينا من كتابة هذه الدراسة ، ظهر خبر مثير فى إحدى جرائد دولة عربية يذكر أن شرطة المسطحات المائية قد ضبطت ١٠٩٤ كيلو جراما من المواد السامة فى مخازن ثلاثة تجار ، ليبيعها للصيادين لاستخدامها فى صيد السمك ، وأحيل المتهمون للقضاء !

وردة الفجر

شعر: محمد آدم

حينَ حَطَّ على النيلِ ، كانَ النهارُ دَمَاً ،
والمَصَابِيحُ ، مُطْفَأةً ،
والجُنودُ التي تتزيّنُ بالرّملِ ، والعُشْبِ ،
ترْقُدُ ،
تَحْتَ التُرابِ المُنَدّى ،
وتَنْسجُ ، للفجْرِ ألوانَهُ ،
ثُمَّ تَبْكي انتِظَاراً ،
وكانَ يُداعِبُ أحْلامَهُ المُسْحِرَاتِ ـ إلى الحُزْنِ لَيْلاً ـ
وَيَقْطِفُ وَرْدَ القَصَائِدِ ،
يَفْجأُ ظِلَّ التَمَاثِيلِ ،
يَرْحَلُ عَبْرَ النوافِذِ ،
والشُرُفَاتِ المُضَاءَةِ ،
والشَجَرَاتِ العَرَايَا ،
التي لا تَحُطُّ ـ عليها ـ العَصَافِيرُ ،
أوْ تَتلكأُ ،
ثُمَّ تُهاجِرُ قَبْلَ وُرُودِ الصَبَاحِ ،
وتَمشي على الشَوْكِ ،
والنــارِ ،
تَقْطَعُ أرضَ البَرارى ،
غِنــاءً ،
رتيباً
حَزيناً
وكانَ يُضَاحِكُ هذى البِلادَ مَسَاءً ،
يُقَاسِمُها ،
لَيْلَهَا الدَمَوِيَّ الطَوِيلَ ،
ويُفْرِدُ للحُلْمِ ،
سجّادَةً ،
من رَمَادِ التوابيتِ
زَهْرِ البَنَفْسَجِ
عُمْقِ الجُذُورِ
اخضرارِ النّدى
والغُصُونِ التي تَتَمَايَلُ تَحْتَ الصَبَاحَاتِ ،
حينَ يَشُبُّ الهَواءُ الخَرِيفيُّ ،
مُؤْتَلِقاً ،
بالشُمُوسِ ،
على خُصُلاتِ النَخيلِ ،
وَيَرْكُضُ ،
في السَّهلِ ،
والأرضِ ،
مُفْتَتِحاً ،
للرِّمَالِ الوَضيئةِ ، دَوْرَتَهَا ، صَوْبَ سِرْدَابِها الأبدى
العَميقِ ،
إلى الدّمِ ،
حينَ تَغيبُ المَوانئُ ،
أوْ ،
تتنكّرُ للنيلِ أفْرَاسُهُ ،
كان يعرفُ سِرَّ المدينةِ ،
حِينَ يَجيءُ ،
وكانَ يُزاوِجُ بينَ الفُصُولِ ،
وبينَ الحُقُولِ ،
ويأخُذُ للنيلِ مَجْلِسهُ قُربَ شَطِّ الجزيرةِ ،
دَوْرَتَهُ ،
بينَ كلِّ البِلادِ التي تَستَطيلُ إليهِ ،
وَيرْحَلُ للنهرِ ، حتي يُلاقِي المَرايا .. الدّماء ..
اصطِفَافَ الجُنودِ .. اغتِسَالَ الورود
على شَهْقَةِ الرّملِ ،
حينَ يُعَرّينَ أجْسَادَهُنَّ ،
الجَميلاتِ ،
للصُبْحِ ،
والفَجْرِ ،
يَرْتَعْنَ خَلْفَ الغُيُومِ الشَفِيفَةِ ،
ثُمَّ يُقَهْقِهْنَ ، للنهرِ ، والعُشْبِ ،
يَمْسَحْنَ ،
هذا البَهاءَ النَبِيلَ ،
بأعْرَافِهِنَّ ،
الصَغيراتِ ،
يَرْكُضْنَ ،
نحوَ التلالِ البعيدةِ ،
ثُمَّ يَبُحْنَ بأشْوَاقِهِنَّ ، الحَبيسَاتِ ،
للؤلؤاتِ الفَريدَةِ ،
في الغَوْرِ ،
والسِّنْدِيانِ العَتيقِ ،
ويأخُذُ في الرّكْضِ ، مِنْ خَلْفِهِنَّ ،
كَطَيرٍ من الريحِ ،
والضَوءِ ،
لا يتوقفُ قُرْبَ الثُغُورِ ، ولا يَتلكأُ ،
تَحتَ النَوافِذِ ،
والشُرُفَاتِ ،
إلى أنَ يَحُطَّ بأحْلامِهِ ،
جَنْبَهُنَّ ،
ويَنْسِجْنَ ،
هذا الفَضَاءَ ، شُجَيْرَاتِ ،
عِشْقٍ ،
وظِلٍ ،
وكانَ يُرَاوِدُ أهْلَ المدينةِ ،
ثُمَّ يعودُ اذا الليلُ جاءَ ،
وأظْهَرَتِ الأرْضُ أحْمَالَها
مالَهَا ،
لا تَذُوبِ المَدينةُ فيهِ ،
كما يَشْرَبُ الرّملُ نَخْبَ النَدى ،
والصَدى المَعْدِنيَّ ،
وَوَحْلِ التَرائِبِ ،
والطُرُقَاتِ الوَرِيفَةِ ،
والضَحِكاتِ الأليفَةِ ،
والنيلُ ينسي ،
كما ينسى هذا النَهارُ الدّمَ المُفْعَمَا ،
كُلّمَا ،
فَاجَأتْهُ العَصَافِيرُ ، كانَ يَحُطُّ ،
على النيلِ ،
يُطْعِمُ هذى البِلادَ خُلاصَاتِ عينيهِ ،
وَهْجَ الفُؤادِ ،
وَرَهْجَ الشُمُوسِ ،
ويغْزِلُ من ناقِلاتِ البَوَاخِرِ بعضَ الحَنينِ ،
إلى أهْلِها ،
الغُرباءِ ،

الذينَ يموتُونَ ، جَنْبَ الحَشَائِشِ ،
قُرْبَ الطَواحِينِ ،
تَحتَ السَواقي التي تَنْزِفُ الآنَ ،
دمًا ،
وتُسقِي الحُقُولَ الظَمِيئةَ ،
كيفَ تكوُن المَدَائِنُ مَهْزُومةً ،
والرِجَالُ التَوابيتُ ،
يَنتَحِبُونَ ،
عَرَايَا !!
وَيتَكِئُونَ على شُرُفَات المَنَازِلِ ،
يَضطَجِعُونَ قَليلاً ،
وَيرْتَحِلونَ قَلِيلاً ،
ولكنَّهُمْ ،
حينَ تَأْتِي السُيُوفُ الصَقِيلَةُ ،
يَنْسرِبُونَ ،
ـ كَجِرْذَانِ حَقْلٍ ـ
تُفَاجِئهَا النَحْلاتُ ، فَفَرَّتْ ،
إلى الأَرْضِ ،
تَشْرَبُ من ثَدْيِهَا المَطَرِيِّ ،
وتَدْهَسُ هذى البِلادَ ، لتأْكُلَ من تَمْرِهَا ،
العَسَلِيِّ ،
لَحْمَ أبنَائِهَا الكَادِحِينَ ،
آه ،
يَاأَيُّها الفُقَرَاءُ الذينَ أتوا ،
في الصَبَاحِ البَهِيجِ ،
يَشُدُّونَ للنَهْرِ ، أحْمَالَهُم ،
ليسَ هذا الذى تَشْرَبُونَ هو النَهْرُ ،
لكنَّهُ ،
حُمْرَةٌ من رَمَادِ الحَرائِقِ ،
عِرْقٌ من الدَمِ ، يجرى على سحنَةِ الأَرْضِ ،
يَرْفُضُ أنْ يَتكَوَّنَ مَاءً
وَنخلاً
وَزيتُونَةً

وَيرْفُضُ أنْ يَتفَرَّعَ فوقَ الجِبَالِ الشَرِيدَةِ ،
أنْ يَستَرِيحَ على الرَملِ ،
أوْ يَتحَدَّرَ نحوَ الحُقُولِ الفَسِيحَةِ ،
والنَهرُ ،
ينسى ،
كما كانَ آبَاؤُهُمْ يَفْعَلونَ ،
هُمُ الآنَ ،
في أَوْجِ بَهْجَتِهِمْ ،
يَشْرَبُونَ النبيذَ ،
المُعَتَّقَ ،
أوْ يَرْقُصُونَ فُرَادى
ـ وَيَنتَحِبونَ زُمَرْ ـ ،
على ضَوءِ لَونِ الدَمَاءِ ،
التي تَتَساقَطُ ،
في الرَمْلِ ،
مَخْضُوبَةً ،
في بَيَاضِ النَهَارِ ،
وخُضْرةِ عُشْبِ المَرَاعى ،
إلى أنْ تَجيءَ الرِياحُ التي تَحْمِلُ المُزْنَ ،
والغَيمَ ،
تُسقِطُهُ ،
شَجَراً ،
شَجَراً ،
شَجَراً ،
يَتنَاسَلُ ، تَحْتَ مَدَارِيهِ ،
كالقَمَرِ اللُؤْلؤِيِّ ، الذى يَتهاوى ،

إلى الوَحْلِ ،
ضَوءاً من الظِلِ ،
ظِلاً من الضَوءِ ،
ثُمَّ يُسافِرُ في السَاحِنَاتِ ، التي تَحْمِلُ
العِشْقَ
والخُبْزَ
والخَمْرَ
نَحْوَ الثُغُورِ الغَرِيبةِ ، عنْ أَهْلِهَا
الغُرَباءِ ،
الذينَ يموتونَ جُوعاً
وشَوقاً ،
إلى النَخْلِ
والنَهرِ
والتَمرِ
هذا الفَضَاءُ مدىً ،

والصَبَاحَاتُ لا تُفْصِحُ الآنَ عن جِسْمِها العَنبرِيِّ ،
المُضَمَّخِ ،
بالتُوتِ ،
والعِنَبِ المَرْمَرِيِّ ،
وتَرحَلُ في الليلِ نَحوَ البِحَارِ التي تَستَرِيبُ
الشَوَاطِيءُ ،
منها ،

ولا يَنْزِلُ المَطَرُ المَوْسِمِيُّ عليها ،
النَوارِسُ أعْجَزُ مِمَا هيَّ الآنَ ،
تَبدو على الفَجْرِ ،
مُعْتَالَةً ،
بالبَنادِقِ ،
والنَهرُ لا يَحْمِلُ الآنَ غيرَ الغَرِيبينَ ،
والعَاشِقَاتِ ،

وَمَنْ يَحتَسُونَ الكُؤُوس
مُعَتَّقَةً ،
في صُدُورِ البَنَاتِ ،
الجَميلاتِ ،
والبَحرُ لا يَستَعيدُ نَضَارَتَهُ ،
حينَ كانتْ تُسافِرُ فيهِ ،
الكَتَائِبُ ،
مَحْمُولةً ،
بالسَفَائِنِ ،
فوقَ زنودِ الرجَالِ الذينَ يَشُدُّونَ ،
للحَرْبِ ،
أثقَالَهُمْ ،
وفي الفَجْرِ يرْتَحِلونَ ،
فوارِسَ ،
تَنْصِبُ للعَدْلِ خَيْمَتَهُ ،

وتُقيمُ المَمَالِكَ فوقَ التُخُومِ القَصِيةِ ،
ثُمَّ تُرَاوِحُ بينَ النَهارِ ،
وبَينَ النَهارِ ،
وتَفْرِشُ للحُبِّ ، سِجَّادَةً ،
كَيْ تَمُرَّ عليها البِلادُ ،
إلى البَحْرِ ،
مِنْ بَعْدِ أنْ يُفْرِغَ الصُبْحُ ،
أجْنَادَهُ ،

للنَهارِ الطَويلِ ،
حينَ حَطَّ على النيلِ ،
كانَ يُتَابِعُ أبنَاءَهُ القَادِمِينَ ،
من الحَرْبِ ،
مُتَشحينَ ،
بِلونِ الحِدَادِ ،
وُمتَكِفئِينَ على الرَمْلِ ،
يَغتَسِلونَ من الدَمِ ،
بالدَمِ ،
يَستَنشِقُونَ العُذُوبَةَ ،
مخلوطةً
بالبَهاءِ النَبيلِ ،
آهِ ،
لكنهُ ـ حينَ حَطَّ على النيلِ ـ
كانَ يُخَطِطُ ،
نَافُورةً ،
من فَرَحْ ،

مازالت الحضارة الإسلامية متألقة تمتد جذورها العريقة عبر الأجيال بروعة ما تضمه من آثار فريدة تجذب إليها إهتمام العالم كله .. والمتحف الإسلامى فى القاهرة يضم فى ردهاته وقاعاته أنفس مجموعة من الآثار الإسلامية تعبر عن أزهى الحقب وأثراها ، وخاصة بعد تجديده وتوسعاته الجديدة وخروج معروضاته الى النور بعد أن كانت حبيسة المخازن لفترة طويلة .. لقد عادت الروح إلى المتحف الاسلامى !



عودة الروح إلى المتحف الإسلامي

- كان لابد من مواجهة علمية لإنقاذ الآثار الإسلامية بعد إهمالها
- ظلت فكرة إقامة متحف للآثار الإسلامية معطلة ٣٤ عاما !
- من المقتنيات الجديدة كنوز الفاطميين وأسلحة من العصور الإسلامية

فاروق اباظة

الاهتمام بمتحف الفن الإسلامى يجيء متسقا مع الاتجاه السائد الآن بوجوب الحفاظ على الثروة الأثرية العربية التى تمتد جذورها عبر قرون طويلة منذ شروق الإسلام بكل روائعه الحضارية والأثرية فى فن العمارة والنحت والخزفيات والرسم والنسيج والأسلحة وصك العملة والزخرفة وصناعة الزجاج والأوانى والأدوات الطبية .

والمتحف الإسلامى بالقاهرة يقول عنه عالم الأثريات الدكتور أحمد قدرى رئيس هيئة الآثار المصرية : إنه بعد تطويره وتجديده أصبح أعظم متحف للآثار والفن الإسلامى فى العالم ، فهو يضم ضمن مقتنياته درة المجموعات الإسلامية ..

وعندما نتحدث عن المتحف الإسلامى القاهرى نرى أنه من الأصوب أن نسرد باختصار تاريخ الآثار الإسلامية فى مصر .. لقد بدأ الاهتمام بهذا التراث العربى عندما شكلت لجنة للحفاظ على التراث العربى برئاسة الخديوى توفيق عام ١٨٨١ م ، قامت بحصر التراث الإسلامى والقيام ببعض أعمال الترميم الضرورية،وكانت هذه اللجنة تضم إلى عضويتها رئيس الوزراء أما بقية الأعضاء فيمثلون أرفع المستويات الثقافية والعلمية مثل على مبارك باشا ومحمود باشا الفلكى ومصطفى باشا فهمى والعالم النمساوى فرانتز باشا ، وحصرت اللجنة ألف وخمسمائة أثر إسلامي فى القاهرة بالإضافة إلى أربعمائة أثر فى بقية المحافظات .

وبسبب ضعف إمكانات الترميم اندثر منها ما يقرب من ألف أثر ، وظلت عمليات الترميم المحدودة قائمة لما تبقى من الآثار الإسلامية ما بين أعوام ١٨٨٢ حتى ١٩٣٦ ، ثم بدأت هذه الآثار الإسلامية تعانى من حالة الإهمال والتردى ، وكان لابد من مواجهة علمية لإنقاذها . وذلك بتحديد فلسفة واضحة للعمل مع خطة وجدول زمنى لتنفيذ عمليات الإصلاح والترميم والتجديد وتحديد الأولويات .واختيرت طريقة التعامل مع مناطق أثرية بأكملها ، باستخدام الشباب لإزالة المخلفات المتراكمة حول الأثر ، وإجراء عمليات تجميل واسعة النطاق مع إتاحة الخدمات السياحية والثقافية داخل هذه المواقع . وكان الوقت هو العدو الأول بعد أن وصلت معظم الآثار الإسلامية إلى حالة من التصدع والقرب من الانهيار ، وقد أمكن المحافظة على أغلب هذه الآثار واستعادت طابعها المعمارى وزخارفها وألوانها .

فكرة المتحف الاسلامى

وقصة إنشاء المتحف الإسلامى بالقاهرة بدأت كفكرة عام ١٨٦٩ م ، حين اقترح المهندس « سالزمان » على الخديوى اسماعيل إنشاء متحف للآثار الإسلامية يضم فى جنباته التحف والآثار . ولكن الفكرة ظلت معطلة حتى عهد الخديوى توفيق عندما صدر مرسوم بتكليف وزارة الأوقاف بتخصيص مكان لذلك المتحف الوليد فى عام ١٨٨٠ ، وعهد إلى « فرانتز » باشا بإعداده وتنظيمه فاتخذ له من أروقة جامع الحاكم بأمر الله مكاناً أطلق عليه اسم « دار الآثار العربية » وظلت الدار كذلك فلم يطرأ على المتحف تطور كبير إلا بعد إنشاء لجنة حفظ الآثار العربية عام ١٨٨١ ودخوله تحت إشرافها فكان ان أنشيء لها مبنى خاص فى صحن جامع الحاكم ، ثم طالبت اللجنة الحكومة عام ١٨٩٩ م بإنشاء المبنى الحالى للمتحف بميدان باب الخلق بالقاهرة فاكتمل البناء ونقلت إليه التحف وافتتح فى ٢٨ ديسمبر ١٩٠٣ (٩ شوال سنة ١٣٢١ هـ) .. وظل إشراف المهندس النمساوى فرانتز باشا على المتحف من سنة ١٨٨١ م إلى عام ١٨٨٧ م ثم أعقبه المهندس « ماكس هرتس » كبير مهندسى حفظ الآثار العربية الذى عين عام ١٩٠١ م أميناً عاما للمتحف وعين الأثرى المصرى على بهجت أميناً مساعداً ثم مديرا له فى يناير ١٩١٥ م حين ترك ماكس هرتس القاهرة وعاد إلى



المتحف الاسلامى الذى يضم بين ردهاته وقاعاته أهم مجموعات الآثار الاسلامية



ابريق من البرونز

آنية خزفية محلاة بزخارف اسلامية

بلده إنجلترا .. واتسع نطاق النشاط في المتحف الإسلامي ليشمل التنقيب عن التراث الفنى الإسلامي والمحافظة عليه وإجراء الحفائر فى مواقع العواصم الإسلامية فى مصر (الفسطاط ـ العسكر ـ القطائع) والأماكن التاريخية الأخرى .

وبعد ذلك توالت الاكتشافات التى كان ينشر عنها فى المجمع العلمى المصرى ، وكان لدار الآثار العربية الفضل الأول فى إعداد الرواد الأول من علماء الآثار المصريين الذين تخصصوا فى الآثار الإسلامية ..

وفى عام ١٩٤٢ ضم « بيت الكريدلية » إلى دار الآثار العربية هدية للدولة من مؤسسه الانجليزى « جاير أندرسون باشا » وهو مثال لطرز البيوت الإسلامية فى العصر التركى .. وظل متحف الفن الإسلامى يضاعف ما لديه من التحف والمقتنيات بشراء المجموعات الخاصة وكان أشهرها مجموعة « رالف هرارى » من التحف المعدنية ومجموعات الدكتور المرحوم « علي ابراهيم » من الخزف والسجاد .

الفن الإسلامى يغزو العالم

وعندما تولت إدارة دار الآثار العربية أيد مصرية خالصة فى عام ١٩٥١ ، شهد المتحف فترة الازدهار فخصصت قاعات للطرز الفنية فى مصر وإيران وتركيا وخصصت أخرى للقطع الأثرية حسب مادتها من أخشاب ومعادن وخزف وزجاج وعهد بأقسامها إلى الأمناء يتخصصون فى دراستها ويعرفون بها وينشرون عنها وأصدروا دليلا بأهم مقتنياته .. وشملت روح التجديد اسم المتحف فاستبدل باسم « دار الآثار العربية » اسم متحف الفن الإسلامى ، تعبيراً عن مشاركة غير العرب من الشعوب التى اعتنقت الإسلام وأصبحت مشاركة فى صنع الحضارة الإسلامية . وعرضت مع زيادة المقتنيات تحف العصر التركى فى مبنى خاص ألحق بالمتحف فى شارع الإنشا بحي السيدة زينب ابتداء من عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٤٥ م . كما صدرت سلسلة من المطبوعات باسم « مجموعات متحف الفن الإسلامى » بشكل كتيبات تعرف بمجموعات المتحف صدر منها سجاجيد الصلاة التركية ومعدات التجميل وصنج السكة فى فجر الإسلام وفجر السكة العربية . وطبعت مجموعة من الصور الملونة للفنان الاسلامى بهزاد ، وكان أحدث منجزات التحف فى مجال النشر دورية بعنوان (دراسات آثارية إسلامية) .

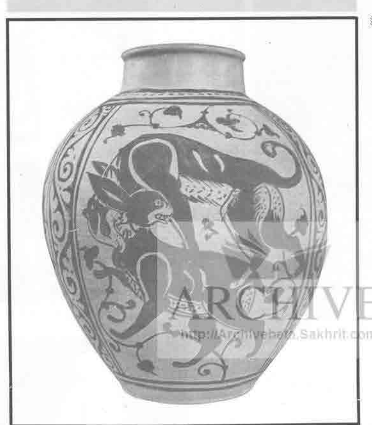
وقد شارك المتحف فى المعارض التى نظمتها

● مطلوب تكثيف الجهود لإنقاذ الآثار الإسلامية المبعثرة في كل أنحاء العالم

هيئة الآثار وطافت بكبرى المدائن الأوربية والأمريكية والآسيوية . وبالإضافة إلى ما قام به من دور في الاحتفال بعيد القاهرة الألفي عام ١٩٦٩ م ، فأقام معرضاً كبيراً للفن المصرى الإسلامى فى فندق سميراميس القديم .. فقد ظل تزايد مصنفات المتحف حتى بلغت زهاء ثمانين ألف تحفة من الخزف والفخار والزجاج والبلور الصخرى والنسيج والسجاد والمعادن والحلى والأخشاب والعاج والأحجار والجص والسكة والمخطوطات حتى ضاقت بها قاعات العرض والمخازن . واشتدت الحاجة إلى أماكن أفسح تصلح للعرض والتخزين ، وأصبحت قضية تطوير العناصر المعمارية والتحفية معاً ضرورة لا محيص عنها نادت بها كل الدوائر الأثرية والثقافية فى مصر والخارج وعلى رأسها هيئة اليونسكو ..

المشهد الجديد

وبدأ تطوير وتجديد متحف الفن الإسلامى بضم جانب كبير من قاعات الدور العلوى بمبنى المتحف كى تضم المقتنيات التى طال تخزينها ، وخصصت القاعات العلوية لعرض قرابة ألف قطعة من النسيج معظمها مصرى عثر عليه فى حفائر الفسطاط وبعضها إيرانى وتركى ، وكذلك عرضت خزانتان للأزياء وما يقرب من عشرين سجادة مختلفة الطراز وأربع ثريات نحاسية من العصر المملوكى والتركى كما خصصت قاعة بالدور العلوى للدراسات الأكاديمية للنسيج . وانتقلت مكتبة المتحف مع تخصيص مساحات أفسح لها وأعدت قاعة كبيرة على يسار المدخل الشمالى للإطلاع والمحاضرات التى تلقى عند الحاجة فى غير أوقات العمل الرسمية ، وألحق بالمتحف قسم لترميم التحف والمقتنيات وكذلك قسم التصوير للمتحف ، وأعدت قاعة جديدة لعرض العملات الأثرية والموازين والمكاييل والأنواط والأوسمة التى يندرج معظمها تحت اسم « علم النميات » بالإضافة إلى تجهيز القاعة بأساليب عرض حديثة للعملة ، وخصص الجزء العلوى لحفظ خزائن تحت هذا القسم من العملة مع إعداد مكان للدارسين للفحص والدراسة .. وقد ضمت إلى المتحف أيضاً أرض إلى الشمال منه كانت تشغلها محطة للبترول مما كان يشكل تهديداً مستمراً لأمن المتحف وآثاره ، وتم إنشاء حديقة أثرية إسلامية للعرض المفتوح ضمت العشرات من القطع المناسبة من الأعمدة والتيجان



زهرية معدنية من القرن الخامس الهجرى



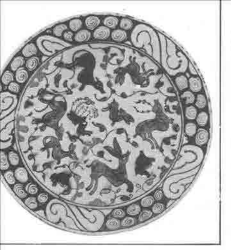
سائحة أجنبية أمام معروضات المتحف



رئيس هيئة الآثار : الدكتور أحمد قدرى



مشكاة من الخزف ، عمرها أكثر من أربعة قرون



طبق من الخزف التركى يرجع تاريخه للقرن السابع عشر



بعض الزوار داخل المتحف الاسلامى

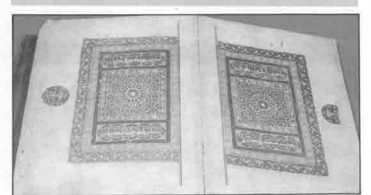
والجرار وأعمال النحت الحجرى والرخام الإسلامى ، ويتوسط الحديقة المتحفية الجديدة نافورة تم ترميمها وتشغيلها وسلسبيل تركى وواجهة جامع مملوكى فضلا عن مشرب مناسب للزوار روعى فى تصميمه التناغم مع الطراز المعمارى للمتحف ، وكذلك أماكن لبيع المطبوعات والبطاقات والنماذج الفنية والتذكارية للسائحين وهواة الفن الاسلامى .

كما أجري تغيير شامل سواء فى أسلوب وفلسفة العرض المتحفى أو فى مسارات الزيارة داخل المتحف ، وتم استحداث إضاءة جديدة مدروسة سواء داخل فتارين العرض أو خارجها موجهة لإعطاء أرفع تأثير جمالى للمتحف خاصة الذى رمم منه بعد إستخراجه من المخازن وإعادة استخدامه ليقدم المزيد من التأثير المطلوب . كما طبعت بطاقات عرض باللغات الثلاث العربية والانجليزية والفرنسية ، وأقيمت دائرة موسيقية مركزية لبث الموسيقى الكلاسيكية العربية والأوربية كخلفية عامة خافتة لمساعدة الزائر على المزيد من المتعة الثقافية ، بينما عزلت قاعات المتحف وصالاته عن الخارج بنوافذ مجددة محكمة لمنع تسرب عناصر التلوث الجوى والصوت والصورة حتى يمكن للزائر التركيز على التحف والمعروضات ، وقد تم إجراء ترميم معمارى شامل للقطع الأثرية ، وكذلك تجميل عام معمارى وزخرفى سواء داخل المتحف أو واجهاته الخارجية منها نافورة مزينة بالزهور فى الواجهة الجنوبية ، وأعيد طلاء المتحف وواجهاته ومداخله بلون مناسب وباستخدام الجرانيت والرخام من أنماط فنية إسلامية أبرزت ما فى الواجهة من تفاصيل معمارية جميلة أو حليات فى وحدة فنية متناسقة ، وأعدت قاعة جديدة للروائع فى مواجهة المدخل الرئيسى عرضت فيها مختارات من التحف تمثل جميع عصور الفن والحضارة الاسلامية .

واشترك فيما يجرى من تطوير وتوسعات فى المتحف مجموعات متكاملة من المهندسين والأثريين والفنيين والعمال المدربين ، وقد تم تلبية الكثير من احتياجات المتحف وقطاعاته وتحديثه وجعله مركزاً للاشعاع الثقافى والحضارى ، وسيتم أيضاً الاستفادة ببقية مساحة الدور العلوى .

وقد ضم أخيراً لمتحف الفن الاسلامى مقتنيات جديدة خاصة بالإسلام والعلوم وتمثل عطاء الحضارة الإسلامية فى مجالات العلوم المختلفة من طب وفلك ورياضيات وصيدلة وجراحة وجغرافيا وأثر هذه الحضارة ذات القيمة التاريخية والعلمية .

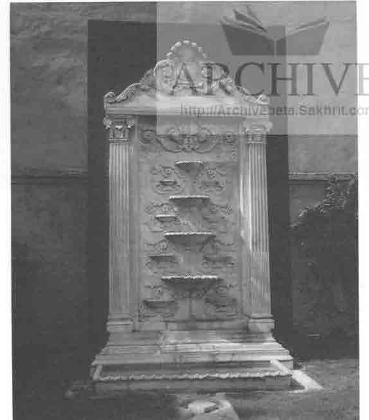
● ضاقت قاعات العرض عندما وصلت مقتنيات المتحف إلى ٨٠ ألف تحفة نادرة



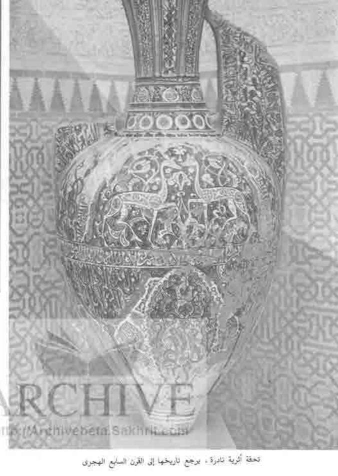
صفحة من مصحف مخطوط في العصر العثماني



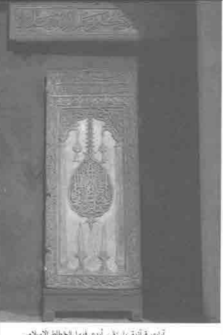
نوافير جانبية للمياه



ومقتنيات المتحف الإسلامي في القاهرة تعبر بصدق عن روعة الفن الإسلامي وعراقته خلال العصور . من بين هذه المقتنيات أعمال خزفية وزجاجية ونسيج وسجاد وأسلحة وزخارف ورسوم وتماثيل وأسلحة وأدوات طبية ونقش على الخشب ، من بينها تمثال ظبي من البرونز يغطى جسمه رسوم نباتية بارزة ، وتمثال أسد من البرونز المصبوب عليه بعض الزخارف المحفورة ، وتمثال من الخزف لسيدة جالسة مزين بزخارف نباتية ، وابريق من البرونز بزخارف محفورة ينسب للخليفة مروان الثاني بن محمد آخر خلفاء الأمويين (٧٥٠ م ـ القرن الثاني الهجرى) ومشكاة من الزجاج مزخرفة بالمياه الملونة والتذهيب باسم الناصر محمد بن قلاوون من مسجده (١٣٩٨ م ـ القرن السابع الهجرى) وتمثال من الخزف لأسد على ظهره طلاء زجاجي أزرق قاتم ، ومنجرة مكفتة بالذهب والفضة مزينة بزخارف نباتية ورسوم وحيوانات ومناظر للصيد ، ولوحة من الجص من قصور الخلفاء العباسيين في مدينة سامرا بالعراق ، وقطعة من الورق عليها رسم ساخر يمثل قرداً يركب عنزا ويمسك عصا . وقطعة نسيج من الكتان مزخرفة بأشرطة من الحرير عليها عبارة « اليمن والاقبال مكررة ، وقاع إناء يزينه رسم أوزة طائرة . وشريط من الخشب عليه بالحفر العميق منظر فنانة وعازف على آلة وترية من العصر الفاطمى : ومفرش مستطيل من النسيج بزخرفة فى الوسط مع أسود محورة وبالإطار أشخاص فى حديقة بالإضافة إلى كتابات فارسية ، ومنجرة من البرونز على شكل طائر ، وجزء من قاع إناء من الخزف عليه رسم غزال وسط أنواع نباتية . وصحن من النوع المعروف باسم خزف الفيوم متعدد الألوان يعود إلى القرن الرابع الهجرى . وقدر من الخزف ذى البريق المعدنى عليه صورة كلب يقنص غزالا ، وكتلة من الرخام عليها بالنحت البارز شكل أسد مع بعض زخارف نباتية محفورة على أجزاء منه وقطعة نسيج من الصوف عليها شكل يمثل فرس النهر ، ومقلمة من النحاس المكفت بالذهب والفضة مزينة بزخارف نباتية وهندسية وهى بإسم السلطان الملك المنصور محمد (١٣٦٣ م ـ ٧٤٦ هـ) : ورسم بالألوان المائية



تحفة أثرية نادرة ، يرجع تاريخها إلى القرن السابع الهجرى



آيات قرآنية بارزة ، أبدع فيها الخطاط الاسلامي

(الفريسك) يمثل شخصا جالساً يمسك فى يمينه كوباً وهو جزء من حمام كشف عنه التحف فى شمال القسطاط ، وثريا من النحاس عليها كتابة بخط النسخ باسم السلطان قايتباى وألقابه فى مصر . وشمعدان جميل من النحاس مصنوع بطريقة الضغط من الداخل وعليه تماثيل صغيرة لحمامات يليها صف من الأسود . وسلطانية من الخزف الايرانى لها مقبضان على شكل أسدين . وعلبة من العاج صناعة الأندلس عليها صورة طائرين متقابلين بالحفر البارز على أرضية نباتية . وباب من الخشب المصفح بالنحاس تزخرفه صور عديدة للحيوانات والطيور .

ومن أهم مقتنيات متحف الفن الإسلامي مجموعة النقود النحاسية والبرونزية والذهبية وتعد من أنفس مجموعات النقود فى المتاحف المتخصصة . بالإضافة إلى الأسلحة المتنوعة خلال العصور الإسلامية .

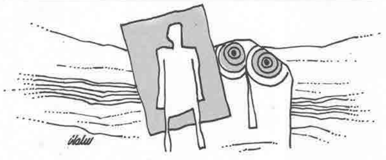
وأغلب مقتنيات متحف الفن الإسلامي ترجع إلى كل من العصر الفاطمي والعصر الأيوبي . وكان صلاح الدين الأيوبي قد استولى على كنوز الفاطميين وقام بتوزيعها . وقد أورد المؤرخون بيانا بالتحف التى كانت بالقصور الفاطمية والتى أرسلها صلاح الدين هدايا للسلطان نور الدين زنكي عام ٥٦٩ هـ .. وكان من بينها مصاحف من القرآن الكريم مجلدة بصفائح ذهب وعليها أقفال من ذهب والمصحف مكتوب بخط ذهب . وكان من بينها كذلك قطع من البلور وأباريق محلاة بالمينا الذهبية وأوان فاخرة عظيمة القدر وغير ذلك : وقيل إن صلاح الدين قد وجد فى خزائن القصر من الأعلاق الثمينة والتحف ما يخرج عن حد الإحصاء .. وبالرغم من ذلك فقد ظلت الفنون مزدهرة في العصر الأيوبي الذى تميز بوجود مجموعة هائلة من التحف الخشبية والزخارف والحشوات المجمعة فى أشكال هندسية ، وقد تخلف من العصر الأيوبي العديد من التحف الرائعة مثل تابوت المشهد الحسينى الموجود بالمتحف ، وتابوت زوجة الملك العادل وتابوت الإمام الشافعى وعلى هذا التابوت زخارف غاية فى الابداع . وازدهرت كذلك صناعة العاج . أما التحف المعدنية فكان لها شأن كبير يرجع إلى هجرة عمال هذه الصناعة من الموصل إلى القاهرة ودمشق ، وتخلف عن ذلك العصر تحف تضمها المتاحف العالمية وأهمها صينية من النحاس رائعة الزخارف مكفتة بالفضة عملت للملك العادل أبى بكر بن الملك الكامل وهى تحمل اسم صانعها أحمد ابن عمر المعروف بالزنكى النقاش وهى محفوظة بمتحف اللوفر فى باريس وتاريخها يرجع إلى (١٢٤٠ م ــ ٦٣٧ هـ) ويعرف للزنكى النقاش أيضا تحفة أخرى بالمتحف البريطانى فى لندن عبارة عن إبريق من النحاس يحمل اسمه : وبمتحف المترو بوليتان فى نيويورك إبريق معدنى من عصر السلطان الملك الكامل مكفت بالفضة على جداره زخارف نباتية تتخلله رسوم آدمية وأشكال هندسية ، وبمتحف بوسطن شمعدان من النحاس المكفت بالفضة من عصر الملك الكامل وعليه زخارف بديعة من التوشيح العربى تتداخل فى أشكال آدمية وحيوانية . وبالمتحف البريطانى فى لندن أسطرلاب من العصر نفسه نقش عليه اسم صانعه عبد الكريم المصرى الأسطرلابى ، وقد أحيطت الأشكال الفلكية بزخارف محزوزة وأخرى مكفتة بالفضة تنبثق منها أشكال من التوشيح العربى .

ومتحف الفن الاسلامي .. بالرغم من كل ما تسرب من مقتنياته إلى أكبر متاحف العالم ، مازال يضم هذه الصفحات الرائعة من التاريخ المجسم الذى يعبر بصدق عن أزهى عصور الابداع وأثراها بالفن الرفيع الذى بهر الدنيا ، لأنه يعبر بصدق عن حضارة لها جذورها وتراثها العظيم .

فاروق أباظة

محاولة لرسم خريطة للوطن

شعر: عبدالمنعم عواد يوسف



ولي وطنٌ أحاصرهُ ،
يحاصرني
يمد خطوطه في قلب خارطتي ،
فأرسمه ، ويرسمني ،
وأصبح قشة في نيله الدفاقِ ،
ترقص في يد الأمواج ،
رفةَ طائرٍ يلهو بقرب ضفافه ،
أنشودةً عذراء يعزفها على شبّابة الأحلام ،

فلاح خليُّ البالِ ، لم تعركه بعد رحا السنينَ الدُّهم ،
لم تصبغ مداخله بلون القار أيام الأسى الهوجاء ،
هأنذا ... أعاود رسم خارطتي
فترسمني ، وأرسمها ،
وأدخلها ، فتدخلني ،
وأصبح عندها خطا يصد جحافل الأعداء ،
يحضن مقدم الرفقاء ،
يفتح بابها للفجر ،
يدخل بالسنا ، بالنورِ ،
بالألق الأريجيِّ الذي يحيي موات النفسِ ،
يوقظ ما خبا بالرأسِ ،
يدعوني لهذا العرسِ ...

هأنذا ... وكل الفرح يدخلني ،
يفاجئني ،
بطلعة وجه إيزوريسَ ،
حين تجمعت أعضاؤه في حضن إيزيسٍ ،
وعاد لها ،
يعيد الخصبَ ،
يزرع روحه بالأرض ،
حورس هبَّ منتصباً بصدر أبيه ،
هأنذا ... وهذا البشر يغمرني ،
فيا وطني ،
أيا وطني الذي قد عاد خارطةً تمد خطوطها الخضراء
في قلبي
فتزرعني ، وأزرعها ،
وتحصدني ، وأحصدها ،
وواحدنا يصير الكلَّ ،
والكل الذى لولاه ماكانت مشيئتنا يكون الجزء ،
جزء الجزء ،
حباتِ التصافي الحلو ، تصبح لمعةً في العينِ ،
قطراتٍ من العرق السخي على جبينٍ لوحته الشمسُ ،
دفقاً من دمٍ ينساب ،
يدخل رسمَ خارطتي ،
فيصبح بعض أعضائي ،
وحين يضمني صدر التراب الرخوِ ،
تنبت ألف زاهرةٍ ، تنوّر كهف أحشائي ،
وهأنذا ...
أموت ، أموت ، لكني ،
سأبعث في أحبائي ..

ملف فكري هام

صراعنا الثقافي والحضاري مع الصهيونية

ليس الصراع بيننا وبين العدو الصهيونى صراعا عسكريا أو سياسيا فقط ، بل هو فى جانب عميق منه صراع ثقافى وأدبى وحضارى واسع ، وعلى صفحات هذا الملف الهام دراسة لهذا الجانب من جوانب الصراع الكبير ، ويجيب الملف على سؤالين هامين : الأول هو : كيف صَور الشاعر العربي المعاصر شخصية اليهودي ؟ والثانى هو : كيف صَور أدب الأطفال العبرى صورة العربي ، وكيف يرى هؤلاء الأطفال شخصية الانسان العربى ؟

... إن الكتاب اليهود يحاولون أن يبذروا فى قلوب أطفالهم بذور الكراهية للعرب منذ أن يفتح هؤلاء الأطفال أعينهم على الحياة .

وهذا الملف الهام يشارك فيه أديبان عربيان من ألمع أدباء الجيل الأدبى العربى الجديد فى فلسطين وهما : عز الدين المناصرة والدكتور فوزى الأسمر والمجال مفتوح فى الدوحة للحوار والمناقشة حول هذا الملف .



● كيف يصوّر الشاعر الفلسطيني شخصية اليهودي في الأرض المحتلة؟



● ..وكيف يصور اليهود الشخصية العربية في قصص الأطفال العبرية؟



ابراهيم طوقان — أبو سلمى — عبد الرحيم محمود





سميح القاسم — محمود درويش — فدوى طوقان

الكلمة سلاح .. والشعراء أيضا يقاتلون

صورة اليهودي في الشعر الفلسطيني المعاصر

بقلم : عز الدين المناصرة

... يدرس هذا البحث « حالة العداء » بين طرفين وانعكاسها البسيط فى الشعر الفلسطينى . وحالة العداء هذه متميزة فى طابعها ، بل هى حالة نادرة فى تاريخ العالم ، ففى عام ١٩٤٨ ، أقيمت « دولة » لم تكن موجودة من قبل ، على حساب شعب طرد من أرضه ، فنشأت « حالة العداء المتبادلة » لأسباب تاريخية وموضوعية لها ما يبررها .. إنها تختلف ــ فى طبيعتها ــ عن صورة الفرنسى فى الأدب المغربى ، بل وتختلف عن صورة الانجليزى فى الأدب الفلسطينى . ولنقل بوضوح أكثر : لقد أقام الاستعماران البريطاني القديم والأمريكى الحديث ، « دولة اسرائيل » ركيزة لهما فى الشرق العربى ، واستخدمت الحركة الصهيونية التى هى أداة التنفيذ ، كافة الوسائل لتحقيق ذلك سواء بالوسائل المسلحة أو الإيديولوجية أو حتى الأوهام الميتافيزيقية المضادة لحركة التاريخ . وقد كان اليهود يعيشون فى فلسطين كأقلية طائفية مطمئنة فى المجتمع الفلسطينى ، ففى عام ١٩١٤ ، بلغت نسبتهم سبعة فى المائة من مجموع سكان فلسطين العرب .

وهنا لا ندرس منطق العدالة الفلسطينية ولا منطق القوة الصهيونية ، بل ندرس « الصورة » كما وردت في الشعر . ونعني بالإنعكاس البسيط أننا ندرس المعنى . فلا يحتاج الأمر فى هذه الحالة إلى دراسة الانعكاس المعقد فى النص الشعرى الذى يتطلب دراسة بنية النص . لأن صورة اليهودى تتعلق بخارجية النص أكثر من « البنية العميقة » .

لقد نشأت صورة « اليهودى » فى ذهن « الفلسطيني » وتشكلت عبر مراحل تاريخية طويلة . فهى صورة سلبية عموماً . نشأت فى التاريخ القديم من روح العنصرية أو عقدة التعالى فى كتاب « التوراة » المحرف .وقد تحددت الصورة الأولى لليهودى كصورة كلاسيكية وأثرت على الوجدان الشعبى العام . إنها صورة « اليهودى التوراتى » بمعناه السلبي . فاليهودى ــ فى التوراة ــ يدمر ويحرق وينهب ويحب السيطرة بوسائل براجماتية وميكافيلية . وهو يشعر بالتفوق والاصطفاء . كذلك تبرز ضمن الصورة القديمة التاريخية لليهودى عقدة المضطهد الأبدى . وهذه الصورة تهدف باستمرار إلى استغلال الجانب العاطفى لدى شعوب العالم تجاه اليهودى (المضطهد) .. وتندمج ضمن هذه الصورة العامة . تفاصيل أخرى . ثم ولدت فى عصور متأخرة الصورة الكاريكاتورية لليهودى فى أوروبا . نعنى بها « الشخصية الشايلوكية »(١) التى قام وليم شيكسبير بتقديمها كنموذج . وقد كانت سائدة فى عصر شيكسبير ثم نمت بعد ذلك فى الآداب الأوروبية ، وهذه الصورة الكاريكاتورية ترتبط بالصورة التاريخية الأولى . ثم تشكل « الجيتو اليهودى » فى أوروبا تعبيراً عن التميز والشعور بالاضطهاد والتعالى . محاولا أن يجمع المتناقضات . والجيتو هو أول محاولة ــ باعتقادى ــ لتحويل معتقداتهم إلى عنصر من عناصر تتناقض مع القومية الأصلية . وخوفاً من انشقاقات الجيتو . أى بروز الجانب السلبي . تم تجميع الجوانب الايجابية فيه ؛ تلتها عملية تنظيم مقصودة من قبل دعاة الحركة الصهيونية الأوائل . ثم التقطوا اللحظة المناسبة . المتطابقة مع الاستعمار البريطاني لفلسطين ، والمتطابقة مع نمو اضطهاد اليهود فى أوروبا . والتى بلغت ذروتها فى الحرب العالمية الثانية . ولكنهم خلقوا أساطير حول عذابهم الأوروبى ؛ ليبرروا العذاب والاضطهاد الحقيقى الذى مارسوه ضد الشعب الفلسطيني . واستطاعوا وضع الثقافة الأوروبية فى موقف الشعور بالذنب تجاه المنفى اليهودى . وجروهم إلى مناقشات ميتافيزيقية تتعلق بأسطورة « أرض الميعاد » . لأن هذا النوع من المناقشات يجلب لهم عطفاً أوروبياً ، وهنا لعبت الأيديولوجية الصهيونية المسلحة دورها التنفيذى فى اقتلاع شعب من أرضه التى عاش فيها منذ الانسان الأول .

لقد أثبتت الحفريات المتعلقة بحضارة الأوغاريت الكنعانية ، أن كتاب التوراة مثلا بلغته العاطفية ــ وبصورته الراهنة ــ قد تأثر بالأدب الكنعاني الفلسطيني ، وأن « التوراة » جاءت بعد نصوص أوغاريت بحوالى خمسة عشر قرناً . ولكننا لن ندخل فى الجدل البيزنطي ، لأن الصهيونية بأيديولوجيتها العنصرية كانت تهدف إلى جرنا الى مثل هذا الجدل الميتافيزيقى . وتبقى الحقيقة وهى أنه لا يحق لأى كان طرد شعب من وطنه .

والغريب أن صورة العربى فى الشعر الصهيوني مطابقة تمام المطابقة للايديولوجية العنصرية ومتماثلة مع الفعل العنصري على أرض فلسطين ، فى حين نجد صورة اليهودى فى الشعر الفلسطيني أكثر اقتراباً من الحقيقة الواقعية ، أى من الانسانية . وحين ندرس صورة اليهودى فى ذهن العربى ــ الشاعر مثلا ــ ننطلق من تحديدات لابد منها وهى أن « اليهودى المعاصر » لا يحمل من الرؤية التوراتية سوى الجانب التدميرى منها . أي عقدة التعالى ، بحيث نستطيع أن نؤكد أن « اليهودى التوراتى » غير موجود على أرض الواقع . أما « الصهيوني » فهو صاحب الايديولوجية العنصرية المعروفة التى تشتمل على عناصر مادية أكثر . أما « الاسرائيلي » فهو اليهودى المرتبط بكيان ودولة تؤمن بالصهيونية وبالفعل العنصرى ، لأنه اقتلع شعباً من أرضه . قد يقال : إن هناك استثناءات . هذا صحيح ولكنها تبقى استثناءات « فردية » أو « جماعية صغيرة » . لا تؤثر فى تغيير الفعل العنصرى على أرض فلسطين . فى المنظور القريب . وقد تشكلت صورة اليهودى فى الذهنية العربية منطلقة من « صورة ذهنية بلاغية » . ثم « صورة إيديولوجية سياسية » . ثم الصورة « الواقعية » .

تشكلت لدى جزء من العرب صورة واقعية لليهودى الواقعى . لأنه مع تشكل هذه الصورة ، ولد الإحساس بالخطر الواقعى .

نماذج شعرية مختارة

لقد اخترنا نماذج من الشعر الفسطيني تختلف فى التجربة الشعرية زمنياً وفنياً وتتشابه أحياناً . فمثلا : ابراهيم طوقان : هو شاعر فلسطين الأول زمنياً وموضوعياً عاش فى الفترة ما بين ١٩٠٥ ــ ١٩٤١ وهو شاعر وطنى يتميز بنقده للواقع السياسي الفلسطيني آنذاك ورؤيته التحذيرية . وأبو سلمى : اشتهر قبل العام ١٩٤٨ وعاش فى فلسطين فترة الصراع الفلسطيني مع الصهيونية والاستعمار البريطانى . كذلك عبد الرحيم محمود وهو من نفس النمط ويضاف لذلك أنه حمل السلاح واستشهد فى معركة الشجرة عام ١٩٤٨ . وفدوى طوقان شاعرة من مدينة نابلس من الجزء المسمى بالضفة الغربية أو الجزء الباقي من فلسطين الذى احتلته « اسرائيل » عام ١٩٦٧ وقد اصطدمت بالشخصية الصهيونية بعد العام ١٩٦٧ . وسميح القاسم وهو يكتب الشعر ــ عملياً ــ منذ أوائل الستينات وهو من قرية « الرامة » فى الجليل وبقى فى فلسطين بعد تأسيس « دولة اسرائيل » ، أى يحمل جواز السفر الاسرائيلى وتطبق عليه كافة قوانين « الدولة الاسرائيلية » ، ماعدا حقوقه الانسانية المشروعة كمواطن فى أرضه . ومحمود درويش من قرية « البروة » فى فلسطين ١٩٤٨ ، وظل يطبق عليه القانون الاسرائيلى حتى عام خروجه من فلسطين المحتلة فى أول السبعينات . حيث غادر الى القاهرة أولا ثم انضم الى منظمة التحرير الفلسطينية حوالى العام ١٩٧٣ . وعز الدين المناصرة(٢) من مواليد قرية « بني نعيم ــ الخليل » وقد عاش فى الضفة الغربية ثمانية عشر عاماً حيث غادرها عام ١٩٦٤ وعاش فى مصر والأردن ولبنان وسوريا وبلغاريا وتونس والجزائر . وهو ينتمي للثورة الفلسطينية التى انطلقت فى منتصف الستينات .

ومن هنا فنحن أمام عينة أساسية مختارة فى الشعر الفلسطيني . تتميز بالتنوع فى التجربة .

ويرى البعض أنه يمكن أن نضيف للدراسة : توفيق زياد ــ راشد حسين ــ يوسف الخطيب ــ معين بسيسو ــ هارون هاشم رشيد ، لتكون الدراسة مكتملة . وهذا صحيح .

وحتى تتضح الصورة للقارىء نحدد جدول الأولويات للنماذج المختارة فى هذه الدراسة والمنشور على الصفحة التالية (جدول ١)

إن هذا الجدول يقول لنا ما يلى :

أولا: إن النماذج المختارة تنقسم الى فئتين من حيث العمر بينهما فاصل زمني واضح . أى أنهما يمثلان جيلين : جيل ما قبل ١٩٤٨ (طوقان ــ محمود ــ أبو سلمى ــ والى حد ما فدوى طوقان) وجيل أوائل الستينات شعرياً (القاسم ــ درويش ــ المناصرة) . هذا مع استمرارية أبى سلمى وفدوى طوقان بعد ١٩٤٨ فى الكتابة الشعرية .

ثانياً : يتوزعون على مساحة جغرافية واسعة من فلسطين من الجليل مروراً بطولكرم ونابلس حتى الخليل .

ثالثا : هناك اثنان عاشا فى فلسطين الموحدة حتى وفاتهما أو استشهادهما (طوقان ــ محمود) . وهناك اثنان عاشا فى ظل الدولة الاسرائيلية (درويش ــ القاسم) . وهناك اثنان عاشا فى الضفة الغربية تحت الحكم الأردني ١٩٥٠ ــ ١٩٦٧ : (فدوى طوقان ــ المناصرة) وهناك شاعر عاش أربعين سنة فى فلسطين الموحدة واثنتين وثلاثين سنة فى المنفى (أبو سلمى) . وهناك اثنان عاشا فى فلسطين والمنفى (درويش والمناصرة) أما الباقون حتى الآن فى فلسطين فهما . فدوى طوقان (الضفة الغربية) وسميح القاسم فى (فلسطين المحتلة) . إذن هناك ثلاثة عاشوا فى المنفى وهم (أبو سلمى ــ

درويش ــ المناصرة وهناك أربعة لم يعيشوا في المنفى (القاسم ــ فدوى طوقان ــ ابراهيم طوقان ــ عبد الرحيم محمود) أما الذين احتكوا مباشرة مع الشخصية الصهيونية فهم : القاسم ــ درويش ــ فدوى طوقان .

١ ــ ابراهيم طوقان (١٩٠٥ ــ ١٩٤١) .

ابراهيم طوقان هو شاعر فلسطين الأول بالمعنى المعاصر في القرن العشرين . فقد كتب معظم شعره في الفترة ما بين ١٩٢٧ ــ ١٩٤١ ، أي فترة الانتفاضات الشعبية الفلسطينية ضد الانتداب الانجليزي وتصاعد الهجرة اليهودية الأوروبية الى فلسطين . وقد اعتبر طوقان في شعره أن الاحتلال الانجليزي هو العدو الأول وأحياناً اعتبر الاحتلال الانجليزي والحركة الصهيونية هما عدو مشترك . وردت صورة اليهود في شعره في ١١ قصيدة تقريباً بصور مختلفة .

وعلى الصفحة المقابلة الجدول رقم (٢) الذي نقدم فيه عينة للألفاظ المستخدمة في وصف اليهود وكيفية استخدامها في الجملة الشعرية :

ونلاحظ من هذا الجدول ما يلي :

أولاً : الانجليز واليهود عدو مشترك ولا فصل بين الاستعمار البريطاني وبين اليهود . فالأول هو الذي جاء بالثاني . ولهذا فاليهودي تابع للمستعمر البريطاني .

ثانياً : يتساوى في المعنى الشعري اليهودي مع الصهيوني .

ثالثاً : هناك أوصاف سياسية لليهودي الصهيوني فهو « العدو ــ الخصم ــ » ــ « غاصبون » وهناك أوصاف أخلاقية نابعة من الفكرة الشكسبيرية والأفكار الشعبية عن اليهود : « ذئاب » ــ « صيارفة » « خداعون » ــ « أشعب » . بينما أطلقت صفة « المحتل » على الانجليز في الغالب . وتتخذ لفظة « صيارفة » معنى اجتماعياً ، إضافة لمعناها الأخلاقي .

رابعاً : ورود صورة اليهودي في شعر طوقان يتمحور حول معنى التحذير منه ودق ناقوس الخطر . والتحذير من اليهودي جاء بسبب اغتصابه للأرض وهجرته إليها .

خامساً : البناء الشعري يتخذ من الأسلوب الشائع للشعر الوطني منهجاً بنائياً له . مع خصوصية طوقان في مجال استخدام لغة الحياة اليومية وأسلوب السخرية التراجيدية .

٢ ــ أبو سلمى :

عندما نقرأ ديوان أبي سلمى ، نفاجأ بأن صورة اليهودي في شعره شبه معدومة أو غير موجودة بشكل واضح ، وحتى حين نلتقط بعض أبياته الشعرية فإنها ستظل تشكل صورة باهتة ، خذ مثلاً :

« وأذلهم وعد اليهود
ولا أذل من اليهود »

لقد كتب هذا البيت حوالي عام ١٩٣٦ ، أي إبان الثورة المسلحة والإضراب العام للفلسطينيين ، ومع هذا فهو يكرر ويؤكد صفة « الذل » عند اليهود وهي صفة ذهنية متوارثة وتقليدية ، ويكرر بعض الصفات البلاغية في وصف اليهود دون ذكرهم حرفياً مثل : « البغي والعدوان » ــ « الظلم » ــ « الوحش » وهي تدخل في باب التشبيهات القاموسية ولا تتجاوزها . هذا عن الصورة المباشرة . وحتى تكتمل الصورة ، لابد من القول أن أبا سلمى ركز على المعاني النقيضة ، أي بذور فكرة المقاومة . وقد دار شعر أبي سلمى حول المحاور التالية :

١ ــ في شعر « أبي سلمى » ، ميل فطري واضح لتأييد الحركة العمالية الفلسطينية آنذاك ، وهو موقف ذهني ووطني غير حزبي : بمعنى أنه لم يكن منتمياً للأحزاب الوطنية ولكنه كان يتعاطف معها .

٢ ــ هناك فكرة مركزية في شعره تدور حول الهجوم على السياسة العربية .

٣ ــ هناك مديح وتقدير للثورة الفلسطينية المسلحة عام ١٩٣٥ وما تلاها ، ممثلة في رثائه وتمجيده لأبطالها وشهدائها . خصوصاً « الحركة القسامية » التي قادها الشيخ عز الدين القسام .

٤ ــ يعتبر أبو سلمى ، أن العدو الرئيسي هو « بريطانيا العظمى » وهو بتركيزه على بريطانيا في شعره ، يريد القول أن الصهيونية مجرد تابع .

أما شعر أبي سلمى بعد هجرته عام ١٩٤٨ فقد تركز على المحاور التالية :

١ ــ الحنين الرومانتيكي الى فلسطين ، حيث نجد استنفارا لعناصر الطبيعة في شعره : « أنهارنا الذليلة ــ زيتوننا المجرح .. الخ » إضافة لرسم صور الأمكنة . و « المكان » له مكانة خاصة في شعر أبي سلمى بعد ١٩٤٨ فهو شاعر « الكرمل » وهو شاعر المدن والقرى الفلسطينية ، وهذا ناتج عن الإصرار على رفض الحدود والشتات . فالمكان ليس مجرد ذكرى شعرية : بل ان ذكره تعبير عن التواصل ورفض الانقطاع . صحيح أن ذكر المكان قد يصبح ــ أحياناً ــ أمراً لفظياً قاموسياً ، لكننا في هذا المجال نكتشف أن شعر أبي سلمى قد ساهم في ولادة شعر الأرض الشاملة فيما بعد .

٢ ــ هناك تركيز على نتائج فعل العدو : « التشرد ــ الحدود ــ بقايا أهلي ــ شظايا أهلي ــ كفر قاسم ــ السليب ــ الغريب ــ السجن ــ القتل ــ الخيام » .

وقد اهتم أبو سلمى بالمناسبات الوطنية الفلسطينية ليؤكد رفضه للعدو . ويمكنك معرفة شعر أبي سلمى من خلال قاموسه الشعري وخصوصاً « قاموس المكان » .

وبتلخيص أكثر نقول : إن النتيجة المفاجئة حول « صورة اليهودي » في شعر أبي سلمى ، هي صورة « باهتة وشبه معدومة » ، تعني هنا الصورة المباشرة ، بمعنى أنه يرفض حتى مجرد فكرة الحوار ــ من موقعه ، ولكننا نستنتج الصورة الكاملة حين نراه يمجد فكرة المقاومة التي هي نقيض لصورة العدو . ونستنتج أن أبا سلمى ــ ضمناً ــ ضد أي « سلام » مع « دولة اسرائيل » ، بل هو لا يعترف بوجودها حتى من باب الموقف السلبي منها ، لأن حديثه في شعره عن قدسية المكان في فلسطين ، يلغي وجود « اسرائيل » الاغتصاب الواقعي ، حتى كأنه لا يراها . وظل أبو



الشاعر	سنة الميلاد	مكان الميلاد في فلسطين	الفترة التي عاشها في فلسطين	ملاحظات
١ ــ ابراهيم طوقان	١٩٠٥	نابلس	١٩٠٥ ــ ١٩٤١	توفي في نابلس عام ١٩٤١
٢ ــ أبو سلمى	١٩٠٧	طولكرم	١٩٠٧ ــ ١٩٤٨	توفي في واشنطن عام ١٩٨٠ ودفن في دمشق
٣ ــ عبد الرحيم محمود	١٩١٣	عنبتا ــ طولكرم	١٩١٣ ــ ١٩٤٨	استشهد في قرية الشجرة ودفن في عنبتا
٤ ــ فدوى طوقان	١٩٢٠ تقريبا	نابلس	منذ ولادتها وحتى الآن	اقتربت من الشعر الثوري بعد عام ١٩٦٧
٥ ــ سميح القاسم	١٩٣٩	الزرقاء الأردن وعاش طفولته في فلسطين في قريته « الرامة » ــ الجليل	منذ طفولته حتى الآن	
٦ ــ محمود درويش	١٩٤١	البروة ــ الجليل	١٩٤١ ــ ١٩٧١	
٧ ــ عز الدين المناصرة	١٩٤٦	بني نعيم ــ الخليل	١٩٤٦ ــ ١٩٦٤	

جدول رقم (١) يحدد الأولويات للنماذج المختارة في هذه الدراسة

سلمى على هذا الموقف حتى آخر يوم في حياته . يقول في قصيدة كتبت في أوائل السبعينات ، أي في ظل الثورة الفلسطينية الجديدة :

ما لبني قومي يلوموننا
قالوا لنا : الواقع والممكن
يا ظالمي شعبي ألم تعلموا
إن العـدى ظلمهـم أهون

إنه يرفض « الواقع والممكن » أي الحلول المطروحة ، وهو ضد الذين يروجون لها . وهو من باب الغضب يشبه هؤلاء بالأعداء ، بل أقسى . إن أبا سلمى يلغي صورة العدو ولكنه يجهز أسلحته لمحوها ، بمعنى أنه يعترف ــ ضمنا ــ بوجود الصهيوني الواقعي ، وإلا فلمن يعد أسلحته ؟!!

٣ ــ عبد الرحيم محمود : (٣)

الغريب أيضا أن « صورة اليهود » في شعر عبد الرحيم محمود ، غير موجودة أصلا ، حتى كأنهم غير موجودين ، وإن كانت تتراءى الأشباح من خلال ألفاظ قاموسية مثل : « الأعادي ــ الاضطهاد ــ التعسف ــ ضاعت فلسطين ــ ضائع مهدور ــ ديجور » ، وهي أوصاف تعني كل شيء ، لكنها لا تحدد . وهي غير كافية لرسم صورة « اليهود » ، وحتى صورة « الأعادي » هي صورة عامة في شعره . لكننا يمكن أن نشير الى الصورة « الضمنية » ، بمعنى أن شعر عبد الرحيم محمود هو « شعر مقاومة » . فهو قد مجد أبطال الثورة قبل ١٩٤٨ .

والمسألة الأخرى ــ الضمنية ــ والدامية التى تؤكد أن اليهود اعداء يجب محاربتهم حتى الموت ، هي « استشهاد عبد الرحيم محمود نفسه » في معركة الشجرة عام ١٩٤٨ . إذن اليهودي هو العدو ، وصورته كعدو تستلزم النضال حتى الاستشهاد لسحق العدو كفعل هو أكبر من الفن .

فدوى طوقان : (٤)

عرفت فدوى طوقان كشاعرة في الأربعينات ، ولكنها اشتهرت في الخمسينات ، وشعرها يعبر عن أحاسيس أنثوية شرقية . ومع هذا فقد كتبت بعض القصائد الوطنية ذات النفس الرومانتيكي . وحتى عام ١٩٦٧ ، لم تظهر صورة « الصراع العربي ــ الاسرائيلي » في شعرها ، إلا بعض الاستثناءات التى تتحدث عن نتائج الفعل الصهيوني « اللجوء » مثلا ، ونجد ــ قبل ١٩٦٧ ــ بعض الصور المتناثرة مثل وصف اليهود بـ « العدو » أو بصفات ذهنية بلاغية مستمدة من الموروث الشعبي والثقافي الفلسطيني . فالعدو ، أي اليهودي هو « يوم غريب » ــ « غاصب » ــ « غريب الديار » ، « مرتبط بالحركة الصهيونية في أوروبا » ــ « يحلم بالتوسع الاستيطاني » . وقد قيل هذا شعراً بأسلوب رمزي يعتمد التشبيه البسيط القاموسي . وفي قصائد أخرى تتكرر الصورة : « يد البغي » الجانية » ــ « العدو اللئيم » ــ « المعتدي » ــ « الطغاة » ــ « البغاة المجرمون » وهي أوصاف أخلاقية عامة ، تقترب من دخولها ــ ولو لفظياً ــ في تحديد صورة العدو عملياً ، لكن العدو قد يعني الانجليز واليهود معاً أو أحدهما .

عز الدين المناصرة

ولديها قصيدة واحدة تطرح القضية مباشرة ، هي قصيدة « أردنية فلسطينية في انجلترا » في ديوانها « أمام الباب المغلق » .

« أنا من روابي القدس ... وطن السنا والشمس »
ــ يا ، يا ، عرفت .. إذن يهوديه
يا طعنة أهوت على كبدى
صماء وحشيه .

إن فدوى في هذه القصيدة تكتشف أن فلسطين هي ــ في وجدان الانجليزي ــ وطن « لليهود » من خلال الحوار في القصيدة .

ها هي فدوى تكتشف في النص أن تهويد فلسطين قد تم عملياً في « الوجدان الغربي » .

أما موقفها فهو موقف مضاد طبعاً : « يا طعنة أهوت على كبدى » ، انها ضد تهويد المكان والبشر . هذه هي الصورة التقليدية للصراع العربي الاسرائيلي ، لكن قصيدة « فلسطينية في انجلترا » تعتبر نقطة جديدة في وعيها للصدام .

أما بعد عام ١٩٦٧ فالأمر يختلف ، حيث تخرج فدوى من شرنقتها الأنثوية الذاتية ، وتتلاشى الصورة الذهنية اللفظية لليهودي ــ الصهيوني ، لتتحول إلى وصف الصهيونية « كاحتلال استيطاني مرئى » . وقد ساهم في تشكيل هذه الصورة عندها « احتلال » الضفة الغربية وغزة » عام ١٩٦٧ ، حيث تعيش في نابلس . وقد كان ديوانها « الليل والفرسان » الصادر بعد عام ١٩٦٧ ، فاتحة قصائد ذات منحى جديد بالنسبة لشعرها السابق . وفي شعرها هذا نجد الصور التالية :

• استمرارية وصف الاحتلال الصهيوني بأوصاف أخلاقية بلاغية ، فالاحتلال هو « الطاعون » « الأفاعي » ــ « الإعصار الهمجي » ــ « الشيطان » ــ « السارق » ــ « السجان » ــ « التترى » ــ تشويه البراءة » ــ « الحدود والسجون » ــ « دودة العلق » ــ ناهب الأرض » ــ « ناسف البيوت » ــ « الزنزانة ــ السلاسل ــ الجند » .. الخ .

القصيدة	الوصف	طريقة استخدامها الشعري	ملاحظات
١ ــ الثلاثاء الحمراء	أعداء البلاد	أنذرت أعداء البلاد بشر يوم مستطير	الصهيونية والاحتلال البريطاني
٢ ــ تفاؤل وأمل	الذئاب	وانظر بعينيك الذئاب تعب من أحواضها	الصهيونية والاحتلال البريطاني
	الاثيم المتعدي	صحت عزائمكم على دفع الأثيم المعتدى	الصهيونية والاحتلال البريطاني
٣ ــ إلى بائعي البلاد	١ ــ أعدائهم	باعوا البلاد إلى أعدائهم طمعاً بالمال لكنما أوطانهم باعوا	الصهيونية
	٢ ــ أعداؤنا سيارقة	أعداؤنا منذ أن كانوا صيارفة	الصهيونية
	٣ ــ اليهود	... بل رجعت الى اليهود بكم قربى وأشباع	اليهود
	٤ ــ الخصم خداع	يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة	اليهود
		ولا تعلمت أن الخصم خداع	
٤ ــ فلسطين مهد الشقاء	الغاصبين	منذ احتلال الغاصبين ونحن نبحثه في السياسة	الانجليز
٥ ــ الفدائي	خصوما	وخصوماً ببغيهم ضجت الأرض والسما	اليهود
٦ ــ حطين	أثعبان	في مصر يطمع أشعب ... وهنا تبدى أثعبان	اليهود والانجليز
٧ ــ أيها الأقوياء	وعد بلفور	وخجلنا من لطفكم يوم قلتم وعد بلفور نافذ لا محالة	اليهود والانجليز
٨ ــ ١٠٠٠	الهجرة اليهودية	أرى عدداً في الشؤم (حتى نهاية القصيدة)	اليهود والانجليز
٩ ــ ياقوم	عدوكم	يا قوم ليس عدوكم ممن يلين ويرحم	اليهود والانجليز
١٠ ــ زيادة الطين	احتلال	منذ احتلالكم وشؤم العيش يرهقنا	الانجليز
	الهجرة اليهودية	يغشكم قد طغى طوفان « هجرتهم »	الانجليز واليهود
١١ ــ مناهج	خصمان	لنا خصمان ذو حول وطول وآخر ذو احتيال واقتناص	الانجليز واليهود

جدول رقم (٢) يقدم عينة للألفاظ المستخدمة في وصف اليهود وكيفية استخدامها في الجملة الشعرية



معين بسيسو



هارون هاشم رشيد

« وتقول فدوى في شعرها ان هذا الاحتلال يضطهد الشعب الفلسطيني وأنه يزعم السلام وأن الاضطهاد يقع على « المسلم والمسيحى الفلسطيني » .

« تظهر فدوى طوقان » الصورة المناقضة للاحتلال وهي صورة المقاومة الفلسطينية .

وهكذا بدأت بالظهور صورة « اليهودى الصهيوني الاسرائيلى » الواقعي بديلا عن صورة « اليهودى الذهنى » :

ويدوى صوت جندى هجين
لطمة تهوى على وجه الزحام :
عرب ، فوضى ، كلاب
إرجعوا ، لا تقربوا الحاجز ، عودوا يا كلاب

هذه هى الصورة الواقعية العملية للاسرائيلى ، لم تكن موجودة فى شعر فدوى . وهنا نغض النظر عن تقويم النص ــ إبداعياً ، ونكتفى بالمادة الشعرية الخام التى استخدمتها ، فهى ترى أن الجندى الاسرائيلى . هو جندى « هجين » ، إشارة إلى اختلاط العبرية وغيرها فى لغته وإلى المعنى البعيد وهو هجرة اليهود من مواطنهم الأصلية المتعددة إلى فلسطين . وكلمة « هجين » لها مدلول أخلاقى فى الوجدان الشعبى . وهى أيضا صورة المحتل لأرض الغير والمتغطرس المتعالى ، وهذه سمات عامة لأى محتل . ولكن الصورة وإن استخدمت أسلوب البلاغة الشعبية السائدة إلا أنها اقتربت من الصورة العملية لليهودى الصهيونى الاسرائيلى الواقعى المرتبط بدولة من نفس النمط . وهنا لا نفرق بين الأوصاف الثلاثة ، لأن الجندى هو يهودى بالفعل وصهيوني بالعقيدة واسرائيلى بارتباطه بكيان .

ويبقى أن نقرأ لفدوى طوقان من شعرها ، قصيدتها « إيتان فى الشبكة الفولاذية » التى هوجمت من قبل بعض النقاد فى جانبها الفكرى ، حيث قيل إن القصيدة « تعترف » بالدولة الصهيونية ، ولهذا سنقرأ القصيدة لنكشف عناصرها ، وهل حدث تحول لصورة « الصهيونى » فى ذهن فدوى طوقان أو لا ؟ تقول فدوى فى مقدمتها النثرية للقصيدة « ذات صباح سأل طفل من أطفال الروضة فى كيبوتس معوز حايين : كم يوماً يتوجب علينا أن نحافظ على الوطن » ؟؟ !

أعتقد أن استخدام فدوى لبطلها « طفلاً يهودياً بريئاً » اعتبر ليس فى مكانه ، كما ان استخدامها لكلمة « الوطن » أضاف دهشة أخرى ، لأن « الوطن » يصبح هو « وطن الطفل اليهودى : فلسطين » لدى القارىء العربى . أما النص الشعرى وهو الأهم ، فإنه يصف طفلا يهوديا يرمز لمستقبل الدولة الاسرائيلية وهذا الطفل يعيش فى « شبكة فولاذية » وهي رمز بقاء اسرائيل بالقوة المسلحة وعيشها عيشا اصطناعياً بالقوة المسلحة وخرافة النجمة رمز المعتقدات اليهودية .

والشاعرة تقول للطفل اليهودى : إن حياتك كذبة كبرى فلا تخدع بهذه القوة الفولاذية . لأن موتها أمر أكيد ، ولهذا فالشاعرة تشفق على البراءة من تشويهها . هذه هى عصارة القصيدة : إذن لماذا الضجة الصحفية العربية حول القصيدة ؟؟

إن الضجة تنبع ــ باعتقادى ــ من كون القصيدة تعترف بوجود « اليهودى البرىء » كوجود واقعي ولمجرد الحديث عن هذا الوجود . ولأنها تعترف بلغة « الحوار مع الواقع » أو مع اليهودى الواقعى . وهذه الصورة تخالف الصورة الذهنية الميتافيزيقية لليهودى الصهيوني المرسومة فى الذهن العربى قبل ١٩٦٧ . أى أن العربى قبل ١٩٦٧ كان يرفض مجرد التفكير فى رسم صورة اليهودى حتى لمجرد رسم الصورة العملية ، ولهذا اكتفى الذهن العربى قبل ١٩٦٧ برسم الصورة البلاغية المعتمدة على الشعارات : « شذاذ الآفاق ــ الدويلة المسخ » .

ولو حذفنا اسم « إيتان » من عنوان القصيدة واستبدلناه باسم آخر ولو حذفنا المقدمة النثرية ولو غيرت شخصية الطفل إلى شخصية يهودية عادية : لظل الأمر عاديا ، لكن استخدامها لشخصية الطفل اليهودي هو الذى أثار الشكوك حول القصيدة من حيث مغزاها الفكرى ، لأن الطفل البرىء سيصبح جنديا مقاتلا كما هو فى واقع الصراع العربى الاسرائيلى . إذن فإن قصيدة فدوى هذه تمثل علامة بارزة فى شعر فدوى لأنها ترى ــ عمليا ــ اليهودى العملى ، ولغة « الحوار مع الواقع » من موقع المختلف ، جديدة على الفكر العربى ، لأن مجرد « المحاورة » كانت مرفوضة حتى لو انطلقت من موقف تناحري .

٥ ــ سميح القاسم :

يقول سميح القاسم فى إحدى قصائده : « وبكينا .. يوم غنى الآخرون » . إن هذه الجملة الشعرية تلخص ما حدث فى الواقع يوم إقامة « دولة اسرائيل » عام ١٩٤٨ . لأن إقامة « دولة جديدة » تم على حساب « شعب اقتلع » . وصورة اليهودى الصهيوني فى شعر سميح القاسم هى الصورة العملية الواقعية للصراع . أى أن القاسم توجه مباشرة الى مخاطبة ما يظن أنه « اليهودى الواقعى الشريف الواعى » ــ إشارة إلى قلة من اليهود يتفهمون الموقف العربي ــ ، ويتعامل معه ايجابيا . وقصيدته « أخوة » مثال لذلك وهو يخاطب الصهيونى :

« وإن قام من بين أهلك واع ، يبرئني .. تزدريه بقسوة » .

وسميح القاسم يعترف بشعار « الأخوة ــ العربية اليهودية » (٥) وهو لا يرفض السلام الحقيقى . هذا ما تقوله نصوصه الشعرية . والقاسم يطالب بالحرية والمساواة فى الحقوق ، ويمكن تلخيص صور « اليهودى واليهودى الصهيونى » فى شعر سميح بما يلى :

« اليهودى الصهيونى يمارس اضطهاداً يومياً مباشراً ضد الفلسطيني : (أنظر قصائد : « أخوة ــ كرمئيل ــ من وراء القضبان ــ رسالة من المعتقل) ويصف سميح القاسم فى شعره السجون وإقامة المستعمرات على أرض الغير . ولهذا فهو يطالب بالحرية .

« يرى أن الصهيوني ضد السلام الحقيقى . وهذا معناه أن القاسم لا يرفض الحوار (قصيدة السلام) :

« ويرى أن الصهيوني ضد يهوديته (يا طفلا يقتل يعقوبه) ــ (قصيدة مزامير) . ومعنى هذا أن الشاعر ضد صهيونية اليهودى وليس ضد يهوديته .

« ويرى أن الصهيوني مرتبط بالنازية والاستعمار .

« ويرى أن اليهودى كان « مظلوماً » : ذبح النازية لليهود فى أوروبا ، فأصبح ظالماً : (قصيدة

إلى إيفتوشنكو) .

هكذا نرى أن سميح القاسم يعترف بضرورة رسم صورة واقعية لليهودى واليهودى الصهيوني من موقع المختلف ، بل هو ـ عملياً ـ يحاور هذه الشخصية ويرى أن الصورة الأخرى ـ « اليهودى الطيب » باهتة وضعيفة بالرغم من انه يعترف بوجودها . وهو يعترف بضرورة التعايش السلمى لكنه يرى أنها ـ فى الواقع ـ غير ممكنة بسبب عدم الاعتراف بالفلسطيني من قبل « الآخر » . وهذه مقولات ايدلوجية نبعت من مصدرين :

أولا : رؤيته اليومية كعضو فى المجموعة العربية التى تعيش على أرضها ضمن القانون الاسرائيلى المفروض عليها وضمن « الاضطهاد الأخوى » اليومى .

ثانياً : انتماؤه إلى الفكر السياسى الذى يعترف بدولة اسرائيل قانونياً ولكنه فى نفس الوقت يطالب بدولة فلسطينية للشعب الفلسطيني على أرضه إلى جوار دولة اسرائيل ويطالب بعودة الحقوق المشروعة .

ثالثاً : ايمانه بفكرة المقاومة بأشكالها المختلفة ولهذا فهو يمجدها فى شعره .

لقد طرح مصطلح « شعراء المقاومة الفلسطينية » فى منتصف الستينات من قبل بعض النقاد العرب . لكنهم وقعوا فى خطأ واضح وهو أنهم لم يطبقوا عملياً المصطلح على الفرع الآخر والأساسى لشعر المقاومة وهو « شعراء الثورة الفلسطينية » أى الذين آمنوا بالكفاح المسلح أسلوباً أساسياً ولم يرفضوا الأساليب الأخرى فى النضال : « معين بسيسو ـ عز الدين المناصرة ـ .. الخ » . كذلك انتموا إلى الجناح المتقدم من فكر الثورة الفلسطينية . إذن : لماذا إلغاؤهم من مصطلح « شعراء المقاومة » . ولماذ اقتصر المصطلح على شعراء الأرض المحتلة ؟(٦) ثم حدث تشكيك فى مصطلح المقاومة الشعرية نفسه . فقد قال غالي شكرى ـ بما معناه ـ ان شعراء المقاومة الفلسطينية وهو يعني : (محمود دوريش ـ سميح القاسم ـ توفيق زياد) ، قال إن هؤلاء ليسوا شعراء مقاومة ، بل شعراء « معارضة » لأنهم يعترفون بوجود « اسرائيل » كدولة ، وأنهم « يقاومونها » من موقع المعارضة ضمن النظام الواحد . طبعاً أعتقد ان هذا يشكل ظلماً لهؤلاء الشعراء : أولا : لأن وضعهم « القانوني الاسرائيلى » مفروض عليهم ولم يختاروه ، ثم هم عبروا عن مقاومتهم بأساليب متعددة ، وإن كانوا لم يمارسوا الكفاح المسلح .

إذن أريد القول : ان مصطلح « شعراء المقاومة » لابد أن يعاد فيه النظر انطلاقاً من المبادىء والمواثيق والظروف الخاصة للشعب الفلسطيني وانطلاقاً من تعريف وسائل المقاومة بالسلاح أساساً وبالوسائل الأخرى . ولابد من إعادة الاعتبار لشعراء الثورة الفلسطينية كشعراء مقاومة . وأعتقد أن ما حدث من خطأ نبع أساساً من ظروف وأسباب تاريخية تتعلق بتلك « الصدفة التاريخية عام ١٩٦٦ حين « اكتشف » شعر الأرض المحتلة « فجأة » . ثم من قال ان شعراء الأرض المحتلة هم الذين يقيمون فى الأرض المحتلة فقط ، هل معنى ذلك ان محمود درويش لم يعد من شعراء الأرض المحتلة لمجرد خروجه منها عام ١٩٧٢ ، أو عز الدين المناصرة لخروجه منها عام ١٩٦٤ ومعين بسيسو لخروجه منها عام ١٩٦٧ أو حتى الشعراء الذين فى المنفى . إن الإنتماء للأرض المحتلة هو الذى يحدد مصطلح « شعر الأرض المحتلة » ، لأننا ضد تجزيء حركة الشعر الفلسطيني المقاوم(٧) .

٦ ـ محمود درويش (٨) :

محمود درويش ، هو أحد شعراء الأرض المحتلة . ولد فى « البروة » فى الأرض التى أقيمت عليها « اسرائيل » . أنهى دراسته الثانوية وعمل صحفياً . ومحمود درويش من مواليد عام ١٩٤١ سافر الى الخارج ثم الى القاهرة حيث بقى فيها حتى عام ١٩٧٣ . ثم غادرها إلى بيروت حيث عمل فى مجلة « شؤون فلسطينية » ، ثم رئيساً لتحرير مجلة « الكرمل » التى مازال رئيساً لتحريرها . اعتقلته السلطات الاسرائيلية عدة مرات بسبب نضاله أثناء وجوده فى الأرض المحتلة ، يعيش حالياً فى باريس . الآن هو تربى فى نفس البيئة السياسية التى تربى فيها سميح القاسم وتوفيق زياد . ودرويش يعتبر ديوانه « أوراق الزيتون » الصادر عام ١٩٦٤ هو ديوانه الأول وفى هذا الديوان تظهر صورة « الصهيوني » تحت أوصاف تقليدية ذهنية مثل كل الشعراء الفلسطينيين : « عدوى » ـ « طاغيتى » ـ ونيرون روما ـ « بنات آوى » .. الخ .

كذلك يظهر فعل الاضطهاد اليومى (الذى هو صورة الآخر ـ الصهيونى) كما فى قصيدته : « عن إنسان » و « بطاقة هوية » وفى بطاقة هوية تظهر صورة العذاب اليومى للفلاح العربى فى ظل القوانين الاسرائيلية . وبطبيعة الحال فهناك مقابل الاضطهاد الصهيوني ، توجد روح المقاومة . وتظل صور الاضطهاد اليومى أو صورة الصهيونى ، صورة تقليدية ذهنية لا تختلف عن الصورة السائدة وفى ديوانه « عاشق من فلسطين » الصادر عام ١٩٦٦ والذى نعتبره البداية الأقوى فنياً فى شعره نجد نفس التكرار لأوصاف الصهيوني : « وحوش الغاب ـ عاصفة وحطاب ـ خيول الروم ـ بيضة الأفعى ـ طغاة ـ النذل » ، ورغم وجودها فى بنية النصوص فى تشكيل شعرى ناجح إلا أن الصفات القاموسية تظل صفات ذهنية . وفى قصيدته « قال المغنى » تتكرر نفس صور الاضطهاد : حتى تتشابه تشابها كاملا مع قصيدته « عن إنسان » حيث يكرر تفاصيل الاضطهاد المشتقة من صورة السجن ، وتجد نفس الألفاظ : « نباح وحش ـ الجلاد ـ الشياطين » . ولعل أهم قصائد الديوان هى قصيدة « نشيد الرجال » . يقول درويش : « .. ويشتمنا أعادينا : هلا .. همج هم .. عرب ـ ص ٢٤٥ » وهى صورة خارجية للجندى الاسرائيلى . حيث لا تختلف عن قول فدوى طوقان : « عرب ، فوضى ، كلاب »

وفى نفس القصيدة يصف الشاعر ـ الضحية :

ـ ألو ... أريد يسوع
ـ نعم .. من أنت ؟
ـ أنا أحكي من « اسرائيل »
وفى قدمى مسامير .. واكليل
من الأشواك أحمله
فأى سبيل ... الخ

إن ظهور صورة « الضحية » فى الشعر الفلسطيني . يجعل القارىء يتصور ـ ضمناً ـ صورة الجلاد . وهو فى هذه الحالة « الصهيوني » ، إن السؤال الذى طرحه النقاد هو : لماذا صورة الصهيونى أكثر وضوحاً فى شعر الأرض المحتلة منه فى شعر شعراء الثورة الفلسطينية خارج الأرض المحتلة ؟

والسؤال الآخر هو : لماذا صورة العرب بعموميتها ايجابية فى شعر الأرض المحتلة ، فى حين نجدها سلبية فى شعر شعراء الثورة الفلسطينية فى المنفى ؟ . والإجابة واضحة وهى أن الشاعر المقيم فى الأرض المحتلة يرى الصهيوني كل يوم وبالتالى فإن صورة الصهيونى هى صورة واقعية فى حين أن صورة الصهيوني فى شعر الثورة الفلسطينية هى صورة ذهنية . رغم المعاناة الواحدة فى النتائج على الأقل . فى حين يعانى شاعر الثورة من اضطهاد آخر ضد الفلسطيني وهو يراه أكثر وضوحاً من زميله فى الداخل . ثم لأن العدو الأساسى لشاعر الداخل هو العدو الذى يراه وهو الحلقة المركزية بالنسبة له ولهذا نرى صورة العرب عمومية وايجابية . على أى حال : تظل صورة الصهيوني فى شعر درويش صورة تقليدية ذهنية وهذا له علاقة بالأدوات الفنية فى المرحلة الأولى من شعره كما فى ديوانيه السابقين .

لكن صورة الصهيوني تبدو واضحة وضوحاً فنياً اعتباراً من ديوانه « آخر الليل » الصادر عام ١٩٦٧ ، وخصوصاً فى قصائده : « ريتا والبندقية » . والجملة الشعرية المركزة فى هذه القصيدة : « بين ريتا وعيونى بندقية » تلخيص لعلاقة العربى باليهودى ، فالشاعر كانسان يحب « ريتا ـ اليهودية » ، لكن البندقية الاسرائيلية تكون عائقاً أمام هذا الحب . أما قصيدته « جندى

يحلم بالزنابق البيضاء » . فقد أثارت حواراً شبيهاً بالحوار العربى الذى جرى حول قصيدة فدوى طوقان « ايتان فى الشبكة الفولاذية » . لقد قيل : إن محمود درويش يتعاطف مع الجندى الاسرائيلى ويشفق عليه ويصوره إنساناً عميق الإحساس ، عميق الأزمة . لكن هذا القول يظلم القصيدة لأنه يجتزىء هذا الجانب دون ان يربطه ببقية الصورة للجندى الاسرائيلى . أعتقد ان القصيدة تتحدث عن « أزمة الجندى النفسية » فهو يشعر أنه مزروع فى غير أرضه الأصلية(٩) وفى قصيدة « ازهار الدم » عن مذبحة كفر قاسم . تعود الصور الذهنية مرة أخرى : « ضربة الجلاد ـ الطغاة .. الخ » .

إلا أن بيتين يقدمان الصهيوني من الناحية الابداعية :

« وأهنىء الجلاد منتصراً على عين كحيله
مرحى لفاتح قرية .. مرحى لسفاح الطفوله »
كذلك فى قصيدة « الأغنية والسلطان » . هكذا

نرى أن أوصاف اليهودى والصهيوني فى شعر درويش خلال وجوده فى الأرض المحتلة أى حتى عام ١٩٧١ . هى صور ذهنية تقليدية قاموسية إذا تم اقتلاعها بمفردها من النص الشعرى . ولكنها صور حيوية حين تدرس بناء القصيدة العام خصوصاً فى ديوانه « آخر الليل » .

٧ ـ عز الدين المناصرة : (١٠)

سأحاول أن أرسم صورة اليهودى والصهيونى : كما وردت فى مجموعاتي الشعرية المنشورة دون تدخل مني فى التفسير ، أي سأكتفي بالإشارة إلى النصوص وتصنيفها . تاركاً التوضيح للنقاد . ولدت فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٦ فى قرية « بني نعيم ـ الخليل » التى احتلها الاسرائيليون عام ١٩٦٧ . وعشت فى القرية والمدينة ثمانية عشر عاماً قبل الاحتلال ، غادرت فلسطين إلى القاهرة للدراسة فى جامعتها عام ١٩٦٤ . وفى عام ١٩٦٧ . رفضت سلطات الاحتلال عودتي ضمن قانون « لم الشمل » تحت إدعاء انني لم أكن موجوداً أثناء الاحتلال . وقد عاودت الكرة فيما بعد . الا أن انتمائي للثورة الفلسطينية أصبح علنيا . وباءت كل المحاولات التى قامت بها عائلتى بالفشل ومازال والدى ووالدتي وأخوتي يعيشون فى الأرض المحتلة . أنهيت دراستي الجامعية بالحصول على الليسانس فى اللغة العربية والعلوم الإسلامية من (كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة) عام ١٩٦٨ . واكملت دراستي العليا فيما بعد ، حيث حصلت على درجة الدكتوراه فى الآداب من جامعة صوفيا فى بلغاريا . وعملت فى أجهزة الثورة : نائباً لرئيس تحرير مجلة « فلسطين الثورة » الناطقة بلسان المنظمة فى بيروت ومسؤولا للنشر فى الاعلام ومديراً لمدرسة أطفال تل الزعتر وعضواً فى القيادة العسكرية الفلسطينية لجبهة الشياح فى بيروت خلال حرب السنتين . وسكرتيراً لتحرير مجلة « شؤون فلسطينية » الصادرة عن مركز الأبحاث الفلسطيني . وعشت حصار بيروت وكنت سكرتير تحرير جريدة « المعركة » التى صدرت فى بيروت خلال الحصار .

فى ديواني الأول « ياعنب الخليل » الصادر عام ١٩٦٨ ، ترد صورة الصهيوني على الشكل التالى : فى قصيدة « ملاحظات قبل الرحيل » ، ترد صورة الرقابة الاسرائيلية على رسائل الفلسطينيين الى الخارج :

نسيت أن كل حرف فى الكتابه
قد صممته هيئة الصليب والرقابه
بداية ، نهاية ، مكرره
يا حزن قد ذوبتني ، رميتني للعتبات المقفره

وترد فى نفس القصيدة صورة الجنود الصهاينة على الجسر الفاصل بين الأردن وفلسطين :

قد أثلجت دنياك فى ليل العبيد
مازاد من دمعي
مروا مع الليل البهيم وأطفأوا شمعي
لا تقطعي النهر المقدس للأماني والوعود
فهناك فوق الجسر جند سود
لا ترحلي .. لا ترحلي
مسدودة كل الجهات
النيل يبكي والفرات ... الخ

وفى قصيدة « يا عنب الخليل » :

سمعتك عبر ليل الحزن أغنية خليليه
يرددها الصغار وأنت مرخاة الضفائر
أنت دامية الجبين
ومرمرنا الزمان المر يا حبى
يعز على أن ألقاك مسبيه
سمعتك عبر ليل الصيف أغنية خليليه
تقول : تقول : يا عنب الخليل الحر .. لا تثمر
وإن أثمرت .. كن سما على الأعداء .. كن علقم .

كذلك ترد الصورة التالية فى قصيدة « زرقاء اليمامة » :

نسينا أن عين الحلوة الزرقاء مخلوعه
وأن الراية الأخرى على الأسوار مرفوعه

وفى قصيدة « ناطوران » :

يأتيك والرمان منتصب النهود
وعلى سلالم بيتنا رقص اليهود

وفى قصيدة « قال أحد الكنعانيين » :

سأشق الجيب . سألطم لو غرزوا فى الرمل الأعلام
لو أكلوا خبز الأيتام
لو سرقوا أشعارك يا حبى .

أما ديوان « قمر جرش كان حزينا » . ففى القصيدة التى تحمل نفس العنوان :

يا هلي ـ يزحف الرمل نحو المدينة يأكل منا العظام
يا هلي ـ يا اخضرار الحقول التى لا تنام
يا هلي ـ إنهم يقطعون السهوب هنا يقطعون الشفاه
يا هلي ـ قد دفنا أحباءنا وعبرنا المياه
غير أن الجنود
يا هلي ـ فتشوا فى المقابر عن جثث الشهداء

وفى نفس القصيدة :

يوماً .. ما
ترمى حجراً فى عين الغربة والأعداء
وترد الخيل الجامحة الصفراء

وفى قصيدة « رسائل متبادلة بيني وبين الموت » . عن استشهاد المناضل الفلسطيني وائل زعيتر فى روما الذى اغتاله الموساد الاسرائيلي :

اسمع وقع خطاهم حول نوافيرك يا روما الميتة الأعضاء
ياروما الشلل ويا روما النوم ويا روما الصمت
جاءوك مساء ورأوا فى عينيك البحر
حينئذ عرفوك
ورأوا فوق سريرك جملا مكتوبه
عن وطن يطلب منك الثار
ورأوا أصحابك فى المنفى
يحمل كل منهم غربته وصليبه .

كذلك هناك صور متفرقة فى قصائد مختلفة مثل « اعتذار الى المدينة الزرقاء » و « نقبل التعازى فى أى منفى » فى ديوان « قمر جرش .....» .

وفى ديوان « جفرا » . ترد صورة فعل العدو فى قصائد : « نشيد الكنعانيات » .

ـ « كيف رقصت أم علي النصراوية » ـ « وهل بقي فى المدينة حدائق أيها السيد؟ » :

عمي صباحا يا عصافير الخليل
ورفرف على الصخور الجبليه
ناصب الفخاخ فى المنفى
والإسرائيليون « رحماء »
لا ينصبون الفخاخ
لأنهم يحبون الصيد بالوسائل الحديثة .

كذلك نجد صورة « الصهيوني ـ اليهودي ـ الاسرائيلي » ممتزجة فى قصائد أخرى من ديوان « جفرا » مثل قصائد : « آ .. وي .. ها » ـ « لا تغازلوا الأشجار حتى تعود » ـ « جفرا زارتني فى صوفيا وعادت إلى قبرها فى بيروت » ـ « تبدأ الحرب أو تنتهي » ـ « غافلتك وشربت كأس الخليل » ـ « جفرا أرسلت لي دالية .. وحجارة كريمة » .

أما ديوان « الكنعانياذا » . فنجد صورة « اليهودى التوراتى » فى قصيدة « الغزال الأبيض

الصغير ، ونجد كذلك صورة اليهودى الصهيوني في قصائد : « مريام الشمالية » و « .. في حفل عائلي بهيج » و « ضع نبيذاً في الجرار » ــ « سراويل » ــ « يدو بحريون » ــ « يمامة الشعوب » ــ « أبو النحل النباطي » ــ « تاريخ الزجاجة » ــ « أسراب الكنعانيات » ــ « أظافر أعدائك استطالت » ــ حجر الفلاسفة » ــ « الناصري » .

وتظهر كذلك صورة اليهودى الصهيوني في ديواني : « الخروج من البحر الميت » و « لن يفهمني أحد غير الزيتون » .

استنتاج :

مرت صورة اليهودي الصهيوني بمراحل متعددة في الشعر الفلسطيني، ويطغى على هذه الصورة الوصف البلاغي الذهني المتوارث في الخيال الشعبى عن اليهودى الذى يرد عادة بوصفه عدواً . هذا قبل ١٩٦٧، أما بعد ظهور الثورة الفلسطينية عام ١٩٦٥ وبعد نكبة أو كارثة ١٩٦٧ . فقد تطورت صورة اليهودى الصهيوني في الشعر الفلسطيني نحو فهم أفضل للصهيوني وظهرت صورة اليهودى كصورة عملية واقعية . ونجد : « القاسم ــ درويش ــ زياد » يفرقون بين اليهودى والصهيوني : كذلك فدوى طوقان وهذا نابع من رؤية الشعراء الفكرية ومن رؤية فدوى طوقان للصهيوني الواقعى بعد احتلال ١٩٦٧ . وأعتقد أن معين بسيسو وعز الدين المناصرة يدوران في نفس المسار مع بعض الاختلافات . وجميع هؤلاء مجدوا المقاومة كنقيض للصهيونى (١١) .

في حين نجد « أبا سلمى » و « عبد الرحيم محمود » لا يرسمان صورة اليهودى الصهيوني ، بل تكاد تكون الصورة باهتة في شعرهم . أما ابراهيم طوقان فقد وردت صورة اليهود ممتزجة بصورة الانجليز . والوصف الشعرى لهم عنده وصف بلاغي تراثي ذهني . ويبقى أيضاً . أنه لابد من التحذير من خطر تسرب « الاسرائيليات » إلى وجدان الشعراء الفلسطينيين تحت دعاوى مختلفة . كذلك نستنتج أن الشعر الفلسطينى منذ منتصف الستينات بدأ يفرق بين اليهودى والصهيوني (١٢) لكنه لم يستطع تعريف الاسرائيلى هل هو مجرد يهودى أم هو صهيوني بالكامل !! . وبتقديرى أن الصراع الفلسطيني ــ الاسرائيلى سيستمر حتى لو تم تخديره لفترة من الزمن . لأن الحل العادل والشامل لا يتم إلا بين طرفين قويين ولن يتم الحل العادل والشامل بوجود طرف قوى وطرف ضعيف .

والاستنتاج الأهم هو أن الشعر الفلسطيني ــ كما في النصوص ــ كان إنسانياً في رسمه لصورة اليهود ، بينما نجد النقيض في رسم صورة العربى في الأدب الصهيوني .

عز الدين المناصرة

١ ــ مسرحية « تاجر البندقية The Merchant of Venice » لوليم شيكسبير ، ممنوعة من دخول « الأرض المحتلة » وممنوعة في الدراسات الأكاديمية في الجامعات الاسرائيلية .

٢ ــ ألقى هذا البحث في « الملتقى الدولى للأدب المقارن ــ ١٤ ــ ١٩ مايو ، ١٩٨٣ » في جامعة عنابه بالجزائر . وكان رئيس الملتقى الأستاذ عبدالمجيد حنون قد اقترح أن أقدم البحث بعنوان « صورة اليهودى في شعرى » فقط . لكنى لأسباب عديدة . آثرت أن أقدم صورة اليهودى في الشعر الفلسطيني بشكل عام . أما صورة اليهودى في شعرى فقد أوردت المقاطع الشعرية التى تطرقت لليهودى دون تعليق حتى لا أقع في خطأ التبرير والإسقاط .

٣ ــ أنظر : « الشاعر عبد الرحيم محمود » تأليف نافع عبد الله . منشورات مكتبة دبي ــ طبعة أولى ١٩٧٩ وهو أطروحة ماجستير قدمت للجامعة اليسوعية في بيروت . وقد استخدمت نصوص هذا الكتاب . ولم استخدم الطبعات السابقة لديوان عبد الرحيم محمود لأنها ناقصة . علماً أنني أعمل الآن على اعداد وتحقيق ديوان عبد الرحيم محمود من جديد في طبعة ربما تكون الأفضل ، حيث عثرت على مئات الأبيات غير المنشورة . وسيفاجأ القارىء بعثورى على المقالات النقدية التى نشرها عبد الرحيم محمود .

٤ ــ أنظر : ديوان فدوى طوقان . دار العودة . بيروت . طبعة أولى ، ١٩٦٨ .

٥ ــ أحد الشعارات الأساسية لبعض القوى السياسية في اسرائيل .

٦ ــ عندما أصدر الصديق الشهيد غسان كنفاني كتابه عن شعر المقاومة عام ١٩٦٦ ، لم يكن يعني أن الشعر الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة ليس شعراً مقاوماً في بعض نماذجه . بل كان يعني إعادة الاعتبار لمنطقة شعرية فلسطينية طالما النقاد العرب حول تجاهلوها قبل ١٩٦٦ مع أن المنشورات والمجلات العربية في اسرائيل كانت تصل إلى الأجهزة الثقافية والاعلامية العربية . ولكن ليس معنى ذلك كله تجاهل شعر الثورة الفلسطينية المقاوم أيضا الذى برز منذ العام ١٩٦٥ أي مع « اكتشاف » شعر منطقة الجليل . والحق فإن الصحفي ابراهيم أبو ناب كشف عن هذا الشعر قبل الشهيد غسان كنفاني بشهور حين نشر نماذج منه في مجلة « الأفق الجديد » الأدبية التى كانت تصدر في القدس عام ١٩٦٦ والتى كنا نكتب فيها . لكن النقاد العرب تحدثوا عن شعر المقاومة في الجليل على أنه كل الشعر الفلسطيني المقاوم (رجاء النقاش ــ غالى شكرى ــ عبد الرحمن ياغي ــ محمد دكروب ــ ويوسف الخطيب) وغيرهم . وهذا تجزيء لشعر المقاومة الفلسطينية إلى « أرض محتلة » و « شعر الثورة الفلسطينية » . أما الزعم بفوارق مطلقة فهو غير صحيح . فهناك مشتركات أكثر من الفوارق . وللأسف تبنى الإعلام العربي لأسبابه الخاصة هذه النظرة بل ودفع باتجاهها بتخطيط سياسي مسبق ومقصود . لأن شعر الثورة المقاوم يحمل في ثناياه كمية كبيرة من النقد للعرب أنفسهم . ولأن شعر المقاومة في الداخل يواجه العدو المتفق من الجميع على عدائه . وبوضوح أكثر لم تتم مناقشة مصطلح « المقاومة » بأسلوب علمى حتى الآن . ووضعت أسماء شعرية فلسطينية متخلفة في خانة الشعر المقاوم لمجرد أنها تقع جغرافياً في « الأرض المحتلة » بينما ألغى شعر الثورة البارز منذ منتصف الستينات .

٧ ــ مازال القارىء العربى متأثرا بالنقد الاعلامى والشائعات النقدية الإعلامية . ففى عام ١٩٨٣ أقيمت أمسية شعرية لعدد من طلبة جامعة قسنطينة وكانت القصائد تدور حول حصار بيروت . ثم فتح النقاش الذى لم أتدخل فيه . فقال شاعر ينتقد قصائد زملائه الشعراء الجزائريين الشباب : « لا يحق لكم أن تكتبوا عن حصار بيروت ، لأنكم لم تعيشوا الحصار . والذين يحق لهم أن يكتبوا عن الحصار هم شعراء المقاومة الفلسطينية فقط . بل وشعراء الجليل منهم فقط » . أى لا يحق لمحمود درويش ومعين بسيسو وعز الدين المناصرة الذين عاشوا حصار بيروت أن يكتبوا عن حصار بيروت . بينما يحق فقط لسميح القاسم وتوفيق زياد لأنهما يعيشان في الداخل . للأسف فهذا المنطق الساذج ليس بعيداً عن النقاد العرب الكبار والصغار منهم إذا تمعناجيدا في نقدهم العملى .

٨ ــ أنظر : ديوان محمود درويش ــ المجلد الأول ، دار العودة : بيروت ١٩٨٠ . كذلك : ديوان سميح القاسم ، دار العودة ، بيروت . ١٩٧٣ مع مقدمة مطاع صفدى . كذلك : ديوان « أبو سلمى » ــ عبد الكريم الكرمى ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٨ .

٩ ــ كتب معين بسيسو ومحمود درويش خلال حصار بيروت . قصيدة مشتركة بعنوان « الي جندي اسرائيلى » وتجربة القصائد المشتركة ليست جديدة على الشعر الفلسطيني . وأفكار ومعاني هذه القصيدة تتشابه الى حد بعيد مع قصيدة درويش « جندى يحلم بالزنابق البيضاء » . وقد لقيت القصيدة موقفاً سلبياً من المقاتلين الفلسطينيين خلال الحصار . لأنها « تؤنسن » الجندى الاسرائيلى أكثر من تقديمه كمجرم حرب . أما بعد الخروج من بيروت فلم تظهر صورة اليهودى في الشعر الفلسطيني : « مديح الظل العالى » لدرويش و « القصيدة » لبسيسو و « حصار قرطاج » للمناصرة على سبيل المثال .

١٠ ــ أنظر : دواوين عز الدين المناصرة : يا عنب الخليل ١٩٦٨ الخروج من البحر الميت ، ١٩٧٠ ــ قمر جرش كان حزيناً ١٩٧٤ ــ باجس أبو عطوان يزرع أشجار العنب ــ ١٩٧٤ ــ لن يفهمني أحد غير الزيتون ــ ١٩٧٦ ــ جفرا . ١٩٨١ ــ الكنعانياذا ، ١٩٨٣ ــ حصار قرطاج ، ١٩٨٣ .

١١ ــ أنظر : مقدمة عز الدين المناصرة لديوان توفيق زياد . الطبعة الأولى . دار العودة . بيروت ١٩٧٠ .

وانظر : مقدمة عز الدين المناصرة لديوان راشد حسين « أنا الأرض .. لا تحرميني المطر » . منشورات فلسطين الثورة ، ١٩٦٧ . والعجيب الغريب أن دار العودة في بيروت قامت باعادة طبع هذا الديوان تحت عنوان « قصائد فلسطينية » مع حذف مقدمتى . مع أن الديوان من إعدادى بالاتفاق مع راشد حسين أثناء حياته . بل وتسمية الديوان قمت بوضعها بنفسي باختيارها من إحدى قصائد الشاعر ووافق الشاعر نفسه عام ١٩٧٢ على التسمية . أي قبل وفاته في نيويورك ، ١٩٧٧ . فمن حق الدار أن تحذف مقدمتى لكن ليس من حقها حينئذ أن تغير اسم الديوان . وعليها أن تشير الى ان الديوان من إعدادى واختيارى . لأن راشد حسين أرسل لي بعض قصائده وقمت بالبحث عن القصائد الأخرى في المجلات والصحف وحصلت على بعضها من الشهيد ماجد أبو شرار ولهذا نأمل تصحيح هذا الخطأ في الطبعات القادمة .

١٢ ــ نلاحظ أن النقاد العرب درسوا « شعر المقاومة في الجليل » بمنطق سياسي وليس انطلاقاً من المستوى الابداعى . ولهذا تمت إسقاطات كثيرة سلباً وايجابيا : يوسف الخطيب مثلا في مقدمته لديوان الوطن المحتل وعبد الرحمن ياغي في دراسته « شعر الأرض المحتلة » ، فالأول سلبى والثانى ايجابى مبالغ .

هكذا يزرعون بذور الكراهية ضد العرب

الشخصية العربية في قصص الأطفال العِبْرِيَّة

بقلم: الدكتور فوزي الأسمر



إن الشخصية العربية كما صورت في قصص الأطفال التجارية باللغة العبرية في فلسطين المحتلة ، تمثل انعكاسا للأفكار التي حملتها الحركة الصهيونية ، ولا تزال ، عن العرب بشكل عام والفلسطينيين العرب بشكل خاص . وأستطيع أن أقول ، إن صورة هذه الشخصية لم تنحصر على اليهود الاسرائيليين فحسب ، بل نقلت وقبلت عند الكثيرين من يهود العالم وعند قطاع كبير من الرأي العام العالمي ، خصوصا الغربي منه . وللأسف الشديد فإن الحركة الصهيونية استطاعت أن توجه أنظار الرأى العام العالمي إلى منظارها ليرى من خلاله شخصيتنا العربية ، ويحكم علينا نتيجة لتلك الرؤية .

وقد ظهرت هذه الرؤية واضحة في كثير من الكتب ، ولاسيما الكتابين اللذين كتبهما الدكتور « ادوارد سعيد » عن « الاستشراق » و « المشكلة الفلسطينية » . فالحركة الصهيونية كانت تعرف قيمة السيطرة على الرأى العام العالمي ، ومدى انعكاس هذه السيطرة على مقدرة تحقيق أهدافها في فلسطين خاصة : وفي الشرق الأوسط بشكل عام . وكحركة استعمارية استيطانية فقد تحتم على الصهيونية أن ترسم الشخصية العربية في أدنى المستويات ، وتنتزع كل حقوقها حتى تستطيع أن تبرر ما تقوم به في فلسطين .

من هذا المنطلق ، يجب أن ننظر إلى هذا البحث . وأن نأخذ بعين الاعتبار ، مدى تأثير أدب الأطفال التجارى ، على البنية الاجتماعية والأخلاقية في اسرائيل ، فأدب الأطفال ، مثله مثل الأدب بشكل عام ، يكشف بعض النواحي الاجتماعية والأفكار الايديولوجية ، وطريقة التعبير عن غير اليهود ، وعن السلام والحرب ، وغيرها في المجتمع .

ولا أريد هنا أن أقول ان أدب الأطفال العبرى هو الذي يخطط السياسة العنصرية التي انتهجتها حكومات اسرائيل منذ أن قامت الدولة اليهودية على أرض فلسطين . ولكن بلا شك ، يمكن القول إن أدب الاطفال يشكل عنصرا ثقافيا ، ويترك أثره على نفسية الصغار ، والذين هم في الواقع رجال ونساء المستقبل ، وصانعو القرارات السياسية ، والتي قد تكون لها تأثيرات علينا جميعا . وهذا ما نراه ونلمسه الآن في فلسطين التي احتلتها اسرائيل كلها ، وفي تصرفات اسرائيل في لبنان ، وفي نسف المفاعل النووى العراقي ، وفي ضم مرتفعات الجولان السورية إليها .

هل تغيرت صورة العربى ؟

وهناك عوامل كثيرة تؤثر على توجيه الطفل ، وترسم له خطوط حياته العريضة في المجتمع . ومن أهم هذه العوامل : الوالدان والبيت ، والأساتذة والمدرسة ، والأصدقاء والمحيط العائلي ، وطبعا الأدبيات المتوفرة والتي تقرأ لهؤلاء الأطفال ، أو التي يقرأونها بأنفسهم . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن كل هذه العوامل ، قد استقت معلوماتها من نفس المصدر الفكرى وحملت نفس التوجيه العقائدى الذي ترعرع عليه حتى الكبار منهم والذين اعتنقوا الايديولوجية الصهيونية وهاجروا إلى فلسطين قبل وبعد قيام الدولة اليهودية ، بهدف اقامة هذه الدولة والمحافظة عليها ، إذا أخذنا بعين الاعتبار كل هذا ، فاننا نستطيع أن نتصور نفسية معظم الصغار عندما يكبرون في مثل هذا الجو ، ومدى تعاملهم مع القضية العربية والشخصية العربية .

وقد كان الانسان يعتقد أنه في أعقاب محاولة « السلام » الذي تم بين مصر واسرائيل ، وفي أعقاب الاحتكاك الذي حدث بين اليهود وبين العرب الفلسطينيين في أعقاب حرب ١٩٦٧ ، أن تتغير الصورة المشوهة للعرب ، الا أن بحثا قدمه الدكتور « ادير كوهين » من جامعة حيفا ، بالاشتراك مع الدكتورة « مريام روث » من نفس الجامعة ، والذي يعتمد على استطلاع أجري بين ٢٦٠ تلميذة وتلميذا من الصفوف الرابع والخامس والسادس والذي نشر عنه تعليق في صحيفة « هآرتس » الاسرائيلية يوم ٣٠ كانون الثاني (يناير) الماضي ، كان يشير الى أن صورة العربي لدى هؤلاء الأولاد لم تتغير . فالعربى كما جاء في هذا البحث هو : خاطف الأولاد والقاتل والمجرم والارهابي .

ويجب أن أسارع وأقول أن ليس كل اليهود في اسرائيل يحملون نفس الأفكار عن العرب ، بل توجد أقلية يهودية صهيونية ليبرالية ، والتي تتمثل في اليهود الذين كانت لهم علاقات مباشرة مع الفلسطينيين العرب قبل عام ١٩٤٨ ، وبعض الذين حضروا من الدول العربية ، والمعروفين في اسرائيل باسم « اليهود الشرقيين » والذين عاشوا مع المجتمعات العربية لفترة طويلة امتدت الى أجيال ، هذه الأقلية رفضت إلى حد ما صورة العربي التي ترسم في الأدبيات الصهيونية ، رغم أنها لم ترفض كليا النتائج التي توصل إليها الكتاب في كتبهم . ومن جملة هؤلاء الكتاب الليبراليين ، والذين انعكس تفكيرهم الايجابي إلى حد ما على صورة العربي ، كان منهم : « اوهار » و « بنيامين تموز » و « عاموس كينان » والشاعرة « داليه رابيكوفتش » وغيرهم .

هناك طبعا الأدباء المناهضون للصهيونية ، والذين يعرفون حقيقة أهداف تشويه صورة العربي في الأدبيات الاسرائيلية ، وعلى رأسهم يقف الشاعر والأديب « مرخاي ابي شؤول » . ولكن هاتين المجموعتين صغيرتان ، وتأثيرهما في هذا المجال ، على المجتمع اليهودي في اسرائيل وخارجها ضئيل .

فكرة الأرض العذراء

كيف فسرت الاصلاحات الصهيونية للأولاد ؟
إن التعبير « أرض بلا شعب الى شعب بلا أرض » وجد طريقا له ، وبشكل واسع في كتب الأطفال ، فهو يمثل أساسا في الفلسفة الصهيونية ، ومن ناحية أخرى يزيل الشعور بالذنب عن كاهل اليهود الاسرائيليين . وكأن البلاد كانت في الحقيقة فارغة من السكان . ولذا فإن أحدا لا يتحمل أية مسؤولية . ففي أحد الكتب التي قرأتها ، يقول الكاتب :

« ... وقام يوسف وبعض رجاله بقطع البلاد (فلسطين) سيرا على الأقدام ، حتى وصلوا إلى الجليل . لقد تسلقوا الجبال والهضاب ، والتي كانت خلابة في مناظرها . ولكن في الوقت نفسه كانت خالية ، لا يسكنها أحد .. وقال يوسف : إننا نريد أن نقيم هنا المزرعة الجماعية (الكيبوتس) ومن هنا سندحر نحن هذا الفراغ . وسنطلق على هذا المكان اسم : تل حاى (التلة الحية) ... إن الأرض خالية من السكان . لقد ابتعد عنها أبناؤها (القصد طبعا اليهود) . لقد تشتتوا ولم يعتنوا بها . إنه لا يوجد من يحرسها أو يعتني بها » . (غرفوتيش ونافون : محرران ، « ماذا أقص على الطفل » صفحة ١٢٨ و١٣٢ و١٣٤) .

وهذه البلاد ، أى فلسطين ، لم تكن في عرف أدب الأطفال العبرى خالية من السكان فحسب ، بل ان أحدا لم يستغلها منذ أن طرد اليهود منها قبل ألفي سنة تقريبا . وقد جاءت هذه الصورة لتبرر المقولة الصهيونية « الأرض العذراء » . وفي أحد هذه الكتب توجد قصة رجل وصل إلى فلسطين وبعد أن عاش في احدى المزارع الجماعية (الكيبوتس) فترة معينة ، قرر أن يأخذ عائلته ويترك المزرعة الجماعية ويفتش له عن مكان آخر يعيش فيه . وسار في أرض فلسطين « الخالية من السكان » قاطعا الجبال والوديان والسهول الى أن وصل إلى بقعة « من أجمل البقاع التي شاهدتها في حياتي » وعندها قال : « سنسكن هنا » وبعد أن اتخذ هذا القرار ، أقام كوخه الصغير ، وأخذ يجوب الأرض التي تحيط بها وعندها :

« رأى حجرا كبيرا ، وذهب اليه وتفحصه جيدا ، ووجد بعض الآثار عليه ، وقال لنفسه إن هذه الحجارة هي ما تبقى من قرية يهودية قديمة ، يجب أن نغرس وتدنا هنا ، ونبعث هذه القرية اليهودية مرة أخرى . ونادى ابنه وقال : هنا على هذا التل سنسكن ، هل ترى هذه الحجارة؟ انها بقايا قرية يهودية قديمة ، دعنا نجمع بعض هذه الحجارة ونقيم قريتنا الجديدة » . (اليعزر سمولي « أناس التكوين » ص ١٢) .

ولم يكتف الكاتب بهذا « الاثبات القاطع » ان الأرض عذراء منذ أن تركها اليهود ، بل ذهب الى أبعد من ذلك ، عندما عثر ابنه على لوحة رخامية ، وهو يحرث الأرض ، وبعد أن أخرجها هو ووالده ، وقاما بغسلها ، وجدا عليها رسمة

● العربي في قصصهم هو خاطف الأطفال والقاتل والإرهابي !

● مازالوا يقولون لأطفالهم إن فلسطين كانت خالية لم يسكنها أحد قبلهم !

« ماتورا » أي الشمعدان الذي يعتبره اليهود رمزًا لهم . وتستعمله دولة اسرائيل كشعار لها . وعندها تبجح الأب كيف أن هذه القطعة الرخامية كانت موجودة في هذه الأرض منذ ألفي سنة . وكيف أن أحدا لم يستغل الأرض . ولذا عثروا عليها عندما عادوا الى البلاد . (نفس المصدر ص ١٥) .

وهنا يجب أن نلاحظ العلاقة بين العثور على الحجارة القديمة ، وبين اقامة القرية الجديدة من تلك الحجارة . فالكاتب لا يشير هنا الى أن الأرض كانت عذراء فحسب ، بل إلى أن ما يقوم به هو بعث الحياة الجديدة ـ القديمة في فلسطين . وهي الفلسفة التي بنى عليها « تيودور هرتزل » فلسفة روايته « الأرض الجديدة ـ القديمة » وكما هو معروف فإن « هرتزل » هو الأب الروحي للحركة الصهيونية .

تشويه الانسان العربى

والصورة المميزة للعرب في أدب الاطفال التجاري العبرى . هي صورة قاتمة ، وهي تمتد بشكل أو بآخر إلى جميع الكتب التي قرأتها . فالعربي هو مجرم وقاتل . فهو يحب القتل من أجل القتل . ولذا يجب عدم « ادارة الظهر للعربي » . كما أنه يقتل لأتفه الأسباب ، ويظهر وكأن لا قيمة لحياة الانسان عنده ، ثم أنه اللص ، فهو يسرق لأن هذا في طبعه ، وخاصة من اليهود ، وذلك نتيجة « الغيرة » ، غدار يغدر حتى بأهله وأقاربه . يبيع نفسه وضميره وشعبه بأبخس الأثمان وهو من مجموعة الرعاع ولذا لا يقدر قيمة الأشياء . جبان لا يقدر على الحرب ولهذا فإنه غدار . وهذه الصورة واضحة فى تصوير الجندي والمقاتل العربي . وهو الأبله الذى لا يعرف كيف يتحدث ، ويصدق كل ما يقال له ، ولا يستطيع أن ينتصر حتى في العدو أو السباحة ، ودائما يجب ان يعلمه شخص غير عربي ما الذي يجب أن يفعله . وهو كذاب ، لا يمكن الاعتماد عليه في أية كلمة يقولها . ولا أي وعد قطعه على نفسه . وهو قذر في تفكيره وجسمه ، لا يغتسل ، و « المعلمة » دائما تحذر الأولاد من الاقتراب من العربي كي لا يصابوا بمرض عضال .

وقد جاءت هذه الصور وغيرها في أدب الأطفال ، لتنزع من الطفل احترامه للعربي ، وبالتالي فإن الشخص الذى لا تحترمه لا تستطيع النظر بموضوعية إلى المشكلة التي يطرحها . ولذا يسقط حقه . وفي جميع هذه الكتب يظهر دائما التفوق اليهودي في كل المجالات . والعربي المقبول لديهم . هو العربي الذي يقبل الأمر الواقع . ويرى النواحي « الايجابية في الصهيونية ويستطيع التفاعل معها » . بمعنى آخر ، كل عربي يخون شعبه ويبيع ضميره ، فهو العربي الجيد . وهناك عربي جيد آخر هو العربي الذي يتثقف على أيدي اليهود .

وكمثال آخر . هناك قصة أب يشرح لابنه عن العربي اللص ، ولكن بصورة مهذبة . يأتي عربي وابنه لشراء بعض الحاجيات من عند يهودي وابنه ، ويضطر الأب للدخول إلى البيت ، وعندها يدور الحوار التالي :

« ... أفنير ، راقبهما ، صاح الأب ، وذهب إلى البيت ليحضر بعض النقود لاعطائها للعربي ، في حين نظر افنير حوله ولم يعرف من عليه أن يراقب » .

« ... أفنير ، اذهب خلفهما حتى البوابة . وتأكد أنهما لم يسرقا شيئا . قال الأب ... أبي هل صحيح ان كل العرب لصوص ؟ سأل افنير والده . من الذي قال لك هذا الكلام ؟ قال الأب بعصبية . يجب أن لا تتحدث بهذه الطريقة ... عندما يدخل عربي متجرك ، فإنك تلاحظه كي لا يسرق . وتطلب مني أن ألاحظه أيضا ، وعندما يدخل يهودي فإنك لا تخاف أن يسرقك . وارتبك الأب ، هناك اشكال مختلفة من العرب . قال ، ويوجد بينهم لصوص . انك لا تعرف من العربي اللص ومن العربي الشريف .

وهل يوجد لصوص يهود ؟ سأل الابن . طبعا ، ولكن ليسوا هنا ، إنهم هناك بعيدا في المدينة . في قريتنا كل السكان اليهود مستقيمون ، ولا أحد منهم يسرق . والعرب ألا يغضبون عندما تراقبهم وكأنهم لصوص ؟ سأل الابن . ربما ، أجاب الأب ، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل ؟ (يوسي مرغليت ، « نار في الحرش » ص ١١ ـ ١٤) .

هذا الحوار يشير مرة أخرى إلى كيفية اقناع الكاتب للأطفال بوجهة نظره من خلال حوار نصف ليبرالي : « من قال لك إن كل العرب

صورة طفل من المخيم .. وهي ـ بالطبع ـ صورة صارخة تجنبوا تقديمها للطفل الاسرائيلي



● في كل قصص الأطفال نرى التفوق اليهودي في كافة المجالات

● لماذا ركز كتّاب الأطفال على شخصية البدوي؟

لصوص ؟ » و « هناك بعض اللصوص اليهود ولكنهم هناك في المدينة » ، بعيدا عن واقع حياة الصغير ، ولكن كل يهود القرية شرفاء ، أما العرب فلا تستطيع أن تميز بين اللص والشريف منهم ، ولذا يجب مراقبتهم جميعا ، وعدم الوثوق بهم ، وإذا غضب العرب ، فليغضبوا..

الشخصية الأساسية

والشخصية العربية الأساسية في كتب الأطفال هي شخصية البدوي ، فهي تلعب دورا في تكوين الشخصية التي تسكن فلسطين قبل عام ١٩٤٨ ، ونادرا ما ربط المؤلفون بين البدوى وبين عروبته ، البدوي دائما بدوي . وشخصية البدوي في مجملها ايجابية إلى حد ما ، رغم أنها تحمل بعض الصفات الأساسية التي وضعتها الصهيونية للشخصية العربية . ولكنها ايجابية بمعنى أن الكتاب قد قاموا بوصفها ووصف الحياة البدوية والعادات والتقاليد والزي وغير ذلك وصفا دقيقا .

والسبب في هذا الاهتمام الكبير ، يعود في رأيي لأسباب كثيرة ، أهمها شخصية البدوي المميزة ، ولكن الأهم من هذا هو استغلال الحركة الصهيونية للبدوي لتدعيم فلسفتها بأن أرض فلسطين كانت خالية من البشر ، ولتستطيع أن تبرر ما حدث بعد أن اكتشف بعض المفكرين أن أرض فلسطين كانت مأهولة ولم تكن خالية .

ولقد استغلت الصهيونية عدم ارتباط البدوي بالأرض كي تبرهن أنه عابر سبيل في فلسطين فاليوم يسكن في شمالها وغدا في جنوبها ، وبعد غد في مصر أو سوريا أو غيرهما من الأقطار المجاورة . بمعنى آخر أن البدوي لا يمتلك أرضا ، ولذا فإنه لا يوجد له حق على أي أرض . وقد نجحت الصهيونية في تفسيرها هذا إلى حد كبير ، ليس في كتب الأطفال فقط ، بل لدى الكثيرين من الرأي العام الغربي .

وقد ركزت الدعاية الصهيونية على هذه الشخصية أيضا ، عندما ربطت بين مفهوم « الأرض » و « الوطن » . وكون البدوى ، وهو في رأيها الساكن الأساسي في فلسطين ، غير مرتبط بالأرض ، ولا أرض له ، فهو بالتالي غير مرتبط بالوطن ولا وطن له . ولم تكن الصهيونية بحاجة إلى الكثير من الجهد لاقناع الرأى العالمي الغربي ، خصوصا الأوروبى حيث وجدت وترعرعت ، بهذا المنطق ، لأن شخصية البدوي كانت معروفة لدى الرأى العام العالمي ، بسبب الاتصالات التي كانت قائمة بين أوروبا والشرق ، وهى اتصالات وعلاقات بين مستعمر ومستعمر . وبالتالي لم تكن الشخصية العربية ــ البدوية ، شخصية ايجابية عند الغرب أيضا ، ولذا وجدت

● منذ قيام إسرائيل وهم يشوّهون صورة المقاتل العربي في أدب الأطفال

● بعد حرب عام ١٩٧٣ رأينا لأول مرّة حكايات عن دخول القوات العربية إلى المستوطنات



هذه الطفلة الفلسطينية قتلوا والدها ووالدتها
ورغم ذلك يقولون لأطفالهم أن العرب قتلة !!

الصهيونية أرضا خصبة لتفكيرها .

وأستطيع القول إن تصوير العربي الفلسطيني بأنه بدوي فقط ، أعطى الصهيونية قوة لتوسيع استيطانها ، عن طريق جذب الرأي العام العالمي إلى جانبها . وكذلك اقناع الأطفال بوجهة نظرها . ليس لهذا السبب أسهب الكتاب في تطوير الشخصية البدوية .

وفي معظم القصص التي تعالج موضوع البدوي ، يظهر فجأة ويختفي فجأة :

« ... ذات يوم ، ظهرت في وادى الربيع حمير وجمال محملة بالصناديق والرزم ، مصحوبة بنساء وأطفال . أناخ الرجال جمالهم في مكان منبسط وأنزلوا حمولتهم وحمولة الحمير.. وفي خلال دقائق معدودات نصبت الخيام وأخذ الدخان يتصاعد من النيران التي أضرمت في وسط الخيمة ... »

(اليعزر سمولي ، رجال التكوين ، ص ١٤٢ ــ ١٤٣)

وقد ذهب بعض الكتاب إلى وصف دقيق لحياة البدو ، وملابسهم وعاداتهم وعلى سبيل المثال ، هذا وصف لعباءة بدوية وأهميتها في حياة البدوي :

« ... العباءة لباس ممتاز ، قال ناسي ، مدافعا بحماس كبير عن لباس البدوي التقليدي ، فهي تتلاءم مع الشتاء كما مع الصيف . وتصلح للنوم علاوة على الجلوس والسير . في الشتاء يتلفح البدوي بعباءته والتي يستطيع لفها مرتين حول جسده ، فيدفأ . والعباءة تحميه من المطر ، يرتدي البدوي عباءته بحيث يكون وجهها المغطى بالشعر من الداخل ، فيستحيل على المطر عندئذ اختراق العباءة وينزلق عنها وكأنها مطلية بطبقة من الزيت .

أما في الصيف ، فتحفظ العباءة بين طياتها كمية من الهواء تحمي جسم البدوي من الحرارة ، وتمنع عنه التعرق أيضا . ان أحد المخاوف الدائمة للبدوي هي نقص المياه . فالعباءة تساعده على الاحتفاظ بمستوى السائل في جسده ، وبالرغم من قلة تعرق جسم البدوي ، فإنه لا يبرد عند التعرق . العباءة منامة مريحة جدا وباختصار فإن للعباءة ميزات لايمكن حصرها .

(باروخ نادل ، « ناطي ومغامرات الخصرة الحمراء » ص ٩٦) .

هذا الشرح المسهب في عباءة البدوى ، يعطي فكرة عن اهتمام الكاتب بحياة البدوي . انني لم أعثر على أى وصف آخر عن العرب يشبه هذا الوصف في كتب الأطفال التى استعملتها لهذا البحث . حيث تناولت كتب الأطفال العبرية التي صدرت بين الأعوام ١٩٤٨ ــ ١٩٧٥ .

المقاتل الفلسطيني

وهناك صورة لا يمكن تجاهلها ، رغم أنها مكثفة ومتشعبة ، وهي شخصية المقاتل الفلسطيني ، والجندى العربي . فبالنسبة للأول ، فإنه لم يقدم للقارىء على أنه مقاتل . ان الفلسطيني لا يقاتل ، بل يحاول ان يقتل . واعتبر النضال العربى الفلسطيني ضد الحركة الصهيونية والاستعمار البريطاني حرب « عصابات مجرمة » .

« ... العصابات العربية حاكت المؤامرات في حينه لهدم كل ما بناه جيل الطليعة اليهودية (في فلسطين) »

(ع . دانى ، « استقلال اسرائيل » ص ٩٥)

« ... وعندما تفجرت الأحداث الدامية في أرض اسرائيل وقف الشيخ عبد الله أبو ستة على رأس عصابة مجرمة ، وبدأ ينظم الهجمات على طرق المواصلات العبرية ، وقصف المستوطنات ، وإقامة الكمائن وزرع ألغام في الطرق »

(بني ماتيف ، « الزارعون في الصحراء » ص ٧٣) .

« ... سمعت مرة قبل أربعة أو خمسة أيام ، راسان الحارس يقول لوالدى إن العرب ينظمون عصابات كي يهاجموا المستوطنات اليهودية ، وقد

قال له والدي ، اننا نعد لهم استقبالا حارا ، (اربيل اوفيق ، سبع طواحين وطاحونة ص ٩٠) .

وتطورت شخصية المقاتل الفلسطيني ، بشكل سلبي طبعا . فبعد قيام الدولة اليهودية أصبح « متسللا » يعبر الحدود إلى وطنه ليسرق ويقتل . ومن ثم أصبح « مخربا » . حيث يقوم بنفس العمل . بالاضافة الى التخريب . فهو ينسف أعمدة الكهرباء ويقصف البيوت ، وبعد ذلك أصبح « ارهابيا » يقتل الأطفال في « الكيبوتسات » ويخطف الباصات ويزرع المتفجرات . وطبعا هذه الصورة لشخصية المقاتل الفلسطيني موجودة في جميع الكتب .

أما بالنسبة للجندي العربي . فإن الصورة ليست أحسن ، فشخصية الجندي هي شخصية سلبية . ويعتمد الكتاب في تصويرها على انتصارات اسرائيل في الحروب التي قامت بها . وانتصرت . الجندى العربي جبان ودون قدرة فكرية ومقابله « السوبرمان » اليهودي . الجندي العربي يهرب من ساحة القتال في حين يظهر الجندي الاسرائيلى هكذا :

« ... حتى لا يبقى أى شخص منا على قيد الحياة . ويستجوب ويعذب على أيدي الأعداء . فانه إذا سقطت الطائرة قبل وصولها الى الهدف ، قال مانو بابتسامة ساخرة . سنكون نحن بلا مظلات . سنتحطم جميعنا مع سقوط الطائرة . ولن يعرف المصريون إلى الأبد ماذا كان هدفنا في سيناء .

اننا لا نستطيع أن نطلب منك ومن رجالك أن تتحطموا مع الطائرة إذا ما وقعت . قال القائد غفرياهو : إنكم لا تطلبون منا ذلك ، اننا نحن الذين نطلبه من أنفسنا ، وبوعي كامل لأنه لا يوجد بديل ... » (افنير كرملى « الدورية الخاصة مطوقة » ص ٦٨)

ومقابل هذه القوة العجيبة . يظهر الجندي العربي ، جبانا أبله ، ودون أخلاق . يكفي ان يطلق رصاص في الهواء حتى يفر هاربا :

« ... ولم يشعر الولد اليهودى بما يفعل . حمل مدفع العوزي ، وأطلق بعض العيارات النارية في الهواء ، والتي مرت من فوق رأس الجندي العربي . وكان هذا العمل كافيا . العربي « فوجئ » . وأخذ يعدو هاربا .. »

(اربيل اوفيق « المظليون قادمون » ص ٦٢) .

ولكن هذه الشخصية تغيرت قليلا بعد حرب ١٩٧٣ ، عندما استطاع جيشا مصر وسوريا اقتحام مواقع الجيش الاسرائيلى على جبهتى القنال والجولان . ولأول مرة تظهر في قصص الأطفال حكايات عن احتلال مستوطنات يهودية من جانب جيش عربي . وقد تركزت هذه القصص على أحداث بعض المناطق العربية المحتلة ، وذلك لأن من السهل اظهار « قوة » الجيش الاسرائيلى هناك . في حين لم يستطع الكاتب تفسير تحطيم خط بارليف واحتلاله من جانب الجيش المصري للقارئ الصغير . ومع ذلك فقد استطاعت هذه الحرب ادخال نغمة جديدة على أدب الاطفال ، كتصوير حالة الفزع والخوف في المستوطنات اليهودية . وهي صورة لم يعثر عليها في قصص ما قبل عام ١٩٧٣ .

« ... صفير قتيلة مستمر ، يخترق السماء فوق رأسى . في البداية يكون ضعيفا وبعيدا . وبعد ثوان يصبح قويا وقريبا . انه يثير الخوف ويجبرنا على اخفاض رؤوسنا . وينتهي هذا الصفير بصوت كالرعد ومن ثم هدوء غريب .. ضجة طائرات نفاثة تمر فوق رؤوسنا ، سرب من أربع طائرات ميغ يمر بسرعة البرق باتجاه جبل الشيخ . ضجة مخيفة حولنا ، لم أكن أتصور انه يوجد مثل هذه الضجة المخيفة لدرجة شعرت اننا عبارة عن حبة تطحن بين عجلات ضخمة : كأن الأرض تهتز تحت أقدامنا وبعد قليل سنسقط إلى داخل حفرة عميقة سوداء » .

(اربيل اوفيق « دخان الجولان » ص ٧)

إن صورة العربي في هذا الأدب هي صورة مشوهة جدا وسلبية جدا ، وهذا نابع من عدة أسباب أهمها : نزع الاحترام عند اليهودي للشخص العربى . وهذا ما يفسر عدم الشعور بالذنب بالنسبة لما يقوم به هو أو حكومته . كما أن انتزاع الاحترام يؤدى إلى انتزاع الحساسية الانسانية . وبالتالي يقبل الأحكام مهما كانت ضد من لا يكن له الاحترام ، بما في ذلك حكم التشريد وسلب الممتلكات وحتى الاعدام . كما جاء هذا التشويه ليبرر العمل الذي خططت له الصهيونية منذ أن وجدت ، وهو انتزاع فلسطين من أصحابها الشرعيين ، أي العرب ، واقامة دولة يهودية هناك .

ولقد جاء هذا التشويه فيما كتب عن العرب والفلسطينيين والذى سبق وعرضنا جزءا منه في هذه الدراسة . ولكن التشويه الأخطر جاء فيما لم يذكر ، خصوصا عن الشعب العربي الفلسطيني

لم يذكر أي شيء عن الأدب الفلسطيني أو الأدباء أو الفنانين ، فهذا البند معدوم . كما لم يذكر أى شيء عن وجود مفكرين فلسطينيين ضمن المفكرين العرب .

كان الفلسطيني دائما « عربيا » . في حين كان يصف العرب الآخرين بجنسية بلادهم : السوري والمصري والعراقي واللبناني الخ ... وهذا العمل جاء لينكر وجود شيء اسمه شعب عربي فلسطيني ، وليعطى الأنطباع فيما بعد ان العربي الفلسطيني هو « عربي » وامامه الوطن العربي مفتوح .

كما أن صورة الفلسطيني ابن المدينة مشوهة جدا . ويشار اليها بين السطور فقط ، أو عندما تكون هناك حاجة ، على غرار سكان مدينة يافا الذين خرجوا « لذبح يهود تل أبيب » ، وحتى في هذه الحالة صنفوهم بـ « العتالة والبحارة والزعران » . ان عدم وجود أبناء المدن يلغى وجود المدينة .

وانعدمت أيضا شخصية الفلاح العربي الفلسطيني ، انها لم تظهر في هذا الأدب مطلقا ، ولم يكن انكارها محض صدفة ، كما كان التركيز على شخصية البدوي في أدب الأطفال ، والسبب في انعدام شخصية الفلاح يعود الى عكس اظهار شخصية البدوى . البدوي لا علاقة له بالأرض ، في حين يكون الفلاح ملتصقا بها ، ويحبها ويحترمها ولا يضحي بها . الفلاحون الوحيدون الذين جاء ذكرهم في هذه القصص كانوا الفلاحين الذين يعملون في أراضى الأغنياء من العرب ، والذين طردوا من الأرض بعد أن اشتراها « الأفندي اليهودي من الأفندي العربي » .

كما لم يأت ذكر أى شيء يتعلق بالحضارة الفلسطينية : الأعمال اليدوية الفلسطينية ، أو صناعات الصابون وعصر الزيتون أو النشاط المعماري الذي اجتاح فلسطين ، أو المدن التي أقامها العرب أو الفلسطينيون أنفسهم . إن وجود مثل هذه العناصر يشير إلى وجود حضارة عربية ، وبالتالي يشير إلى وجود شعب ، أرادت الحركة الصهيونية أن تنفي وجوده !

فوزى الأسمر

صورة أخرى إختفت من قاموس قصص الأطفال العبرية فهم ينكرون حقيقة إقبال الفلسطينيين على العلم بشكل ليس له مثيل





بطاقة من متفرج عربي

لـ : سناء

لا أعرفُها . . . لكــنَّ ملامحَها ـ في ذاكرتي ـ حبُّه
تتجسَّدُ شمساً في روحي وتحاصرني حتى في النــومْ
لا أعرفهــا . . . لكني أعرفُ ما في عينيها من هَــمْ
في عينيها هَـمٌ صبيُّه
ترقبُ لحظةَ زغردةِ العرسِ الدمويِّ
تتفجر أشواقاً عطشى للقاء « الحقِّ » بصحبةِ كلِّ شهيدٍ عربيِّ
في عينيهــا صمتٌ يتحدَّر من لغة لا يعرفهــا غير الشهداء
لغــة تصرخ فينا : إنَّ الطــرقَ المأمونه
لا يسلكها إلا الجبنــاء
ممن شربــوا كأسَ الذلــةِ في حضنِ الأوهامِ المأفونه
لا أعرفــها . . . لكنِّي أقرأ في عينيها أوجاعَ الأرضِ العربيه
أشهد كفرَ قاسم . . . أشهد صبرا . . . أشهد بيروتَ الوطنيــه
أشهد مُدناً غارقةً في قهــرٍ . . . وقرىً باتتْ مطويه
في قبضةِ مَنْ نهبــوا الأرضَ وهتكــوا العرض وداسوا الحريــه

* * *

لا أعــرفها . . . لكنْ « سناءُ »
تعرف أني أحــدُ الموتى المتكئين على مجلس وَهْمْ
تعرف أني أتلهّى بالجملِ ـ الحيلِ المخبوءة في كتب الإنشاءْ
أتخفى في وحــلِ الحجج المعتادة إن برزَ التمســاحُ وفاضَ الدمّ
يتسربُ مني تاريخي . . . وطني . . . يتسرب صوتي في رمــل الإغــواءْ
وأعودُ أمارسُ ألعابي . . . وأتابع رقــصَ الشرقِ . . . أتابــعُ أسخفَ فيلــمْ
قُدِّرَ لي . . . أن أبقى أتفرجْ
قُدِّرَ لي . . . أن أتملق في زمن عربيٍّ الخيبةِ . . . مرتجفَ الأعضاءْ
قدر لي . . . ألا أخجــلَ من أخيبِ ألعابي أو أتحرجْ
قدر لي . . . أن أبقى أتطاير كالورقِ المتناثرِ في الريح الهوجاءْ

* * *

ذاتُ السبعة عشر ربيعاً نبتتْ كالزهرةِ في « عنقونْ »
قريةِ أهلٍ منَّا . . . لكنَّا لم نســمعْ عنها من قبــلْ
في رقدتنــا داخل هذا العطنِ المخزونْ
في غمرةِ لهفتنا بحثاً عن أقرب حــلْ
ذاتُ السبعــة عشر ربيعاً زرعتْ في ساحتِنا شجرَ الوردِ الأحمــرْ
شجراً كــدنا ننساه من الخــدر اليوميّ
ذاتُ السبعة عشر ربيعاً تركَتْنا في الوقت الضائع نسألُ ، هل نربحُ أم نخسر ؟
ومضَتْ تصعدُ للقاءِ « الحقِّ » بصحبة كلِّ شهيدٍ عربيّ . . .

شعر
حسن توفيق

سلطان بن سيف وملحمة تحرير مسقط

بقلم: أحمد العناني

كنا قد أسبقنا الإشارة فى مقال سابق الى التحالف البريطاني الهولندى الفارسي العربى الذى انتهى بطرد البرتغاليين قسراً واقتداراً من قلعتهم المنيعة ومصدر ثرائهم الخليجى ألا وهى جزيرة هرمز.

ولم يتمكن ذلك الحلف الرباعى الذى أحدث صدى حزيناً فى أوروبا الغربية مقروناً بنقمة شديدة على الانجليز لانتصارهم عنوة للمسلمين ضد البرتغال كما فهم الناس الأمر ، نقول ان ذلك الحلف لم يتمكن من الاستيلاء على هرمز أوائل العشرينات من القرن السابع عشر إلا بعد جهد جهيد . وخسائر دامية . والواقع أن المنتصر الأساسي هناك كان هو الانجليز الذين عرفوا كيف يتخلصون من الهولنديين بالقوة القاهرة فى الخليج والعمل ضدهم فى القارة الأوروبية . كما قلبوا للشاه الصفوى ظهر المجن فخرجوا بحصة الأسد من ريع الجمارك فى أعظم موانىء العالم التجارية قاطبة فى ذلك العصر.

وقد اعتبر البرتغاليون سقوط هرمز كارثة قومية وصارت شعاراتهم فى لشبونة كما فى جوا شبيهة بشعارات الرومان القدماء ضد قرطاجنة يقسمون أن يدمروها . وكانوا لا يتصورون لهم وجوداً فى الخليج مفرغاً من هرمز ، لهذا فقد راحوا بسرعة وجد ومواصلة يزيدون على تحصينات مسقط المنيعة تحصينات أخرى مستجدة يصلون فيما بينها على رؤوس الجبال بطرق سرية وأنفاق تحت الأرض وأبراج وتحصينات فوقها ، حتى أصبحت المسافة من جبل السعالي الى جبل المكلا سلسلة متصلة من التحصينات المشحونة بأدوات الحرب من كل نوع . ثم جاءوا بأفضل محاربيهم من البرتغال وجوا وغيرهما ، وامتلأ أديم الأرض أسواراً وبروجاً.. وعلى رءوس الجبال الشاهقة المدببة كان يتنقل قناصة البرتغاليين الذين يسددون رصاصهم لأية نأمة تتحرك أمامهم على امتداد الرؤية حتى البحر.. وكانت قوافل لا تنقطع من دواب الحمل ولاسيما البغال تصعد فى الطرق الوعرة موقورة بالمؤن التى شحنت بها القلاع فكأنما تهيأت لحصار يدوم سنوات طويلة..

لقد أصبحت مسقط فى نظر البرتغاليين هى موقع التحدى بعد سقوط هرمز وكان مقصدهم أن يعيدوا تمركزهم فى حصن ميئوس من الاستيلاء عليه أو سقوطه حتى اذا أكملوا فيه عددهم وذخائرهم وعساكرهم بدأوا يحاولون استرداد ما فقدوه من سائر البلاد العمانية وراحوا يتربصون لفرصة تواتيهم لاستعادة هرمز..

الجرس ورقبة القط

لم يكن الانجليز متحمسين لأية مواجهة أخرى مع البرتغاليين بعد هرمز ، لقد نالوا حصة الأسد من غنائم البرتغاليين ، وحيث أنهم زاهدون فى القتال البرى فقد اقتصروا على موقف سلبي غير منفعل..

أما الهولنديون الذين أغاظهم غدر الانجليز بهم الى الصميم فإنهم انصرفوا يعدون أساليب تجارية متفوقة يقصدون بها تفليس سائر منافسيهم من الأوروبيين وقد عانى الانجليز بالفعل خسائر ضخمة فى تجارة المنسوجات بخاصة .. وكان الهولنديون هم سادة صناعة النسيج وهم أول من طور وسائل الغزل والنسج الى مستوى العصر الراهن .. أما من الناحية العسكرية والسياسية فإنهم آثروا أن يركزوا سائر قواتهم فى الأرخبيل الأندونيسي وذلك لمواصلة احتكارهم العديد من أصناف التوابل التى كانت تدر عليهم أرباحاً أسطورية .

كان التحدي اذاً واقعاً على السكان العرب من العمانيين ، وكان عليهم هم أن يعلقوا الجرس فى رقبة القط المسعور وإلا عاود الكرة عليهم وفتك بهم..

وأحس سلطان بن سيف خليفة ناصر بن مرشد اليعربي وابن عمه أنه يجب أن يحمل قدميه على درب من الشوك والجمر وأن ذلك هو قدره وإلا فإن الأمر معه سيكون الى رجوع حتمى .. فإن البكرة التى شد ناصر حبالها كان ينبغى ان يواصل الشد عليها الى أن يصل الوعاء المرفوع بها الى أقصى البعد علواً وإلا انفكت البكرة ودارت الحبال بالاتجاه المعاكس وضاعت دماء الشهداء الذين استعادوا معظم مدن عمان وأقاليمها التى كان قد مضى عليها قرن وربع راسفة تحت البرتغاليين .

فى وجه امبراطورية ذات غنى وأساطيل وثروات ومستعمرات

لقد دام عصر سلطان بن سيف فترة تقارب فترة حكم الخليفة الزاهد العادل عمر بن عبد العزيز.

فقد تولى أمر الإماميين عشية وفاة سلفه العظيم ناصر بن مرشد اليعربى يوم الجمعة العاشر من

ربيع الثاني ١٠٥٩ هجرية ، وفارق الحياة في يوم الجمعة السادس عشر من ذي القعدة عام ١٠٦١ هـ.

وفيما أتيح لسلفه ست وعشرون سنة من الحكم ليضع الأساس لدولة قوية وليطرد البرتغاليين إلا من أضخم حصونهم في مسقط ومطرح ونواحيهما فإن سلطان بن سيف استطاع في فترته القصيرة أن يحقق أمرين بالغي الخطورة وهما :

أولا : تحقيق معجزة الاستيلاء بقوة العمانيين وحدهم على مسقط وسائر حصونها وحصون نواحيها ..

ثانياً : تأسيس نواة الأسطول العماني الذي انطوى تطويره السريع الى مستوى أساطيل الدول العظمى على معجزة أخرى ..

لقد كان الصلح الذي حصل عليه الامام ناصر (١) قد أوصى بهدم قلاع البرتغاليين في مطرح وقريات وصور وتسويتها بالأرض وكذلك هدم قلعة كان أنشأها الامام في مطرح وذلك صيانة لاستمرار الوجود البرتغالي في مسقط مع إعفاء العمانيين من كل أشكال الضرائب التي كان يفرضها البرتغاليون في مسقط.

وقد غضب الملك البرتغالي على قائده في مسقط «دون جوليو دي نورنها» .. وأمر بالقبض عليه : وحيث كانت هذه البوادر مزعجة ومنذرة بنقض البرتغاليين ما أبرموه خصوصاً وانهم كانوا منهمكين في شحن الحصون بالسلاح والمؤن . فإن سلطان بن سيف أصاب كل الاصابة في شروعه فور استلامه الحكم في تطويق سائر منطقة القلاع البرتغالية الحصينة .. ولو تردد أقل تردد لضاع عمل ثلاثين سنة سدى .

وكأنما وقف التاريخ عند أقدام تلك الحصون المنيعة حائر الخطو لا يدرى أحد أين تكون مسيرته .. فالحصون هائلة والبرتغال ماتزال ذات دولة وامبراطورية وعناد ، والامر أصبح يعني أن تكون تلك الامبراطورية أو لا تكون ... وانظر هذا الوصف الحي لسير الامور (٢) «وكانت الحرب يومئذ بين الإمام وعسكر البورتجيز (٣) سجالا ، ولا قدرة للبورتجيز أن يخرجوا الامام وجيشه الكثيف من مطرح ، ولا قدرة للامام وعسكره أن يدخلوا مسقط فتسمعهم يصيحون على من بالسور من البورتجيز «ناجزونا ، بارزونا» ، فليس الشجاع من تحصن بالقلاع» ولكنه لم يكن يخرج لهم منهم أحد ... فطالت الحرب بينهم على تلك الحال حتى كاد الامام وحزبه أن يثنوا عزيمتهم عنهم لعدم القدرة على الدخول عليهم»

كان ضرورياً والحالة تلك أن يستميت المسلمون في وقف الإمدادات عن عدوهم . لذلك انطلقت سفن العمانيين التي بدت أقرب شيء شبهاً بسفن الأوروبيين من حيث حجمها وتصفيحها وتسليحها ، وأبعد ما تكون عن السفن العربية التجارية التقليدية ، وكانت تلك خطوة في منتهى الشجاعة والحكمة حيث فتت كثيراً في عضد البرتغاليين ... لكن اجراءات الحصار كلها كانت تبدو وكأنها مستحيلة بسبب ما كانت تزخر به قلاع البرتغاليين في مسقط وحولها من المؤن والسلاح ..

ورفض الامام سلطان بن سيف أن يخفف من حصاره أو يقلل من كثافة قواته حول الحصون مؤمناً بأن الله تعالى لابد أن يجعل له من ذلك الضيق مخرجاً ، ويروى عنه أن كان بمنتهى التواضع يتجول بين جنوده يحدثهم في شئونهم ويزين لهم ثواب المرابطة في سبيل الله ، ويؤكد انه لم يكن للعمانيين مندوحة من مواصلة خطة الحرب بثبات ويقين ، وكان يسلم على الصغير والكبير والحر والعبد .

ويبدو أن حالة الأمن والرفاه سادت البلاد في عصره مما نجم عنه رخص الأسعار وأمان الطرق ، وكذلك يستطيع المتبصر في النصوص الواردة عن وصف أخلاقه وسلوكه . وكيفية تفاعله مع شعبه وتفاعلهم معه ، أن يدرك أن سلطان بن سيف لم يكن الا صورة أخرى من الزعامة الاسلامية العمرية . زعامة ابن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز ، أو تاليا في حركة الزمن صلاح الدين أو يوسف بن تاشفين أو نور الدين ... انها زعامة الذين صدقوا الله ما عاهدوه عليه ، وكان أول عهدهم أن يطرحوا عبء كل طموح مادي عن كاهلهم ، ويزيحوا كابوسه عن قلوبهم ... فلا ترف ولا قصور ولا فسق . ولكن بساطة وعبادة وجهاد وصدق . وتسري روح هؤلاء فوراً في نفوس المسلمين فإذا كل مسلم أسد هصور ، وإذا هو بقدرة الله القادر جل جلاله يجول ويصول ..

وإذا ما أراد الله فلا راد لحكمه . وكذلك كان أمام قلاع مسقط ومطرح ... أمر أقرب من الخيال ، وأقرب إلى الأساطير .. فيالله الكبير المتعال حين يريد شيئا ان ربي لقوى شديد المحال .. تحصل قصة تذكر بقصة نعيم بن مسعود في حرب الخندق غداة أزال الله بحيلة ذلك الرجل صولة الأحزاب فشتتهم في ليلة واحدة أيدي سبأ ..

واقعة كأنها أسطورة

كان البرتغاليون شأنهم شأن الانجليز يعولون في الكثرة الكاثرة من مقاتليهم على صفوة يختارونهم من أفضل الجنود الهنود ثم يولونهم امتيازات ضخمة ويسبغون عليهم فضلا : ويختصونهم بالرواتب والمناصب . وأما الانجليز أو البرتغاليون فهم الضباط الآمرون ..

وكان زعيم هؤلاء الهنود البنيان يدعى تروتم له ابنة رائعة الحسن شاهدها «الفريره» زعيم البرتغاليين وقائدهم (كما يلفظ العمانيون اسمه) فجن جنون البرتغالي لجمالها ، ومع انه علم ان أهل ملة تلك البنت لا يزوجون نصرانياً يأكل لحم البقر لكنه أصر على الزواج وبعث أحد الأساقفة خاطباً ..

ورأى الهندي انه لو عاند سيده البرتغالي مواجهة فسوف يسفك دمه ، ويستكره ابنته على الزواج فصمم على اللجوء للحيلة والعذر فتظاهر بالموافقة التامة بشرط واحد هو أن يقبل الخاطب العاشق مرور بعض الوقت ريثما يحضر كاهن الطائفة من الهند ، وتحضر قريبات الفتاة لكي يتمموا لها اجراءات الزواج وطقوسه العديدة ولكي يعددن له أهنأ زواج يخطر بالبال ... وصدق البرتغالي وقنع وراح يتصبر .

في أثناء ذلك قام البنياني الهندي بالاتصال بالأمير سلطان بن سيف فأطلعه على مخطط كامل للقلاع ووصف دقيق لأماكن مخارجها ومداخلها ، واتفق معه على أن يفسد الهندي مخازن المؤن بسوائل سامة ينثرها في كل مكان منها ، وبعدما تم التفاهم على كل صغيرة وكبيرة في خطة معقدة ذات تفاصيل عديدة قام سلطان بن سيف نفسه بالهجوم متوكلا على الله ، ولو أن إخلاص الهندي كان مزيفاً لضاع المسلمون وجيشهم في تلك السراديب الحصينة . وبوغت البرتغاليون بالتكبير حين دقت ساعة السماح بالتكبير فإذا الجند المسلمون بين مخادع نوم البرتغاليين ، فكأنما انشقت سقوف القلعة فأمطرتهم مطراً مميتا فوق البرتغاليين في أسرتهم ... واشتد الوطيس وأهلكت المباغتة العدو . وتمت الخطة بكل تفاصيلها وسقطت مسقط الحصينة المحصنة في أيدي أهلها وجاء الحق وزهق الباطل ، وذل المعتدون ورمى الله الأبراج بقدرته وحكمته .

وحين حاول بعض البرتغاليين الوصول الى ذخيرة مدافعهم وجدوا أنها لم تكن صالحة للاستعمال فقد أفسدها الهنود عليهم ... وكان اليوم مأساة لهم وحاول أسطولهم في البحر أن يفعل شيئا فلما انقضت عليه سفن العمانيين وأدرك قائده ما وقع في مسقط ومطرح ولى بسفنه هارباً الى عمق المحيط الهندي ليوصل نبأ الهزيمة الى سادته في جوا .

وشهد المسلمون في نزوى يوماً للنصر أزال غم القلوب ، ومحا غيظ النفوس بعد مائة وخمسين عاماً من الحزن وشقاوة الاحتلال وحكم الغريب الواغل ..

ولم يلبث سلطان بن سيف أن ودع الحياة فكأنما كانت رسالته مقرونة بمعجزة النصر في مسقط فلما تمت توفاه الله ..

هوامش

(١) نأخذ هنا برواية لوريمير إذ لانجد سببا للتشكيك فيها ، كما لا نجد تفاصيل هذا الصلح في مصادرنا الأخرى . ــ لوريمير : دليل الخليج ــ الترجمة المنقحة ص ٦٣٥ ج ٢ تاريخي .

(٢) هذا الوصف المثير نقلناه عن كتاب حمد بن محمد بن رزيق ــ الفتح المبين الصادر عن سلطنة عمان ١٣٧٧ وتحقيق عبد المنعم عامر وزميله ص ٢٨٥ .

(٣) البورتجيز تعني البرتغاليين بالانجليزية .

في رحلة على خط الاستواء ومن جزر المالديف

قام رءوف توفيق برحلة مثيرة إلى جزر المالديف .. وعاد من الرحلة ليكتب لمجلة الدوحة هذا المقال الشيق :

في هذا المكان البعيد .. على خط الاستواء .. وسط الجزر المتناثرة في المحيط الهندي .. تسمع صوت المؤذن ، واضحاً ، عذباً ، وبلغة عربية سليمة ، يدعو للصلاة .. وترى المصلين داخل المساجد ، يرتلون آيات القرآن الكريم .. ويمارسون شعائر الصلاة بكل خشوع وإيمان .



كراسات اللغة العربية في أيدي الأطفال

ميناء «مالي» العاصمة .. وحركة دائبة من المراكب التي تنقل البضائع والمسافرين



لقطتان .. الأولى : داخل أحد الفصول المدرسية .. والحصة في القرآن الكريم .. وكراسات اللغة العربية أمام كل تلميذة .. ثم لقطة أخرى لأطفال جزر المالديف

وجوه سمراء .. لفحتها أكثر أشعة الشمس الاستوائية الحارقة .. أسماؤهم كلها عربية .. الأجداد والآباء والأبناء ..

قد لا يجيدون التحدث باللغة العربية .. ولا يسعفهم في الحوار سوى بعض العبارات أو الكلمات .. ولكن مع الأجيال الجديدة ، بدأت خطة شاملة في المدارس .. لتعليم اللغة العربية من خلال مدرسين منتدبين من الدول العربية .

لهذا تشعر بالسعادة .. عندما ترى الأطفال ، في طرقات الجزر التي يسكنوها ، وقد خرجوا قبل ساعات الغروب .. يمسكون بكراسات اللغة العربية ، يستذكرون دروسهم في ضوء النهار .. وتكتشف داخل بيوتهم وبجوار لمبات الغاز .. لوحات الاردواز السوداء يكتبون عليها بالطباشير ، ويتعلمون حروف الهجاء العربية !

صورة لا يمكن أن تخطئها العين ..

تماماً كصورة الطبيعة هنا .. الطبيعة العذراء بكل عنفوانها وشموخها وطزاجتها .. البحر .. والرمال البيضاء وأشجار جوز الهند .. والنباتات الاستوائية العملاقة !

المكان .. جزر المالديف ..

على الخريطة تستطيع أن تحددها .. جنوبي غرب كل من الهند وسريلانكا .. وهي تمتد من درجة ٧،١٠ شمالي خط الاستواء ، الى درجة ٠،٤٥ جنوباً ..

أغرب مطار في العالم

والطائرة تقترب من هذه الجزر .. ترى من الجو منظراً فريداً .

سلسلة من البقع اللونية وسط المحيط الهندي .. كتلة من اللون الأخضر الداكن يحيط بها شريط من اللون الأبيض .. وكل كتلة من هذه يتدرج من حولها اللون الأزرق بكل درجاته .. لون المياه في المحيط !

وهذه الكتل .. أو البقع اللونية .. تأخذ أشكالاً مختلفة أحياناً مستطيلة .. وأحياناً دائرية .. وأحياناً مثلثة !

كل كتلة ، هي في الحقيقة .. جزيرة وسط المياه والجزر تقترب ، وتبتعد عن بعضها .. وكأنها حبات عقد من الألوان .

وجزر « المالديف » تتكون من ١١٩٠ جزيرة .. تشكل « أرخبيلا » مستطيلا في المحيط الهندي .

وعندما تبدأ الطائرة في الهبوط .. تتضح الصورة أكثر .. وتكتشف مدى جمال الطبيعة .. حيث تنبت الغابات الاستوائية في كتل كثيفة .. وسط نتوءات الجزر المرجانية التي شقت أمواج المحيط .

وتهبط الطائرة في أغرب مطار بالعالم ..

مطار داخل جزيرة كاملة .. وممر الهبوط يقسم الجزيرة نصفين .. بحيث ترى البحر على جانبي الممر .. وأمامك .. ومن خلفك ..

والجزيرة صغيرة ومخصصة بالكامل لكي تكون مطاراً ومبنى خدمات للركاب .. وهذا المطار افتتح


رئيس الجمهورية : الحاج مأمون عبدالقيوم


احدى فتيات « ماليديف » تعمل على شبكة الاتصالات

في نوفمبر عام ١٩٨١ .. ويحمل اسم « هولولي » .. ويبعد عن جزيرة « مالي » العاصمة بحوالي ربع ساعة يقطعها القارب .. وهو وسيلة الانتقال بين الجزر المتناثرة ..

هذا المطار الحديث أعد ليستقبل الطائرات العملاقة التي تعبر خطوطها من أوربا الى آسيا .. وقد كان افتتاح هذا المطار حدثاً هاماً في تاريخ جزر « المالديف » حيث اعتبر هذا المطار بمثابة باب للعالم الخارجي .. يسهل الانتقال من وإلى « المالديف » .. وبالتالي ينشط حركة السياحة .. والتي تعتبر المصدر الثاني للدخل في ميزانية جمهورية « المالديف » بعد صيد الأسماك .

الحياة في مائتي جزيرة فقط !

والعاصمة « مالي » تقع في جزيرة لا يتعدى طولها ميلين .. وهي ليست أكبر جزر المالديف .. فهناك جزيرة « جان » ويبلغ طولها أربعة أميال ونصف ميل ..

أما باقي الجزر فلا يزيد طولها عن الميل الواحد ..

واذا كانت مجموعة جزر المالديف تتكون من ١١٩٠ جزيرة .. إلا أن الجزر المأهولة بالسكان مائتان فقط .. أما باقي الجزر فهي إما غابات كثيفة .. أو مسطحات من الرمال والصخور المرجانية .

وعدد سكان جمهورية المالديف يصل الى ١٧٥ ألف نسمة .. وأكبر تجمع للسكان يقع بطبيعة الحال في الجزيرة « مالي » العاصمة حيث يسكنها ٤٠ ألف مواطن .. وهؤلاء يمثلون عائلات التجار والموظفين بالمصالح الحكومية ، والمدرسين ، وطلاب المعاهد الدينية .

ومن أهم ملامح العاصمة .. ميناء المراكب .. وسوق السمك .. ومبنى مجمع المصالح الحكومية حيث تتجمع كل الوزارات والإدارات في مبنى واحد .. ومبنى كلية دار العلوم (اللافتة باللغة العربية) .. ويضم عدداً من القاعات المجهزة للقراءة وللندوات ..

وتتلألأ تحت أشعة الشمس .. قبة مسجد العاصمة المكسوة بصفائح اللون الذهبي .

ودين الدولة هو الإسلام ..

وجميع أبناء « ماليديف » يعتنقون الاسلام .. ولاتمنح صفة « المواطن » إلا للمسلمين فقط .. وإن كان القانون يسمح لغير المسلمين بالاقامة الدائمة وحق ممارسة العمل .

شيء من التاريخ

يرى المؤرخون أن الشعب « المالديفي » ينتمي أصلاً الى الجنس الآري الذي نزحت جماعات منه (قبل الميلاد) من شمال الهند الى سريلانكا وبقية المناطق المجاورة للهند .

بينما يرى بعض المؤرخين ــ لم يثبت هذا تماماً ــ أن هذه الجزر كان يسكنها مستوطنون قبل وصول الهجرة الآرية ..

ولكن الثابت الأكيد .. أنه في فترات لاحقة من تاريخ « المالديف » .. اختلط المالديفيون بكل من العنصر العربي والعنصر الأفريقي الشرقي .

وكان الشعب المالديفي ــ في الأصل ــ يعتنق البوذية .. حيث كشفت الحفريات الأثرية القديمة ، وجود ثقافة بوذية في المالديف خلال السنوات الألف الأولى الميلادية .. وقد تم إكتشاف أحد التماثيل البوذية ، بدا تكوينه ، أقرب إلى التماثيل الهندية منه الى مثيلاتها السريلانكية .. الأمر الذي يدفع الى الاعتقاد بوجود اتصالات وعلاقات ثقافية مباشرة مع الهند منذ القدم .

وقد اهتدى الشعب المالديفي الى الاسلام في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي .. من خلال داعية اسلامي يدعى « أبو البركات يوسف البربري » الذي قدم على مالديف من جماعات البدو القاطنين في شمال أفريقيا

الحقيقة الثابتة

ومجتمع « جزر المالديف » يشهد حالة من

الاستقرار .. والقناعة التامة .. اكتسب من الطبيعة النقاء والصفاء والهدوء .. وتعلم من الاسلام السماحة ، والرضا ، والأخلاق الطيبة التي لا تعكر صفوها المطامع الخاصة أو الشرور .

إنهم يمتثلون ـ تلقائيا ـ لكل التعاليم الدينية المقدسة .

بل يؤرخون الجريمة .. بآخر جريمة حدثت منذ ١٥ عاماً .. وكان مرتكبها أحد الأجانب .. ويؤكدون على هذه الحقيقة بأن أبناء مالديف لم يرتكبوا أية جريمة طوال هذه السنوات .

وعندما تقترب من أبناء مالديف .. الذين يعيشون في الجزر البعيدة عن العاصمة .. تقترب أكثر من الحياة البدائية بكل بكارتها ونقائها ..

وقد أتاحت لي الظروف أن انتقل الى إحدى الجزر البعيدة (تبعد حوالي ثماني ساعات في المحيط من ميناء العاصمة) وأكثر ما أثار اهتمامي .. تلك المجاميع الهائلة من الأطفال الذين خرجوا على شاطىء جزيرتهم .. يتأملون هذا القارب القادم إليهم .. وهؤلاء الزوار « الأجانب » ..

وعندما حط القارب بالقرب من الشاطىء .. وقف الأطفال يكتمون دهشتهم وهم يشاهدون الزوار الأجانب يسيرون بينهم .. لا أحد يعترضك .. ولا أحد يسألك ..

وتزداد دهشتنا نحن .. ومرافقنا « المالديفي » يقود خطواتنا الى داخل الجزيرة .. ووجوه النساء والرجال العجائز ترقبنا في فضول .. ولكن في صمت ، يكفي أن تلقي عليهم عبارة « السلام عليكم » فتشعر بالطمأنينة والترحيب على وجوههم وهم يردون السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

ومرافقنا « المالديفي » يدعونا لدخول منازل أهالي الجزيرة ..

المنازل بسيطة جداً .. ومتواضعة .. ولكنها نظيفة جداً ..

الملابس نظيفة .. ومغسولة بعناية .. والأطفال وجوههم تنبض بالحيوية وبريق النظافة .. الشعر المغسول ، اللامع .. وقمصانهم البيضاء ، والصنادل الخفيفة في أقدامهم .

الدين يحض على النظافة .. وهم مؤمنون تماماً .

والمنازل تفتح لنا بلا أي سؤال أو إعتراض .. أطفال كثيرة .. والسن متقاربة .. وكأنهم كلهم ولدوا في أعوام قليلة متلاحقة ..

بعض العجائز .. يشغلون وقتهم في صنع وزخرفة الأواني الخشبية .. معداتهم بدائية قديمة .. يستعملون أيديهم وأقدامهم في تشغيل تلك المعدات وطلائها .

نماذج قليلة من المشغولات اليدوية .. وعندما تبدي اعجابك بها ، لابد أن تتساءل .. لماذا لا تصبح هذه المشغولات بداية لصناعة تدر دخلا على أصحابها .. لماذا لا يصبح في كل بيت مشغل خاص وآلات أكثر تطورا ؟

وتأتي الاجابة هادئة تماماً ـ مثلهم ـ إنهم يصنعون هذه المشغولات ليس من أجل زيادة الدخل .. ولكن كنوع من الهواية والمزاج الخاص ..

إنهم قانعون جدا بما يرزقهم به البحر .. ولا يحلمون بأكثر مما يملأ بطونهم .. ثم ينامون بلا هواجس أو أطماع !

إنهم يعيشون على الأسماك .. وثمار جوز الهند ..

من الأسماك ما يؤكل طازجا .. ومملحاً .. ومجففاً ..

ومن الأشجار ما يبنون به بيوتهم .. ويصنعون مراكبهم الصغيرة .

وتسأل عن الشباب .. أين ذهب شباب الجزيرة ؟ فأغلب الذين تقع عليهم عيناك إما أطفال أو نساء أو رجال عجائز ..

ويأتي الرد بأن الشباب إما انتقلوا الى العاصمة « مالي » بحثاً عن العمل .. وإما ارتحلوا الى الجزر السياحية ليعملوا في الفنادق السياحية .

جزر للسياح .. فقط !

ومع تدفق حركة السياحة الى جزر المالديف .. قررت الحكومة تخصيص ٤٨ جزيرة لاستقبال السائحين ..

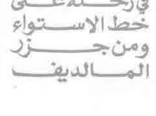
وهذه الجزر السياحية .. مغلقة تماما أمام



رياضة القوارب الشراعية التي تجذب الكثير من سياح العالم إلى جزر المالديف



داخل استوديو في تليفزيون جزر المالديف





حصة دينية في صحن أحد المساجد في العاصمة

المواطنين العاديين .. فليس من حقهم السكن بها .. أو التعامل معها إلا من خلال «تصاريح» خاصة تصدر من المسئول الاداري لكل جزيرة ..

وهذه الجزر أصبحت تشكل حلماً أرحب بالنسبة للشباب .. فهي تمثل لهم فرصاً جديدة للعمل واكتساب الخبرات .

ولكن حتى هذا الحلم .. ينظر له البعض . على أنه الطريق للفساد والإنحراف .. فالاحتكاك بالسائحين قد يورث أفكاراً ومعتقدات خاطئة . وخطيرة ..

ولهذا تسمعهم هنا .. يتكلمون بشوق وحنين الى ليالي القمر عندما تهل على أهالي الجزر .. فيخرجون من منازلهم .. يتسامرون في حب وإخاء .. وكيف تنسحب هذه الليالي الجميلة أمام حلم الهجرة الى الجزر السياحية .. والتي تضاء بالمولدات الكهربائية .. ويسود فيها صوت شرائط الكاسيت بالموسيقى الغربية !

والمشكلة قد تبدو رومانسية .

ولكنها بالتأكيد إحدى تحديات التطور .. التي يواجهها رئيس جمهورية «المالديف» الحاج مأمون عبد القيوم .. ومعه البرلمان والأجهزة التنفيذية ..

ورئيس جمهورية المالديف الحاج «مأمون عبد القيوم» .. من عائلة متوسطة في «مالي» .. ولد عام ١٩٣٧ .. وقضى فترة من صباه وشبابه الأول في مصر .. تعلم في الأزهر الشريف .. ثم استكمل دراسة القانون والفلسفة من الجامعة الأمريكية في القاهرة .. وحصل أيضاً على شهادة القانون الاسلامي والفلسفة من جامعة «أحمدو بيلو» بنيجيريا من عام ٦٩ ــ ٧١ .

وقد انتخب رئيساً لجمهورية المالديف في عام ١٩٧٨

ويعتبر رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة ، ورئيس السلطة التنفيذية في نفس الوقت .. ويتم ترشيحه من قبل مجلس الشعب أولاً عن طريق الاقتراع السري .. ثم يطرح للإنتخاب الشعبي في استفتاء عام .

وفيما يتعلق بالسلطة التشريعية فهي تتركز في مجلس الشعب الذي يتكون من ٤٨ عضواً ، يعين الرئيس ثمانية أعضاء منهم .. ويتم اختيار الباقي بواسطة الانتخابات العامة بحيث يكون عضوان من «مالي» ــ العاصمة ــ ثم عضوان من كل مجموعة جزرية .

وجزر المالديف مقسمة الى ١٩ اقليماً ، يرأس كل منها رئيس مسئول يتم تعيينه من قبل رئيس الجمهورية .

السمك الطائر .. والمياه المضيئة

ولأن الجزر متناثرة .. ومتباعدة في المحيط الهندي .. (تمتد مساحة ٨٢٠ كيلومتر طولاً و ١٣٠ كيلومتر عرضاً .. وتشغل مساحة كلية قدرها ١٠٦,٦٠٠ كيلومتر مربع .. تحتل اليابسة منها ٢٩٣ كيلومتر مربع فقط) ...

لذلك تعتبر رحلة التنقل من جزيرة الى أخرى .. رحلة لا يقوم بها المواطنون إلا لظروف قصوى .. فكل جزيرة تعتبر مجتمعاً مستقلاً متكاملاً ..

ولكن بالنسبة للسائح ــ مثلي ــ فرحلة التنقل بين بعض الجزر .. كانت فرصة نادرة للاستمتاع برؤية الأنواع النادرة من الأسماك وهي تسبح تحت الماء .. ونظرا لشفافية الماء وخصوصا بالقرب من شواطىء الجزر .

أما في أعماق المحيط .. فقد تصادف مجموعات «الدرافيل» وهي تسبح بجوار بعضها .. وتقفز في



كل الألوان .. وأندر أنواع الأسماك في المحيط الهندي

جمال الطبيعة في إحدى جزر المالديف



الهواء للحظات .. ثم تختفي تحت الماء ..

وقد تصادف بعض أنواع السمك الطائر .. الذي يشق الأمواج ليطير في الهواء لمسافة طويلة ثم يعود مرة أخرى الى الماء .

وهواة الغوص في أعماق المحيط والذي يأتون من أنحاء أوربا في مجموعات سياحية .. يمارسون رياضتهم ويتحدثون عن مشاهداتهم المثيرة .. وبعضهم يستغل هوايته في تصوير الأفلام السينمائية العلمية تحت الماء .. أو يؤلفون الكتب ولكن مهما قرأت .. أو سمعت .. إلا أن المشهد

الذي لا يمكن أن تتخيله .. هو كيف تضيء أمواج المحيط ليلا بوهج الفسفور .. عندما تتكسر الأمواج على حافة القارب .. فيبدو ضوء الفسفور كحبات من الماس .. أو تشكيل من النجوم المتلألأة وسط المياه .

عشرون عاماً .. من الاستقلال

وجمهورية « مالديف » تحتفل هذا العام بمرور عشرين عاما على استقلالها .

فمنذ عام ١٨٨٧ وجزر المالديف كانت محمية بريطانية وذلك بموجب الاتفاقيات المبرمة بين

السلطان محمد معين الدين والحاكم البريطاني في سيلان .. وكانت مالديف تدفع ، بمقتضى هذه الاتفاقية ، اتاوة سنوية للحاكم البريطاني في سيلان .. ثم توقفت عن الدفع منذ سنة ١٩٤٨ ، حيث منحت شكلاً من اشكال الحكم الذاتي .

وفي يوم ٢٦ يوليو ١٩٦٥ ، أصبحت « مالديف » دولة مستقلة ذات سيادة ، بعد التوقيع على اتفاقية الاستقلال بين « مالديف » والمملكة المتحدة .

ومما هو جدير بالذكر أن « مالديف » لم يقم بها أي حاكم أو مندوب إداري بريطاني ، طيلة فترة الحماية .. باستثناء سنوات الحربين العالميتين الأولى والثانية ، حيث اتخذت بريطانيا تسهيلات عسكرية لها في الجزر الواقعة على الأطراف الشمالية والجنوبية .

وقبل فترة الحماية البريطانية .. يذكر تاريخ « مالديف » أنها تعرضت لفترة استعمار برتغالي ، استمرت ١٧ عاماً ابتداءاً من عام ١٥٥٨ .. حيث كانت « مالديف » تابعة في تلك الفترة للحاكم البرتغالي المقيم بالقواعد البرتغالية في « جوا » بالهند .

ويحكي تاريخ « مالديف » عن ثورة الشعب المالديفي عام ١٥٧٤ بقيادة « محمد تاكوروفان » الذي يعتبرونه من ألمع الأبطال والذي نظم كفاح أبناء مالديف لطرد البرتغاليين من أرضهم .

رصيد للمستقبل

هذه بعض ملامح من الدولة الاسلامية « مالديف » التي تتشبث بلغة القرآن .. وروحه .

وإذا أدركنا أن ٦٠ في المائة من مجموع السكان ، تقع أعمارهم تحت سن العشرين ..

لاستطعنا أن نقرر حجم التحدي الذي تواجهه هذه الدولة في مجال التنمية والبناء .. ولاستطعنا أيضاً أن نفهم معنى حرصهم على تعليم اللغة العربية .

إنه باختصار .. اضافة لرصيد المستقبل .

رءوف توفيق

من روائع الفن الأمريكي قبل عصر «كولمبس»:

تسليط الأضواء من جديد على حضارة الهنود المنسية



قناع من مخلفات حضارة «المايا» يرجع إلى القرن الخامس الميلادى.. ولوحة للفاتح الأسبانى «بيزارو» يأسر ملك الأنكاغورا (١٨٤٦)

لم تسلط الأضواء على فنون الشعوب الأصلية لأمريكا اللاتينية إلا مؤخراً ، وكأن الرجل الأبيض الذى استعمر أمريكا منذ أكثر من أربعمائة عام شاء أن يخفى عمداً كل ما ينم عن حضارتها أو يشهد بتقدم سكانها الأصليين فى الفنون والصنائع كى يبرر استلاب هذه البلاد وابادة شعوبها ، وهى واحدة من أبشع جرائم الرجل الأبيض فى العصر الحديث .

ولكن الحقيقة لا تغيب الى الأبد . إذ خلال العشرات الأخيرة من السنين بدأ العالم يعرف أن من يسمون بالهنود الحمر ، أى شعوب المايا والانكا والازتك وغيرهم من سكان أمريكا الأصليين ، كانت لهم حضارة متقدمة ، وبرعوا براعة منقطعة النظير فى صنع الحلى والأقنعة والتماثيل ، وفى زخرفتها وتطعيمها بالذهب والفضة والمجوهرات . مما يدل على علو باع فى فنون الحضارة يضاف الى ما خلفوه من آثار عظيمة فى المعمار وتعبيد الطرق ومعرفة الهندسة والحساب والتقويم ، حتى ليقال أحياناً إن حضارة الهنود الحمر لم تكن تقل فى بعض نواحيها عن حضارة الفراعنة فى أزهى عصورها .

والآن ، تمتلىء المتاحف والمجموعات الخاصة فى أمريكا وأوربا بآلاف التحف والقطع الفنية التى خلفتها هذه الشعوب العريقة قبل مقدم الرجل الأبيض فى أوائل القرن السادس عشر للميلاد ، ويعكف الباحثون والدارسون والنقاد على فحصها ودراستها بعناية ، وكأنها كنز كشف عن أسراره ، أو غنيمة غارقة ظهرت على سطح البحر ، فلا يزدادون إلا إعجابا وتقديراً لهذه الحضارات العظيمة الضائعة .

وقد قام عدد من الاخصائيين برئاسة جاك سوستيل بفحص مئات من هذه القطع المبعثرة فى المتاحف والمجموعات الخاصة ، واختاروا منها ٤٠٠ قطعة فنية قاموا بنشرها علمياً فى مجلد ضخم ظهر خلال شهر ابريل الماضى بعنوان « روائع من الفن الأمريكى قبل عصر كولمبس » ، ومعظمها لم يكن معروفاً من قبل إذ كان فى طى الكتمان ، وهى تنشر الآن على الجمهور لأول مرة .

وقد تسربت هذه الروائع عن طريق عمليات السرقة والنهب للمواقع الأثرية فى أمريكا اللاتينية ، تلك التى لم تنقطع منذ القرن السادس عشر حين وصل الفاتح الأسبانى دى كورتيز الى أرض الازتيك (المكسيك حالياً) فى عام ١٥٢١ وحاصر عاصمتها « تينو شتيثلان » ودمرها عن بكرة أبيها بما فيها من قصور ومعابد تنطق بروعة الحضارة الازتيكية ، وأطلق يد جنوده فى نهب تحفها . وتكرر نفس الشيء فى بيرو عام ١٥٣٣ على يد الفاتح الأسبانى بيزارو الذى استطاع بجنوده الذين لا يتجاوزون ١٨٠ فرداً تدمير

بقلم: محمد العزب موسى



نموذج من الفن الزابوتيكي الذى إزدهر فى القرن الرابع الميلادى، تم العثور عليه فى المكسيك



قناع مغطى بطبقة من الصدف . من مخلفات حضارة «تيو تيهوا كان» فى القرن الرابع الميلادى

حضارة الإنكا العظيمة بعد أن أسر امبراطورها «أتوالابا» فى عمل يعد من أوقح وأخس الأعمال على طول التاريخ . وفى «يوكاتان» حدث نفس الشيء أيضاً فى حضارة «المايا» التي ازدهرت آلاف السنين ثم انهارت كخيوط العنكبوت لدى أول لمسة من أصابع الرجل الأبيض .

وقصة انهيار حضارة الانكا بالتحديد تستحق أن تحكى كمثال على خسة ودناءة الفاتحين الأسبان ، اذ عندما وصل المغامر الأسباني بيزارو بثلته الصغيرة من الجنود الى مشارف مملكة الانكا المنيعة فى جبال بيرو ، قرر الامبراطور اتوالابا أن يذهب بكل حاشيته وجيوشه الجرارة للقاء هؤلاء الغرباء ، وليكن سلام ومحبة إذا خلصت نية القادمين أو فلتكن هي الحرب . يقول بيدرو ابن عم بيزارو قائد الغزو «رأيت كثيراً من الجنود الأسبان يبولون على أنفسهم دون أن يدروا من شدة الخوف عندما رأوا هذه الجيوش الجرارة» . ولكن بيزارو قرر استغلال عنصر المفاجأة لشن هجومه الغادر ، وكان قد أخفى جنوده ومدافعه الصغيرة داخل فتحات بعض الأبنية ، وعند اشارة متفق عليها مسبقاً هدرت المدافع ، وخرج الجنود الأسبان من مخابئهم ، وانهمرت نيران البنادق على جموع الانكا الذين لم يروا فى حياتهم ، ولم يتصوروا فى خيالهم ، مثل هذه الأسلحة التى تحصد العشرات والمئات ، فدب فيهم الذعر ، واستبد بهم الهلع ، حتى ان البعض منهم مات من شدة الرعب دون أن يصبه سلاح ، ثم هجم الأسبان على محفة الملك ، وانتزعوه منها ، بعد أن قتلوا النبلاء الذين يحملونها .

كتب أحد الجنود الأسبان مفاخراً بهذا «النصر» يقول : «خلال ساعتين كانت كل هذه القوات التى تتجاوز الثمانين ألفاً قد أبيدت أو تشتتت ، وكان شيئاً لا مثيل له رؤية هذا الحاكم العظيم وهو يقع فى الأسر خلال لحظات بعد أن جاء فى قمة عظمته وقوته» .

وبوقوع الملك أتوالابا فى الأسر تشتت كل جيشه وذهب هباء ، لأن الملك هو مركز العصب فى مجتمع الإنكا ، وبدونه لا يمكن أن يفعل أحد شيئاً ، تماماً كخلية النحل إذا فقدت ملكتها تبعثرت وهلكت ، ولذلك يقال ان فتح بيرو جاء نتيجة الحركة الشطرنجية «كش ملك» فى أول اللعب !

وعرض الملك أتوالابا على آسريه أن يطلقوا سراحه مقابل أن يملأ احدى حجرات القصر بالذهب مرة ، وبالفضة مرتين ، وهو عرض رحب به بيزارو ، وسرعان ما بدأت قوافل حيوان اللاما تخرج من شعاب جبال الانديز حاملة اطناناً من الكنوز المعدنية الثمينة التى برع فيها شعب الانكا : تماثيل آلهة وحيوانات وطيور ، وكئوس ذهبية وفضية ، ومجوهرات ومصاغ وموائد قرابين من الذهب الخالص والفضة النقية ، بالاضافة الى سبعمائة من الصفائح الذهبية الكبيرة التى كانت تزين جدران معبد الشمس الرئيسى فى العاصمة «كوزكو» ، وجيء بهذه الكنوز الى الأسبان فدية للملك اتوالابا .

ولكن كل هذه التحف الرائعة سحقت دون رحمة وصهرت فى آذان ضخمة لتحويلها الى سبائك من المعدن ، ونقلوها إلى أسبانيا حيث سكت منها العملة الأسبانية .

من المحتمل أن تكون فدية الملك «اتوالابا» هى أكبر فدية دفعت فى تاريخ الانسان : ان كل ثروة امبراطورية الإنكا التي جمعت خلال ألف سنة قد انهمرت بين يدى الأسبان لتملأ الحجرة بالذهب مرة وبالفضة مرتين ، ولكنها للأسف لم تكن كافية لانقاذ حياة الملك ، اذ بعد أن حصل الأسبان على آخر حمل جاء به آخر حيوان من قافلة اللاما ، اقتادوا «أتوالابا» الى ميدان عام ، وأعدموه ، بزعم انه كان يتآمر لشن هجوم على الأسبان !

وكانت هذه فرية كبرى فإن قواد الانكا لم يجرءوا على مهاجمة الأسبان رغم قلة عددهم لأن مليكهم سجين بين أيديهم . وخشى الأسبان أن يطلقوا سراح الملك بعد أن دفع الجزية خوفاً من أن يصحبوه معهم فى تغلغلهم داخل البلاد تحسباً من للفاجآت ، لذا آثروا أن يقتلوه غدراً ثم وصلتهم تعزيزات جديدة استكملوا بها تدمير مملكة الإنكا .

ونفس هذا الغدر تقريباً تعرض له شعب الازتيك ، إذ ظنوا أن الفاتح الأسبانى دى كورتيز هو كبيرهم الغائب «كويتز الكوتل» الذى تقول الأساطير انه اختفى فى الزمن السرمدى ووعد بالعودة إليهم مرة أخرى قادماً من البحر ، وعلى هذا قابلوا دى كورتيز بحفاوة بالغة وأطاعوه ، وقد استمرأ دى كورتيز هذا الوضع واستغله الى أقصى حد ، وجعل الملك مونتيزوما ملك الازتيك يسير فى حاشيته ، حتى أحكم الحصار على عاصمته ، ودكها دكا ، وأقام على أنقاضها مدينة المكسيك .

وخلال القرون التالية جهد المستوطنون الأوربيون عموماً من أسبان وبرتغاليين وفرنسيين وانجليز وغيرهم فى انكار أى فضل أو حضارة لمن أسموهم بالهنود الحمر ، ورموهم بالبربرية والتخلف والهمجية ، توطئة لاستئصال شأفتهم ، واستعبادهم ، وابادتهم .

ولكن ، كما ينتصر الحق على الباطل ولو بعد طول المدى ، أخذت شواهد هذه الحضارات المنسية المظلومة تظهر على السطح من جديد لتؤكد لنا : كم كانت هذه الحضارات عظيمة ، وكم كان أهلها بارعين فى كل شيء عدا الغدر واللؤم اللذين تميز بهما القادمون من وراء البحار .

وردت كلمة « مخ » لأول مرة فى البردية المصرية « ادوين سمث » والتي ترجع الى سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد .. والعجيب أن هذه الكلمة لم تعرفها لغات الدنيا كلها فى ذلك الوقت .. فحتى الوثائق الطبية الاغريقية القديمة لم يرد فيها ذكر كلمة « مخ » إلا بعد أكثر من ٢٠٠٠ سنة . وفى دقة بالغة تصف البردية المصرية تجاعيد المخ الخارجية وتشبهها بسطح المعادن بعد صهرها ، وتضيف البردية بأن المخ هو مركز التحكم العصبي فى الجسم البشرى ، وأن إصابة الرأس والمخ قد تؤدى الى اضطراب التحكم فى مختلف أجزاء الجسم بما فى ذلك القدمين .. والعجيب أن يرد ذكر لكسور الجمجمة المنخفضة وعلاقتها بشلل الجسم .. والتشنجات الناتجة من إصابة الرأس . كما يرد ذكر أهمية التحكم العصبي فى حركة عضلات الجسم ، هذا بالاضافة إلى وصف دقيق لمرض « التيتانوس » الناتج بعد اصابة الرأس .



بقلم : الدكتور سامي عزيز

وبداية فإنه يمكن تقسيم الجهاز العصبي الى قسمين رئيسيين :

١ ــ المجموعة المركزية : وتتركب من المخ الذي بداخل الجمجمة والنخاع الشوكى الذي بداخل القناة الغضروفية .

٢ ــ المجموعة الفرعية : وتشمل الألياف العصبية العديدة وعقدها المختلفة وهي :

• ــ الأعصاب الدماغية وعددها ١٢ على كل جانب .

• ــ الأعصاب النخاعية الشوكية وعددها ٣١ على كل ناحية .

• ــ الأعصاب اللاارادية ، وتنحصر فى الجهاز السيمبثاوى (التعاطفى) والجهاز الباراسيمبثاوي (نظير التعاطفى) .

وسنقتصر فى الحديث عن المخ ، الذى يمكن تقسيمه إلى المخيخ ومقدم المخ :

أولا .. المخيخ : يصل وزن المخيخ فى المتوسط حوالى ١٤٥ جراماً ويقسم عادة الى ٢٠ قسماً وستة جسور تصله بباقى أقسام الجهاز العصبي المركزي . أما بالنسبة لوظيفته فاننا نجد :

• ــ الجزء الأمامى منه يختص بالتوازن .

• ــ الجزء الأوسط منه يختص بايصال الأوامر لعضلات الجسم المختلفة .

• ــ الجزء الخلفى منه يختص بتنسيق الأعمال الارادية . لذلك يمكننا أن نقول عنه أنه مركز توافق وانسجام حركات الجسم الارادية .

لذلك فتخريب المخيخ فى الطير يفقده الاتزان والقدرة على الطيران فيهوى على الأرض . كذلك تخريب الجزء الأمامي من المخيخ فى الكلب يجعله يسقط للأمام أثناء المشى .. أما تخريب الجزء الخلفى فيجعله يسقط للخلف .. وتخريب نصف المخيخ يجعله لا يستطيع الوقوف فيندفع باتجاه

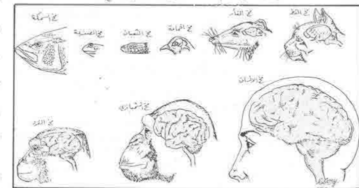
شكل (١) سطح المخ فى الانسان ، وتظهر عليه أهم مراكزه

- مخ الجنين يتكون من ١١ مليارًا من الخلايا العصبية
- كل من يقل وزن دماغه عن كيلوجرام .. فهو من المعتوهين
- بعض الزواحف يصل وزنها إلى ١٤٠٠ كيلوجرام ولا يزيد مخها عن ٧٠ جرامًا

شكل رقم (٢)

المنطقة الحركية للمخ

شكل (٢) مناطق الجسم المختلفة ممثلة في المنطقة الحركية للمخ



العلاقة بين وزن المخ ووزن جسم الحيوان علاقة هامة في تحديد الذكاء والعبقرية

واحد وتتباعد أطرافه .

والتخريب الكامل للمخيخ يجعل الحيوان أو الانسان يضطرب ويفقد الانسجام ويتطوح في مشيته كالسكران في خط متعرج مع اهتزاز في الرأس والجسم .

ثانياً .. مقدم المخ : وهو عبارة عن نصفي كرة ويكون الجزء الأكبر من حجم المخ ويقع أعلى المخيخ .. وسطح مقدم المخ أملس في الظاهر ولكنه في الواقع يحتوى على شقوق عميقة تسمى « الأخاديد » ويترتب على ذلك حدوث ثنيات بين الأخاديد تسمى « التلافيف » .. وصورة الأخاديد والتلافيف واحدة تقريباً في أمخاخ الناس جميعهم ولكنها تختلف في خصائصها من فرد إلى فرد . وفي الشيخوخة تميل الأخاديد الى الاتساع كما تجنح التلافيف الى الانكماش . ويتميز نصفا كرة المخ كسائر أجزاء الجهاز العصبي المركزي إلى :

* ــ المادة الرمادية والتى تسمى أيضاً قشرة المخ وتحوى الخلايا العصبية .
* ــ المادة البيضاء وتحوي الألياف العصبية (المحاور العصبية) .

ويمكن تقسيم نصفي كرة المخ إلى فصوص .. ويسمى كل فص بحسب منطقة الجمجمة التى تعلوه . وهذه الفصوص هي :

١ ــ الفص الجبهى .
٢ ــ الفص الجدارى .
٣ ــ الفص المؤخري .
٤ ــ الفص الصدغي .

وحتى تسهل دراسة كل جزء من قشرة المخ دراسة وظيفية ، تم الاتفاق على تقسيمه الى مناطق صغيرة ، وسميت كل منطقة برقم معين .. فمثلا :

الفص الجبهى يشتمل على المناطق رقم ٤ ، ٦ ، ٨ ، ٤٤ .

والفص الجدارى يشتمل على المناطق رقم ٣ ، ١ ، ٢ .

والفص المؤخرى يشتمل على المناطق رقم ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

والفص الصدغى يشتمل على المناطق رقم ٥٢ ، ٤١ ، ٤٢ .

لذلك فوظائف المخ يمكن دراستها بحسب الفص والمنطقة التي تختص بها (شكل رقم ١) .

١ ــ الفص الجبهى :

أكثر نمواً في الانسان بالمقارنة إلى سائر الحيوانات ويختص بالوظائف العقلية العليا كالحكم والتقدير والتدبير بالاضافة إلى ادراك بعض الأحاسيس كالشعور بالألم . أما الجزء الخلفي من الفص الأمامي فيختص بالحركات الارادية .. إذ أن الخلايا العصبية الموجودة في قشرة المخ بهذا الجزء (المنطقة الحركية) تصدر منها السيالات الباعثة على الحركة .. وامكن بعد تجارب عديدة باستخدام أقطاب خاصة لتنبيه خلايا هذه المنطقة التأكد من أن مناطق الجسم المختلفة ممثلة في المنطقة الحركية

للمخ بطريقة مقلوبة . فيمكن تمثيلها (كما فى الشكل رقم ٢) بصورة رجل مقلوب .. الرجل إلى أعلى فى تقابل السطحين الانسي والوحشي ، واليد والفم الى أسفل ناحية الفص الصدغي .

٢ ـ الفص الجدارى :

المنطقة رقم ٣ ، ١ ، ٢ ، وتختص بالاحساس غير المتخصص مثل الاحساس باللمس والاحساس بالوضع وبعض عناصر الاحساس بالألم ، والاحساس بالتغيرات المحدودة في درجة الحرارة .. وتجدر الاشارة هنا الى ان منطقة الاحساس تماثل المنطقة الحركية فى تمثيل مناطق الجسم المختلفة عليها بطريقة مقلوبة .

٣ ـ الفص المؤخرى :

ويختص باستقبال السيالات البصرية وتقديرها وتقويمها . ويشتمل هذا الفص على المناطق رقم ١٧ ، ١٨ ، ١٩ . أما وظائف هذه المناطق فى استقبال السيالات البصرية فهى كالاتي :

• ـ المنطقة رقم ١٧ : نرى بها الأشياء على هيئة مجموعة من الأضواء المختلفة الشدة .

• ـ المنطقة رقم ١٨ : نتعرف بها على الصور المختلفة .

• ـ المنطقة رقم ١٩ : يمكن بهذه المنطقة استدعاء وتذكر الصور المختلفة التي سبق رؤيتها .

لذلك ليس من الخطأ بل من الصواب أن نقول إننا نبصر بمؤخرة أمخاخنا وليس بعيوننا كما هو مألوف ، فالعين ما هى الا كاميرا لالتقاط الصور أما إدراك هذه الصور وتقديرها والاحتفاظ بها فى الذاكرة فيختص به هذا الفص من المخ .

٤ ـ الفص الصدغي :

يختص الجزء الأوسط من التلفيف الصدغي الأعلى باستقبال السيالات السمعية . وسبق أن ذكرنا أن هذا الفص يشتمل على المناطق رقم ٥٢ ، ٤١ ، ٤٢ . وأما وظائف هذه المناطق فهي :

• المنطقة ٥٢ : تدرك الأصوات المختلفة على أنها نوع من الرنين أو الضوضاء .

• المنطقة ٤١ : ندرك بها معنى الأصوات المختلفة التى نسمعها .

• المنطقة ٤٢ : يمكن بها استدعاء وتذكر الأصوات المختلفة التى سبق أن سمعناها .

وتجدر الاشارة الى أن جميع مناطق القشرة يتصل بعضها ببعض بواسطة شبكة كبيرة من المحاور العصبية .. لذلك لا تستطيع منطقة من مناطق المخ أن تؤدى وظائفها مالم تكن اتصالاتها كلها سليمة سواء فى ذلك الاتصالات الصادرة منها والواردة إليها .

نمو المخ

يعتبر تكوين المخ فى الجنس البشرى من ظواهر النمو المبكرة . ويصل عدد خلايا مخ الجنين بعد اكتمال نموه الى حوالى ١١ مليارا من الخلايا العصبية .. وهذا يعنى أنه حتى يتوافر هذا العدد الهائل من الخلايا (١١ مليارا) فى وقت الولادة فإنه يجب أن يتم انتاج ما يقرب من عشرين ألف خلية عصبية كل دقيقة فى المتوسط .

وبعد الولادة يستمر المخ فى النمو بسرعة أكبر كثيرا من سرعة نمو أجزاء الجسم الأخرى بحيث يبلغ نموه لدى طفل فى الرابعة من عمره بمقدار يمثل ٩٠ فى المائة من وزنه حينما يصل الطفل مرحلة البلوغ .

ويظهر من هذا الجدول مقادير نمو المخ البشرى الطبيعي خلال العشرين سنة الأولى من العمر :

السن	وزن المخ بالجرام
عند الولادة	٣٤٠
٦ أشـهر	٧٥٠
سنة كاملة	٩٧٠
سنتان	١١٥٠
٣ سنوات	١٢٠٠
٦ سنوات	١٢٥٠
٩ سنوات	١٣٠٠
١٤ سنة	١٣٥٠
٢٠ سنة	١٤٠٠

ويتضح من هذا الجدول أنه رغم أن مقدار النمو هو أعلى مقدار قبل الولادة ، فإن وزن المخ البشرى يزداد أثناء السنوات الخمس الأولى من الحياة بما يقارب ثلاثة أضعاف ما كان عليه . وتجدر الاشارة الى أن مقدار هذا النمو المتقدم لا يوجد له نظير لدى أى من الثدييات الأخرى . والأبحاث العلمية تشير إلى أهمية التغذية وأثرها على الطفل قبل الولادة وبعدها . فإذا لم تتلق الأم الغذاء الكافي أثناء فترة حملها ، فإن جنينها يتعرض لنقص شديد فى التغذية الضرورية له . ومن المعروف أن تغذية الجنين بعد الأسبوع السابع من الحمل تتم بواسطة المشيمة . والمشيمة ما هى الا عضو مؤقت أسطوانى الشكل تتلاقى عنده أوعية الجنين الدموية بأوعية الأم . ويتم تبادل المواد الغذائية والأوكسجين والهرمونات بواسطة المشيمة بين الأم وجنينها . وتؤكد الدراسات التى أجريت فى أحد المراكز المتخصصة فى الولايات المتحدة أن الأم التى تعاني من سوء التغذية تكون مشيمتها أصغر وأخف وزنا من مشيمة الأم التى تتلقى كمية كافية من الطعام المغذى السليم . كما أثبتت الدراسات التى أجراها الدكتور أ . زامنهوف الأستاذ بجامعة كاليفورنيا أن خلايا مخ الفأر المحرومة أمه من المواد البروتينية أقل عددا من خلايا مخ الفأر الذى تحصل أمه على نصيب كاف من البروتين . كما توصل الى أن الحيوانات التى تعاني أمهاتها من ضعف فى مشيمتها يقل عدد الخلايا العصبية فى مخاضها عن المستوى الطبيعى عند الولادة .

والدراسات والأبحاث المنشورة فى المجلات الطبية تؤكد أن سوء تغذية الأم أثناء الحمل يعرقل نمو مخ مولودها ، لذلك كانت الحاجة إلى توجيه عناية خاصة إلى تغذية الأم أثناء فترة الحمل والرضاعة وخاصة فى دول العالم الثالث .

وزن الدماغ .. والعبقرية :

من المعروف أن الدماغ الذى يقل وزنه عن الكيلوجرام لا يوجد عادة الا فى المعتوهين والبلهاء وضعاف العقول بوجه عام . وفى دراسة شيقة نشرتها مؤخرا احدى المجلات الطبية المتخصصة .. حاول الباحث فيها أن يوجد علاقة بين وزن الدماغ والعبقرية . يذكر الباحث أن وزن دماغ « رفائيل » الرسام الشهير يوم مات كان ١١٦١ جراما وأن وزن دماغ « اناتول فرانس » الكاتب الفرنسى الكبير ١١٧٠ ، وأما الكاتب الروائى الروسى « تورجنيف » فوزن دماغه يوم مات كان ٢٠١٢ جراما ، وان السياسى بسمارك بلغ وزن دماغه يوم أن مات ١٨٠٧ جراما كما أن الشاعر الالمانى شيلر كان دماغه يزن ١٥٨٠ جراما .. ويؤكد الباحث بهذه الأدلة وغيرها على صحة نظريته .. العبقرية ترتبط بزيادة وزن الدماغ عن المعدل الطبيعي .

ولكن هذه النظرية ينقصها الكثير . ولا يمكن الأخذ بها والا كان الرجل أذكى من المرأة على الدوام ، لأن متوسط وزن دماغه يزيد بأكثر من ٨ بالمائة على متوسط وزن دماغ المرأة . والواقع أن العبقرية لا ترتبط بوزن الدماغ بل بعوامل أخرى أهمها :

١ ـ مساحة مسطح قشرة المخ وحجمها (المادة الرمادية المحتوية على الخلايا العصبية) : فى الشخص العادى يصل مسطح قشرة المخ ٢٢٠,٠٠٠ ملليمترا مربعا .. وثلث هذه المساحة فقط يمثل الجزء الخارجي الظاهرى من قشرة المخ أما الجزء الأعظم فيمثل الجدران الجانبية للشقوق العميقة (الأخاديد) التى سبق الحديث عنها . لذلك فمن نعمة الله علينا وجود هذه الشقوق الأخاديد وما ترتب على ذلك من حدوث ثنيات بين الأخاديد (التلافيف) مما أدى الى زيادة مساحة مسطح قشرة المخ وبالتالى زيادة عدد الخلايا العصبية الموجودة بها .

٢ ـ سمك هذه القشرة نفسه يلعب دورا هاما .. فكلما زاد سمك القشرة زاد فيها بالتالى عدد

الخلايا العصبية المختلفة الأشكال والوظائف .. وتقدر هذه الخلايا بحوالى ١١،٠٠٠ مليون خلية . أما عدد الألياف العصبية (المحاور العصبية) التى تمتد فى المادة البيضاء لتصل مناطق المخ بعضها ببعض ، فتقدر بما يقرب من ٢٠٠ مليون محور عصبى .

٣ ــ نمو الفص الجبهى فى المخ البشرى ، وهو سمة من سمات التطور والرقي .. وتشير الأبحاث الى أن هذا الفص له علاقة بالمواهب العقلية المختلفة كالذاكرة والمعرفة هذا بالاضافة الى ارتباطه بالنواحى العاطفية . ولقد كان من المعتقد أن اصابة هذا الفص تؤدى إلى اختلال معدلات الذكاء .. ولكن تم عمل العديد من الدراسات على مجموعة من العسكريين المصابين فى الحرب العالمية الثانية باصابات أثرت على هذه المنطقة من المخ ، وتشير الأبحاث الى أن معدلات الذكاء لم تتأثر كثيراً بعد مرور أكثر من ١٠ سنوات من الإصابة ، هذا بالاضافة إلى أن ازالة الفص الجبهى على الجانبين أو قطع المسارات الواصلة بين هذا الفص وأجزاء المخ الأخرى كما يحدث فى العلاج الجراحى لبعض الأمراض النفسية والعقلية يجعل المريض عاجزاً عن ادراك السيالات الحسية رغم انه ما يزال يستقبلها . ويفقد المريض قدرته على التقدير الصائب والتخطيط السليم وقد يقوم بسلوك مخالف للنظم الاجتماعية التى اعتاد عليها بالاضافة إلى اضطراب النواحي الانفعالية والسلوكية لديه . وخلاصة القول أن قشرة المخ كلها بمناطقها المختلفة ، وليس الفص الجبهى وحده ، هى التى تحدد العبقرية .

٤ ــ نسبة وزن الدماغ إلى الجسم كله لها أهمية قصوى فى تحديد نصيب الانسان من العبقرية أو الذكاء بل لعلها أكثر أهمية من الوزن المطلق للدماغ . فالزواحف العملاقة التى تعود إلى العصر الجيولوجى الوسيط « السوزويت » . والتى تعرف باسم استجوسايرس Stegosaurus يصل وزنها ١٣ ــ ١٤ طناً أما مخها فلا يزيد وزنه عن ٧٠ جراماً . وبذلك تكون نسبة وزن المخ إلى وزن الجسم ١ : ٢٥٠،٠٠٠ وفى المقابل نجد المخ البشرى يصل وزنه فى المتوسط ١٤٠٠ جراماً وبذلك تكون نسبة وزن المخ إلى وزن الجسم ١ : ٥٠ . ويخدم الكيلوجرام الواحد من وزن الدماغ فى الفيل (وهو يزن ستة كيلوجرامات) ٥٠٠ كيلو جرام من وزن الفيل . والحالة أسوأ فى الحوت إذ يتحتم على كل كيلو جرام من الدماغ ان يعنى بحوالى أحد عشر طناً من وزن هذا الحيوان (شكل رقم ٣) .

● في الأوقات العصيبة يفرز المخ مواد مهدئة ومخدرة بصورة طبيعية وبدون مؤثرات خارجية

لذلك هناك عوامل كثيرة تؤثر فى الذكاء والعبقرية من الجهة التشريحية .. ولا يمكن الأخذ بوزن الدماغ المطلق وحده لتمييز العباقرة .

تخزين المعلومات والذكريات

ما هو التعليم ؟ وأين تختزن المعلومات والذكريات ؟

وما هى التغيرات التى تحدث فى المخ من التعلم والتذكر ؟

ولماذا ننسى بعض ما نتعلمه ؟

التعلم هو العملية التى يتغير بفعلها السلوك . وهذا التغير السلوكي الذى يحدث من جراء التعلم يجب أن يلازم الانسان . فالانسان مثلا يولد قاصر العدة .. غير قادر على مواجهة مطالب الحياة الاجتماعية والمادية .. فهو اذن فى حاجة إلى التعلم والاكتساب طرفان أساسيان هما الانسان من جهة والبيئة الخارجية من جهة أخرى . ومن العبث محاولة ترجيح طرف على الآخر . ولابد هنا من التذكر حتى تلتئم حلقات الاكتساب وكى يصدر السلوك معبرا عن شخصية نشعر بوجودها وباستمرار وحدتها .

والذى يهمنا هنا ما أشارت إليه الأبحاث الحديثة فى هذا المجال .. فالأبحاث تشير إلى أن المعلومات تختزن فى المخ على هيئة تغيرات جزيئية فى بروتينات الخلايا . فمن المعلوم أن الخصائص الوراثية تنتقل من الوالدين إلى الجنين عن طريق تغيرات جزيئية فى شكل الحمض النووى د . ن . ا . وقد وجد أن عملية التعلم أو الاختزان (الذاكرة) تتم بواسطة تغير ثابت فى الحمض النووى د . ن . ا .

ومن أجمل التجارب التى أجريت فى هذا المجال ، التجارب التي قام بها « ماكونل » مثبتاً أهمية الحمض د . ن . ا فى عملية التعلم ، إذ قام بدراسة بعض الديدان البدائية المسطحة المسماة « (بلانريا) . وتحتوى هذه الديدان على جهاز عصبى بدائى مكون من بعض المجموعات العصبية . وخرج من الدراسة بالآتى :

(١) الديدان تتمدد عند تعرضها للضوء ، وتنكمش عند تلقيها صدمة كهربائية خفيفة .

(٢) عند تعرض الديدان للضوء ثم إلى صدمة كهربائية وتكرار ذلك نحو مائة مرة فإنه يتولد انعكاس شرطي فى هذه الديدان حيث تنكمش الدودة عند تعرضها للضوء ، أى انها تعلمت شيئاً جديداً .

وأخذ (ماكونل) الديدان التى قام بتعليمها ثم قسمها إلى مجموعتين . ووضع المجموعة الأولى فى محلول من طبيعته تحطيم الحمض النووى د . ن . ا . اما المجموعة الثانية فوضعها فى محلول مائى عادى . فلاحظ أن الديدان التى تحطم فيها الحمض النووى د . ن . ا . لم تتمكن من الاحتفاظ بما تعلمته وأصبحت تتمدد فى حالة تعرضها للضوء . اما المجموعة الثانية التى احتفظت بالحمض النووى د . ن . ا . فقد احتفظت بما تعلمته .

ولذا فالأدلة تشير إلى أن ما نتعلمه يختزن على هيئة تغيرات جزئية وشكلية فى الحمض النووى د . ن . ا .

وقد ساعد نجاح (ماكونل) فى تجاربه على ديدان (البلانريا) البدائية فى استكمال البحث فى هذا المجال على حيوانات أرقي لتأكيد دور الحمض النووى فى التعلم . ومن أفضل هذه التجارب ، التجربة التى تم فيها حقن بعض الفئران بكمية من الحمض النووى د . ن . ا . فى الغشاء البريتوني للبطن ، وذلك قبل التعلم وأثناء تدريبهم على بعض الاستجابات . وقد لوحظ أن الفئران التى حقنت بمادة الـ د . ن . ا . تستجيب استجابة واضحة سريعة بالمقارنة إلى الفئران التى لم يتم تعليمها .

الا أن هناك عددا من التجارب التى تشير إلى أهمية المادة الكيميائية (الاستيل كولين) المنتشرة بين الأعصاب فى القشرة المخية في عملية التعلم . فقد لوحظ في بعض التجارب الحديثة أن مادة « الاستيل كولين » تزيد زيادة واضحة بعد عملية التعلم مما يوحي إلى دور هذه المادة فى عملية التذكر .

ولاشك أن كيميائية التعلم والتذكر مازالت مجالا خصباً للأبحاث الفسيولوجية والنفسية . ومازال هناك العديد من المواد الكيمائية التى لم يتم بعد اكتشاف ارتباطها بالتعلم والذاكرة . ومثل هذه الاكتشافات ستحقق فى المستقبل القريب بإذن الله قفزة واسعة للأمام إذ سنتمكن من تحسين طرق التعلم والتذكر وبالتالى اختزان قدر أكبر من المعلومات العلمية والثقافية والأدبية والجمالية .

ولكن أين تختزن المعلومات والذكريات ؟




رفائيل
وزن دماغه : ١١٦١ جراما

● كل العباقرة يحملون أدمغة يزيد وزنها عن كيلوجرام.. وبعضها يزيد عن كيلوجرامين!

وفي أي مكان من المخ يتم حفظ المعلومات والأرقام والحوادث البصرية والسمعية ؟ وما هي أحسن الوسائل للتذكر ؟

تشير معظم الدراسات إلى أن الذاكرة تختزن بطريقة منتشرة في الجزء الخاص بها من القشرة المخية كما سبق أن وضحنا. فالمنطقة رقم (١٩) مثلا يمكن بها استدعاء وتذكر الصور المختلفة التي سبق رؤيتها. والمنطقة (٤٢) يمكن بها استدعاء وتذكر الأصوات المختلفة التي سبق ان سمعناها وهكذا. أما الذكريات المعقدة (معلومات وأرقام وحوادث بصرية وسمعية) فهي تحتاج لعدة معدلات حسية في كل مناطق الحس.

وتعتبر عملية التسميع الذاتي من أحسن الوسائل للتذكر والاحتفاظ بالمعلومات لأطول فترة ممكنة ، حيث يتم دراسة الجملة الأولى ثم تسميعها ذاتياً من الذاكرة ثم تعلم الجملة الثانية وتسمع ذاتياً الجملة الأولى والثانية وهكذا. وبتلك العملية تُستدعي المادة التي درسناها في فترات متعاقبة قريبة من بعضها. وقد ثبت تجريبياً فوائد هذه الطريقة عند قراءة الفصل بأكمله عدة مرات في الاحتفاظ بالمعلومات لفترات أطول. هذا بالاضافة إلى أهمية تقسيم وتلخيص ما ندرسه ، ووضع عناوين رئيسية للموضوع. وتكرار استذكارنا للموضوع من وقت لآخر بطريقة التكرار المتقطع وليس التكرار المتكامل يتيح لنا الفرصة إلى الاحتفاظ بالمعلومات لفترات أطول. وهناك عوامل كثيرة تؤثر في التذكر سنناقشها باسهاب في مقال قريب بإذن الله.

ولكن لماذا ننسى ؟

التعلم كما سبق أن وضحنا تصاحبه تغيرات في تركيب البروتينات والحمض النووي د. ن. ا. وهذه التغيرات الجديدة في البروتين تفسر لنا كيفية الاحتفاظ بالمعلومات التي تعلمناها. الا أن هناك عدداً من العوامل مثل الجلسات الكهربائية ومثبطات تركيب البروتين قد تؤدي إلى عدم الاحتفاظ بالمادة المتعلمة إذا ما أعطيت مباشرة بعد عملية التعليم. أما اذا مر بعض الوقت قبل اعطاء هذه المثبطات فهنا تختزن المعلومات دون أن تتأثر بهذه الموانع.

ومن هنا جاءت أهمية النوم بعد التعلم. فلقد لوحظ أنه اذا نام الفرد بعد تعلمه بعض المواد مباشرة فإنه يتذكر هذه المواد بطريقة أوضح عما إذا تعلمها أثناء النهار. وربما يرجع ذلك إلى تداخل أوجه النشاط المختلفة أثناء النهار وكثرة المؤثرات التي من شأنها أن تؤثر على عملية تدعيم المعلومات وبالتالي يسهل نسيان المواد المستذكرة. اما النوم بعد الاستذكار فإنه يعطي فرصة كاملة لتدعيم هذه المعلومات وعدم تداخلها مع أى نشاط أو مؤثر آخر وبالتالى يسهل تذكرها.

والأبحاث الحديثة تشير إلى أن خلايا المخ تفرز مادة كيميائية (الاندورفين والانكفالين) لها نفس تأثير المورفين ، لذلك سميت « بأفيون المخ الطبيعي » وهذه المادة يزيد افرازها في أوقات الألم والأزمات النفسية والعاطفية واتضح أخيراً أن لها دوراً في عمليات التعلم والتذكر والنسيان.

الجديد من أسرار المخ :

في سنة ١٩٧٧ تقاسم العلماء الأمريكيون بلو ، وجيلمان ، وشالي جائزة نوبل في علم الفسيولوجيا نتيجة اكتشافهم قدرة خلايا المخ على افراز مواد طبيعية لها تأثير المخدرات والمورفين والهيروين والمطمئنات المختلفة. كما توصلوا إلى طرق الكشف وقياس هذه المواد الموجودة في المخ وتحت المهاد (الهيبوثلاموس) وأيضاً في الغدة النخامية. والمخ يفرزها في وقت الألم وفي وقت الأزمات النفسية.

ووجد حديثاً أن المورفين الطبيعي على أنواع ، أهمها :

١ ـ مجموعة الانكفالين : لها نفس تأثير المورفين وتتركب من خمسة أحماض أمينية ، وغالباً ما توجد في النهايات العصبية عند اتصالها بالخلايا العصبية.

٢ ـ مجموعة الاندورفين : وتتركب من ٣١ حمضاً أمينياً ، وهي على أنواع فمنها :

- ألفا اندورفين.
- بيتا اندورفين.
- جاما اندورفين.

ولقد وجد أن الألفا والجاما اندورفين والانكفالين لهما نفس قوة وفعالية المورفين. اما البيتا اندورفين فمفعولها يعادل ٥ إلى ١٠ أمثال تأثير المورفين. وهذه المواد توجد ملتصقة على مناطق معينة من سطوح الخلايا العصبية في مراكز الدماغ مثل مراكز الألم والخوف والانفعالات الخ.. وطالما هذه المواد متوافرة وتغطي سطوح خلايا هذه المراكز فإن دماغ الانسان يعمل بروية وحكمة ، ولكن عند زيادة أو نقص هذه المواد عن أسطح الخلايا .. عندئذ تبدأ خلايا قشرة المخ في الاضطراب وتحدث الأزمات النفسية وأزمات الألم المختلفة. ولاشك أن اكتشاف المورفين الطبيعي في المخ يفتح المجال للعديد من الأبحاث العلمية ، وكل يوم ينكشف لنا سر من أسرار المخ الذى لازلنا نجهل عنه الكثير ، وسبحان الله الذى أبدع في خلقه.

سامي عزيز


أناتول فرانس
وزن دماغه : ٢٠١٢ جراما


شيلر
وزن دماغه : ١٥٨٠ جراما

بسمارك
وزن دماغه : ١٨٠٧ جراما

مديــر إذاعــة قطــر في حـوار مع الدوحـة:


عبد الرحمن سيف المعضادي مدير إذاعة قطر

٣٠٠ ألف شريط من التسجيلات النادرة في الإذاعة القطريّة!

أجرى الحوار: يوسف الحرمي

- دراسة هامة لإمكانية بث إذاعة القرآن الكريم على مدار العام
- أخطاء المذيعين اللغوية أمر شائع على امتداد الوطن العربي
- الباب مفتوح أمام الشباب القطري للوقوف أمام الميكرفون


لقطتان من داخل مبنى الاذاعة في قطر

قال عبد الرحمن سيف المعضادي مدير إذاعة قطر إن لدى الإذاعة ست مكتبات موسيقية وهى مكتبة البرنامج العام ومكتبة الاذاعة الشعبية ومكتبة برنامج الأوردو ، والبرنامج الفرنسي والبرنامج الانجليزى ومكتبه خاصة بالأصول والأشرطة النادرة .

وأضاف في حديثه لمجلة الدوحة ان ما يميز اذاعة قطر أن لديها كماً جيدا من التسجيلات النادرة يزيد عددها على ثلاثمائة ألف شريط مسجل ، وقريباً جداً سيدخل نظام الكمبيوتر داخل المكتبات بهدف تطوير أعمالها . وقال إن البرامج المحلية في اذاعة قطر تشكل كماً لا بأس به ، وأشار الى أن الاذاعة تقوم بتطوير أجهزة إرسال (F.M.) ، وسينتهي العمل في هذا المشروع في أوائل عام ١٩٨٦ .

٣٠٠ ألف شريط من التسجيلات النادرة في الإذاعة القطرية!

وحول مدة البث الاذاعي قال مدير الإذاعة القطرية ان الاذاعة تبث في الوقت الحالي ٤٤ ساعة يومياً تغطي جميع الخدمات الإذاعية.

وعن المشاريع الجديدة قال ان هناك دراسة لامكانية بث اذاعة القرآن الكريم على مدار العام، وليس في شهر رمضان المبارك فقط كما هو الحال في الوقت الحاضر.

وحول بعض الأخطاء اللغوية من جانب بعض المذيعين قال إن هذه الأخطاء اللغوية مع الأسف أمر شائع على امتداد الوطن العربي.

وعن التنسيق والتعاون الاذاعي بين اذاعات دول مجلس التعاون أشار المعضادي الى التعاون الوثيق بين اذاعة قطر واذاعات دول مجلس التعاون في مجال تبادل البرامج عن طريق الهاتف أو التلكس.

وأخيرا قال إن تعدد الاذاعات العربية ظاهرة صحية جيدة. ولكن هناك ضرورة لوجود التنسيق بين هذه الاذاعات.

وفيما يلي نص الحوار مع السيد عبد الرحمن سيف المعضادي مدير إذاعة قطر:

برامج الاذاعة

في البداية سألت مدير الاذاعة عن كيفية رسم خريطة برامج الإذاعة فأجاب أنه يتم رسم خريطة برامج إذاعة قطر بحيث تغطي جميع الخدمات في البرنامج العام والشعبي والانجليزي والفرنسي والأوردو. حسب طبيعة فصل السنة فهناك دورة تبدأ من يناير لمدة ثلاث شهور، يتم التركيز فيها على البرامج الثقافية والتعليمية، ثم دورة أبريل وهي متنوعة فيها برامج ثقافية وبرامج المنوعات، ثم دورة يوليو وهي الدورة الصيفية، تكون فيها البرامج خفيفة ومتناسبة مع هذا الفصل، ثم دورة أكتوبر، وهذه تكون على نفس نسق دورة أبريل تقريباً وهناك دورات إذاعية خاصة مثل دورة شهر رمضان المبارك، ويعتمد فيها على البرامج الدينية والثقافية والتاريخية، وبرامج التسلية، ثم دورة خاصة بالأعياد، ودورة بمناسبة ٢٢ فبراير، ودورة بمناسبة ٣ سبتمبر الذى يصادف يوم الاستقلال. ويتم تنفيذها حسب المخطط الموضوع. وحسب دراسات يقوم بها قسم العلاقات التبادل والبحوث بالإذاعة..

البرامج الجادة

واستمر مدير الاذاعة في حديثه قائلا: إن مما يميز إذاعة قطر وخاصة البرنامج العام وهو البرنامج الرئيسي، الاعتماد على البرامج الجادة، وهذه البرامج ثقافية وسياسية اضافة الى برامج البث المباشر التى لها علاقة مباشرة بالجمهور. وان البرامج المحلية في إذاعة قطر تشكل كما لا بأس به فهي تساوى في البرنامج العام أكثر من ٨٠٪، وفي البرنامج الشعبي ٩٠٪ وفي برنامج الأوردو ٩٠٪، وكذلك في البرنامجين الفرنسي والانجليزي. أما إذا كان المقصود بالبرامج المحلية من البرامج التي تنطق باللهجة المحلية، فإن عددها قليل نسبياً في السنوات الماضية، أما في هذا العام فان النسبة ارتفعت بشكل ملحوظ ونأمل أن تصل إلى مستوى جيد.

وعندما سألته عن مدى التنسيق بين اذاعة قطر واذاعات المنطقة أجاب على الفور قائلا: إن اذاعة قطر هي إحدى اذاعات دول مجلس التعاون الخليجي، وإحدى الاذاعات الأعضاء في اتحاد الإذاعات العربية، وبالنسبة لإذاعات المنطقة هناك تنسيق دائم بيننا وبين الاذاعات الشقيقة، وهناك تبادل بشكل جيد للبرامج فيما بيننا. ولعل التبادل بين إذاعاتنا في المنطقة فريد من نوعه، حيث أننا نتبادل البرامج بطلبها إما عن طريق الهاتف أو التلكس، وأحياناً تتم المبادرة من إحدى الاذاعات عندما تجد برنامجاً جيداً فتقوم بإرساله من تلقاء نفسها.

ست مكتبات موسيقية

وأضاف المعضادي بأن هناك ست مكتبات موسيقية في إذاعة قطر، وهي مكتبة البرنامج العام ومكتبة الاذاعة الشعبية، والأوردو ومكتبة البرنامج الفرنسي ومكتبة البرنامج الانجليزي، ومكتبة خاصة بالأصول والأشرطة النادرة. ولعل مما يميز إذاعة قطر أن لديها كما جيداً من التسجيلات النادرة التي قد لا توجد في كثير من الإذاعات العربية الشقيقة. ويزيد عدد الأشرطة على ثلاثمائة ألف شريط مسجل. وسوف يتم قريباً تطوير العمل بالمكتبات بإدخال نظام الكمبيوتر الحديث.

وقال: إنه بالنسبة لتطوير أجهزة الارسال، فان هناك تطويراً عاجلا، وآخر ضمن الخطة المقبلة. أما التطوير العاجل فهو تجديد هوائيات الارسال، بالنسبة للموجة القصيرة والتي تسمع على امتداد الوطن العربي وأوروبا، أما التطوير الآخر فهو ذو شقين.. الشق الأول تطوير أجهزة إرسال الإف إم (F.M.). وهذا المشروع نأمل ان ينتهى العمل فيه اوائل عام ١٩٨٦ م. أما الشق الثاني فهو تطوير الارسال على الموجات القصيرة، وهذا المشروع نأمل أن يرى النور خلال السنوات الثلاث القادمة.

ورداً على سؤال حول عدم وصول صوت إذاعة قطر الى بعض البلاد العربية قال على الفور ان الإذاعة حالياً تغطي بالموجات المتوسطة منطقة الخليج العربي، وشبه الجزيرة العربية نهاراً والعراق والأردن. وسورية، وفلسطين المحتلة مساء.

أما بالنسبة للموجة القصيرة فهي تغطى الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه، وكذلك معظم الدول الأوربية، ونأمل أن نغطى رقعة كبيرة من العالم عند الانتهاء من مشروع الموجات القصيرة. وقال أيضا بان اذاعة قطر تبث حالياً ٤٤ ساعة يومياً لجميع الخدمات والبرامج، أما البرنامج العام فهو يبث ١٨ ساعة ونصف الساعة يومياً وخلال شهر رمضان المبارك يبث على مدي ٢٤ ساعة متواصلة دون انقطاع.. وأضاف بأن من المشاريع الجديدة دراسة إمكانية بث إذاعة القرآن الكريم على مدار العام، وليس في شهر رمضان فقط.. أما إضافة خدمات جديدة فيعتمد على الإمكانات المتاحة.

أمر شائع للأسف!

ورداً على سؤال آخر حول الأخطاء اللغوية للمذيعين قال إن الاخطاء اللغوية للمذيعين والمذيعات مع الأسف أمر شائع دون استثناء على امتداد الوطن العربي. وقد يكون السبب راجعاً الى طريقة تدريس اللغة العربية في المدارس والجامعات، كما أن المذيعين سواء في إذاعة قطر أو في غيرها لا يكونون بالضرورة من خريجى الآداب قسم اللغة العربية مثلا: وإنما منهم خريج التاريخ وخريج القانون.. الخ، فلابد أن نتوقع حدوث بعض الأخطاء اللغوية.

وأضاف وبهذه المناسبة فليس هناك ما يحول دون التحاق الشباب القطرى بالإذاعة: وهناك عدد كبير داخل الإذاعة الآن، من الشباب القطرى المجد في جميع الاقسام. لكن بالنسبة للمذيعين، فالأمر يتطلب مواصفات خاصة، ونحن لا نتشدد كثيرا بالنسبة للشباب القطرى الراغب في دخول مجال العمل الاذاعي، وهناك عدد معقول من

العاملين في هذا القطاع ، وعدد من المتدربين والمتدربات . والقلة النسبية للقطريين في هذا المجال عائدة إلى إحجام الشباب عن هذا العمل ، إذ يقبل على العمل الاداري والفني بينما يحجم عن الوقوف أمام الميكرفون

الكاتب والمعد

وسألته عن نوعية المشكلات التى تواجه الإذاعة . فقال لابد أن تكون هناك بعض المشكلات في أي عمل : ولكن من أهمها والتى نرجو أن نتغلب عليها هي وجود الكاتب والمعد والممثل القطرى ، وقد بدأنا مع بداية يناير الماضي بعمل برنامج تحت اسم (تجارب إذاعية) نأمل أن ينتج عددا من الكتاب والمعدين الذين سيخدمون ان شاء الله برامج الاذاعة والتليفزيون .

وأضاف بأن الاقبال كان في الماضى قليلاً من العنصر النسائي القطرى للعمل في الاذاعة أما اليوم فلدينا عدد معقول في معظم أقسام الإذاعة . وهناك عدد آخر في الشئون الإدارية والمالية : وعدد ثالث في التنسيق والمكتبات وفي الاستعلامات . وهناك رئيستا قسم وخمس مذيعات . ولعله عدد قليل نظراً للظروف الاجتماعية . ولكن الفتاة القطرية بدأت تشق طريقها في جميع المجالات .

وسألته عن رأيه بصراحة في الإذاعات التالية : إذاعة الكويت . إذاعة القاهرة . إذاعة المملكة العربية السعودية والإذاعة البريطانية . فقال أولاً إذاعة الكويت من الإذاعات القديمة في منطقة الخليج ينظر لها بالافتخار . ونتمنى أن تكون كذلك دائما خدمة للاعلام الخليجي والعربي الإسلامي . أما إذاعة القاهرة فهى أول إذاعة عربية كانت انطلاقتها بداية الانطلاق الاعلامى العربى ، فكانت مدرسة لكل إذاعى . ولكل إذاعة ناشئة . أما الإذاعة البريطانية فهي أيضا من أولى الإذاعات العالمية ولديها من الخدمات الإذاعية التي تصل إلى ٣٩ لغة . ومنها الإذاعة باللغة العربية ، وهذه الإذاعة تعتمد اعتماداً كلياً على نشرات الأخبار والبرامج الإخبارية ، وأما إذاعة المملكة العربية السعودية . فهي من أوليات الإذاعات العربية ، وهي صوت ينطق بالعروبة والإسلام وخدمة الدين الإسلامي الحنيف ، وهذه الإذاعة شهدت تطورا كبيراً ، سواء على المستوى البرامجي أو مستوى الإرسال ، فهي تغطى معظم دول العالم بعدة لغات . وفي استفتاء قام باجرائه قسم العلاقات والتبادل والبحوث حول الإذاعات العربية ، وجدنا أن إذاعة المملكة من أوليات الإذاعات التي يحرص المستمع العربي على سماعها . ونتمنى لهذه الإذاعة الشقيقة كل تقدم وازدهار .

وسألته عن العمل الإذاعى هل هو في رأيه فنى أو أدبي ، أو يحتاج إلى ثقافة كبيرة أو الى تدريب فأجاب قائلاً : لابد أن يكون هناك تدريب مستمر للعاملين في المجال الإذاعي والتليفزيونى ، إذ أن هذا العمل يتطلب دائماً المعرفة بالجديد على المستوى الفني والتقني ، وسألته أيضا عن رأيه في بعض الأصوات الإذاعية العربية المعروفة مثل محمد فتحي ، أحمد سعيد ، صلاح خليفة ، سعد لبيب ، أحمد سالم ، صفية المهندس . فقال : محمد فتحى اعتبره أبا للاذاعيين العرب ، أحمد سعيد مؤسس صوت العرب وكان ظاهرة إعلامية في وقت من الأوقات . صلاح خليفة أستاذ وخبرة في العمل الاذاعي . سعد لبيب خبرة إعلامية مثلها قلة في الوطن العربي . أحمد سالم طاقة خليجية شابة تمثل المذيع في دول مجلس التعاون الخليجى . صفية المهندس امرأة فاقت الرجال في العمل الإذاعي .

أصوات تبشر بالخير

أما عن الاصوات الاذاعية التى تبشر بالخير .. فقال انها : عيسى الشريم في الإذاعة الشعبية : إلهام بدر بالبرنامج العام والصوت الجديد سلوى سلطان . وقال إنه يعجبه في برامج إذاعة قطر البرامج الثقافية وبرامج البث المباشر ، وخاصة (حوار مفتوح) أما الذي لا يعجبه فهو البرنامج الذى يخطط له بشكل جيد ويساء تنفيذه !..

وأضاف بأنه عندما يحس بأن هناك خطأ وقع فيه المذيع يحس بأنه صادر منه شخصياً فإنه يتصل بالمذيع ويوجهه الى موضع الخطأ حتى يتفاداه في المرات القادمة . وقال بأنه لابد للمذيع المبتدىء من الجد والمثابرة وعدم الخوف من الميكروفون وتحصين نفسه بالقراءة المستمرة .

وأخيراً سألته عن رأيه في تعدد الإذاعات العربية وتنوعها : هل هو ظاهرة صحية ، أم مرضية . فقال هناك مثل معروف في بعض الدول العربية يقول : إن اليد الواحدة لا تصفق ، فأرى أن تعدد الإذاعات العربية ظاهرة صحية جداً ، حيث أنها تنقل إلى العالم الخارجي عاداتنا العربية والاسلامية الراسخة . وأرجو أن يكون هناك التنسيق الجيد بين إذاعاتنا العربية حتى تظهر بصورة مشرفة أمام العالم الخارجي .

يوسف الحرمي

الاذاعة القطرية

تذكار من فلسطين

قَلْعَةُ القُدْسِ

تصر جميع الأدبيات الغربية بوجه عام ، على تسمية قلعة القدس هذه بـ « قلعة داوود » دون ما أي سند علمي آثاري على الإطلاق ..

وحقيقة الأمر في هذا الصدد أن هناك « داوودين » اثنين إن جاز التعبير : أولهما ، وألصقهما بجوهر الطبيعة الانسانية هو « داوود القرآني » بمفهومنا الإسلامي ، من حيث هو أحد أنبياء الله الذين ظهروا في فلسطين في القرن العاشر قبل الميلاد ..

وثانيهما ، وأبعدهما في الوقت نفسه عن أية قيمة روحية ، أو أية صفات إنسانية نبيلة ، هو « داوود التوراتي » بمفهوم اليهودية العدواني الاستعلائي على شعوب الأرض كافة كما يزعمه اليهود حيث يظهر لنا ـ خاصة في سفر صموئيل ـ مجرد ملك زمني ذباح سفاح وذى سطوة عسكرية طاغية باغية .. أراد مثلا ، ـ برواية الأسطورة التوراتية بطبيعة الحال ـ أن يتزوج من « ميكال » ابنة الملك « شاؤول » ، فقال شاؤول : « هكذا تقولون لداوود : ليست رغبة الملك في المهر ، ولكنه يريد مائة قلفة من الفلسطينيين انتقاما من أعداء الملك » .. « فحسن الأمر في عيني داوود أن يكون بذلك صهراً للملك . فلم تتم الاحلام حتى ذهب داوود وقتل من الفلسطينيين مائتي رجل ـ (لم يكتف بالمائة) ـ وجاء بقلفهم ، فعرضت على الملك بتمامها ، فزوجه شاؤول ابنته ميكال » !! .. (سفر صموئيل الأول ـ الاصحاح ١٨ ـ الرقم ٢٥ ـ ٢٨) ..

هذا ، ولمعلومات قارىء « الدوحة » العزيز ، فإن مبدأ قتل الفلسطينيين على إطلاقهم ، ولمجرد شهوة القتل في ذاته ، يعتبر طقسا دينيا يهوديا « بالغ القداسة !! » ... ولقد ورد ذكر « الفلسطينيين » باسمهم الصريح هذا ، في قرابة مائتين وخمسين معرضاً في مختلف أسفار التوراة ، باعتبارهم أعدى أعداء الرب اليهودى الخصوصي « يهوه » الذى أحل دماءهم لمتعة شعبه المختار !! ..

وأما « داوود القرآني » بالمقابل ، فلقد حظي على مر جميع العصور الاسلامية في فلسطين بكل ما اختص به أنبياء الله من حفاوة وتكريم ، لدرجة أن العديدين من الحكام المسلمين قد أطلقوا اسمه ـ وكذلك اسم ولده النبي سليمان ـ على عدة أماكن إسلامية في القدس خاصة ، وفي فلسطين كلها بوجه عام ، حتى إن الملك « جقمق » من القرن التاسع الهجري قد انتصر لفكرة أن رفات النبي داوود ترقد فعلا في أحد الأقبية خارج سور القدس ، فانتزع ملكية هذا القبر وحوله إلى مسجد عرف من ثم باسم « مسجد داوود » ... ثم أعقبه السلطان العثماني سليمان في القرن العاشر الهجري ، فزاد المسجد عمارة وبهاء إلى أن أصبح من أبرز المشاهد الإسلامية في مدينة السلام ، ذلك إلى أن سقطت القدس الجديدة ـ التي خارج السور ـ في أيدي الأعداء الصهيونيين عام ١٩٤٨ ، فسرعان ما أزالوا كل ما بداخل المسجد من آيات قرآنية ، أو أية ملامح عربية إسلامية ، وحولوه إلى كنيس يهودى يغص في العادة بأفواج السياح الغربيين الذين يرون فيه دليلاً قاطعا على أنه قبر « الملك داوود » مؤسس السلطة الزمنية اليهودية الأولى على ما يدعونه « أرض اسرائيل » !! ..

* * *

قصارى القول : ليس ثمة من أي شاهد آثاري علمي واحد يمكن أن يبرهن على أن « للملك داوود » أية صلة بهذه القلعة الشامخة من قريب أو بعيد ..

تشير أساسات القلعة بوضوح تام إلى بصمات الملك العربي الأنباطي « هيرود » الذى انتدبته روما حاكما على كل فلسطين ، وشطر من جنوبي سورية ، في أواخر القرن الأول قبل الميلاد ..

ثم لاحقا لذلك أعيدت عمارة القلعة بعد الفتح العربي الإسلامي .. وفي القرن الحادي عشر الميلادى تحصن الغزاة الصليبيون بها ، وقاموا بترميم بعض أجزائها وفقا لمتطلباتهم العسكرية .. إلى أن كان الفتح الأيوبي العظيم لبيت المقدس في صبيحة يوم الجمعة الثاني من تشرين الأول سنة ١١٨٧ ميلادية ـ فيما يصادف تالي ليلة الإسراء والمعراج يوم السابع والعشرين من رجب ـ فيقول ابن الأثير (في كامله في التاريخ) : إن من أول ما فعله صلاح الدين لما دخل القدس : « أن أمر بعمارة السور وتجديد ما رث منه ، فأحكم الموضع الذى حكم البلد منه (أي القلعة) ، وأمر بحفر خندق ، وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله » الخ ..

ثم تعاقبت على القلعة التجديدات والإضافات



الاسلامية العديدة : ففي العصر الأيوبي بنى الملك المعظم عيسى برجها الحربي الرائع (في منتصف الصورة) سنة ٦١٠ هجرية .. وفي العصر المملوكي أضاف إليها ابن قلاوون مسجداً في داخلها سنة ٧١٠ هجرية .. وكذلك في العصر العثماني أضاف إليها السلطان سليمان القانوني مئذنتها الشامخة (في ذروة الصورة) سنة ٩٣٨ للهجرة ..

بقي أن نضيف أخيراً معلومة واحدة فقط ، وهي أنه من على درجات مدخل هذه القلعة ، وقف الفاتح البريطاني الدميم ، الجنرال إدموند أللنبي ، بعد احتلاله القدس يوم ٩ كانون الأول عام ١٩١٧ (أي بعد سبعة وثلاثين يوماً من إعلان حكومته وعد بلفور) ، ليطلق قولته الشهيرة الحاقدة الشامتة :

ــ « اليوم انتهت الحروب الصليبية » !! ..

يوسف الخطيب

« اللوحة المنشورة : للطوغراف للرحالة الأسكتلندي الرسام روبرتس ، وضعه سنة ١٨٣٩ .



حلم في رسالة

بقلم: الدكتور عبد السلام العجيلي

يروى سيغموند فرويد في واحد من مؤلفاته حكاية فتاة شابة جاءت إليه شاكية من حلم تكررت رؤيتها له في منامها ، وأزعجها مضمونه . كانت ترى في الحلم أباها مسجى في الفراش ، ميتاً ، فاذا استيقظت أحست بانزعاج شديد وتألمت ، لا حزناً مما رأته وما تدرك أنه أضغاث أحلام ، بل لشعورها في حلمها بأن السرور كان يملأ قلبها برؤية أبيها فاقد الحياة في نعشه . إحساسها بالذنب كان كبيراً كلما استيقظت من هذا الحلم المتكرر . إنها تحب أباها محبة بالغة ، ولا تفهم كيف تسر بموت هذا الأب ، ولو كان سروراً في المنام . ولذا طلبت من فرويد أن يعينها في التخلص من انزعاجها وتألمها بالبحث عن دوافع سرورها البشع ذاك .

والحلم عند فرويد هو بالدرجة الأولى « تحقيق رغبة » . وقد كان تفسيره لحلم هذه الفتاة أحد شواهده على صدق ذلك التعريف للحلم . لقد استجوبها داعياً اياها إلى استعادة ذكرياتها القريبة والبعيدة ، محللا نفسيتها ، فحصل منها على اعتراف توضحت به مشكلتها . كانت الفتاة تحب صديقاً لأبيها حباً جماً دون ان يتاح لها أن تشعر ذلك الصديق بعاطفتها فيبادلها حباً بحب . وفي ذات يوم مرض أبوها فراح الصديق يعوده . وكان سرورها برؤيته في دار أسرتها كبيراً . وعندما ابل الأب من مرضه انقطع الصديق عن التردد على داره مما جعل العاشقة تفتقد زياراته في منزل أهلها . كانت رغبتها في ذلك الحبيب كبيرة ، ولم يكن من سبيل لتحقيق تلك الرغبة في غير الحلم . وأوحى لها لاشعورها بأنه مادام مرض الأب قد أتاح لها رؤية من تهواه ، فلاشك في أن موت الأب نفسه سيتيح لها ما هو أكثر من مجرد الرؤية ... أعني الوصال ! وهكذا مات الأب في حلم الفتاة ، فسرت بموته الجدير به أن يحقق رغبتها العميقة في وصال حبيبها .

على أن هذا الشاهد الذى قدمه فرويد برهاناً على صدق نظريته ، وشواهد كثيرة مثله ، لا يكفي ليجعلنا نسلم تسليماً مطلقاً بأن الحلم هو دوما تحقيق رغبة ، وتحقيق رغبة جنسية على الأخص ، كما يوكد على ذلك فرويد . ومع ذلك ، فان أحداً لا ينكر على هذا العالم ما أحدثه من انقلاب في تفسير الأحلام . ربما سبقه كثيرون تحدثوا فيما تحدث هو فيه ، الا انه هو الذى جعل من تفسير الأحلام علماً محدد الأصول . وبينما كانت الأحلام عند قدماء المفسرين ، بدءاً من ارتيميدوروس الافسيسي ومروراً بما نسب الى ابن سيرين وجعفر الصادق ، تنبؤا عما سيحدث في المستقبل أو إخباراً بما هو جار في الحاضر ، أعاد فرويد الى الحلم حجمه الأصلي بأن جعله مجرد رغبة دفينة تنتمي بكافة عناصرها الى الماضي ، الماضي القريب أو البعيد ، وأحياناً الى ماضي الانسان قبل أن يولد ، كما أشار الى ذلك في مؤلفه « مختصر في التحليل النفسي » .

واذا تجاوزنا ما نؤمن به من القيمة المستقبلية لرؤيا الأتقياء والصالحين ، وأحياناً لرؤيا أناس عاديين وقعنا على تجاربهم فيما قرأناه أو سمعناه ، فاننا نعرف أن الحلم ليس دوماً مجرد تحقيق رغبة . هناك أحلام تتراءى للمرء في منامه بدوافع مختلفة ، خارجة عنه أو داخلية فيه . ويروى فرويد نفسه عن أحدهم أنه حلم ذات مرة بنفر من الرجال هجموا عليه وطرحوه أرضاً وأوثقوه ثم جعلوا يدقون وتداً غليظاً بين ابهام قدمه والاصبع الذى يليه . واستيقظ من ذلك الحلم فرأى قشة عالقة بين أصبعيه هذين ... احساس ذلك الحالم المرهف في منامه ضخم القشة وحولها إلى وتد يدق في قدمه .

تلك رؤيا كان دافعها عامل خارجي . ومن الرؤى التي تثيرها المنبهات الخارجية حلم مشهور لباحث فرنسي عاش في القرن التاسع عشر واستشهد به فرويد كثيراً ، هو الفريد موري . عرف ذلك الحلم بين الباحثين في هذا المجال باسم حلم المقصلة ، وأصبحت له قيمته في الدلالة على أن ليس من علاقة بين الزمن الذى تدور فيه أحداث حلم ما وبين الزمن الحقيقي كما يقاس في الواقع .

ويروى موري الحلم الذى ذكرناه في كتاب له صدر في عام ١٨٦٠ بما يلي :

« أحلم بأنني أعيش في فترة الارهاب في أيام الثورة الفرنسية الكبرى واني أحضر مجازر تلك الفترة .. أمثل أمام محكمة الثورة وأرى فيها كبار زعمائها : روبيسبيير ومارا والنائب العام المخيف فوكيه ــ تنفيل .. أتناقش واياهم .. يحاكمونني ويحكمون علي بالاعدام .. أقاد في عربة المحكومين مع جمع كبير الى ساحة الثورة حيث أصعد على منصة التنفيذ .. يربطني الجلاد الى الخشبة ويحرك ذراع المقصلة فتسقط سكينها على عنقي .. أحس برأسي ينفصل عن جذعي ! وهنا أستيقظ والذعر يملأ نفسي فاذا بي أجد أن قضيباً معدنياً من مسند سريري قد سقط على عنقي ، فوق فقرات رقبتي ، مستقراً عليها كما تستقر سكين المقصلة على عنق المحكوم عليه . كان سقوط القضيب قبل لحظة من استيقاظي . بهذا أخبرتني أمي التي كانت في الغرفة ورأت وقوعه علي واستفاقتي السريعة » .

ويعلق الفريد موري على حلمه هذا بما يدل عليه من أن الاحساس الخارجي المتمثل بسقوط قضيب ، لم يستغرق غير لحظة ، على فقرات عنقه ، هو الذى أطلق في تصوره حلماً احتوى أحداثاً متتابعة لا تتم في اليقظة الا في زمن طويل .

* * *

سقت ما سبق من الكلام لأتحدث بعده عن تفسير حلم في رسالة تلقيتها منذ نحو من ثماني

سنين . يحدث أن أتلو هذه الرسالة على أصحابي في بعض المناسبات فيعجبون منها أو يتندرون بما ينسب كاتبها الى من صفات مميزة هو شديد الايمان بالتصاق بها ، بينما لا يجد أصحابي ولا أجد أنا في نفسي شيئاً منها . وقبل أن أنقل للقارىء نص تلك الرسالة لابد من التحدث عن الظروف التي دعت كاتبها الى توجيهها الي .

فقد حدث قبل ثمانية أعوام ، وفي شهر آذار ـ مارس سنة ١٩٧٧ على التحقيق ، أن سجل لي التليفزيون العربي السوري ثلاث حلقات من الحوار أجبت فيها على ما طرح علي من أسئلة حول شؤون شخصية وعامة مختلفة . أذيعت الحلقة الأولى في مساء الرابع عشر من ذلك الشهر ، آذار ـ مارس ، وأذيعت الحلقتان الأخريان بعد الأولى بأسابيع . وقد لقيت في حينها كثيراً من المشاهدين لي على الشاشة الصغيرة ممن أظهروا اهتمامهم بما قلته في حواري أو اعجابهم به ، صادقين فيما أظهروه أو مجاملين لي . كما اني تلقيت لتلك المناسبة عدداً من الرسائل كان أغربها وأدعاها الى الاهتمام والتعليق هذه الرسالة التي أنقلها فيما يلي ، بنصها وباغلاطها الانشائية والاملائية ، حرصاً على نكهتها العفوية :

« ان ارادة الله فوق كل شيء »
بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الدكتور عبد السلام العجيلي المحترم

من بعد السلام والتحية والاكرام . سوف اقص عليك قصة تعارفي الروحي معك دفعتني بالكتابة اليك وكم كنت مشتاق لارى صورتك كما رأيتها في التلفزيون في ليلة ١٤/٣/ ١٩٧٧ صورة انسان اديب رازن وطبيب مهذب فشتان بين الخيال والحقيقة حيث كنت رأيتك في ليلة حالكة شاب وسيم طويل القامة ذو شارب صغير ولاشك انك مثلي وقد تجاوزت الخمسين .

انا صاحب بقالية (بسيطة) وقد صدف في منتصف ليلة ١٤/٣/ ١٩٧٧ على ما اذكر رأيت حلماً انك انت تطرق باب داري ففتحته لك وكنت بلباسك العادي وكان معك رجل آخر يرتدي اللباس الأبيض فقلت لي بالحرف الواحد (انا الدكتور عبدالسلام العجيلي وهذا هو معاوني المرض لقد جئنا من الرقة لزيارتك فقط) فقلت لك تفضل بالدخول فاهلا وسهلا بصديقي الطبيب ورفيقه ولما دخلتما معي عتبة باب داري أستيقظت من الحلم ورأيت نفسي مندفعاً بلا شعور تاركاً فراشي متجهاً نحو باب الدار لاستقبالك ففتحته فعلا ولم ار احدا ولكنني شعرت بأن شخصان او اكثر ولوا مسرعين نحو الطريق الغربي وكانت ليلة ممطرة وعاصفة لفت نظرى بأن القي بنظرة خاطفة على الغلق الحديدي لدكاني الملاصق لداري وسرعان ما اخذتني الدهشة لقد داهم اللصوص دكاني واقلحوا في كسر احد الاقفال واستعصى عليهم القفل الثاني فاستعجبت في امري واخذتني رعشة نفسية ثم اعتراني خشوع الهي وتشرد فكري وسبحت في عالم روحاني جميل فقلت عندها يا ربي ما اعظمك لما جعلت صديقي الدكتور يتحمل مشاقة السفر من الرقة الى دمشق ليخبرني بأمر هذه السرقة برهة وقوعها يا الهي ما اعظمك لماذا لم ترسل لي غيره من جواري او احد من داخل هذه المدينة دمشق التي تعج بالاطباء والمصلحين من اهل الحسب والنسب ثم بقيت حيث انا امام باب دكاني برهة من الزمن تحت وابل من رزاز المطر والريح تلفحني وانا اسبح الله تعالى عن هذا التعارف الروحي مع هذا الصديق الذى ارسله الله لي من عالم الغيب دون غيره من الناس اليس هذا عجيب الهام الهي ينتحل اسم هذا الشخص ليدفع عني الشر والاذية . ارجو منك المعذرة . فانا لا اعرفك شخصياً ولا انت تعرفني وبين مدينتي دمشق والرقة مدينتك شوطاً واسعاً ومئات من الكيلومترات ولم ار وجهك طيلة حياتي حتى ولم اقرأ لك شيئاً من نصوص الادب او القصص .

وفي ليلة المقابلة في التلفزيون التى اجريت معك في المساء التالي ضحكت من نفسي وقلت لها ان هذا الانسان الطيب قد اسدى الي جميلا بدون ان يعلم فواجبي ان اشكره شكرا جزيلا لعله يضحك مني او يستهزىء بي فذلك شأنه او يستغرب من قصتي هذه فيجد له تعليلا او تفسيرا اما انا فانني اومن بأن روحه طاهرة ونقية ارسلها الله الي في وقت الضيق .

انني ارجو منك المعذرة فلو حدثني احد الناس بهذه القصة او بواحدة مشابهة لكذبته وضربته بالجنون وانفصام الشخصية او قلت عنه انه معتوه اما انا حدثتك بها والله شاهد على ما اقول على ما حدث معي دون زيادة او نقصان .

وفي الختام اقبل مني فائق الشكر والاحترام وادامك الله عوناً لامثالي الفقراء سواء في اليقظة وانت في عيادتك تداوى المرضى او في الحلم تآزر عباد الله ودمتم ١٥/٣/ ١٩٧٧ .

الداعي لكم صديقك
ابو محمد خير

ملاحظة :
اذا حضرت لطرفكم ازوركم ان شاء الله تعالى صديقاً لا مريضاً .

هذه هي رسالة مكاتبي الدمشقي الذى اسمه أبو محمد خير ، وهذا هو حلمه الذى ساقه الى أن يعتقد في شخصي من الولاية والصلاح ما أفصح به في رسالته وما يجعل أصحابي يتندرون به على حينما أتلو الرسالة عليهم . أما أنا فاني اجاريهم في تندرهم ولكني لا أقف عند ذلك ، بل أروح مفسراً لهم الحلم التفسير المعقول الذى أراه له . ومفتاح ذلك التفسير المعقول هو نفس المفتاح الذى فسر به الفريد موري السالف الذكر رؤياه عن المقصلة في عام ١٨٦٠ ، والمبني على أن لا علاقة أو تناسب بين زمن الحلم والزمن الحقيقي في اليقظة .

ذاك ان كل الحلم الطويل الذى رآه ابو محمد خير كان منطلقاً من سماعه في لحظة معينة صوت عبث اللصوص بقفل باب مخزنه القريب من مكان نومه ، في محاولتهم سرقة ذلك المخزن . لقد أثارت قرقعة القفل في مراكز خلق الرؤيا في الدماغ عنده هذا الحادث الذى تراءى له في الحلم ، حادث وفودى عليه وتحيتي له وتعريفي اياه بنفسي وبممرضي . خلق كل هذا في اللحظة الخاطفة التى انتبه فيها لأصوات محاولة اللصوص كسر القفل . تماماً مثلما خلق سقوط قضيب مسند السرير على رقبة الفريد موري حلمه المستمد من معلوماته عن أحداث الثورة الفرنسية ، وذلك في اللحظة الخاطفة التى انقضت بين سقوط القضيب واستفاقته الفورية .

بقي الجواب على ما تساءل به أبو محمد خير نفسه في رسالته حين قال لماذا لم يبعث الله إليه غيرى أحداً يوقظه من نومه وينقذ مخزنه من السرقة . الجواب سهل . صحيح ان الرجل لا يعرفني شخصياً ، كما صرح في رسالته ، ولكني لا أستبعد أن يكون اسمي قد تردد أمامه في مناسبات عديدة . ففي الرسالة ما يدل على أنه يعرف أشياء غير قليلة عني سمعها من اناس يحسنون الظن بشخصي . فلما خلق ذلك الحلم في تصوره كان لابد أن يكون الموقظ له انسان ذو شهرة باعانته للآخرين في مجالات عديدة . وكان أن وقع اختيار لاشعوره ، عشوائياً أو تحت تأثير عوامل لا نستطيع تحديدها بدقة ، على كاتب هذه السطور في حلمه المنقذ ذاك ..

• • •

لقد مضت ثماني سنوات على وصول هذه الرسالة الي ولم أحظ بعد بزيارة السيد أبو محمد خير الموعودة لي . لعل الظروف لم تتح له القيام بها . ولعله لو زارني لخاب أمله حين افسر له حلمه بهذا التفسير الذى شرحته وحين أفجعه بمشاعره الروحانية التى وصفها في رسالته . وقد يقع هذا المقال بين يديه فيقرأه ويتعرض لخيبة الأمل وللفجيعة بتصوراته التي لا أتفق معه بشأنها .

ولكنه ، وإن لم تكن بيننا معرفة سابقة ، يصفني بأني صديقه . وجدير به على هذا أن يعذرني حين يتذكر الحكمة القديمة التي تصلح في أمر تفسير الأحلام مثل صلاحها في سائر الأمور ، وهي أن صديقك هو من صدقك لا من صدّقك ..



مع الفنان الكويتي

عبد الرسول سلمان

لاعب الكرة الذي أصبح فنّانًا صاحب خيال أسطوري

بقلم: يوسف أحمد

حلم

تعتبر حركة الفنون التشكيلية المعاصرة في دول الخليج العربية ، بحق علامة مضيئة على صفحات الحياة الثقافية التي يعيشها انسان الخليج في هذه الأيام . وهي تتمثل في هذا العدد الملحوظ من المعارض المتعددة الاتجاهات ، والندوات الفنية المصاحبة . وحركة النشر الفني التي بدأت هي الأخرى تشق طريقها في إصرار واهتمام .

وتعتبر دولة الكويت الشقيقة رائدة في مجال الفن التشكيلي الخليجي المعاصر . فبعد دخول مادة التربية الفنية في أواسط الأربعينات في المنهج التعليمي بالكويت . وارسال البعثات خارج الكويت للاستفادة والاستزادة من علوم الفنون التشكيلية . وانشاء المرسم الحر الكويتي عام ١٩٦٠ . واهتمام المسئولين بالكويت بهذا المرسم كنواة لفنانين متفرغين يأخذون على عاتقهم رسالة الفن التشكيلي متمثلة في حضورهم الدائم في أي منتدى خليجي .

وقد أدى انشاء الجمعية الكويتية للفنون التشكيلية عام ١٩٦٨ إلى دفعة قوية من أجل نشر اللوحات والرسوم الكويتية خارج البلاد سواء في الدول العربية أو دول أوربا وامريكا . وذلك عن طريق المعارض الخاصة التي تحمل اسم الجمعية والتي أدت الى ظهور العديد من الفنانين المتألقين . الذين من بينهم الفنان عبدالرسول سلمان ، الذي يعتبر بحق الشمعة المضيئة للحركة المعاصرة الكويتية في السنوات الأخيرة

والفنان عبد الرسول سلمان ، رغم كونه لاعبا للكرة ، إلا أنه أثرى الفن بعالمه الخاص المتميز ، منذ مشاركته الأولى عام ١٩٦٢ في معرض الربيع الرابع الذي أشرفت عليه وزارة التربية والتعليم في الكويت

ثم انطلق الفنان في خطوات أخرى فاشترك بلوحاته في معارض الأندية الصيفية عام ١٩٦٣ .

وقدم خلالها أعمالا بيئية كويتية رأى كثير من النقاد أنها تعبر عن موهبة حقة ، سيكون لها شأن كبير في المستقبل !

وقد ظهرت موهبة الفنان المبكرة منذ مشاركته ـ وهو مازال طالب في المرحلة الثانوية ـ في المعارض التي مثلت اسم الكويت في الخارج .

وبالتحاق فناننا عام ١٩٧١ بدار المعلمين ، بدأت ملامح أسلوبه تتضح ، مغلفة تحت الاتجاه السريالي الشريطي ، حيث كان يملأ اللوحة بأوراق

شريطية تلف أركان اللوحة مؤكدة تكوينها العام وموضحة الصورة الحقيقية للرؤيا الداخلية التي تلوح بين الحين والحين في موضوعاته .

إلا أن الفنان عبدالرسول سلمان لم يقفز الى هذا الأسلوب فجأة ، بل كانت بداياته كلاسيكية واقعية ، ومعالجاته للموضوعات البيئية الكويتية



التحدى

انطلاق

تنطلق من التقاليد . والرقصات الشعبية . والبيئة البحرية . وكان في ذلك الوقت يلجأ إلى الأسلوب التأثيري ذي الملامس الطويلية . ولعل تلك الملامس هي التي أوحت لعبد الرسول بفكرة الشرائط والالتفافات وابداعاته في استخدامها فيما بعد في موضوعات شعبية وانسانية .

والواضح أن اطلاع فناننا عبد الرسول سلمان على المدارس العربية الحديثة والأوروبية من خلال شغفه برؤية معارض أوروبا المختلفة . هو الذى ساعد على تكوين فكره النابض الحديث وطريقة معالجاته الفنية في لوحاته الحديثة . ومعايشته للفكرة التي يقدمها في كل لوحة من لوحاته ..

والمعروف أن الفنان عبدالرسول سلمان يتميز بخياله الأسطورى . وتعلقه بالرمزيات والقوالب السريالية التي يضمنها مضامين قومية أو سياسية أحياناً . ففي لوحته المسماة « شهداء الحرب » نرى تجسيد كراهته لأعداء الانسانية . واحتقاره لآلات الدمار وتمجيده للأبطال الذين يقدمون حياتهم من أجل ايمانهم بالمثل العليا .. إنه في هذه اللوحة . يرتفع إلى المستوى الأدبي دون أن يطغى على التقنية الفنية !

والواقع أن الفنان عبد الرسول سلمان له نشاط آخر غير نشاطاته الابداعية في مجال الرسم والتشكيل . فلقد قام عام ١٩٧٥ بإصدار أول كتاب يحكي مسيرة الفن التشكيلي الكويتي . مستعرضاً بداياته الفطرية . وعلاقة الفنون التشكيلية بالصناعات الشعبية ودخول مادة الرسم في التعليم العام والمؤسسات التي ساعدت على نشر الوعي التشكيلي بين الناس مثل وزارة التربية والتعليم . ووزارة الاعلام . والمرسم الحر الكويتي . والجمعية الكويتية للفنون التشكيلية . وجمعية المعلمين وغيرها .. وفي هذا الكتاب يتحدث ـ أيضاً ـ عن الوضع الحالي للتشكيل المعاصر . وهذا بخلاف ما قدمه في الكتاب عن مسيرة حياة أكثر من عشرين فنان رائد وشاب !

وفي عام ١٩٧٩ قدم كتاباً آخر عن الفنان الرائد المرحوم محمد الدمخي . ضمنه رحلة حياته الفنية والمأساوية :

وكانت آخر مؤلفاته : « التشكيل المعاصر في دول مجلس التعاون الخليجي » والذى يعتبر بحق أول كتاب عن تاريخ وعلاقة الفنون التشكيلية بانسان الخليج . ولقد صدر هذا الكتاب بمناسبة انعقاد الدورة الخامسة للمجلس الأعلى لقادة دول مجلس التعاون بالكويت في نوفمبر ١٩٨٤ .

وخلال الشهر الماضي اقامت وزارة الاعلام القطرية معرضاً متكاملا لأعمال الفنان عبدالرسول سلمان السريالية . ضمن نشاطات المعارض التي تقوم بها ادارة الثقافة والفنون وذلك لاتاحة الفرصة الكبيرة للجمهور القطرى للتعرف على تجارب فناني المنطقة وبخاصة المخلصين منهم .

خواطر تسرّ الخاطر

بقلم : زكريا تامر



نقّـاد الأيـام الآتيـة

في الستينات ، كنت أتردد باستمرار الى مقهى دمشقي معظم رواده من الأدباء والفنانين ، وهناك تعرفت الى أحد النقاد الشبان الذين يتكلمون كلاماً مملوءاً بالحماسة والرغبة في الاستشهاد في سبيل المثل العليا والأدب الرفيع الملتزم بهموم الانسان والقضايا المصيرية للشعوب .

أعجبت بذلك الناقد الشاب ، وسرنا يوماً معاً في أحد الشوارع ، نحكي عن شؤون الأدب ، فتطرق الحديث الى شاعر معين ، فأبديت فيه رأياً سلبياً ، فانبرى الناقد الشاب الى الدفاع عنه بحرارة ، مشدداً على أنه شاعر عظيم خالد ، وشعره سيصبح تراثاً للأجيال القادمة .

وظللنا نتناقش حول ذلك الشاعر حتى بح صوتي وأحسست بأني في أي لحظة قد أنقل الى المستشفى لأنام أياماً على سرير في قسم العناية المشددة ، ووجدت نفسي أقول للناقد الشاب : « دعنا ننبذ العموميات ونناقش الأمر مناقشة تعتمد على الوقائع والأدلة . اذكر قصيدة لشاعرك هي في رأيك جيدة ، وسنناقشها ، وسنرى من منا على صواب » .

فقال لي الناقد الشاب فوراً وبغير أن يفكر لحظة : « أنا أعرف الشاعر معرفة شخصية حسنة ، ولكني لم أطلع بعد على شعره » .

فبهت ، ولم أنطق بكلمة ، ولكنني لم أعلم آنذاك أني كنت شاهداً على مولد جيل جديد من النقاد سيسود فيما بعد ويهيمن ويصبح ذا شأن ونفوذ ويمتلك القدرة على تصوير عواء الثعالب كأنه تغريد بلابل .

الأصيـل منسـي والدّعيّ ذائـع الصّيـت

في عام من أعوام القرن العشرين ، أقامت امرأة فرنسية بالغة الثراء معرضاً لما تملكه من رسوم لمشاهير الفنانين في العالم كبيكاسو ودالي وشاغال وموديلياني ورينوار وفان كوخ .

واشتمل ذلك المعرض على لوحة واحدة فقط لفنان عربي ، واسم الفنان هو أبو صياح التيناوي .

وأبو صياح التيناوي فنان من دمشق ، دمشق الأزقة والحارات والبيوت الترابية ، لا دمشق الشوارع العريضة والمباني الحديثة ، ورسومه مستمدة من الحكايات الشعبية العربية ، ولكن غالبية رسومه مكرسة لعنترة وعبلة ، يرسمهما بالألوان على الزجاج ، يرسم عنترة رجلاً حقيقياً قوياً يشهر سيفه حين يكون وحده متأهباً لمواجهة أعدائه والانتصار عليهم . أما حين يكون برفقة عبلة فإن سيفه متوار في غمده . ويرسم عبلة امرأة جميلة عذبة حزينة حزناً غامضاً ، وممتطية صهوة جواد عربي أصيل .

وبراعة أبي صياح التيناوي الفنية الفذة تتجلى في أنه رسم عنترة وعبلة في مئات اللوحات دون أن تكون لوحة مشابهة للأخرى مع أن الموضوع واحد لم يتبدل .

وأبو صياح التيناوي لا علاقة له بعالم الفن والفنانين والثقافة ، فهو يمتلك دكاناً في حي شعبي ، يبيع فيها ما هب ودب من الخردوات ، وحين يأتي شخص ما راغب في شراء لوحاته ، يترك دكانه بعد أن يطلب من جاره الاهتمام بها في أثناء غيابه ، ويأخذ الزبون الى بيته القريب حيث تكدست رسومه في احدى الغرف الخالية ، وهناك يبدأ أبو صياح التيناوي بعرض لوحاته ، لوحة اثر لوحة ، مسهباً في تبيان مزاياها وبلهجة بائع ماكر يريد اغراء زبونه بشراء ما يعرضه من سلع .

وهذا السلوك قد يبدو لأول وهلة مستغرباً ، ولكنه بالنسبة الى أبي صياح التيناوي هو أمر جد عادي ، فهو لا ينظر الى نفسه على أنه فنان ، ويرفض أن يقال عليه إنه فنان ، وكل شخص يعامله على أنه فنان ينفر منه ولا يرغب في رؤيته ثانية ، أما من يقول له : « أنت فنان كبير موهوب » فهو ينظر إليه بريبة كأنه محتال له مآرب خفية من العسير كشفها ، فالرسم بالنسبة إليه مجرد مهنة كالحدادة والنجارة .

ولم ينجح أي صحافي في اجراء حديث معه ، وكان يقول للصحافي : « إذا أردت أن تشترى فأهلا وسهلا ، أما اذا لم تكن تريد الا الحكي فأرنا عرض أكتافك » .

وقد حاولت بعثات تليفزيونية أجنبية إجراء مقابلات معه ، ولكنه رفض رفضاً باتاً ، وطرد أعضاءها شر طردة .

وكان أحد الفنانين اللبنانيين دائم التردد إليه ، يشتري منه اللوحة بثمن لا يزيد عن عشرين ليرة سورية ، ثم يأخذها الى بيروت ، ويضعها في إطار فاخر ، ويبيعها للأجانب بمبلغ لا يقل عن خمسمائة ليرة لبنانية : وكان هذا الثمن في ذلك الحين باهظاً يحلم كبار الفنانين العرب بنيل مثله .

وفي أحد الأيام ، اشترى الفنان اللبناني لوحتين من لوحات أبي صياح التيناوي ، فقدم إليه أبو صياح لوحة صغيرة الحجم ، فسأله الفنان : « كم تريد ثمناً لها ؟ » .

فقال أبو صياح : «أنت اشتريت لوحتين كبيرتين . وهذه اللوحة الصغيرة على البيعة» .

وجملة «على البيعة» كانت تستخدمها نساء الحارات الشعبية الدمشقية حين يشترين أي شيء . ويطلبن الى البائع أن يزيد الوزن قليلا قائلات : «زد قليلا .. على البيعة» .

وفي يوم من الأيام . عرض على أبو صياح التيناوي لوحة مرسومة على الزجاج لعبلة وهي تمتطي صهوة حصان أسود اللون . وكانت لوحة رائعة تبهر حقاً . فتأملتها ، ثم سألته وأنا أشير بسبابتي الى لطخة سوداء في سماء اللوحة : «يا أبا صياح .. ما هذا ؟» .

وكان أبو صياح التيناوي لا يبتسم ، ومتجهم الوجه دائماً . ولكنه عندما سمع سؤالي ازداد تجهم وجهه . وبدا كمن أهين إهانة بالغة ، وقال لي بنزق : «اسمع يا أستاذ .. يا محترم .. اذا كنت لا تعرفني فاسأل عني . أنا لا أغش زبائني . أنا أبيعهم لوحة لعبلة راكبة على حصان ، ولكن عرض اللوحة لم يسمح برسم الحصان كاملا ، واضطررت الى رسم ذيله ناقصاً . وهذه القطعة السوداء هي بقية ذيل الحصان» .

وكانت اللوحة التي يرسمها أبو صياح التيناوي . وتحظى بتقديره وحبه . يشوهها من دون أن يدري . فهو يكرر كتابة اسمه وعنوانه في كل فراغ من فراغات اللوحة كأنه يريد أن يؤكد أنه هو حقاً ذلك المبدع الذي رسم تلك اللوحة الرائعة .

وقد عاش أبو صياح التيناوي حياته بعيداً عن الأضواء والشهرة . ولم يحظ بأي تكريم . ولم ينل أي وسام أو منصب . ولم تنشر أي مطبوعة عربية نبأ وفاته . فصفحاتها مكرسة لتمجيد رسامين لا يصلحون لطلاء جدران غرفة تسكنها أسرة معوزة .

الشعر الحديث والباذنجان

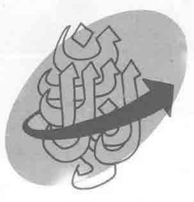
صديقي الشاعر السوري علي الجندي الذي ينظم قصائد تقطر عواطف حارة ، لم أره منذ أربع سنوات بسبب إقامتي بلندن ، وأعاني شوقاً إليه والى أشعاره .

وفيما مضى من السنين . التقينا ، علي الجندي وأنا . فقال لي : نظمت بالأمس قصيدة طويلة بعد أن أكلت أربعة أرغفة طازجة مع باذنجان مقلي بأفخر نوع من أنواع زيت الزيتون الأصلي ، فهل أنت مستعد لسماع القصيدة ؟» .

وكان سؤاله مطروحاً بلهجة توحي بأني لن أنصت لقصيدة بل سأذهب الى فلسطين الحبيبة كي أحررها وحدي . وشعرت بأني جندي جبان في جيش طارق بن زياد . وتكلفت مرحباً بسماع القصيدة . وبدأ علي الجندي يلقي قصيدته بصوت لا يقل عذوبة عن صوت سعاد حسني . ولما انتهى من تلاوة قصيدته . حملق الي بصرامة محقق لا يعرف الرأفة . وسألني : «ما رأيك ؟ أريد رأياً صريحاً لا مجاملة فيه» .

ففكرت قليلا . ثم قلت لعلي الجندي : «أنت تخدعني . هذه القصيدة لم تنظمها بعد أن أكلت باذنجاناً مقلياً ، بل نظمتها بعد أن اغتسلت ساعات في حمام ساخن» .

فنظر الى علي الجندي باستغراب ، وسألني بدهشة لم يستطع إخفاءها : «وكيف عرفت ؟» . فقلت له : «لأن القصيدة أثرت في وجعلتني راغباً في الركض الى أقرب حمام سوق» . فاتهمني صديقي علي الجندي بأني لا أتذوق الشعر الناضج ، فبادرت الى نفي تهمته باستنكار شديد . ولكني فيما بعد لما أطلعت على ما ينشر من أشعار حديثة اقتنعت أن التهمة الموجهة الى من قبل علي الجندي كانت حقيقية وليست ملفقة .





سرّ المهنة

زميلي القديم ، العالم الفاضل الورع عبد الله الشيتي ، قابلته السنة الماضية حيث يعمل بالكويت ، وكان دائم الضحك والمرح ، فسألته : «كيف تستطيع أن تضحك بينما أحوال العرب ترغم الحجر على البكاء ؟» .

فقال : «هذا سر المهنة» .

فقلت له : «أنت منذ أن طرد آدم من الجنة تكتب في الصحف زاوية يومية ساخرة ، فكيف تجد موضوعات تكتب عنها ؟ وماذا تفعل عندما لا تجد موضوعاً يصلح لأن تكتب عنه كتابة ساخرة ؟» .

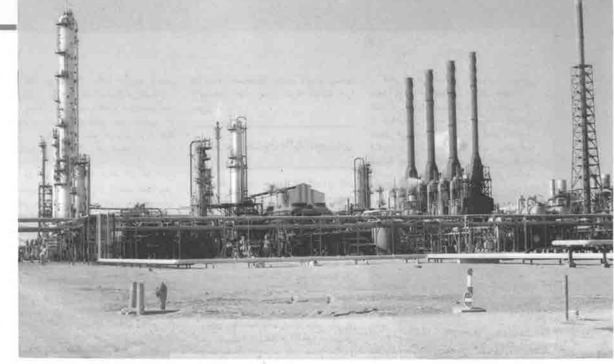
قال : «أكتب عن أصدقائي ساخراً منهم» .

قلت : «واذا لم تجد صديقاً تسخر منه ؟» .

قال : «أسخر من نفسي» .

قلت متسائلا بفضول : «وكيف تتناول الحابل والنابل من غير أن تغضب أحداً ؟» . فضحك عبد الله الشيتي ضحكة شرلوك هولمز . وقال : «وهذا أيضاً سر المهنة» .

وأعترف بأن محاولاتي للوصول الى سر المهنة قد أخفقت كافة . وظل ما أكتبه ينال غضب الأصدقاء والخصوم .



تبلغ طاقة مصنع «الايثلين» في مجمع البتروكيماويات ٢٨٠ ألف طن سنويا

قلعة صناعية على شاطئ أم سعيد

تحقيق: طلعت الشايب

المنطقة الصناعية بأم سعيد ، والتى نزور اليوم احدى قلاع الصناعة بها ، مفخرة لكل عربى وترجمة أمينة وصادقة لكلمات سمو أمير البلاد المفدى الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني : إن مشاريع التصنيع فى نظرنا شيء مهم .. يمثل حجر الزاوية فى بناء صرح وطننا . ولقد سلكنا سبيل التصنيع ووضعنا برنامجه لأننا لانريد أن نعرض أنفسنا للمخاطر الاقتصادية فى المستقبل . ولعل أهم الضمانات فى هذا الصدد هو العمل على تنويع مصادر دخلنا الوطنى عبر القاعدة الصناعية الصلبة لأن من شأن ذلك أن يخفف من اعتمادنا على البترول تدريجياً . ولذلك كان من واجبنا إكمال بناء المجتمع الصناعى فى دولة قطر وخلق مصادر الدخل البديلة للبترول . فالأجيال القادمة أمانة فى يدنا .

وقد بدأ الاهتمام بإنشاء المدينة الصناعية بأم سعيد فى أوائل السبعينات لكى تكون مركزاً للصناعات الثقيلة ، ولترتفع اليوم فيها أبراج المصانع المتعددة التى تسخر أحدث منجزات العلم والتكنولوجيا لخدمة الإنسان العربى ، ولتهيىء الفرص أمام أبناء هذا الوطن للمشاركة فى صناعة المستقبل على الأرض العربية .

● الاستخدام الأمثل لموارد البلاد الطبيعية

« تعتبر الصناعات الثقيلة معياراً من معايير التطور الاقتصادي ومقياساً لما تحققه أية أمة من الأمم من تقدم وازدهار ورمزاً لعزتها الوطنية .

وقد أدركت قطر بفضل القيادة الحكيمة لصاحب السمو أمير البلاد المفدى الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني حفظه الله ما للصناعات الثقيلة من أهمية كبرى بالنسبة لبلد كقطر . بالإضافة إلى اعتبارها مصدراً أساسياً من مصادر تنويع الدخل وأملاً حقيقياً يعطي أبناء شعبنا الفرصة لدخول عصر التكنولوجيا ومعايشة أحداثه ومواجهة تحدياته .

ونحن نشهد اليوم بانتهاء العمل في إنشاء مصنع البتروكيماويات استكمال حلقة أخرى هامة من حلقات الخطة التصنيعية لدولة قطر التي استهدفت الاستغلال الأمثل لمورد أساسي من مواردها الطبيعية ، والذي كان يحرق هدراً قبل تصنيعه واستغلاله » .

من كلمة وزير المالية والبترول سعادة الشيخ عبد العزيز بن خليفة آل ثاني بمناسبة افتتاح مجمع شركة قابكو في فبراير ١٩٨١ .



سعادة الشيخ عبد العزيز بن خليفة آل ثاني وزير المالية والبترول



مصنع « البولي إثلين » منخفض الكثافة ، وتبلغ طاقته السنوية ١٤٠ الف طن

وفي مقدمة كتاب « الخليج ليس نفطاً » يقول المفكر العربي الخليجي الدكتور محمد الرميحي ، المعروف باهتماماته بقضايا التنمية والوحدة في العالم العربي : « الخليج ليس نفطاً .. فهو انسان وأرض قبل النفط ، وسيظل كذلك بعد النفط . والنفط في تاريخ الخليج العربي ما هو إلا مرحلة من المراحل التاريخية التي مر ويمر بها هذا الجزء من الوطن العربي ، ويبدو أنه من أقصر المراحل التاريخية » .

وعندما يتكلم الواقع الملموس في دولة قطر ، فإنه ينطق بأن الربع الأخير من هذا القرن قد شهد تطوراً كبيراً وحركة دائبة في اتجاه بناء المستقبل وتأمين حياة الأجيال القادمة في عالم سريع التغير .

ومن أجل تخفيف الاعتماد على مصدر ناضب وشبه وحيد للدخل القومي كان لابد من استخدام موارد مرحلة النفط واستثمارها من أجل مراحل ما بعد النفط . لذلك اعتمدت خطط وبرامج التنمية الصناعية لدولة قطر على الصناعات القادرة على الانطلاق والنمو والمنافسة في الأسواق العالمية اعتماداً على جودتها وأسعارها التنافسية مستفيدة من المقومات التصنيعية في الدولة .

قلعة صناعية
على شاطئ أم سعيد

أنشئت شركة قطر للبتروكيماويات «قابكو» موضوع هذا الاستطلاع عام ١٩٧٤ بين دولة قطر ممثلة في المؤسسة العامة القطرية للبترول (٨٤٪)، ومجموعة سي. دي. اف شيمي CdF Chimie الفرنسية (١٦٪)، برأس مال قدره ٣٦٠ مليون ريال قطرى، تم زيادته أكثر من مرة ليصبح في ١٩٨٥ مبلغ ٤٣٦ مليون. يشغل مجمع الشركة مساحة تقدر ب ١٠٠ هكتار، ويضم ثلاثة مصانع رئيسية لانتاج الإيثلين والبولى ايثلين منخفض الكثافة، ومصنعاً للبخار والطاقة اللازمة لتشغيل المجمع، بالإضافة إلى المنشآت التكميلية العامة الأخرى.

وقد بلغت التكلفة الإجمالية للمجمع ٢٦٠٠ مليون ريال قطرى ويمكنه طبقاً للطاقة التصميمية أن ينتج سنوياً ٢٨٠,٠٠٠ طن من الايثلين، ١٤٠,٠٠٠ طن من البولى ايثلين منخفض الكثافة، ٤٦,٠٠٠ طن من الكبريت.

أما المادة الأولية المستخدمة فهى الغاز الغنى بالإيثان الذى يصل إلى المجمع عن طريق مصنع تسييل الغاز التابع للمؤسسة العامة القطرية للبترول.

هذا الغاز يحتوى على ٦٠٪ تقريباً من الإيثان، ٢٠٪ من الميثان، ٢٠٪ من الغازات الحامضية الأخرى.



منظر عام لمجمع البتروكيماويات

وحدة جديدة لاستخلاص الايثان

وداخل مجمع الشركة يجرى العمل الآن على قدم وساق لانشاء وحدة جديدة لاستخلاص الايثان، من المخطط لها أن تبدأ في العمل مع بداية ١٩٨٦. هذه الوحدة سوف تستقبل وتعالج ١٥٠ مليون قدم مكعب يومياً من خليط من الغاز التصيل Stripped Gas قادم من الحقول البرية والبحرية، ويحتوى في تركيبه على ١١٪ من الإيثان.

بمعالجة هذا الخليط سوف تنتج الوحدة الجديدة يومياً ٥٠٠ طن مترى من الإيثان ليستخدم في مصنع الايثلين، ٢٠٠ طن مترى من L. P. G. يعاد توجيهها إلى مصنع تسييل الغاز من أجل استخدامات أخرى، أما الغاز الذيل المتبقى Tail Gas فسوف يتم ضخه إلى شركة الأسمدة الكيماوية المجاورة لمجمع الشركة. الغرض من انشاء هذه الوحدة الجديدة، والتى تتكلف ٢٠٠ مليون ريال قطرى، هو تأمين الكمية اللازمة من المادة الخام لتشغيل مجمع «قابكو»

قابكـــو

شركة قطر للبتروكيماويات المحدودة

- العنوان: المركز الرئيسى: ص.ب ٧٥٦ الدوحة ــ قطر.
ت: ٣٢١١٠٥
تلكس: ٤٣٦١ قابكو د. اتش
المجمع: المنطقة الصناعية ــ أم سعيد ــ قطر.

ت: ٧٧٠١١١
تلكس: ٤٨٧١ قابكو. د. اتش.

- رأس المال: ٤٣٦ مليون ريال قطرى.
- المساهمون ــ المؤسسة العامة القطرية للبترول ٨٤٪.
- مجموعة CdF Chimie ١٦٪.
- مساحة الموقع: ١٠٠ هكتار.
- عدد العاملين: ٦٦٥.
- تاريخ افتتاح الانتاج التجارى: يناير ١٩٨١.
- تاريخ المجمع: فبراير ١٩٨١.
- المادة الخام: الغاز الغنى بالإيثان ٦٠٠,٠٠٠ طن سنوياً، والذى يزود به المجمع من قبل مصنع تسييل الغاز التابع للمؤسسة العامة القطرية للبترول.
- المنتوجات والطاقة التصميمية: ــ الإيثلين ٢٨٠,٠٠٠ طن سنوياً ــ البولى ايثلين منخفض الكثافة ١٤٠,٠٠٠ طن سنوياً.
ــ الكبريت ٤٦,٠٠٠ طن سنوياً.
- إمكانات التصدير: الايثلين: جميع انحاء العالم وخاصة جنوب شرقى آسيا. البولى ايثلين: ٥٥٪ إلى الشرق الأوسط ٤٥٪ جنوب شرقى أفريقيا والشرق الأقصى.
الكبريت: الخليج العربى ــ الهند ــ الباكستان.

● لأول مرة في الشرق الأوسط يتم نقل غاز الإيثلين عن طريق الشاحنات!



محمد السليطي








صالح الحجي



يعقوب الهيل




محمد درويش



ياسر النعيمي



عبدالله الملا

بكامل طاقته التصميمية بصفة مستمرة ومنتظمة ، وعدم تأثره بأى خفض فى انتاج البترول لأى سبب من الأسباب .

* * *

قبل القيام بجولتنا فى أرجاء المجمع التقيت بالسيد محمد حمد السليطى المدير الادارى للشركة والذى لم ينس خلال الحديث معى أن يحث الشباب القطرى عبر مجلة الدوحة على الاقبال على العمل فى المجال الصناعى من أجل بناء بلده ومستقبله . كما التقيت بالسيد أحمد أسد ضابط شئون الموظفين (٢٩ سنة ـ بكالويوس فى إدارة الأعمال من الولايات المتحدة فى ١٩٨٠) وهو يعمل بالشركة منذ تخرجه . كذلك التقيت بمساعده السيد عبد الله الملا (٢٦ سنة ـ بكالوريوس إدارة أعمال ـ جامعة أريزونا بالولايات المتحدة فى ١٩٨٤) . ومن احصائيات الشئون الادارية نعرف أن اجمالى العاملين بالشركة حالياً ٦٦٥ منهم ١٠١ قطرى (١٥٪) ، ٣٣٠ من أبناء الدول العربية (٦٥٪) وهى نسبة عالية بالمقارنة بمثيلاتها فى المصانع الأخرى ومع الوضع فى الاعتبار أن صناعة البتروكيماويات صناعة متخصصة وتتطلب مستوى عاليا من الخبرة والكفاءة .

كذلك علمنا أن الشباب القطرى يشغل عدداً كبيراً من المناصب الهامة بالشركة : من هذه المناصب على سبيل المثال :

المدير الإدارى ـ مدير العلاقات العامة ـ نائب مدير التسويق ـ نائب مدير المحاسبة ـ ضابط شئون الموظفين ـ المراقب الادارى المساعد ـ مشرف الاسكان ـ مشرف الاتصال والعلاقات العامة ـ منسق الأمن ـ منسق العلاقات الصناعية والخدمات ـ منسق حماية البيئة ـ مهندس أول الصيانة والخدمات العامة ـ مشرف انتاج البولى ايثلين .

جولة داخل المجمع

فى الإدارة الفنية وقبل جولتنا نتعرف على اثنين من الشباب القطرى هما المهندس صالح الحجى والسيد يعقوب الهيل ، اللذان فضلا العمل بالمجال الصناعى بعد الحصول على الدرجة الجامعية ، الأول فى الهندسة ، والثانى فى العلوم .

صالح الحجى حاصل على بكالوريوس فى الهندسة الميكانيكية من جمهورية مصر العربية فى ١٩٧٧ وعلى الماجستير من فرنسا فى ١٩٨١ أثناء عمله بالشركة . وهو يشغل حالياً وظيفة مهندس أول الصيانة والخدمات العامة وتمتد مسئولياته الإشرافية لتشمل أقسام الصيانة الفنية والخدمات العامة والمشتروات والمخازن ومكتب الرسم . وعن تجربته فى « قابكو » يقول : « التحقت بالشركة فى ١٩٧٧ واخترت مجال الصناعة لما لها من أهمية فى بناء مستقبل المجتمع وتطويره .. أرسلتنى الشركة فى بعثة دراسية إلى فرنسا لمدة عامين للحصول على الماجستير ، وبعد عودتى أعد لى برنامج استمر لمدة ٩ شهور داخل المجمع مررت خلالها على جميع الأقسام الفنية ثم انتهى بى الأمر فى قسم الصيانة كما يتفق مع دراستى وتخصصي ، حيث بدأت كمساعد لمدير الصيانة ثم تدرجت فى السلك الوظيفى » .

ويقول المهندس صالح الحجى : « يجب على الشباب القطرى أن يقبل على العمل فى المجال الصناعى والفنى ، وأن يساهم فى بناء وطنه ، فالمجال أمامهم مفتوح لتولى مسئولياتهم مع اخوانهم من أبناء الدول العربية ، ويجب أن نعلم جميعاً أن الاستفادة بالخبرة الأجنبية غير العربية ليست سوى مرحلة مؤقته نتحمل بعدها نحن كامل المسئولية . وبالمزيد من الدعم المعنوى للكفاءات القطرية تتاح لها فرصة لاثبات وجودها والتغلب على أى صعوبات تواجهها . وأنا أناشد الخريجيين القطريين وخاصة من ذوى التخصصات الفنية أن يتجهوا إلى الشركات الصناعية الكبرى التى أقامتها الدولة .. فالصناعة هى الضمان الاكيد من أجل مستقبل أفضل على جميع الأصعدة : الشخصية والوطنية والقومية » .

أما السيد يعقوب الهيل : فأسأله فى البداية عن قصة « موكب الهيل » الذى يتحدث عنه زملاؤه فى العمل فيقول ضاحكاً :

« يا سيدى منذ شهور طلبت منا شركة « سابك » السعودية كمية من غاز الايثلين لبدء تشغيل مصنع « صدف » . كان علينا أن ننقل اليهم الكمية المطلوبة بالشاحنات ، وكانت هذه أول مرة ينقل فيها غاز الايثلين بالشاحنات بالشرق الأوسط . الحمد لله تمت العملية بنجاح ودون أى

قلعة صناعية
على شاطئ أم سعيد

صهريج الايثلين ، ويستعمل لتخزين ٣٠ ألف متر مكعب من غاز الايثلين

حوادث ، وكان ذلك يتطلب تنسيقا دقيقا مع أجهزة متعددة : الشرطة ، الأمن ، الاطفاء ، الصحة .. الخ . كنت أنا المسئول عن تأمين هذا العمل والتنسيق مع جميع الأطراف وكانت الشاحنات تخرج في موكب تتوفر له كل احتياطات الأمن والسلامة حتى الحدود . تتقدمه الشرطة وتتبعه سيارة الاسعاف . وهكذا أطلق الزملاء على الموكب موكب الهيل » .

ويعقوب الهيل الذى يشغل وظيفة منسق حماية البيئة بالادارة الفنية من مواليد ١٩٥٣ حاصل على دبلوم معهد الأدلة الجنائية في ١٩٧٤ وعلى بكالوريوس العلوم من جامعة القاهرة في ١٩٨٠ ويعمل في « قابكو » منذ سنة ١٩٨١ . وقد أمضى السنة الأولى في الشركة متدربا في المختبرات وأقسام الانتاج المختلفة ، ثم أرسل إلى المملكة المتحدة لحضور دورة تدريبية عن التلوث وحماية البيئة .

مع صالح الحجي ويعقوب الهيل وعبدالمحسن علي مشرف الاتصال بادارة العلاقات العامة ــ وصاحب الخبرة الطويلة في هذا المجال منذ عمل في

غلايات (مراجل) توربين الغاز بمصنع البخار والطاقة في مجمع البتروكيماويات



« نفط الكويت » سنة ١٩٥٥ ـ كانت لنا جولة سريعة على مصانع المجمع .

* * *

مصنع الايثلين ...

صمم هذا المصنع لينتج ٢٨٠,٠٠٠ طن سنويا من الايثلين من كمية ٦٠٠,٠٠٠ طن من الغاز الغنى بالايثان يستقبلها من مصنع تسييل الغاز التابع للمؤسسة العامة القطرية للبترول . هذا الغاز الغنى بالايثان يتكون تقريبا من ٦٠٪ من الايثان ، ٢٠٪ ميثان ، ٢٠٪ غازات حامضية أخرى وتتم عملية انتاج الايثلين على ٣ مراحل هى : المعالجة ـ التحطيم البخارى ـ فصل المشتقات .

١ ـ معالجة الغاز : يعالج الغاز لاستخلاص الغازات الحامضية « كبريت الهيدروجين وثاني أكسيد الكربون » . يحول غاز كبريت الهيدروجين إلى كبريت صلب ويخزن فى مخزن يتسع لـ ٨٠٠٠ طن حيث يهيأ للتحميل والشحن بالسفن للتصدير . يفصل بعد ذلك غاز الميثان . أما الايثان فيرسل إلى التخزين المحلى داخل خزانين كرويين سعة كل منهما ٤٠٠٠ متر مكعب أو يرسل مباشرة لتغذية أفران التحطيم .

٢ ـ التحطيم : يحقن الغاز القادم من المرحلة السابقة بالبخار ويمرر عبر أنابيب ملتفة داخل أفران التحطيم على درجة حرارة ٨٥٠ درجة . والهدف من حقن البخار هو تسهيل التفاعل والتقليل من ترسب الفحم على جدران الأنابيب .

٣ ـ فصل المشتقات :

وهو يتم على ثلاث مراحل :

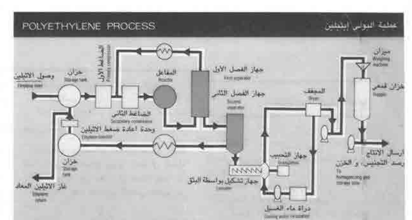
• القسم الحار : حيث تبرد الغازات المتكسرة الخارجة من الأفران بسرعة الى درجة حرارة ٣٥ داخل مبادل حرارى وبرج تبريد ويستفاد من حرارة التبريد فى انتاج البخار .

يتم فى هذا القسم أيضاً فصل الماء والزيوت الثقيلة ويرسل الغاز المحطم على درجة حرارة ٣٥ إلى قسم الضغط .

• ضغط الغاز : يضغط الغاز المحطم إلى ٣٦ بار ضغط جوى وتتم عملية الضغط بواسطة ضاغط من خمس مراحل يعمل بالطرد المركزى ثم يغسل الغاز المضغوط بين المرحلتين الرابعة والخامسة لإزالة الكميات الضئيلة المتبقية من ثاني أكسيد الكربون وكبريت الهيدروجين .

• القسم البارد : بعد التجفيف تبرد الغازات المحطمة فى دائرة البروبيلين السائل ثم فى دائرة الايثلين السائل والذى تكون درجة حرارته ٩٥ تحت الصفر وذلك لتسهيل عملية فصل الغازات كما يلى :

المرحلة الأولى : إزالة الهيدروجين والميثان لاستعمالهما كغاز وقود .



رسم توضيحى لعملية التحطيم البخارى التى تتم فى مصنع الايثلين

وحدة تحلية مياه البحر



قلعة صناعية
على شاطئ أم سعيد

المرحلة الثانية : استخراج الايثلين بنقاوة ٩٩,٩٥٪ وكذلك الايثان الذى يعاد من جديد إلى أفران التحطيم .

المرحلة الثالثة : البروبلين : ويتم تخزين الناتج عن عملية الفصل في خزان كروى البروبان : ويعاد استخدامه مرة ثانية .

أما باقى المواد الهيدروكربونية فيتم حرقها .

يرسل غاز الإيثلين المنتج إلى صهريج أسطوانى سعة ٣٠,٠٠٠ متر مكعب بدرجة حرارة ١٠٤ تحت الصفر وعلى الضغط الجوى ، أو يرسل إلى مصنع البولى ايثلين .

يوجد أيضاً مخزن لتخزين الكبريت على شكل حبيبات ، ويشحن مباشرة إلى المراكب الراسية بمحاذاة الرصيف .

مصنع البولى إيثلين

تبلغ الطاقة الإنتاجية للمصنع ١٤٠,٠٠٠ طن سنوياً من البولى ايثلين منخفض الكثافة وهذا المصنع من أكبر المصانع في العالم والتى تعمل على خط انتاج واحد ويتبع طريقة CdF Chimie الفرنسية .

خطوات التصنيع

• عملية ضغط الغاز :

يضغط غاز الإيثلين النقى (٩٩,٩٥٪) على مرحلتين الأولى إلى ٢٥٠ ضغط جوى بواسطة الضاغط الأولى : والثانية إلى ٢٠٠٠ ضغط جوى بواسطة الضاغط الثانوى .

• البلمرة :

يتم تحويل غاز الإيثلين المضغوط إلى مادة البولى ايثلين داخل مفاعل . أما التحكم في التفاعل فيكون بواسطة الضغط والحرارة والمادة الحافزة وعوامل الانتقال للوصول إلى النوعية المطلوبة . بعد انتهاء التفاعل تخرج النواتج من المفاعل وينخفض الضغط تدريجيا ليسمح بفصل البوليمر عن الايثلين غير المبلمر الذى يعاد دورانه لاستخدامه من جديد .

وتصل نسبة البلمرة إلى ٢٠٪ . يعزل المركب البلمر (البولى ايثلين) وتضاف إليه عدة مواد لتحسين خواصه مثل مانعات التأكسد ومانعات ضد الأشعة فوق البنفسجية ووسائط الانزلاق وغيرها .

• التجانس :

تتم عملية التجانس للبولى ايثلين للتأكد من تناسق خواصه .

والمصنع مجهز بصوامع للتخزين لتسهيل عملية التحميل في الشاحنات ومزود بخط آلى للتعبئة بالأكياس ولفها على شكل رزم مغطاة بغشاء من البلاستيك أو يعبأ بصناديق للشحن مباشرة على السفن .

مصنع البخار وتوليد الكهرباء

ويضم هذا المصنع :

ـ ثلاثة توربينات غازية لتوليد الكهرباء (كل منها ١٧ ميجا واط) .

ـ مرجلا طاقة كل منهما ١٤٠ طن بخار/ساعة على ضغط ٤٥ بار وذلك بالاستفادة من حرارة الغازات الخارجة من التوربينات الغازية .

ـ مرجلان تقليديان يعملان على الغاز للمساعدة عند الحاجة : استطاعة الواحد منهما ٧٠/ساعة على ضغط ٤٥ بار .

ـ غلاية للمساعدة عند الضرورة ، استطاعتها ١٨٠ طن/ساعة .

ـ يحتوى المصنع أيضاً على محطة كهرباء فرعية . وهى المحطة الأساسية لتوزيع الكهرباء لكل المجمع ، وموصولة بشكبة كهرباء الدولة بخطين . جهد كل منهما ١٣٢,٠٠٠ فولت لتأمين توزيع منتظم للطاقة في المجمع باستمرار .

المنشآت التكميلية العامة

ـ محطة لضخ مياه البحر تستخدم للتبريد الإجمالى وهى مجهزة بمضخات ، طاقة كل منها ١٣٠٠٠م متر مكعب .

ـ محطة لضخ غاز الوقود .

ـ وحدة لانتاج غاز النيتروجين .

ـ وحدة لانتاج الماء الخالى من الأملاح المستعمل في تغذية المراجل .

ـ شبكة لتوزيع الموائع الأساسية (ماء ـ هواء ـ غازات .. الخ) مع خزانين سعة كل منهما ٧٥٠٠ م متر مكعب لتخزين الماء المحلى .

ـ وحدة لتحلية مياه البحر .

الإنتاج والتسويق

في سنة ١٩٨٣ بلغ انتاج « قابكو » من البولى ايثلين منخفض الكثافة ١٤٤,٠٠٠ طن ، وهو رقم يزيد عن الطاقة التصميمية . كذلك في سنة ١٩٨٤ بلغ الانتاج ١٥٠,٠٠٠ طن وهو رقم يزيد أيضاً عن الطاقة التصميمية بمقدار ١٠,٠٠٠ طن .

أما بالنسبة لسنة ١٩٨٥ فالمستهدف هو انتاج ١٨٠,٠٠٠ طن من الايثلين ، ١٥٥,٠٠٠ طن من البولى ايثلين .

وفي الادارة المالية التقيت باثنين من الشباب القطرى يشغلان منصبين هامين في الادارة : الأول هو ناصر التعيمى ، نائب مدير المحاسبة (٣٢

منطقة أم سعيد الصناعية

• تقع في الجزء الجنوبى الشرقى من دولة قطر وعلى مسافة ٤٥ كم تقريباً من العاصمة « الدوحة » .

• بدأ الاهتمام بها واعدادها لتكون مركزاً للصناعات الثقيلة في أوائل السبعينات وذلك لوجود شريط ساحلى مناسب .

• خلال السنوات القليلة الماضية قامت الدولة بتجهيزها باللوازم الأساسية للصناعة مثل تعميق السواحل وربطها بقنوات مؤدية إلى المياه العميقة وانشاء العديد من الأرصفة كما تم ربط المنطقة بشبكة خطوط أنابيب الغاز الطبيعى لتغذية مختلف المصانع ومحطات الكهرباء بالغازات اللازمة كمادة خام ومصدر لتوليد الطاقة .

• أهم المصانع الموجودة بها حالياً مصفاة تكرير البترول ـ الأسمدة الكيماوية ـ الحديد والصلب ـ البتروكيماويات ـ مصنع تسييل الغاز .

• المنطقة مجهزة بشبكات للطرق والمياه والمجارى والاتصالات ، والمنطقة السكنية مزودة بجميع الخدمات اللازمة لإقامة العاملين وأسرهم .

سنة) والذى بدأ حياته العملية فى هذا المجال منذ ١٩٧٣ بالمؤسسة العامة القطرية للبترول ، ثم التحق بشركة قابكو فى ١٩٨٠ ، وتدرج فى عدة وظائف بالادارة المالية حتى رقي إلى هذا المنصب فى أوائل ١٩٨٥ .

والثاني هو نائب مدير التسويق ، محمد درويش (٣٠ سنة) ، خريج تجارة القاهرة (١٩٨٠ ـ ١٩٨١) والذى يعمل بالشركة منذ حصوله على البكالوريوس .

وفى إطار خطة تنمية القوى البشرية القطرية يسافر محمد درويش هذا الصيف إلى المملكة المتحدة للحصول على درجة فى المحاسبة تعادل الماجستير بعد عامين من الدراسة .

رغم حداثة الشركة إلا أن منتجاتنا وفى وقت قصير أصبحت تتمتع بسمعة طيبة فى الأسواق العالمية لجودتها العالية . هكذا بدأ محمد درويش حديثه معى . ثم يقول :

« نحن نهدف إلى انتاج وبيع أكبر كمية ممكنة ، وبالطبع بأفضل سعر ممكن . البيع فى أسواق الشرق الأوسط أمر منطقى . حيث تكاليف النقل أقل منها إلى أسواق الشرق الأقصى وجنوب شرقى آسيا . ولكن للأسف فإن أسواق الشرق الأوسط محدودة ، ولا يمكنها أن تستوعب أكثر من ٥٠٪ من انتاجنا .

من هنا كان اتجاهنا إلى الأسواق البعيدة فى جنوب شرقي آسيا والشرق الأقصى حيث المنافسة شديدة والسوق خاضعة لظروف يفرضها المنتج المحلي والمنتج المنافس القادم من الولايات المتحدة والبرازيل واليابان وغيرها من البلاد » . ونعرف من إحصائيات قسم التسويق أن مبيعات قابكو فى السنوات الأربع الماضية كانت كما يلى :



صوامع تخزين البولى إيثلين

اجمالى عدد العاملين بالشركة ٦٦٥

- نسبة العاملين القطريين ١٥٪
- نسبة العاملين من مختلف الجنسيات العربية بما فيهم القطريين ٦٥٪
- نسبة العاملين من غير العرب ٣١٪
- نسبة المعارين من قبل الشريك الأجنبى ٤٪

	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤
* البول ايثلين	١٠٠,٥٠٠	١٢٢,٦٠٠	١٤٠,٩٠٠	١٥٣,٢٨٣
* الايثلين	٢٥,٠٠٠	٨,٠٠٠	١٢,٠٠٠	٥٧,٤٠٦
* الكبريت	٦,٠٠٠	٦,٠٠٠	٢٥,٠٠٠	٢٧,٧٧٩
(*) الكميات بالطن المترى .				

وبعد ..

فإن هذه الزيارة الميدانية لمجمع شركة قطر للبتروكيماويات والأول من نوعه فى المنطقة ، وحيث شاهدنا والتقينا بشباب وكفاءات من ١٤ دولة عربية يتعاملون مع أحدث منجزات العلم وتكنولوجيا العصر لتحويل مادة كانت تحرق هدرا إلى مواد مفيدة تجعلنا نؤمن ان كل مصنع يقام على أية بقعة من وطننا العربى الكبير ليس سوى لبنة فى صرح التنمية الشاملة ، وخطوة نحو مستقبل عربي أفضل ، فى عصر سريع الايقاع ، لامكان فيه للمنتظرين على أرصفة التاريخ .

طلعت الشايب



لقطة من مجمع البتروكيماويات

كثيرون من الفنانين ، العرب أو الأجانب ، يعودون من جديد الى الحرفة الشعبية ، الى الفنون التقليدية ، يستلهمون منها مصادر أعمالهم الفنية ، على مستوى التصور والتقنية أيضاً . الفنان يريد من ذلك أن يتصل من جديد بممارسة فنية عريقة ، خبرت الشعوب فعاليتها الابداعية ، دون حاجة أو هوس بالتجريب والاختبار والبحث ، ويريد من ذلك أيضاً أن يؤكد أن الفن ليس ابتكاراً مطلقاً ، بل حلقة متجددة في سلسلة عريقة وعميقة الجذور في تربتها المحلية .

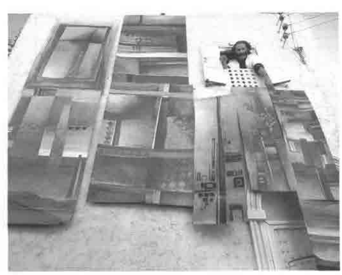
فنان فرنسي .. وفنان مغربي

يعودان إلى المقامات اللونية للسجّادة الشعبيّة العربيّة

بقلم : شربل داغر

الفنان روجيه بيزومب الفرنسي والفنان محمد بناني المغربي يعودان لاستلهام نوع محدد من الفنون الشعبية : الأبسطة أو السجادة الشعبية ، ينطلقان من هذه التجربة دون أن يكرر الواحد منهما زميله ، لا بل يتجه كل واحد منهما بعمله وجهة مبتكرة ومختلفة ، تجعلنا نتساءل عن صلة المبتكر بالأصيل . يعودان بطريقة مختلفة : بيزومب يعود الى هذه الحرفة .. من موقع غربي : فهو ما عرف مثل هذه الممارسة الفنية في بيئته ، بل إثر رحلة قام بها في عام ١٩٣٧ الى المغرب ، على خلاف محمد بناني الذى عرف الحرفة الشعبية الى جانب ممارسته للفن التشكيلي جنباً الى جنب منذ بداياته الاحترافية .

إن هاتين التجربتين تعلماننا بطريقة مختلفة ومبتكرة أن لا ننظر الى ماضينا نظرة الاستهانة ، بل نظرة التجديد ، وأن لا ننظر الى المواد ، أية مواد ، ومهما كانت « حقيرة » : نظرة الاهمال والنسيان بل نظرة الاستفادة الفنية . فكل مادة نبيلة بحد ذاتها ، أكانت قماشاً أم حديدا ، طالما



الفنان المغربي محمد بناني مع مجموعة من التشكيلات الفنية للأبسطة العربية .



بساط عربي من انتاج الفنان الفرنسي بيزومب . استخدم فيه الخرق والفضلات وبقايا المواد المتعددة

أن يد الفنان تعبث بها فنياً . فالفنان الأصيل يستطيع أن يحيي الفضلات (فضلات المواد) .. حتى وهي رميم !

متعة وإفادة

الفنان الفرنسي روجيه بيزومب (٧٢ عاماً) تعلم من جداتنا فن البسط والسجاجيد . ونسج بها قماشة أعماله الفنية . بيزومب يعلمنا مثل محمد بناني أن كل شيء صالح للفن ، من الخرق وفضلات الأقمشة حتى نثار المادة . عاد الى الحرفة المغربية بدوره يستقي منها تكوين عمله الفني .

نتوقف أمام أبسطته الفنية . لا لأنها تميز سيرته الفنية فقط ، بل لأنها تخصنا ، تعود الينا ، تعنينا ، نحن العرب ، إذ تحاكي تقاليد متوارثة ومتداولة في مدننا وأريافنا . وهي تقاليد خاصة بالعاملين على الأنوال . ما إن تنظر الى أحد هذه البسط حتى تتذكر تقاليد العائلة وجيرانها : حين كانوا يجمعون بقايا القماش ، ويذهبون بها عند وفرتها ليصنعوا منها بسطاً ، كانت تمد على الأرض في الشتاء بدل السجاد ، خاصة عند العائلات الفقيرة : بسط بألوان عديدة ، بتعدد ألوان الأقمشة ، وهي تتدرج وفق خطوط أفقية ، وتتشكل أحياناً وفق بعض الحركات الهندسية البسيطة .

هكذا : كل شيء صالح للفن . لا غرض للفن مستقلا عن حاجات صانعه . يحتفظون بفضلات الأقمشة ، طلباً للاقتصاد والتوفير ، خاصة عند المعوزين . وهي فضلات لا تتلف ولا ترمى في سلة المهملات بل يعاد نسجها في بسط جميلة ونافعة . أي تقدير للمادة ! الفن ليس متعة وحسب بل إفادة أيضاً !

في عام ١٩٣٧ يقوم روجيه بيزومب برحلة خاصة الى بلدان المغرب العربي . الرحلة عادية في مسلسل متواصل من الرحلات ، لم يتقطع ولم يتوقف حتى الآن ، عند عاشق أبدي للسفر والتجوال والاكتشاف . يحل ، أولا ، في المغرب ، ثم في تونس والجزائر ، ولم يتحقق من أثر هذه الرحلات على فنه إلا بعد عودته الى باريس ، حين تبلورت طريقته الفنية المستلهمة والمستفيدة من تقاليد وتقنيات العاملين على الأنوال . « اذا كانت سيرة الفنان ، أو شخصيته الفنية الخاصة ، تتحدد أو تبدأ دائماً بنقطة ما . هائلة بآثارها ، وواعدة بنتاجها ، فإني أجد هذه النقطة انطلاقاً من رحلتي هذه » . يؤكد لنا . كأنه الحب من أول نظرة . لا بل أكثر . كأنه الزواج الأبدي . فمنذ عام ١٩٣٧ وحتى يومنا هذا لم يتوقف بيزومب عن استثمار هذه الطريقة الفنية المستجلبة وعن اكتشاف امكانات جديدة للتعبير منها .

بيزومب يجمع الخرق والفضلات ونثار المادة ، لكنه لا ينسجها في بسط ، كما هو عليه الحال في تقاليدنا المحلية ، إنه يتصرف مع هذه المواد المجمعة مثلما يتصرف الفنان مع أصباغه اللونية أو النحات مع أحجاره . إنها مادة العمل ، وهو « يشكل » بواسطتها تحفته الفنية . إنه فنان



وسط أعماله التشكيلية جلس الفنان بطاني في جو من وحي الحياة الشرقية

فنــان فــرنسي.. وفنــان مغــربي

يعودان إلى المقامات اللونية للسجّادة الشعبية العربيّة

وليس صانعاً . هو يشكل ، ولا ينسج ، يؤلف ، ولا يرصف .

كل ابداع مغامرة

« المادة : مهما كانت حقيرة أو مألوفة ، تبقى نتاجاً فنياً خالصاً . لأن الروعة الجمالية لا تتأتى من جودة المادة أو نوعيتها . بل هي مسألة جدارة وحقيقة . الفن هو أن تكون جديراً بالحياة إذا كنت انساناً ، وحقيقياً في الفن إذا كنت فناناً . كل إبداع فني هو مغامرة بحد ذاته » . هكذا يعرف بيزومب علاقته بالمادة ، تقديره لها ، وابتكاره منها للأشكال الجميلة .

في أبسطته هوس بتحولات المادة القماشية ، وغيرها أيضاً . فهو لا يستعمل الخرق وفضلات الأقمشة وبقايا أثواب بالية فقط ، بل أدوات معدنية قديمة ، وخلافها من المواد المهملة ، المشروكة ، المرشحة .. للموت ، أي لعدم الاستعمال اليومي ، والجمالي بالتالي . إنه يجمع مواد عمله من حياة البشر اليومية : ويعطي هذه المواد فرصة العيش مرة جديدة . كأنه ، بطريقته هذه ، وبما أن الفضلات لا تبقى « حية » في الواقع أكثر منها في الأعمال الفنية : يعيد صياغة الزائل والعارض من المواد .

يقدر المادة ، ويعشق التحولات . في البساط تفتقد كل فضلة أصلها ودورها ، وتكتسب حيزاً جديداً لها . كل بساط دورة من التحولات . فوق بسطه الجدرانية تتجاور التخريمات (الدانتيل) مع فضلات الأقمشة الملونة ، وتتجاور أيضاً المواد المتواضعة . حتى لا نقول الحقيرة . كالأقمشة العادية ، مع المواد الفاخرة .

تذويب الحدود بين المواد

« أسعى الى ابتكار أشكال تذيب الحدود والفواصل بين المواد . وبين الجدي والطريف . أعبر في هذه البسط عن أمور جدية : ولكن كما لو أني ألعب أو أتسلى . أجمع في هذه البسط بين ذوائب الثريا والمرايا المكسورة ، بين الكريستال والمعدن . أريد من سمفونية المواد والأشكال والألوان أن تحاكي المجد العريق لهذه المواد وأن تعيد لها الحياة » .

يتكلم الفنان بيزومب عن فنه بيديه ، كأنه حرفي ، على النول خاصة . يتكلم براحة كما لو أنه يتذكر وقائع يوم في المساء . المسافة غير بعيدة أبداً ، بعكس الطرق الفنية الأخرى . بين كلية جسد الفنان ، احساسياً ويدوياً ، وبين نتاجه ، بين وتيرة عمله وحياته اليومية وبين نتاجه .

إنه فنان كلي . فنان سعيد .

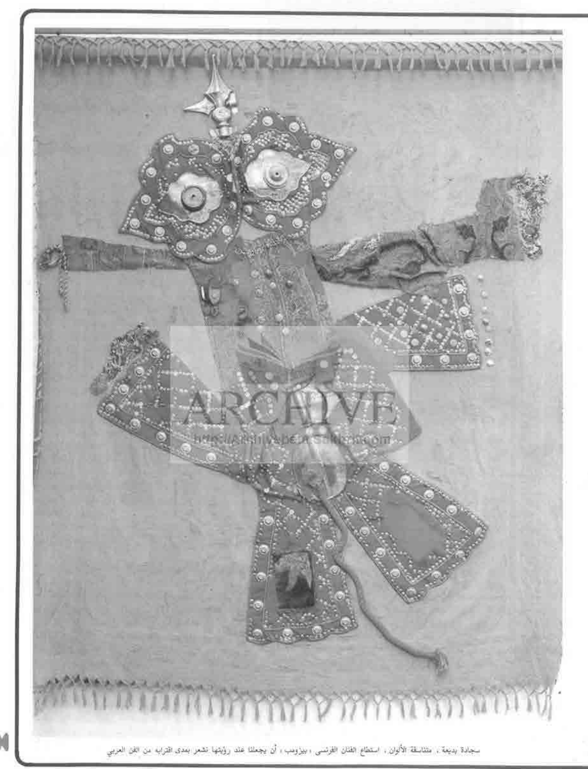
الاشتغال بالمادة ، قماشاً أو معدناً ، يفترض التقيد بها بقدر ما يدخر حرية التصرف بها . لا تتوفر لبيزومب طبعاً ، في اشتغاله بهذه المواد ، الحرية الكاملة المتوفرة لمن يذيب حديداً ويصبه في قالب ابتكره أو انتقاه . إنه يختار المواد . يختار قياساتها وأحجامها ، ويقطعها كيفما يشاء . لكنه لا يستطيع أكثر من أن يختار جمعاً ، لا تذويباً ، بين هذه المواد كيفما يريد . الحرية محدودة إذن ، إنها حرية توليف (مونتاج) . بما تفترضه من جمع وحذف . إلا أن محدوديتها لا تتأتى إلا من الحرص في « الحفاظ » على المادة . لا من تقييدات أسلوبية ارتضى بها الفنان . هذه هي حدود هذه الطريقة ، وهذا ما « يشرفها » أيضاً .

ألا أن المحدودية هذه لا تلغي حدود تدخل الفنان وفعله الجمالي . ففي عمليتي الجمع والحذف يقوم الفنان بممارسة تجمع بين حسه الغرائزي ومعرفته الكيميائية : اذا جاز القول ، بالمادة . يعيد الفنان باشتغاله على فضلات المادة ، تملكه لها ، وللطبيعة . إنه فن حرفة ورغبة أيضاً !

عجائب الآثار

« ورأينا بهذه المدينة داراً يسمونها دار التصاوير ملآنة بالتصاوير المنحوتة من الرخام والمرمر الجيد ، وتصاوير أخرى في حيطان تلك الدار بحسن الصناعة التي لا فرق بينها وبين الآدمي إلا بعدم الكلام ، حتى انك : اذا حققت النظر في الصورة التي في الحائط تراها تتبعك بنظرك . فيالها من صنعة غريبة ! » (١) : بهذه الدهشة العارمة يصف الجزائري سليمان بن صيام رحلته في ١٨٥٢ « الى بلاد فرانسة أو الرحلة الصيامية » .

قد يكون هذا النص المغمور هو أول نص يعبر فيه عربي عن تعرفه ، وبالتالي عن انبهاره ، أمام « فن المرسم » (l'art de l'atelier)



سجادة بديعة ، متناسقة الألوان ، استطاع الفنان الفرنسي «بيزومب» أن يجعلنا عند رؤيتها نشعر بمدى اقترابه من الفن العربي

فنان فرنسي .. وفنان مغربي

بعودان إلى المقامات اللونية للسجادة الشعبية العربية

و « اللوحة المسندية » (la toile de cheralet) بعد النص التاريخي الوصفي لعبد الرحمن الجبرتي في « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » (٢) ، الذى يتحدث فيه عن الحملة الفرنسية (١٧٩٩) ، عن فنانيها : عن مقامهم وفعاليتهم : وعن « المصور أريغو » خاصة . وهو ريغو نفسه ، المصور الفرنسي المعروف . يالها من صنعة غريبة !

عرب القرن الماضي مثل فنانينا في بدايات القرن الحالي وقفوا منبهرين ، صارخين : يا لها من صنعة غريبة ! هى ممارسة غريبة فعلا . أى غير معروفة في بيئتهم ، ومخالفة لتقاليدهم الفنية المحلية . وهى غرابة تحمل التباين بقدر ما تحمل الاندهاش أمام هذا « الوافد » الجميل . ولكن هل هى صنعة فعلا كما عناها العرب : « العلم الحاصل بمزاولة العمل » ، و « المهارة في عمل اليدين » ؟ أما حاول المصريون (وهم العرب الأوائل الذين احتكوا بالفن الغربي منذ حملة بونابرت) تعريب هذه الممارسة « الغريبة » ، أى تملكها وادخالها في البناء التعبيري العربي ، حين سموها بـ « صناعة الصور » ؟ هذه التسمية لم تعد متداولة في أرجاء العالم العربي . وبتنا نسمي هذا الفن المستجلب بـ « التصوير الزيتي » ، أو خلافه من الأسماء المترجمة . تبدلت الترجمة لأن الفنان العربي مثل المترجم العربي تبينا بدقة أكثر الفارق النوعي بين « الصناعة » بمفهومها العربى و « الممارسة التشكيلية » بمعناها الغربي ، لاختلاف أصلي في التصورين الجماليين .

معلقات فنية حديثة

أعمال محمد بناني الجديدة تثير مثل هذه الأسئلة ، وغيرها أيضاً . لكل عمل فني نسبه ، أصوله في تاريخ الأشكال الفنية . تناسب أعماله الجديدة تسمية « المعلقات الفنية » ، أو « الصناعات الفنية » : هى معلقات كصنف في طريقة فنية هى طريقة الصناعة .

محمد بناني : صانع فني يصنع معلقات فنية حديثة .

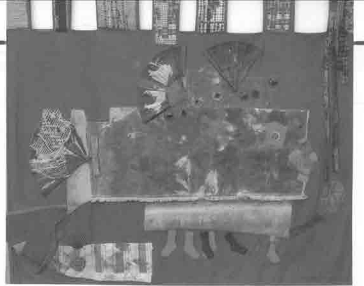
لا تناقض ولا التباس في التعريف أعلاه ، مثل التناقض والالتباس اللذين نلحظهما عند التعريف بأى فنان عربي . يصعب على الفنان العربي المعاصر أن يكون أصيلا وحديثاً في آن معاً حين ينتج « اللوحة المسندية » ، حتى لو أتت لوحته مستعملة لقوانين الجمالية العربية الاسلامية . فاللوحة ، كنوع ، شكل فني ذو نسب عريق في الحضارة الغربية مثلما تشكل المحفورات اليابانية (أو فن المخطوطة عند العرب) نوعاً عريقاً وخصوصياً لحضارة ما . أعمال محمد بناني الجديدة تثير هذه الأسئلة .. الجذرية . إذ تبعدنا عن الحلول « التوفيقية » في الفن ، وعن الاستعادة الفولكلورية لتراثنا ، وعن عمليات الاقتباس والتجديد التى تحفل بها تجارب فنانينا المعاصرين . بناني ، مثل العديد من الفنانين العرب ، بدأ بالتشخيصية (أو التمثيلية) وانتهى الى التجريدية . وبدوره أيضاً حاول لوحة مسطحة (دون عمق منظورى) ، اقتبس مفرداتها التشكيلية من نسق الزخرفة العربية والعمارة العربية ، المغربية خاصة . لكنه لم يهنأ بهذه الحلول « التوفيقية » (مع النفس بالأساس ، وقبل الجماعة) اقتنع غيره بعمل فني ، مقنع في حدوده الفنية الضيقة ، و « متناقض » في صلته مع شكله الفنى الحضارى . بدوره طرح اللوحة المسندية جانباً ، مثلما سبقه الى ذلك الفنان ، المغربي بدوره ، فريد بلكاهية ، والفنان المغربي الآخر محمد المليحي ، ولكن بصورة جزئية .

أعمال بناني الجديدة تشير إليه . هى صنع يديه ، ولها .. اطلالته البنية أو الرمادية ، مثل الحنين أو الغروب . مثل شوق الذاكرة لملامسة جلد الطفولة ، الجلد القديم والمخطط ، الجلد الحي والمعتق ، جلد الدفء والمتانة والعراقة ، مثل جلد المغرب الأصيل .

محمد بناني يعود الى المغرب ، الى تقاليده العريقة وصناعاته الشعبية ، يعود الى ماضي ما تعلمه والى ما صنعته يداه . فقد كان صانعاً للجلود في بداياته الفنية ، في تطوان ، مدينته الأصلية ، يسوى منها زنانير وحقائب وغيرها من المصنوعات الجلدية . كان صانعاً جيداً وتاجراً فاشلاً : ذات يوم حمل بناني مصنوعاته الجلدية الى محل في الرباط كان يتعامل معه لبيع مصنوعاته ، حيث « اكتشف » بدهشة كبرى ، وبألم أيضاً ، أن السيدة الفرنسية ، صاحبة المحل ، باعت أمام مرأى عينيه أحد زنانيره الجلدية بستين درهماً مغربياً ، فيما كان قد باعه لها قبل دقائق بعشرة دراهم . إثر عودته الى تطوان ، أقفل بناني محله الصغير وشرع



بساط شعبي آخر للفنان الفرنسي ... يدل على مدى تأثره بالفنان العربي التلقائي



هكذا حاول الفنان الفرنسي «بيزومب» في هذه السجادة أن يؤكد قدرته على إعادة صياغة الخامات المهملة

نوافذ محترفه لحسن الحظ ، حظه وحظنا !

يعود بناني من جديد الى الجلود ، الى الأقمشة بأنواعها العديدة ، الى الجلود والأقمشة المستعملة إنه ينتقيها ، يجمعها ويشتريها من الأسواق الشعبية مثلما يجمع الفنان العراقي شاكر حسن آل سعيد ما يخلفه البشر من تخطيطات ورسوم وكتابات على الجدران .

مقامات لونية

الأقمشة مثل الجدران تحكي حكاية الانسان

تحتفظ بآثاره وتبلغها . مثل علامات فائقة الدلالة . حتى حين لا تكون صارخة بل مكتومة . أعماله لا تظهر الشيء بل توحي به . إنه فن ضمني ـ أكاد أقول ـ : مراجعة قائمة فيما تقتضيه القطعة الفنية وما توحي به للمتلقي . مثل الجمر تحت الرماد . مثل الصراخ المكتوم . مثل الصور والحكايات التي تخرج من الجلد المستعمل . ذي اللمس الناعم (كأنه معتق ، مستنفد ، أصم) ـ حين ننظر إليه . لمجرد أن نمعن النظر في مقامات الألوان الترابية ، لون الذاكرة ، لون القدم ، لون



نموذج تشكيلي للفنان المغربي محمد بناني ، استخدم فيه مقامات الألوان الترابية

الحنين . من أصفر الزعفران حتى البني المحروق . أعماله لا تدعونا الى سفر في تراكم اللون وتاريخه الاستعمالى والعاطفي : بل تستنفر فينا رغبه اللمس أيضاً . طواعية اليد ورقتها الحانية . ضربة واحدة من الأزرق تكفيه لأن يحيى . لأن يشعل هذه المقامات اللونية .. الكتومة . كتومة : مثلما يتفاهم حبيبان في عائلة عربية تقليدية دون عبارات . مثل نظرة حانية لأم وادعة ، مثل علامة وحسب دون ثرثرة طويلة .

إنها معلقات فنية .

بناني لا يخرج فقط من إطار اللوحة المسندية ، بل من صالة العرض أيضاً ، وهي تقليد غربي آخر . يجب أن ننظر الى أعماله معلقة ، مثبتة من الأعلى فقط ، لا فوق جدار في صالة مكيفة بالهواء ، بل في الهواء الطلق : في الشارع أو في الساحة العامة ، لكي « يشكلها » بدوره ، ولكي يؤثر فيها .. كيميائيا الهواء والضوء الطبيعيان ، مثلما تتعرض ملبوساتنا ومقتنياتنا الجلدية وخلافها لفعل البيئة والزمن والطبيعة ، مثل سجادة فارسية (عجمية) . هنا أيضاً ، يقطع بناني علاقته مع تقاليد الفن « الصالوني » ، ليجعل الفن منخرطاً في البيئة ، في العمارة .. ومع الجماعة أيضاً ، مثلما كان الشعراء الجاهليون « يعلقون » قصائدهم في الأسواق الأدبية أمام مرأى الجميع ، وللجميع ، انه ينتج قطعة فنية ، غرضاً فنياً ، موجوداً ومحدداً وسميكاً مثل جسم : يجمع الأقمشة فوق بعضها البعض ، حتى انه يخيطها أحياناً .

إنها الحرفة اليدوية ، الصنعة الشعبية ، حين ترتقي وتتبلور كممارسة تشكيلية .إنها قطعة تنتجها اليدان ، وقيمتها الفنية ناتجة عن الاشتغال اليدوى بها ، لا عن تنفيذها فوق حامل مادي كصورة ذهنية أو مرئية في العقل والتصور . إنها قطعة تتراكم فيها الخبرة والعمل الدؤوب وملكة البناء التشكيلي . هى عمل زمني ، لا انتاج لحظة محددة وصورة بعينها .

محمد بناني يجد لطريقته الفنية أصولاً بعيدة ، نثق بها ويغمرنا الحنين للمسها الناعم والأكيد . هي الطمأنينة التى نفتقدها في عالم يغص بمواد وسلع هشة ، ضعيفة ، سريعة الاستهلاك ، دون أى تاريخ وأية ذاكرة . هى الثقة بجلد يفصح عن حكاياته المكتومة .

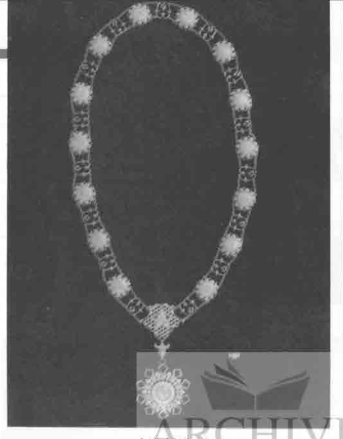
شربل داغر

باريس

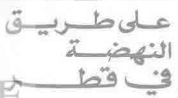
هوامش : ______

(١) : راجع النص الكامل لهذه الرحلة في كتاب « ثلاث رحلات جزائرية الى باريس » ، تقديم وتحقيق خالد زيادة ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٧٩ ـ ص ٣٠ .

(٢) طبعة بولاق ، ١٨٧٩ .



قلادة الاستقلال المصرية



على طريق النهضة في قطر

القلائد والأوسمة

بقلم: درويش مصطفى الفار

لعل نزعة الناس الى تمييز الأفراد المتفوقين الذين يؤدون للجماعة ، سلماً أو حربا ، خدمات مرموقة ، قضية قديمة قدم المجتمع البشرى ذاته ... ولقد اتخذ أسلوب تمييز الفرد النافع صوراً شتى وطرائق مختلفة خلال التاريخ ، فتارة يمنحه رئيس الدولة أو السلطان أو الملك ، إقطاعاً من أرض ، له غلتها ولعياله وورثته من بعده ، وتارة يخلع عليه حلة أو عمامة ، تعنى رفعه الى رتبة أعلى فى الوظائف العسكرية أو المدنية ، أو يهبه درعاً أو سيفاً أو قوساً أو رمحاً مزخرفاً أو فرساً مطهمة ، أو يمنحه صرة من النضار أو الورق ، دنانير أو دراهم ، يستعين بها على شئون دنياه ، ومتاع عيشه ..



نوط الاستحقاق القطرى

وسام الإقدام القطرى

وكان للعرب فى جاهليتهم الأولى واسلامهم ، أسلوب آخر ، الى جانب الأسلوب المادى يفرقون به الخبيث من الطيب ، مدحاً واطراء وتمييزاً ، أو هجاء ودحضاً وملامة ، فرب بيت شعر من قصيدة ، لا يساويه من المال كل ما فى خزائن الأغنياء ، حتى سمى العرب بعض قصائد شعرائهم الفحول ، مقلدات الشعر أو قلائده ، وهى (البواقي) على الدهر ، وللقارىء أن يسترجع بعض ما قاله المتنبى فى سيف الدولة مدحاً ، وما قاله فى كافور هجاء ..

واصطلح الناس عبر القرون ، على أن المال والخلعة ، وأي منحة مادية ليست بالضرورة ميزة للممتازين وسمة للنابهين والنابغين .. فاخترعوا أسلوباً جديداً للتكريم والتقدير والتمييز ، قد لا يكون ذا قيمة مادية ضخمة ، ولكنه يحمل المعنى المراد بالامتياز حملا أميناً لا يؤتى من مداخل التزوير والتزييف والتصنع والتظاهر ، ذلك هو أسلوب منح القلائد والأوسمة ، تعبيراً للفرد عن تقدير الجماعة ممثلة فى رئيس الدولة أو المؤسسة أو الهيئة أو الجماعة من العلماء أو الأدباء والفنانين ..

ويقولون إن أول من سك الأوسمة والأنواط هو الامبراطور البيزنطى (يوحنا باليولوغوص الثامن) سنة ١٤٣٨ م ، وأمر بصنعها من البرونز ، ليعلقها على صدور الممتازين من رجاله والعاملين بدولته ... وعلى توالى القرون ، احترف الكثير من الصناع مهنة صناعة الأوسمة والقلائد والأنواط من الذهب والفضة وغيرها من الفلزات والسبائك واشتهرت بها عائلات بذاتها فى بلاد الانكليز والفرنجة والجرمان ، والطليان ، مثل عائلة (دوناتو برامانت) أيام البابا يوليوس الثانى (١٥٠٣ ـ ١٥١٣ م) وعائلة (بطرس فلوتر) فى نورمبرج ، قبل محاكماتها المشهورة بثلاثة قرون ونصف القرن ، وعائلات جويللام وواربن أيام لويس الثالث عشر ، حفيد لويس التاسع أسير دار ابن لقمان بالمنصورة فى مصر ..

وتنوعت أشكال الأوسمة والأنواط والقلائد ، وتبارى الناس فى زخرفتها ونقشها وتطعيمها بالأحجار الكريمة المختلفة ، ومنهم من تغالى فى ذلك كثيراً ، ومنهم من ثار على هذا الغلو ، كما فعل هتلر فى ألمانيا (١٩٣٣ ـ ١٩٤٥ م) إذ جعل أرفع وسام فى دولة الرايخ هو وسام (الصليب الحديدى) وصنعوه من الفولاذ لا غير !!!

ولعل البريطانيين أكثر الناس اهتماماً بأنواع الأوسمة والقلائد وخاصة فى عصر بناء الامبراطورية أيام ملكتهم الشهيرة (فيكتوريا) . ويقول رجال اللغة من الانكليز إن أول استخدام لكلمة (ميدال) كان سنة ١٥٨٦ م ، ولا أدرى اذا كانت هذه الكلمة قد دخلت الى أوروبا من اللغة العربية من الفعل (تدلى) بمعنى تعلق كالدلو ..

أما الأمريكيون فأشهر أوسمتهم (نوط الشرف) الذى أقر به الكونجرس الأمريكى فى ١٨٦٢/٧/١٢ م وبدأ منحه للعسكريين فى ١٨٦٣/٣/٢٥ ولرجال (المارينز) البحريين فى ١٨٦٣/٤/٣ م ، ولا ندرى هل ناله أحد منهم من الذين عرفتهم سواحل لبنان الجريح سنة ١٩٨٢ م ؟!

وأرفع أوسمة الامريكيين المدنية هو ذاك المسمى وسام الاستحقاق سنة إنشائه ١٩٤٥ ثم سماه الرئيس جون فيتزجرالد كنيدى قبل أن تغتاله الأصابع الخفية سنة ١٩٦٣ م ، سماه باسمه الحالى وسام الحرية ..

ولقد صدر فى قطر القانون رقم (٥) لسنة ١٩٧٨ م يقضى بانشاء الأوسمة والقلائد المدنية والعسكرية القطرية لأول مرة في تاريخ البلاد ، ووقعه حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير البلاد المفدى في ١٣٩٨/٦/٢٣ هـ (١٩٧٨/٥/٣٠) .

ويقضى هذا القانون بانشاء :

١ ـ قلادة الاستقلال ، وهى أرفع وسام فى دولة قطر ، وتمنح لرؤساء الدول الحاليين أو السابقين .

٢ ـ قلادة الاستحقاق ، وتمنح لأولياء العهد ونواب رؤساء الدول وأعضاء مجالس الوصاية ورؤساء مجالس الوزراء ورؤساء الهيئات النيابية .

٣ ـ وشاح الاستقلال ويمنح لنواب رؤساء الوزارات ومن فى مستواهم من الشخصيات المشهود لهم بالكفاية العالية والتفانى فى خدمة الوطن أو العروبة أو الانسانية .

٤ ـ وشاح الاستحقاق ، ويمنح للوزراء ومن فى مستواهم من السفراء وكذلك لكبار الشخصيات من القطريين وغير القطريين ممن يؤدون أعمالا قيمة لدولة قطر أو العروبة أو الانسانية .

٥ ـ وسام الاستحقاق ، ويمنح للقطريين وغير القطريين ممن يؤدون خدمات نافعة لدولة قطر أو للعروبة أو للانسانية .

وهذا الوسام من خمس طبقات .

٦ ـ نوط الاستحقاق ، ويمنح بطبقتيه للموظفين والشباب والفرق الرياضية المتفوقة .

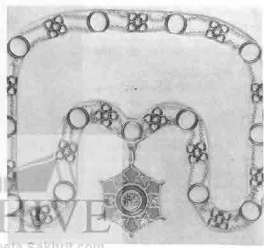
أما الأوسمة العسكرية فمنها ، وسام الإقدام ، ووسام الامتياز ووسام الجدارة ووسام الخدمة

على طريق
النهضة
في قطر

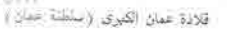
القلائد والأوسمة



درع القوات البحرية المملكة السعودية



قلادة عمان الكبرى (سلطنة عمان)



المخلصة وشارة الكفاءة القيادية وشارة الكفاءة الادارية وشارة الكفاءة التدريبية.

وقد ترك القانون الباب مفتوحاً لإنشاء أوسمة مدنية وعسكرية أخرى حسب مقتضيات الأحوال.

وقد بين القانون الرتب التى تمنح لها الأوسمة المختلفة، وصاغ الحدود التى تمنح طبقاً لها تلك الأوسمة والقلائد وفصلها تفصيلا حضارياً واضحاً..

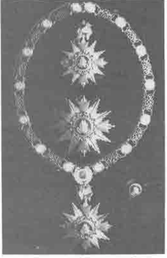
وعلى الرغم من أن المادة الحادية والعشرين من ذلك القانون تنص على أن:

«تبقى الأوسمة وبراءاتها ملكاً لمن منحت له، وتنتقل ملكيتها لورثته على سبيل التذكار»

• أسوة بما هو متبع فى كل بلاد العالم..

• إلا أن سمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر، قد ارتأى رأياً آخر فى كل ما أهدى إليه من القلائد والأوسمة من مختلف بلاد العالم، وضرب مثلا، لم يسبقه إليه أحد قبله..

• فقد أهدى جميع هذه الهدايا (الشخصية)



وسام «موجنج هوا» الأكبر (كوريا الجنوبية)



قلادة مبارك الكبير (الكويت)



ملحق لوسام سانت مايكل وسانت جورج (المملكة المتحدة)

وسام النهضة (من أوسمة سلطنة عمان)

ملكا (لمتحف قطر الوطنى) بالدوحة: مقرراً بذلك مبدأ حضارياً. وهو اعتباره ان هذه الأوسمة والقلائد قد أهديت له بصفته «أمير شعب قطر» وان الشعب الذى افتتح المتحف من أجله فى ١٤/٦/١٣٩٥ هـ (٢٣/٦/١٩٧٥) هو مالك هذه الأوسمة والقلائد!!!

وكان من جملة ما أهداه من ذلك للمتحف:

١ ـ قلادة الجمهورية (من مصر ٥/٦/١٩٧١ م).

٢ ـ قلادة الشرف (من السودان ٢٩/٤/١٩٧٢).

٣ ـ قلادة بدر الكبرى (من المملكة السعودية ١/٥/١٩٧٣).

٤ ـ قلادة النيل العظمى (من مصر ٢٤/٨/١٩٧٣).

٥ ـ وسام موريتانيا (مايو سنة ١٩٧٤).

٦ ـ قلادة الحسين بن علي (من المملكة الأردنية الهاشمية ١٨/٧/١٩٧٤).

٧ ـ وسام الاستقلال (من تونس ٢٢/٧/١٩٧٥).

٨ ـ الوسام المحمدى (من المملكة المغربية ٢٤/٧/١٩٧٥).

٩ ـ الوشاح الأكبر لجيون دونير (فرنسا ٢٧/١٠/١٩٧٥).

١٠ ـ قلادة بهلوى (ايران ١٣/١١/١٩٧٥).

١١ ـ وسام الأسد الوطنى (السنغال ٢٠/١١/١٩٧٥).

١٢ ـ قلادة عمان الكبرى (سلطنة عمان ٢٠/١٢/١٩٧٥).

١٣ ـ قلادة سيمون بوليفار (فنزويلا ٢١/٤/١٩٧٧).

١٤ ـ وسام جمهورية اندونيسيا (١٢/١٠/١٩٧٧).

١٥ ـ الوشاح الأكبر من وسام القديس ميخائيل والقديس جورج (من بريطانيا ٢١/٢/١٩٧٩).

١٦ ـ وسام إيزابيلا (اسبانيا ٣/١١/١٩٨٠).

١٧ ـ قلادة مبارك الكبير (الكويت ١٥/٢/١٩٨٢).

١٨ ـ نيشان باكستان الأول (١٦/٤/١٩٨٤).

١٩ ـ وسام موجنج هوا الأكبر (كوريا الجنوبية ٢١/٤/١٩٨٤).

٢٠ ـ وسام الكريزنتام الأكبر (اليابان ٢٣/٤/١٩٨٤).

ويعرض متحف قطر الوطنى هذه الهدية الفريدة، مع هدايا أخرى قدمتها جهات عديدة غير الأوسمة والقلائد الى سمو الأمير، فى معرض خاص، يؤمه زواره، ويرون فيه وجهاً حضارياً فريداً غير مسبوق.

درويش مصطفى الفار



من روائـــع الفن العـــالـــمي

بقلم: جمـــال قطـــب

العازفة

فى استعراضاتنا الكثيرة لمدارس الفن الشهيرة فى التاريخ ، لم نتوقف أمام مدرسة بريطانية تمثل حركة أو ظاهرة شاملة تلقى باشعاعاتها وتأثيراتها على مسيرة الفن العالمى ، كما حدث فى إيطاليا أو بلاد الشمال الأوروبى (هولندا وبلجيكا) أو فرنسا مثلا . ذلك لأن الفن البريطانى ــ كعادة الانجليز أنفسهم ــ فن محافظ ملتزم فى كل مراحل التحولات الكثيرة التى غيرت مسار الفكر العالمى عبر عصوره المتعاقبة . حتى أن التيارات التى كانت تهب على الجزر البريطانية من الشمال أو الشرق أو الجنوب .. لم تستطع أن تعصف بتقاليد الفن البريطانى أو تطبعه بأساليبها المستحدثة إلا بقدر ضئيل ، بينما يواصل الطابع البريطانى تطوره الطبيعى فى تمهل واستيعاب وتغيير بطىء لا يكاد أن يحس .. وبالتالى ، لم يظهر فى انجلترا ما يمكن أن نطلق عليه ثورة فنية أو تحول شامل ينتج عنه مدرسة جديدة تفاجىء حركة الابداع العالمى .

ومن الملاحظ أن الصور الشخصية تمثل جانباً أساسياً عند معظم الفنانين الانجليز .. إن لم تمثل الجانب الأكبر من إبداعاتهم .. حتى اننا رأينا أن فنانى القرن الثامن عشر العظام من أمثال وليام هوجارت وتوماس هدسون وجوشوا رينولدز وتوماس جونسبرو وجورج رومنى .. وغيرهم . كانوا من فنانى رسم الأشخاص ، وهم الذين سجلوا شخصيات عصرهم فى لوحات خالدة تعمر بها المتاحف وصفحات التاريخ . ومن العسير أن نتذكر أى شخصية بريطانية لعبت دوراً فى السياسة أو الفكر أو المجتمع .. إلا ونجد لها صورة من أعمال هؤلاء الفنانين العظام . وظلت هذه الاهتمامات الفنية سائدة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، رأينا بعدها تطوراً فى أساليب الأداء (التكنيك) فرضته التيارات الجديدة فى مستحدثات علوم البصريات والاكتشافات الجديدة فى تحليل ضوء الشمس وألوان الطيف فيما عرف بالمدرسة الانطباعية التى انبثقت من باريس حينذاك . ولو أن التغيير كان متزناً وملتزماً إلى حد كبير فى بريطانيا بعكس ما حدث فى فرنسا من التغيرات الجذرية التى أحدثت انقلاباً فكرياً شاملا بين فنانى العالم أجمع .

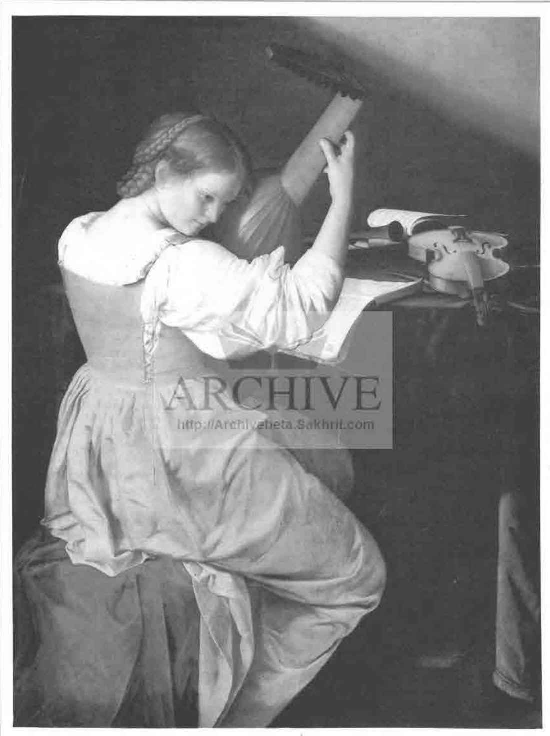
وإذا كنا نتحدث عن هذا الالتزام فى الفن البريطانى فى القرون الحديثة .. فما بالنا بالقرنين السادس عشر والسابع عشر ؟ كان الفن فى انجلترا وقتها فناً راقيا نبيلا تتم صياغته عن إخلاص الفنان وسمو مكانه ومكانته فى المجتمع ، ولم يسخر لخدمة هدف واحد كما حدث فى فن عصر النهضة الذهبى الايطالى .. ولم يوظف لخدمة البلاد كما فعل الفنانون الفلمنكيون فى دول الشمال الأوروبى فى هولندا وبلجيكا ..

ولكن الفنان فى بريطانيا كان سيد الموقف .. يرسم ما يحلو له ، ويحلق فى جماليات الحياة من حوله . ويختار ما تتفتح له بصيرته ووجدانه . وكانت سيدات المجتمع وقادته وعناصره البشرية المرموقة .. هى المنهل الابداعى للفنانين ..

ولوحة اليوم هى من روائع الفن العالمى البريطانى .. كما أنها من أشهر اللوحات التى تطالعنا دائماً كنموذج راق للجمال الذى يبعث على التأمل والاعجاب الهادىء فى غير إثارة ولا انفعال .. رسمها الفنان أوراتسيو جنتليتشى فى عام ١٦١٠ وأسماها : العازفة الفاتنة . وربما يلفت اسم الفنان انظارنا ، فهو اسم إيطالى وليس اسماً بريطانياً .. بينما حديثنا عن الفن البريطانى ، وهذه حقيقة .. فقد ولد الفنان فى مدينة بيزا فى إيطاليا عام ١٥٦٣ وتلقى دراسته الفنية فى روما (ولذلك يظهر جليا طابع فن عصر النهضة على تفاصيل اللوحة) .

وقد مارس عمله الفنى فى مطلع شبابه فى روما وجنوا وتورينو .. ثم هاجر إلى باريس .. وعندما ذاعت شهرته كفنان مرموق ، قصد لندن واستقر فيها وأصبح مواطناً بريطانياً ، منغمساً فى التقاليد السائدة فى المجتمع .. وعاش حياته كأحد الفنانين الذين أسسوا الطابع الخاص للفن البريطانى فى عصره ، حتى توفى فى لندن عام ١٦٣٩ .

والعازفة الفاتنة هى ابنة الفنان أوراتسيو ، واسمها أرتمسيا ، وقد رسمها الفنان بعاطفة أبوية جياشة تنضح بالحب السامى فى غير تكلف أو ابتذال ، بل أضفى عليها براءة وجمالا وجوا بديعا تتألق ايحاءاته الملهمة من خلال هذه الرموز الشاعرية بين الأنغام والألحان والسكينة والتأمل الابداعى الرفيع . وقد عرفت أرتمسيا فى التاريخ بأنها كانت واحدة من ألمع نجوم المجتمع البريطانى فى أوائل القرن السابع عشر ، وأكثرهن ثقافة وتألقاً فى المحافل الفكرية . والمجتمعات الراقية . ولننظر سوياً إلى هذه اللوحة . ولنتأمل تلك المعانى التى فجرت ينابيعها لمسات الفن الرقيقة الحانية الدافئة !



العازفة : الفنان العالمى أوراتسيو جنتليتشى (١٥٦٣ ــ ١٦٣٩)

لأن الشوق معصيتي

قصة بقلم : سـارة

١ ـــ الحمل

لأن الشوق معصيتى
دهمني حبك .. كالمطر .. والريح ..
أنا المسكونة ببحيرات الحزن .. المجدولة بالوحدة .. و .. بأشواق ترغش لحلم شارد .. قد يأتي .. وقد لا يأتي ..
حاربت طواحين الهواء .. وطواحين الماء .. هزمت .. وجرحت .. وتبعثرت .. و .. جمعت بقايا قلبي الصغير .. و .. بعثت من جديد كالعنقاء .. أبحث عنك .
اشتقتك فى ليالي التيه .. والبرد .. والخوف .. والمطر الحزين .
صافحت عيون المدن الغريبة بحثاً عن عينيك .. تحسست ملامحها .. بحثاً عن ملامحك الموشومة فى أحلامى وذاكرتى .
ركضت ـ بدوية هاربة من صحراء العمر ـ أجوب الطرقات .. والوجوه .. لوحات الإعلانات . المقاهى .. والقطارات والمراكب الراحلة .. أبحث عنك .. لعلك هنا فى هذه الشجرة .. ولعلك هناك فى تلك الزهرة .. ربما .. سكنت وجه القمر .. أو اتخذت من النجوم خيمة .
أنا المهزومة فى وطنها .. ودارها .. وأحلامها ..
المنذورة للرحيل .. المغسولة بالشجن ..
أعلن ..
أن الشوق إليك معصيتي ..

و .. أعلن .. أنني أصنع كل يوم من حلم العثور عليك .. مجدافاً .. كلما تكسر مجدافي قبل الوصول إلى مينائك .. وجزرك .. وأشجارك .. وغاباتك الحادة .

ها أنت تنداح كمياه المحيطات فوق كل لحظة من لحظات عمرى .. تحتل أيامي .. وذكرياتي .. وجروحي .. تتسلل لعطرى .. وأوراقي .. وخزانة ثيابي .. وسريرى الشائك .. تخرج من كل الأشياء .. وتنبت فى كل الأشياء .. وأنا لا أملك أن أقاوم ..
ولا أملك أيضاً إلا أن .. أحبك .. أحبك .
فتوهج .. لأتوهج .. هكذا تولد زهرة .. وتدفق .. تدفق .. في سهولي .. يا خبزي القمحي .. سنابلك الناضجة بالأشواق أنا .. فاحصدني .

منفية كنت خارج مدن الكلمات الجميلة .. الشوق .. اللهفة .. الحنين .. الدفء .. قبل أن « أتشعلق » كطفلة شقية بأرجوحة حبك الشمسية .

كنت كصياد متعب يعود كل مساء بأصداف البحر الفارغة .

كنت نخلة بلا جذور وأغنية بلا صوت .. وسهماً بلا هدف .. وأرضاً بلا مطر .. وعصفوراً بلا عش .. وتاريخاً بلا مؤرخ .. وحكاية بدون راو .

فأصبح حبك قارة خصب للأشياء .. كل الأشياء .. نسفت جسور عودتي لطمأنينة الوحشة .. وترف السكون قبل التشبث بحلم العثور عليك .. أحرقت القطارات .. والسفن والطائرات .. لأظل راحلة اليك .. وفيك أبداً .

أركض إليك حلماً .. بقدر ما أتوق إلى الهرب منك .. كل وجه التقيته عذبني لأنه ليس وجهك .. وكل يد امتدت نحوى .. كانت كجبال من الثلج تعزلني فى قارة الصقيع والبرد .
وحيدة أنا بدون دفئك .. وأمطارك .. وعواصفك .
أقول لك ..

إذا كنت لن تسكنني فابق مشترياً أحلم يوماً بامتلاكه لي .. و .. سأتبعك حافية حتى آخر العالم .

٢ ـــ المخاض

« ضحك الحزن مني لكثرة الغرف التي استأجرتها فى بيته »
لذا .. قررت عند العثور عليك ..
أن أتسلل إلى مسامك .. وأنصب خيمتي ..
لأنبت زهرة فريدة فى أحراش عمرك .. وأنحدر كجدول صغير عبر سهول فرحك الشاسع .. و .. أن أصير فراشة صغيرة اختبىء فى أعشاب صدرك .
قررت ..
أن أغفو على كتفك .. قطعة أكلت منها عواصف الشتاء .. وأحكي لك عن هجرتي الطويلة إليك .. عن النخيل الذى سألته عنك .. والحجارة .. وعصافير الكناري .. شجر السدر .. والغمام .. والراحلين والعائدين .
قررت ..
أن أخترق .. قارتك الحارة المشتعلة بالطيب والفرح .. بتشردي الطويل .. وبحثي الطويل .. وحزنى الطويل .
قررت ..
أن أنفجر بك .. وفيك أشواقاً وأحزاناً ولهفة ..
فضمني إليك .. لأضمك إلى .. و ..
لنسقط ..
ما أروع .. أن نسقط معاً فى الفرح .

٣ ـــ الولادة

ها أنت أمامي فارساً يمتطي صهوة أحلامي ..
و .. أنا أمامك ..
لكني .. مصلوبة بالخوف من فقدك ..
لكني .. مشنوقة بتعبي ..
لكني .. مذهولة حتى الصمت .. لأن العثور عليك أمر لا يصدق .
لكني .. عاجزة عن تنفيذ قراراتي بالرحيل فيك واليك .
يا عينيه ..
إذا كان لأحدنا أن يطلق الشرارة .. فلتشعلي الفتيل أنت .
فأنا عاجزة أن أحكي لك كم أشتاق
و .. عاجزة أن أعلن .. أن الشوق إليه معصيتي .

الخليج العربي والتغيّر الحضاري



بقلم : عبد الرزاق البصير

ليس مخطئاً من يتساءل عن سبب هذه الهجرة التى تحدثت عنها فى كلمة سابقة ، والتى تشبه مد البحر وجزره ، والتى لم يشهدها أى قطر عربى آخر غير منطقة الخليج العربى . وجوابى على من يطرح هذا السؤال هو أن هذه المنطقة العربية كانت قبل أن تدر أرضها على أهلها بهذا الخير فقيرة فى كل شيء ولاسيما فى الناحية الثقافية ، إلا ذبالات ضوء مضطربة تأتى من الصحافة العربية فى مصر والشام والعراق . لا تستقبلها الا فئة قليلة متحدية استنكار المعارضين المتشددين إذ أنهم يرون فى قراءة الصحف شيئاً من الاثم يعاقبهم الله عليه .

وتأتى هذه الذبالة الضوئية من رحلة فئة قليلة الى الهند والى الشام ومصر والعراق . فتستكشف هذه الفئة أن الحياة فى تلك البلاد تكاد تغاير حياة هذه المنطقة ، فالطب لا يعالج بالشعوذة أو بالعقاقير القديمة وإنما يعالج بطرق حديثة تعتمد على تشخيص الأمراض بأدوات حديثة يستخدمها أناس بذلوا جهودا مضنية فى الدراسة حتى استطاعوا أن يتوصلوا الى معرفة الكثير والكثير من مسيرة الحياة فى جسد الانسان . وبذلك استطاعوا أن يبصروا الناس فى مأكلهم ومشربهم وفيما ينبغى أن يتجنبوه من طرائق تجعل أجسادهم مجالاً للحشرات تعرض حياتهم الى المخاطر ، كما عرفوا أن التعليم لا يكفي أن يكون فى كتب كل ما فيهاسقيم وعقيم . واستكشفوا أيضاً أن تدبير السياسة فى الخارج والداخل وتوثيق العلاقات بين الأمم لا تسير في طريقها الصحيح إلا بمساهمة كل أفراد الشعب فى الرأى والمشاركة فى خيرات البلاد .

استكشفوا ذلك كله وعادوا الى أقطار هذه المنطقة يبشرون بالاصلاح ، وطريق ذلك أن ينتشر التعليم بين الجميع . فوجدت دعوتهم طريقها الى القلوب الخيرة المستنيرة ، كما أنها وجدت مقاومة من القلوب المغلقة التى تريد إبقاء كل شيء على ما هو عليه ، ولكن الفئة المستنيرة ثبتت للمقاومة ، وصبرت للتهم المختلفة التى تحاول أن تقف فى الطريق وتسد كل الأبواب .

وكان الشعراء والأدباء أول من استجاب لهم فأحسنوا الاستجابة ، حيث نجدهم ينظمون القصائد فى المناسبات المختلفة ، يدعون الناس فيها الى أن العلم أصبح أساس الحياة فى جميع العصور ، ولكنه فى هذا العصر أصبح المنطلق الذى لا يمكن لأى شعب أن يحيا بدونه ، وتجد ذلك جلياً واضحاً فى آثار الشاعر عبد الرحمن المعاودة ، والشاعر أحمد يوسف الجابر ، والشاعر عبد اللطيف النصف ، والشاعر خالد الفرج ، وغيرهم من الشعراء . ثم تطورت هذه الدعوة فأصبح الشعراء يدعون الناس الى قراءة الصحف ليكونوا على صلة بما يجرى فى العالم بصورة عامة وفى الوطن العربى بصورة خاصة .

فهذا هو أديبنا المرحوم أحمد البشر الرومى يرفع صوته قائلا :

ان الصحف بقلبي
منزلا أغلى نزوله
إنما الصحف كطير
يشتهى الحر هديله
كل من شاء رقيا
صير الصحف سبيله
فبها خير حياة
وهى للعلم وسيله

ومن الواضح أنك اذا أردت أن تتذوق هذا الشعر من الناحية الفنية فانك لا ترضى عنه بلاشك ، لأنه ضعيف من هذه الناحية لأن قائليه قد تكون لديهم الموهبة الشعرية ولكن نفوسهم امتلأت بالحماس لتنبيه مواطنيهم الى محاربة الجهل فوجدوا النظم أسرع انتشاراً فى النفوس ذلك أن العربى تميل نفسه بسرعة الى الشعر .

وعلى كل حال فإن أولئك الرواد كانوا مصابيح بددت الكثير من ظلمات الجهل ، وان من حق التاريخ أن نعرف أجيالنا بهم ، لأنهم هم الذين أضاءوا الطريق وثبتوا لكثير من الخطوب حتى اذا شاء الله أن يمكن لهذه الدعوة فى أرض هذه المنطقة بما نبع من باطنها من خير غزير واسع جعل المسئولين قادرين على محاربة الجهل والفقر والمرض ، فأخذوا يشيدون المدارس والمعاهد والجامعات وأخذوا يبنون المستشفيات ويعمرون المؤسسات لإدارة هذه النهضة الشاملة .

وهذا كله لا يمكن أن يسير فى طريقه الصحيح السليم الا بنظم وقوانين وقواعد لتسير الحياة فى كل هذه المؤسسات بصورة صحيحة . فاقتضى ذلك أن تنفتح هذه المنطقة للخبراء والعلماء والأطباء والمدرسين ، وما الى ذلك مما تستدعيه هذه النهضة الشاملة . مما جعل الحياة تندفع بقوة عظيمة امتدت الى كل شيء فى هذه المنطقة ، ولا يمكن أن تسير هذه النهضة الواسعة بدون أخطاء وعثرات — فان سكان هذه المنطقة بشر من البشر تنطوى جوانح البعض منهم على حب الثراء ، وتنطوى جوانح البعض منهم على حب المناصب . فحدث مايحدث لكل نهضة واسعة مفاجئة . لم تحقق كل ما يتمناه المخلصون الذين يريدون أن يكون كل شيء في مكانه الصحيح . فاذا أضفنا الى ذلك قوة حيلة الأجانب الذين انثالوا على هذه المنطقة للقيام ببعض الأعمال العمرانية والاقتصادية ، وطيبة قلوب سكان هذه المنطقة وحسن نيتهم اتضح لنا كثير من أسباب ما وقعت فيه بعض أقطار هذه المنطقة من أخطاء أهدرت بسببها كثير من الأموال .

وهنا تبرز مهمة المفكرين المهتمين بالاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة من أبنائنا وبناتنا بعد أن استنارت عقولهم بالعلوم والمعرفة : وتتمثل فى إبداء آرائهم وأفكارهم بصراحة فى مسيرة حياتنا .

فلابد اذن من أن يفسح المجال للمتخصصين ليبدوا ما يتوصلون إليه من آراء وأفكار ، وأن نتقبلها بقبول حسن لتسير حياتنا بكل جوانبها فى طريقها الصحيح ، والا فليس لما نبذله لأبنائنا وبناتنا ليتعلموا ، وليس لما يبذله شبابنا من جهد فى تحصيل العلم من معنى ، اذا كانت آراؤهم وأفكارهم تذهب أدراج الرياح ، أو اذا كنا نضطرهم الى أن يلوذوا بالصمت ... فان خير العلم ما نفع قائله وانتفع به من وصل إليه .

بين شعراء « الحب العذرى » يتفرد الشاعر الكبير جميل بن معمر أو « جميل بثينة » بتاريخ يكاد يكون متصل الحلقات ، من بداية أمره فى الحب إلى نهايته ، وإن عبثت ببعض سطوره متناقضات أخبار الرواة ..

والحب العذرى ـ كما لا يخفى ـ هو أشهر ضروب الحب فى الشعر العربى القديم ، يرادفه فى مصطلحنا الشائع الآن « الحب الأفلاطونى » .. ومعناه المتفق عليه : الحب المشبوب النقى الراسخ فى القلب بلا غاية ينشدها صاحبه أو صاحبته إلا مطالب الروح ولذات النفس الشاعرة الهائمة فى عالم الجمال وعالم الخيال ! ..

جميل بثينة
ورحلته إلى مصر

بقلم : كمال النجمي



ومن مفارقات « الحب العذرى » أنه منسوب إلى « بنى عذرة » فى الحجاز ، إلا أن أشهر عاشق « عذرى » يتداول اسمه وشعره فى عصرنا هو قيس بن الملوح أو « مجنون ليلى » ولم يكن قيس ولا ليلى من بنى عذرة الحجازيين ، بل كانا من بنى عامر النجديين ..

أما الشعراء العذريون حقاً ، فأشهرهم جميل بثينة أو مجنون بثينة ، لأنه عذرى النسب والحسب ، ومثله فى الحسب العذرى والنسب ، صاحبته بثينة .. ولكن ليلى العامرية ذهبت دونها بالشهرة العريضة فى تاريخ « الحب العذرى » ! ..

فهل وقع ذلك من جراء خلط الرواة القدماء بين سطور من قصة مجنون ليلى وسطور من قصة مجنون بثينة ، كما فعلوا فى قصص « المجانين » الآخرين ، أمثال قيس بن ذريح وابن قيس الرقيات وكثير عزة وتوبة بن الحمير (مجنون ليلى الأخيلية) وعروة العذرى وابن الطثرية ، وغيرهم ممن لا يحصون فى بنى عامر وبنى عذرة والقبائل الأخرى ؟!

اختلاط أوراق العشاق

لعل الدكتور طه حسين كان معذوراً حين استخلص من اختلاط أوراق العشاق « العذريين » بأوراق مجنون ليلى ، أن هذا المجنون الشهير لم يكن إلا حديث خرافة ، وضعوه رمزاً لأهل العشق جميعهم . ولكن هذا الرأى الذى لا يصعب استنباطه من تضارب الروايات ، يمكن أن يمحو شخصيات المجانين الآخرين ، أو بعض هذه الشخصيات ، بل يمكن أن تزول من تاريخ أدبنا المعاصر شخصية الدكتور طه حسين نفسه ، إذا طبق عليها النقاد منهجه فى تحليل تاريخ مجنون ليلى أو مجنون بثينة ، كما فعل الكاتب الكبير ابراهيم عبدالقادر المازنى فى مقال مشهور حاول به أن يثبت أن طه حسين اسم وهمى ليس له وجود فى تاريخ الأدب المصرى ! ..

إلا أن أحداً لا ينكر أن تاريخ « العذريين » مثقل بأوهام كثيرة ، ومتناقضات خطيرة ، وإن كانت هذه الأوهام والمتناقضات لا تستعصى على النقد والتحليل ، طلباً للحقيقة ، ونفاذاً إليها ..

خبر سفره إلى مصر

وتاريخ جميل بثينة — بين تواريخ شعراء الحب العذرى — أجدرها بالنظر المتأنى ، وأسلسها قياداً لمن يحاول تنقيته من الشوائب ، وتمييز صحيحه من باطله ..

وأكبر الشوائب والأوهام فى تاريخ جميل بثينة — كما يبدو لنا الآن — ما ذكرته كتب الأدب والتاريخ من أنه سافر إلى مصر ومات فيها ودفن فى قرافتها المشهورة .. ولو ثبت هذا الوهم ، لتلبسه كل وهم آخر يتصل به فى تاريخ جميل بثينة ، ولانهارت قصته كلها كما ينهار مبنى معشوش الدعائم واللبنات . ولكن تحليل هذا الوهم أو تفنيده ، يسقط بقية الأوهام فى قصة هذا الشاعر الذى لم يعرف بنو عذرة أشعر ولا أعشق منه ..

وقد يدهشنا أن تحليل خبر سفره إلى مصر وموته ودفنه فيها ، لم يخطر على بال الباحثين الذين كتبوا عنه فى عصرنا ، حتى إن الأستاذ عباس محمود العقاد — وهو الناقد القوى الشكيمة — مر بهذه القصة فى كتابه « جميل بثينة » مر السحاب ، بلا تفنيد ولا تأييد ، ففاتنا من علم هذا الأستاذ الكبير وقوة حجته ومنطقه فى مثل هذه الأمور شىء نافع كثير ! .. ولكنه غير ملوم على ذلك لأن كتابه عن جميل بثينة لا يتعدى ما أولع به من المباحث النفسية فى الشخصيات التاريخية بلا وقوف عند تحقيق الأخبار والتواريخ ، وحسبك من منهجه هذا ما كتبه عن ابن الرومى وأبى نواس ..

أما الدكتور زكى مبارك فإنه حين تحدث عن جميل بثينة فى كتابه « العشاق الثلاثة » .. لم يجد إلا بعض علامات الحيرة والتعجب والاستفهام يرسمها على أخبار رحلة جميل إلى مصر ، وموته فيها .. فقال : « .. ثم تمضى القصة فتذكر أن جميلا رحل إلى مصر .. مصر التى عرفت أعنف المعارك الغرامية بين كليوباترة وانطونيوس ! ..

ومتى رحل جميل إلى مصر ؟ .. رحل إليها فى ساعة يأس من صاحبة هواه .. وفى مصر عانى جميل سكرات الموت وهو يهتف باسم المرأة الحلوة العذبة التى جعلت حياته قيثارة ترجع ألحان الألم والأنين .. » .. إلى آخر القصة كما وردت فى كتاب الأغانى للأصبهانى ..

بعض هذه القصة جاء على لسان أعرابية عجوز من بنى عذرة ، نقل عنها أحدهم أنها لقيت جميلا ذات يوم فقال لها : « أنا عامد إلى مصر ، ثم تحدثا ساعة وودعها ، وشخص — إلى مصر — فلم تطل غيبته أن جاءهم نعيه ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة :

صدع النعى وماكنى بجميل
وثوى بمصر ثواء غير قفول
ولقد أجر الذيل فى وادى القرى
نشوان بين مزارع ونخيل
قومى بثينة فاندبى بعويل
وابكى خليلك دون كل خليل

وأخبر الأصمعى بعض أصحابه قال : « تحدث رجل شهد جميلا لما حضرته الوفاة بمصر ، أنه دعاه فقال : هل لك أن أعطيك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئاً أعهده إليك ؟ .. فقال .. قلت : اللهم نعم ! .. قال : إذا أنا مت فخذ حلتى هذه التى فى عيبتى فاعزلها جانباً .. ثم كل شىء سواها لك .. وارحل إلى رهط بنى الأحب من عذرة — رهط بثينة — فإذا صرت إليهم فارتحل ناقتى هذه واركبها ، ثم البس حلتى هذه واشققها ، ثم اعل على شرف وصح بهذه الأبيات : وخلاك ذم ! .. ثم أنشدنى : « صدع النعى وماكنى بجميل » — وذكر الأبيات المتقدمة — فلما قضى وواريته ، أتيت رهط بثينة ففعلت ما أمرنى به جميل ، فما استتممت الأبيات حتى برزت امرأة يتبعها نسوة فرعتهن طولا . حتى أتتنى فقالت : يا هذا والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتنى ، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتنى .. قلت : والله ما أنا إلا صادق . وأخرجت حلته . فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها ، واجتمع نساء الحى يبكين معها ويندبن .. فلم أر يوماً كان أكثر باكياً وباكية منه يومئذ » ! ..

هكذا كان آخر عهده بمضارب قوم بثينة : لبث ثلاث ليال لا يريم هضبة هناك فلقى تلك العجوز فأخبرها أنه جاء ليودعهم قبل رحلته إلى مصر ، منفرداً ، لم ينضم إلى قافلة ولم يصحب أحداً ، ولا اتخذ دليلا .. فزعموا أنه قال كذا ، وأوصى بكذا فى آخر يوم له فى الدنيا بمدينة مصر ! ..

لم تسأله العجوز عن مأربه فى مصر ، ولم يخبرها بشىء عن مأربه . ولكن « الرواة » قالوا إنه





قصد عبد العزيز بن مروان أمير مصر شاكياً إليه أن « السلطان » أباح دمه لقوم بثينة ! ..

من أباح دمه ؟

فأى « سلطان » ذلك الذى أباح لفريق ضعيف من بنى عذرة « دم شاعر العذريين جميعاً ؟! ..

يقول القاصون والرواة إن أهل بثينة اشتكوه إلى عامل بلاد عذرة ووادى القرى الذى يربط الحجاز بالشام ، واسمه « عامر بن ربعى بن دجاجة » فأهدر دمه إن عاد إلى زيارتها ! ..

وهذا أول خلل فى قصة سفره إلى مصر ، فإن « دجاجة » لم يكن إلا عاملا أو حاكماً صغيراً تابعاً لعامل المدينة المنورة ، ليس له سلطان وإن كان يمثل سلطان الدولة فى مقاطعته الصغيرة ..

ولا يملك هذا الحاكم الصغير إهدار دم أحد من الرعية ، فضلا عن دم شاعر طبقت شهرته الآفاق ووصلت أشعاره إلى مسامع الخليفة فى دمشق ، ومسامع أخيه فى مصر .. ولابد فى هذا الأمر ، وفى أقل منه ، من رجوع « دجاجة » إلى عامل المدينة ، ورجوع عامل المدينة إلى الخليفة الأموى فى دمشق ! ..

حسبك أن تعلم أن الحجاج بن يوسف الثقفى الجبار كان يبسط سلطانه على العراقيين فى ذلك العصر ، فلم يهدر قط دم شاعر بتهمة الغزل والتشبيب .. ولم يكن العامل « دجاجة » ليهدر دم مسلم بدون أن يرجع فى ذلك إلى أبان بن عثمان بن عفان الذى كان حاكم المدينة أيامئذ .. ولم يكن أبان نفسه وهو ابن الخليفة عثمان بقادر على إهدار دم لا يوافق الخليفة عبد الملك بن مروان على إهداره ! ..

رواية أخرى

على أن الرواة الذين قالوا برحيله إلى مصر خوفاً على دمه ، قد خالفهم رواة آخرون قالوا إنه مضى إلى اليمن فأقام بها مدة حتى عزل ذلك الوالى عن بلاد العذريين وانتجعوا ناحية الشام ، فرحل جميل إليهم .. فكأنما سقط « مرسوم إهدار الدم » بسقوط الوالى « دجاجة » ! .. فماذا فعل الوالى الجديد فى جميل بثينة ؟ .. هل حقن دمه ولم يهدره بمرسوم جديد ؟! ..

إن تاريخ جميل ملىء بالرحلات بين منازه وادى القرى والحجاز واليمن والشام ، وفى وثبة واحدة أو وثبتين كان بعيره يبلغ به مدينة « أيلة » ثغر بلاد الشام على خليج العقبة ، فيقيم هناك ما شاء ثم يتجه إلى الشام أو يعود أدراجه إلى وادى القرى ـ مدخل الحجاز ـ منحدراً من أيلة مع القوافل أو منفرداً بنفسه لا يصحبه إلا الخيال الطارق من محبوبته فى بلاد بنى عذرة ..

كانت أيله وغزة والقدس ودمشق والمدينة ومكة والطائف هى المدن العربية القريبة من بلاده .. أما « مدينة مصر » أو الفسطاط أو « بابليون » كما كانت تسمى حتى ذلك العهد ، فلم يكن يقصدها من العرب إلا الجند وأهل الديوان ورجال الحكم .. ولبثت كذلك من عهد عمر بن الخطاب إلى عهد هشام بن عبد الملك الذى أذن لأول مرة بلحاق بضعة آلاف من إحدى القبائل بالريف المصرى ، ثم توالى لحاق القبائل الأخرى فى جماعات تتفرق هنا وهناك ..

وفى الوقت الذى زعموا أن جميلا قصد فيه مصر ، لم يكن العرب يقيمون هناك إلا فى مدينتين اثنتين فقط ، هما الفسطاط والاسكندرية .. قال المقريزى فى خططه إن العرب بعد أن حرروا مصر من الروم ، نزلوا فى موضع الفسطاط الذى يعرف بمدينة مصر ، وفى الاسكندرية وتركوا سائر قرى مصر ..

فلم تكن مصر إذن أيام رحلة جميل إليها ـ كما زعموا ـ مهجراً يتوافد إليه العرب أو يقيمون فيه بلا تصريح من الخليفة ذاته . وقد أوشك بعض العرب أن يقعوا تحت عقاب عمر بن الخطاب لأنهم نزلوا الريف المصرى وأقاموا بلا إذن من عمر . ولم يكن فى سلطة عمرو بن العاص ـ والى مصر فى عهد عمر ـ أن يمنح لأحد من العرب إذناً بالإقامة فى مصر . وصار ذلك الأمر متبعاً حتى عدل عنه الخليفة هشام بن عبد الملك كما أسلفنا ..

قصة عامية الخيال !

والأسماء العربية المشهورة التى وردت الفسطاط والاسكندرية حتى عهد هشام بن عبد الملك واردة فى تاريخ ابن عبد الحكم والمقريزى ومن جاء بعدهما ، وليس فيها اسم جميل بثينة الذى انفردت بذكره كتب أدبية دونت فى القرن الرابع الهجرى ، نقلا عن رواة لا قيمة لروايتهم بعد ذلك الزمن الطويل الذى تراكم فيه على جميل بثينة وأمثاله ما شاء الرواة من كذب ونسيان وزيادة ونقصان وتحريف وخلط قصة بقصة وشخصية بشخصية .. ومن هذه الثغرات الواسعة دخلت إلى تلك الكتب قصة جميل ورحلته إلى مصر وموته فيها .. وبعيره وثيابه التى عاد بها رجل مجهول إلى مضارب بنى عذرة ، بعد أن دفنه ذلك الرجل بهدوء وبدون أن يعلم مضيفه حاكم مصر ، عبد العزيز بن مروان ! .. فهذه قصة كأنها من قصص ألف ليلة وليلة .. قصة عامية الخيال يخجل منها تاريخ « الإسناد » فى الأدب العربى الذى نقله إلينا الرواة طوال مائة وعشرين عاماً تقريباً قبل بدء الشروع فى تدوين السطور الأولى من هذا الأدب نقلا عن هؤلاء الرواة ؟! ..

نحن لا نقول فى نقل الأدب العربى القديم بوجوب الإسناد الصارم كما فى الحديث النبوى الشريف ، ولكن لابد من النظر النقدى فلا يقف أدباء كبار أمام قصة خيالية كسفر جميل إلى مصر ، وقفة العاجز ، فتضيع فى وقفتهم العاجزة هذه ، حقائق كثيرة فى تاريخ الأدب العربى والأمة العربية .. مع أن الأمر يبدو فى ظاهره غير ذى بال .. قال الجاحظ : « إن الرواة إذا شغلوا عقولهم بالازدياد والجمع عن تحفظ ما قد حصلوه وتدبر ما قد دونوه ، كان ذلك الازدياد داعياً إلى النقصان ، وذلك الربح سبباً إلى الخسران » ! .. ولقد تزيدوا فى قصة جميل بثينة فتنقصوها وأوشكوا أن يفسدوها ..

فإذا افترضنا أن جميل بثينة قام فعلا برحلته تلك إلى عبد العزيز بن مروان فى مصر ، فهل كانت وسيلته أو شفاعته إلى هذا الأمير قصيدة عصماء يمدحه بها ؟! .. فأين هذه القصيدة فى شعر جميل .. هل ضاعت ؟ .. ولماذا لم يروها الرجل المجهول الذى جاء إلى بثينة بثيابه وبالأبيات الثلاثة التى أولها « صدع النعى وماكنى بجميل » .. هل ضاعت هذه القصيدة ، وكيف تضيع ولا يتلقفها الرواة وهى بيضة الديك فى شعر جميل لأنها « المدحة » الوحيدة فى شعر جميل كله .. لو كانت قد جرت على لسانه ؟! ..

إن جميل بثينة لم يقل مديحاً طيلة حياته ، حتى زعم النقاد الأقدمون أن راويته وتلميذه كثير عزة أشعر منه ، لأن كثيراً كان من أمدح الشعراء ، إلى كونه بارع الغزل ..



ولا يصح في الرأى أن يرخص جميل شعره في مدح عبدالعزيز بن مروان ، ويأباه على الخليفة الوليد بن عبدالملك ! ..

لم تكن في يد جميل أية وسيلة إذن إلى عبدالعزيز بن مروان ، فلماذا تجشم السفر إليه ؟! .. وأى شيء كان يملكه عبدالعزيز لهذا العاشق الذى أهدر ، دجاجة ، دمه في الحجاز وهى أرض لا سلطان عليها لعبد العزيز وإن كان أخاً للخليفة عبد الملك ؟! .. أكان جميل يطمع في أن يخاطب الأخ أخاه ليحقن دمه ؟! .. وكيف وقد كان الخليفة عبدالملك أحد المعجبين بجميل بثينة ؟! ..

فمن أى النواحى جئت هذه القصة وجدت طريقاً مسدوداً لا يستطيع جميل بثينة أن ينفذ منه إلى مصر إلا في خيال الرواة الذين وضعوا لها خاتمة من نسج خيالهم ، يهدمون بها الجوانب الصحيحة الثابتة في هذه القصة الجميلة من قصص الحب العربى ..

ولو سايرنا هؤلاء الرواة ، لتصورنا أن جميل بثينة كان في شرخ شبابه حين سافر إلى مصر يطلب الوساطة في الحب . وليس ذلك صحيحاً لأن قصته مع بثينة بدأت في عهد معاوية بن أبى سفيان ، وصار جميل في أواسط هذا العهد شاعراً مشهوراً حتى كان يزيد بن معاوية يجلس لسماع الغناء في شعره الذى يقول :

خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى ؟!

فهل قصد جميل مصر في أواخر عهد عبدالملك ابن مروان وقد جاوز سن الحب والشباب ودخل في الشيخوخة بعد حب امتد أكثر من أربعين سنة هى مدة حكم معاوية ويزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان ، وكيف نصدق أن جميلا كان يغازل بثينة ويقتحم بيتها ويشاجر زوجها وأهلها ، وهو في تلك السن العالية ، حتى استجار أهله بالسلطان فأهدر دمه فسافر هارباً إلى مصر يستنجد بأميرها ؟! ..

إضافات أغفلت فعل الزمـــان

أيفعل ذلك شيخ عربى جاوز الستين من عمره ، وفى القرن الأول الهجرى ؟! ..

إن الرواة الذين أضافوا إلى قصة جميل ما أضافوا ، قد نسوا مرور الزمن وأفاعيله بجميل وقلبه وحبه وفكره ونظرته إلى الحياة والكون والمرأة والزواج والغزل ! .. ورسموا لجميل صورة الشاب الذى لا يشيخ أبداً .. وهو خيال جميل حقاً ، ولكنه تاريخ باطل مع الأسف ! ..

فلا تصح قصة سفره إلى مصر إلا إذا كان قد سافر صغيراً في أول عهده بالحب حين ثقل مكانه على أهل بثينة فضجوا بالشكوى إلى أهله وربما رفعوا أمره إلى الولاة ، وكان أبرزهم في الحجاز حينذاك مروان بن الحكم الذى كان صديقاً لجميل وقد صحبه غير مرة في سفره إلى الشام قاصداً الخليفة معاوية بن أبى سفيان .

وإن كان جميل قد سافر إلى مصر شاباً صغيراً ، فذلك لا يكون إلا في عهد معاوية ، وواليه على مصر أيامئذ عمرو بن العاص ، أما عبدالعزيز بن مروان فكان صبياً مع أترابه في المدينة المنورة ..

وإن كان قد سافر وهو شيخ كبير ومصر في يد عبدالعزيز بن مروان ، فذلك عجيب جداً ، لأن الخليفة عبدالملك بن مروان في الشام ، كان أقرب إلى ديار بنى عذرة ــ بين الشام والحجاز ــ من أخيه عبدالعزيز في مدينة مصر أو في حدائق حلوان ..

وقد كان عبد الملك وابنه الوليد من المعجبين بشعر جميل وبشعر راويته وتلميذه كثير عزة الذى كان مقرباً إلى عبدالملك وسائر الأمويين لمدائحه فيهم .. ولو شاء جميل لكان ، كثير ، رسوله إلى الخليفة وشفيعه .. ولكن ذلك لم يحدث من الشيخين جميل وكثير ، لأن جميلا لم يهرب بدمه من أحد في شبابه ولا في شيخوخته .. وقد لبث كثير ــ القرب إلى الخليفة والامراء ــ راوية لجميل طوال حياته ، ومنه تعلم التسيب ــ على حد قوله ــ ولعله لم يشبب بعزة إلا لكى يسميه الناس ، كثير عزة ، .. كما قالوا ، جميل بثينة ، ! ..

هذه هى الصورة كما نراها بعد استقراء خطوطها استقراء نقدياً متأنياً وتمحيص الحكايات المروية بإسناد أو بغير إسناد لأناس مجهولين أو معروفين ..

شطحات الرواة

ولا يفوتنا استكمالا للصورة أن نلاحظ أن اسم مصر ارتبطت به أسماء بعض مشاهير الشعراء في العصر الأموى قبل أن يكتمل تعريب مصر ، بل قبل أن يبدأ ، ومنهم كثير عزة الذى زعموا أنه قصد عبد العزيز بن مروان في مصر وأقام عنده حتى قلقت عليه عزة فسافرت إلى مصر تستخبر عنه ، فماتت هناك فدفنت في سفح المقطم كما دفن جميل بثينة ، وعاد كثير إلى الحجاز أو إلى الشام حزيناً على عزة التى بذلت في سبيله حياتها ! ..

هذه القصة التى تتداخل في قصة جميل بثينة ، ينقضها راوية كثير الذى قال فيما زعموا إنه صحب كثيراً إلى مصر ، فلما عادا إلى الحجاز مرا بديار عزة ليلقاها ..

وليت شعرى كيف غفل مخترع قصة عزة المدفونة في مصر ، أنها كانت امرأة عربية ذات زوج غيور ، ولم يكن في أخلاقها مطعن لأحد ممن سمعوا شعر كثير فيها ، فهل غافلت عزة زوجها وأهلها وركبت ناقتها من وادى القرى في أيلة ثم قفزت فوق رمال سيناء ومرقت من بحر القلزم إلى مدينة مصر ؟! .. أليس هذا من خيال ، ألف ليلة وليلة ، كما قلنا ؟! ..

وزعم الرواة كذلك أن عبدالله بن قيس الرقيات نزل في ضيافة عبدالعزيز بن مروان في مصر فمدحه ووصف قصوره وحدائقه في حلوان .

بل إن مجنون ليلى لم يشذ عن هذه ، القاعدة ، عند الرواة ، فسافر كما أرادوا له إلى مصر ، وقال وهو عائد يغذ السير إلى العراق :

يقولون ليلى بالعراق مريضة فأقبلت من مصر إليها أعودها

ولا ندرى لماذا نسى الرواة الوضاعون الأذكياء أن يبعثوا أيضاً بقيس بن ذريح ولبنى إلى مصر ليلتئم شمل العشاق والشعراء ، العذريين ، في ، بابليون ، أو ، مدينة مصر ، في سالف الزمان ؟! ..

لقد فعل الرواة شيئاً أطرف من ذلك ، إذ جعلوا بثينة تلقى الخليفة عبدالملك بن مروان في قصره بعد موت جميل .. ثم جعلوا عزة تلقاه أيضاً وهى عجوز ــ لم تمت في مصر ! ! .. ــ وقد مات كثير .. ثم جعلوا الثالثة الأخيلية صاحبة توبة .

ووضع الرواة على لسان بثينة نفس الكلمات التى وضعوها على لسان عزة والأخيلية ، فكل منهن يسألها الخليفة متفكها مداعباً :

ــ ما الذى أعجب فلاناً منك فقال فيك من الشعر ما قال ؟! ..

فتجيبه المرأة العجوز بثينة أو عزة أو ليلى الأخيلية :

ــ أعجبه منى ما أعجب المسلمين منك حين صيروك خليفة ! .. فيضحك عبدالملك حتى تبدو في فمه سن سوداء كان يتعمد إخفاءها عن الناس ! ..

هكذا فعل الرواة ! .. وإنما أرادوا التشنيع على السن السوداء في فم عبدالملك ، ولو بالكذب عليه وعلى الفاتنات الشهيرات اللاتى أدبر شبابهن وفتنتهن ومات الشعراء الذين تغزلوا فيهن .. فأدخلهن الرواة واحدة إثر واحدة إلى مجلس عبدالملك ليقلن له الكلمات التى تسخر من سنه السوداء .. ومن خلافته على المسلمين قبل كل شيء ! ..

ولكن تحليل هذه الأقاويل يفندها ويبطلها ويقيم عمود شعر الغزل كما يقيم عمود التاريخ ..

وقصة جميل بثينة من قبل ومن بعد ، قصة ثابتة لا يعلق بها الشك الذى علق بقصة مجنون ليلى ــ مثلا ــ بالرغم من أن الرواة أماتوه حياً ودفنوه في سفح المقطم بمصر ، وطن الشهداء من أهل الأدب والفن والجمال .. التى لا يموت فيها غير الأحياء ، .. على حد قول الدكتور زكى مبارك في تعليقه على هذا الخبر القديم المتجدد على الزمان ، وإن لم يكن له أساس إلا الخيال الذى أخرج لنا وللدنيا كلها قصص ، ألف ليلة وليلة ، في سالف العصر والأوان ! ..

كمال النجمى



بقلم : د. زهرة المالكي

« صوت الضمير قد لا يجدى فى نفوس البعض منا .. لكن صوت القدر يزرع آخر النغمات » ..

أسرع حسام والفرحة تغمر كيانه كله بألوانها الوردية نحو الشقة المتواضعة التى تحتل ركناً ضئيلاً من العمارة الكبيرة التى يقطن فيها ... وأحس وهو ينظر إلى باب الشقة الصغير بأن لونه الشاحب الذى ذابت معالمه مع الزمن قد أصبح جديداً جميلاً ..

« وكل جديد جميل » .. مرت هذه العبارة فى خاطره ، وأحس لها طعماً مشبعاً بالمرارة فى نفسه ، فهو لا يعرف الجديد .. ثيابه قديمة ، كتبه ودفاتره قديمة ، الأثاث قديم .. كل شيء من حوله يتداعى من وطأة السنين على كاهله .. ولكن منذ اليوم سينسى الأشياء القديمة ، وسيبحث عن أخرى جديدة ..

وودع حسام كل هذه الأفكار وأخذ يبحث فى طيات عقله عن فكرة واحدة .. كيف سيخبر والده بالنبأ السار ؟ .. كيف يفاجئه بنجاحه الباهر فى الامتحانات ؟ .. واستمر يفكر وهو يخطو نحو الداخل ، لكنه شعر بالهدوء يلف المكان .. فلا مذياع والده الصغير يملأ الأسماع ، ولا صوت مطرقته العجوز يتردد صداه وهو يهوى بها كعادته على الأثاث المفكك الأوصال محاولاً إعادته إلى قوة الشباب ولو بعض الشيء .. وطاف بنظراته فى أرجاء المكان يبحث عن والده ، وكم كانت صدمته حينما رآه ملقى على الأرض لايبدى حراكاً .. لكنه حاول إبعاد أشباح الأفكار المؤلمة وقال لنفسه : ربما غلب النوم أبى بعد يوم مرهق فاختار أن ينام فى هذا المكان دون أن يكلف نفسه عناء الانتقال إلى الفراش .. لكن شكله وهو ممدد على الأرض أعاد إليه الأفكار المخيفة التى اجتاحت نفسه حينما رآه للوهلة الأولى .. فركع بجواره وأمسك كفه المنقوشة بالتجاعيد محاولاً إيقاظه لكن ملمس الكف البارد أذهله .. وأحس لحظتها بأن آماله كلها تصدعت وهوت كحائط قديم تفتت أجزاؤه وانتثرت على التراب بعد أن كان شامخاً متطاولاً ..

وفجر ذلك المشهد المروع ذكريات بؤسه التى أعتقد أنه سينساها بعد اليوم .. فقد ماتت أمه وتركته صغيراً محروماً من العطف والحنان .. ووالده المسكين أرهقه الفقر وأثقلت عليه الديون حتى يدخل ابنه الوحيد المدرسة ويوفر له نفقات التعليم حتى النهاية .. كان يبني عليه آمالاً كبارا ، ولكن هذه الآمال تحطمت الآن .. فماذا يفيد تفوقه وماذا تفيد شهادته الثانوية بلا إنسان يشاركه حياته بأفراحها ومتاعبها .. ويمده بالمال ، المال عصب حياة هذا العصر ! ..

ولكن لا .. لا ياحسام لاتترك الأمنيات تتحطم .. فكر فى حل ، ابحث عن مخرج .. هكذا حدثته نفسه وهو يحاول الانزواء بعيدا عن ذكريات الماضي ، وصورة الحاضر التى أصبحت مشوهة ، والمستقبل .. إنه لا يعرف كيف سيكون هذا المستقبل ! ..

ها هي الأيام تمر وعقارب الساعة تتحرك ولم يبق على تقديم الطلبات للجامعة غير أسبوعين .. وفكر حسام كثيراً .. عصر عقله وهو يبحث عن حل ، فليس من السهل على الإنسان أن يتخلى عن أمانيه فى لحظة ضعف يائس .. ولكنني لم أعرف اليأس مطلقاً من قبل .. أجل ياحسام أنت لا تعرف اليأس .. إذن فكر .. فكر ..

وبينما هو غارق فى بحور أفكاره لاحت أمامه صورة جارته العجوز « فاطمة » .. إنسانة طيبة ثرية ليس لها قريب فى هذه الدنيا ، وقد اعتاد حسام أن يقرأ لها جرائد الصباح ويقوم ببعض شؤونها وكانت تنفحه قدراً من المال من حين لآخر .. وتوقف عن التفكير لحظة وردد بينه وبين نفسه : كم هو غريب هذا القدر .. يمنح المال لمن لا يحتاج إليه ويحرم منه من هو فى أشد الحاجة له .. وراودته فكرة شيطانية .. لماذا لا يحاول أن يسخر مال السيدة « فاطمة » لتحقيق آماله ؟ .. ولكن كيف ؟ ! ..

« الأمر فى غاية البساطة » .. هكذا أجاب على سؤاله ومضى يتابع فكرته فى مسارها .. سيقتل فاطمة ويستولى على مالها الوفير .. ولاشك أنه غير مخطيء فى قراره هذا .. ففاطمة تحبه كابن لها ولابد أنها أوصت له بمبلغ كبير من المال يأخذه بعد وفاتها .. لكنه يحتاج إلى المال الآن ! .. إذن لماذا لا يحاول أن يأخذ نصيبه مقدماً ؟ .. أجل سيذهب إليها فى الصباح كما تعود دائماً ولكنه لن يقرأ لها الجريدة .. بل سيقتلها .. سيقتلها وينال نصيبه ..

وأسرع فى اليوم التالى نحو جارته « فاطمة » لكنه أحس بالعجز يتسلل إلى خطته المحكمة بعد أن ردت عليه تحية الصباح ، فالطيبة المرتسمة فى عينيها الوديعتين وهي تتطلع إليه منعته من تنفيذ قراره .. وصمم على أن يعود إليها فى المساء .. فى الليل .. حتى لا تشل نظراتها الطيبة إرادته وفكره .. فهو لن ينظر إليها .. سيكتفي بقتلها وأخذ نقودها ثم الهرب .. وحينما نشر الليل ستائره السوداء على الكون مضى حسام نحو أحد التاجر ليبتاع مسدساً يسهل له إنهاء مهمته سريعاً ..

وفى الصباح التالى كان هناك شخص آخر فى منزل السيدة فاطمة يقرأ لها الجريدة .. فقد انتظرت حضور حسام كثيراً لكنه تخلف عن موعده للمرة الأولى ، فطلبت من ابن صاحب العمارة الصغير أن يقرأ لها .. فهذه الجريدة هى النافذة التى تطل منها على العالم وما يحدث فيه .. وأوصت « علياً » وهذا هو اسم ذلك الفتى الصغير بأن يقرأ لها الأخبار فى صفحة الحوادث كما تعودت دائما أن تقول لحسام وهى تبتسم : إننى أسمع أسماء من يموتون كل يوم ، ولابد أننى فى يوم قريب سأغادر الدنيا وستقرأ اسمي بالطبع لكنني لن أكون معك فى هذه اللحظة .. فهل ستفتقدنى وتحزن على كثيراً يا صغيري ؟ ..

وأفاقت من خاطرتها تلك على صوت على وهو يقول : عثر فى ساعة متأخرة من الليل على جثة شاب فى التاسعة عشرة من عمره صدمته سيارة وهو يجتاز أحد الشوارع مسرعاً .. ووجد فى أوراقه الشخصية التى عثر عليها مع مسدس صغير فى جيبه أن اسمه : حسام أحمد ! ..



أوراق خضراء

الكلمة الحية لا تموت بل تزدهر وتزداد نجاحاً لا مع الأيام
وهذه مختارات ثقافية حية من الصحف العربية القديمة

● فرار عبد الرحمن الداخل ● مداعبة صديق ● مظاهر القسوة والرحمة في الحضارات ● قضية طريفة أمام القضاء الباريسي

من مآسي التاريخ





بقلم: محمد عبد الله عنان

ليس بين أمراء الدولة الأموية ، سواء فى الشام أو الأندلس ، من تقدم إلينا حياته وسيرته تلك الصفحة المدهشة التى يقدمها إلينا عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ، فقد كان هذا الأمير بطل مأساة خارقة مؤثرة ، ولم تكن روعة هذه الصفحة فى أنه أقام من العدل ملكاً عظيماً فقط ، وأقام لمجد أسرته الذاهب صرحاً شامخاً فحسب ، ولكن روعتها تبدو بنوع خاص فى معترك المحن الأليمة التى نشأ فى غمارها هذا الأمير القوى النابه . وإذا كانت حياته السياسية لا تحمل على كثير من الحب ، وتبدو لنا حياة مغامر يشق طريقه إلى السلطان بوسائل ليست دائما مشروعة ، فإن المحنة التى طبعت بها حياته الخاصة ، وما صقلت هذه المحنة من خلاله الباهرة ، لمما يستثير منا أيما عطف وإعجاب .

وقد لا نجد لحياة الداخل صورة أبلغ وأقوى من تلك التى رسمها لنا خصمه وعدو أسرته أبو جعفر المنصور العباسى إذ نعته بصقر قريش ، ولخص لنا حياته المدهشة فى قوله : « عبر القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطيب عترته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين » .

تلك هي حياة عبد الرحمن بن معاوية ، حياة نشأت من العدم ، وسلسلة حافلة بالمحن والصعاب الفادحة ، تبدأ فى المشرق بفرار عبد الرحمن أمام مطارديه وقتلة أسرته ومغتصبى عرش آبائه وأجداده ، وتنتهى فى المغرب وبسائط الأندلس بالظفر والملك الموطد . ولقد كان هذا الفرار أول وأعجب فصل فى هذه المأساة ، وكان عنوان القدر المدهش يدبر من الحوادث الواقعة ما لا يخطر





تصوره على الذهن المغرق فى الخيال.

كانت سنة ١٣٢ هـ سنة حاسمة فى تاريخ الاسلام والخلافة ، ففيها انهار صرح الدولة الأموية تحت ضربات بنى العباس ، وقامت فى المشرق خلافة جديدة هى الخلافة العباسية ، ورأت العصبة العباسية الظافرة أن تتوج ظفرها بسحق الأسرة التى استولت على تراثها واجتثاث أصولها وفروعها ، فنظمت مطاردتها الشهيرة لبنى أمية ، وتتبعتهم بالقتل الذريع فى كل مكان ، وقتلت منهم جماعة كبيرة من الأمراء والسادة ، ولم تبق حتى على النساء والأطفال ، ولكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها ، وشاء القدر أن يفلت بعض فروعها ، وأن يزكو ليستعيد أصله الراسخ في أرض أخرى ، فكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك ، اختاره القدر ليحمل مصاير الدولة الأموية إلى وجهة أخرى.

هذا الفتى هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع أهله وإخوته فى قرية تعرف بدير يوحنا من أعمال قنسرين ، وفيها كان مولده قبل ذلك بعشرين عاماً . وكان أبوه معاوية قد توفي شاباً في أيام أبيه هشام ، فكفله وإخوته جدهم هشام ، ولما وقعت النكبة وأمعن الظافرون فى مطاردة بنى أمية فر عبد الرحمن بأهله وولده إلى ناحية الفرات وحل هنالك ببعض القرى ، واختفى بها حيناً يدبر أمره ، وكان يرقب الموت فى كل لحظة ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يتجه بذهنه إلى مستقبل بعيد غامض ، وبينا هو فى هذا الجزع القاتل يدبر أمره ، إذا بجند المسودة تطوق القرية ، وتستقصى آثار بنى أمية ، وإذا بعبد الرحمن يرى شبح الموت أمامه فجأة ، فيحاول اجتنابه بالفرار من مطارديه.

وقد انتهت إلينا عن الفرار قصة مؤثرة نقلها إلينا مؤرخ أندلسي مجهول عن لسان عبد الرحمن ذاته(١) ، ونقلها عنه بعد ذلك أبو حيان مؤرخ الأندلس(٢) وخلاصتها أن عبد الرحمن حينما علم أن القرية قد غصت بجند المسودة ، بادر إلى شيء من المال فحمله ، وفر مع أخيه الأصغر ، وهو صبى فى الثالثة عشرة من عمره ، وقصدا إلى شاطيء النهر (الفرات) فدل عليه بعض الخونة فما شعر إلا والخيل فى أثره ، فألقى بنفسه فى النهر مع أخيه وأخذا يقطعانه سباحة ، واستطاع عبد الرحمن أن يصل إلى الضفة الأخرى ولكن الغلام عجز عن قطعه ، وآثر أن يعود إلى الضفة الأولى بعد أن وعده الجند المطاردون بالأمان ، ولكنه ما كاد يقع فى أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عينى أخيه وقلبه يتفطر روعة وأسى.

ولما أمن عبد الرحمن خطر مطاردته سار مختفياً إلى الجنوب وقطع فلسطين ثم مصر ، وهو يحمل حياته في كفه متأهباً للقاء الموت فى كل لحظة ، وكانت عيون العباسيين ترقبه وتشيعه خلال هذه الهضبات والفيافى الشاسعة ، وتكاد تكشفه من آونة إلى أخرى . ولكن طالعه كان يهديه ، فجاز مصر إلى برقة ناجياً بنفسه ، والتجأ إلى أخواله بنى نفزة ، وهم بطن من بربر طرابلس وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وأقام لديهم يرقب الفرص ، وأنفذت إليه أخته أم الاصبغ مولييه بدراً وسالماً ومعهما شيء من المال والجوهر . والظاهر أن عبد الرحمن كان يتجه منذ الساعة الأولى ببصره إلى افريقية ، وأن نفسه كانت تحدثه بما قد يكون له فى الأندلس من شأن ، فلما هدأ روعه استأنف سيره ، ونفذ إلى افريقية يحاول اختراقها ، وكان المتغلب عليها يومئذ عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى ، وكان وقت أن دالت دولة بنى أمية فى المشرق قد دعا لبنى العباس ، وكان يخشى على سلطانه من ظهور بنى أمية في افريقية ، فطارد اللاجئين إليها منهم ، وقتل بعضهم واعتقل البعض الآخر وصادر أموالهم ، ولما شعر بظهور عبد الرحمن بن معاوية حاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وأن ينجو مع صحبه إلى المغرب الأقصى.



وهنا تتفتح آمال عبد الرحمن وأطماعه ، فعلى مقربة منه فى الضفة الأخرى من البحر بلد غنى زاهر من تراث الدولة الأموية الذاهبة لم تمتد إليه يد المسودة ، ولم تقتحمه دعوتهم ، وفيه عصبة قوية من بنى أمية وأنصارهم ومواليهم ، وفيه يستطيع ـ إذا حالفه حسن الطالع ـ أن يعيد بناء الصرح الذى انهار فى المشرق ، ويستأنف لأسرته حياة جديدة فى السلطان والملك ، وكانت الأندلس في الواقع ، منذ انجلت عنها يد السلطة المركزية ، مهبط الطامعين والمتغلبين ، وكان يحكمها ويقودها يومئذ يوسف بن عبد الرحمن الفهري ؛ وكان وقد وليها قبل ذلك بنحو عشرة أعوام باتفاق الجماعة عقب معارك داخلية طاحنة ، ولكن حكمه لم يتوج قط بالصبغة الشرعية ، ولم تستكن الأندلس نهائيا إلى حكمه بل كانت تتطلع دائماً إلى مصيرها وترجو أن تظفر بالاستقرار السياسى فى ظل أميرها الشرعى ، وهكذا فإن عبد الرحمن الأموى حينما سبر غور أحوال الجزيرة على يد بعض رسله وموالى أسرته ، آنس أملاً فى العمل وفى النجاح ، ثم عبر إلى الجزيرة ، والتقى فى أنصاره وعصبته بيوسف وقواته فى « المسارة » على مقربة من قرطبة فى أوائل ذى الحجة ١٣٧ هـ (٧٥٦ م) ، وكان النصر حليفه ، إذ هُزم يوسف وحلفاؤه هزيمة شديدة ، ودخل عبد الرحمن قرطبة في يوم الأضحى ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً.

* * *

على أن يوم المسارة كان بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لا غايته ، فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يجوز إلى الأندلس ، وأن يفتتح عاصمتها وينتزع إمارتها لنفسه ، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه ، وكان ثمة بينه وبين ملك الأندلس الحقيقى مراحل شاقة ، بيد أن هذا الفتى الذى شحذت المحنة والخطوب همه استقبل مهمته الفادحة بعزم مدهش ، وقضى بقية حكمه وحياته ثلاثة وثلاثين عاماً يغالب صعاباً لا نهاية لها ، وكانت الأندلس خلال هذه الفترة كالبركان الثائر ، يضطرم كل يوم فى ناحية ، فلا تكاد الثورة تخمد فى ناحية منها حتى تضطرم فى ناحية أخرى ، وكان عبد الرحمن فى خططه وأساليبه طوال هذه المعركة مثال الجرأة والصرامة والقسوة ، بيد أنها لم تكن شهوات طاغية ظامئ إلى الدم ، بل كانت أساليب عنف يمليهاالعنف والخطر الداهم . كان عبد الرحمن يعيش من يوم إلى يوم فى غمر الخلاف والثورة والخيانة ، ولم يترك له الكفاح المضطرم المستمر فرصاً كثيرة لأعمال السلم ، بيد أنه خرج ظافراً من المعركة ، ظافراً باعادة الصرح الأموى الذى تهدم فى المشرق ، وتوطيد دعائم الملك الذى غلب ، وانشاء أسرة أموية جديدة في الغرب.

قدر لها أن تسير بالأندلس فى سبيل العظمة والفخار أحقابا .

بيد أن هذا الظفر الباهر كانت تغشاه دائما آلام نفس معذبة ذلك أن المحنة طبعت نفس عبد الرحمن وروحه إلى الأبد بطابع الكآبة والشجن . وهو لم ينس قط أنه سليل دوحة تقصفت واجتثت أصولها الراسخة حيث كانت يانعة زاهرة . وأنها اجتثت فى مناظر دموية مروعة كان من شهودها وكاد يغدو فى ضحاياها . ومن ثم نراه حتى آخر حياته محزون النفس يتلهف على ماضيه . ويبكى مجد أسرته . ويتحسر على فراق وطنه . وعلى نفيه وغربته وقد انتهت إلينا من شعره أبيات مؤثرة تفصح عن آلامه المعنوية مثل قوله فى التشوق إلى ربوع الشام :

أيهذا الركب الميمم أرضى
أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض
وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا
وطوى البين عن جفوني غمضي

وقوله وقد رأى فى الرصافة(٣) نخلة منفردة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنيّ وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلى(٤)

تلك هى مأساة عبد الرحمن الداخل ، ونقول مأساة لأن الظفر الذى اختتمت به لم ينزع عن هذه الحياة الشاقة لونها المؤسى ، وقد كان الداخل بلا ريب من أعظم شخصيات التاريخ الأندلسى ، بيد أنه فى حياته الخاصة يبدو لنا دائماً ذلك الطريد الذى تثير محنته وآلامه فى النفس شجنا ، قبل أن تثير أعماله الحافلة فى النفس إعجاباً .

محمد عبد الله عنان

١٩٣٨

هامش

(١) وردت هذه الرواية فى كتاب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » لمؤلف مجهول ص ٥١ ــ ٥٣ .

(٢) أوردها المقرى عن ابن حيان فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣ .

(٣) رصافة قرطبة ، وقد أنشأها الداخل تشبها بجده هشام حيث أنشأ الرصافة بالشام .

(٤) وفى نسبة هذه الأبيات إلى الداخل خلاف .



شعر : محمود غنيم

تعزية موجهة إلى صديقنا الشاعر (...) عن سبعة جنيهات احتال عليه دجال فسلبه إياها وكان أحوج ما يكون إليها .

هوِّن عليك وجفِّفْ دمعك الغالى ... لا يجمعُ اللهُ بين الشِّعر والمالِ
إنّا لفى زمنٍ فَقْدُ النقود به ... يُدمي العيون كفقد الصحب والآلِ
أدُّ التعازِى في مالٍ وفي ولد ... لا فرق ما بين أموالٍ وأنجالِ

* * *

منْ أين أصبحتَ ذا مالٍ فتسلبُهُ ... ياأشبهَ الناسِ بي في رقَّةِ الحالِ؟
فياها سبعةً من جيبك انطلقت ... وأنتَ أحوجُ مخلوقٍ لمثقال
فريسةً من فم السنورِ قد نزعَتْ ... شتّانَ ما بين سِنَّوْرٍ(١) ورئبال(٢)
عوِّذْ نقودك واعقِد حولها عُقدا ... وثيقةً تتحدى كلَّ حلّالِ

* * *

قالوا خلت يدُهُ من كل ماملكت ... فقلت بل رأسُه من عقله خالِ
لم يَبْقَ عندك ماتخشى عليه فنَمْ ... كما أنامُ قريراً ناعمَ البالِ
نفسي فداؤكَ ليت اللصَّ صادفني ... قد يغلبُ اللصَّ بالافلاس أمثالى

* * *

ياليت شعرىَ ماذا أنتَ صانُعهُ؟ ... أترمعُ الصومَ حتى شهرِك التالى؟
عش من قريضك في ريّ وفي شبع ... إن كان ينتفعُ الظمآنُ بالآلِ(٣)
أقسمت ماسلبتَ تلك النقودَ يدٌ ... بل وَدّعتْ هرباً من جيبك البالى
الذئب لايشتهى لحمَ ابن جلدته ... فكيف غرّرَ دجّالٌ بدجالِ؟

١٩٣٨ م

١ ـ السنور : حيوان أليف . ٢ ـ الرئبال : الأسد . ٣ ـ الآل : السراب .

مظاهر القسوة والرحمة في الحضارات

بقلم : عبد الرحمن شكري

أشرت فى مقالة (مجد العرب والاسلام) إلى محاولة بعض المؤرخين الأوربيين إصغار مظاهر القسوة فى الحضارات الأوربية وإعظامها فى الحضارات الشرقية . ولسنا نريد أن ننكر مظاهر القسوة فى الحضارات الشرقية ، وإنما نريد ألا يكون هناك لبس ، وألا تختفى الحقيقة التاريخية ، وهى أن الحضارات الأوربية لم تكن مظاهر القسوة فيها أقل من مظاهرها فى الحضارات الشرقية . فكل تمثيل قرأنا عنه فى حضارة شرقية قرأنا مثله فى الكلام عن الحضارات الأوربية . ولا يمكن تقصى كل مظاهر القسوة فى الحضارات ، ولا يفيد الانسانية إخفاء الحقيقة ، والمؤرخون الذين يخفونها قد يفعلون ذلك بحسن نية لأنهم يغالطون أنفسهم فيكونون كمن يجهل الحقائق وإن كانت ماثلة أمامه . وهذه ظاهرة كثيراً ما تشاهد فى الحياة فيحسبها الناظر سوء نية وكذباً متعمداً وماهى كذلك ، وإنما هى المغالطة للنفس التى تجعل المؤرخ يفرق بين النفوس البشرية ونزعاتها فى الشرق وبين النفوس البشرية ونزعاتها فى الغرب . كما يفرق المؤرخون فى بعض الأحايين بين العقول البشرية وملكاتها وطرق تفكيرها فى الشرق وبينها فى الغرب ، ويبالغون فى اختلاف طرقها بحسن نية ، وإن كانت المبالغة خطأ فى البحث والاستقراء .

كما نقرأ عن الحضارة الاغريقية أنها منبع الرحمة والنور فى العالم القديم والحديث ، وكان بعض المؤرخين لا يسهبون فى وصف مظاهر القسوة فيها ، وإن كانت موصوفة فى مراجع التاريخ ، وإنما هم يهملون وصفها عند إثبات ان الحضارة الاغريقية منبع الرحمة والنور فى العالم ، فلا يذكرون أن تلك الحضارة كانت مؤسسة على عرق جبين الأرقاء ودمائهم ، ويهملون ذكر ما كان يحدث فى المحاكم الاغريقية إذا ادعى أحدهم دعوى على رجل وأنكر هذا الرجل الدعوى وجيء بالأرقاء الذين يملكهم هذا الرجل المنكر وعذبوا بأصناف من العذاب القاسى الشنيع كي تؤخذ اعترافاتهم وهم يعذبون حجة على سيدهم . وكان السيد إذا اعترض على تعذيب أرقائه عد معترفاً أو شبه معترف بخوفه من أن يبوح أرقاؤه وهم يعذبون بما يؤدى إلى إدانته . ومن أمثال تلك القسوة فى الحضارة الاغريقية ما كان يلاقيه الأرقاء فى المحاجر والمناجم ، ومثلهم مثل الأرقاء فى مناجم الرومان . ويكفى وصف مالاقاه جنود أثينا الأسرى عندما حاولوا غزو سراقوسة فى صقلية وفشلوا واستخدموا فى المحاجر والمناجم أرقاء ، ومن مظاهر القسوة أيضا معاملة المدينة الظافرة للمدينة المغلوبة على أمرها إذا ثارت على سيدتها ، فقد كانت المدينة الظافرة تقضى فى بعض الأحايين بقتل جميع الرجال وبيع الأطفال والنساء فى سوق الرقيق . وهذه المعاملة تذكرنا بما كان الاغريق فى العصور الحديثة يشنعون به على الأتراك ومعاملتهم لرعاياهم من الاغريق ، إلا أن تلك المعاملة القاسية القديمة كان يعامل بها الاغريق الاغريق وحتى فى المدينة الواحدة كان الحزب السياسى إذا ظفر . عامل الحزب المخاصم له أشنع معاملة . وهذا كان حال الحضارة الاغريقية التى كانت بالرغم من ذلك منبع الرحمة والنور فى تاريخ الحضارة الأوربية . فإذا انتقلنا إلى حضارة الرومان وجدنا أن مظاهر القسوة لم تكن أقل منها فى الحضارة الاغريقية . فكان الأرقاء يعاملون معاملة قاسية بالرغم من القوانين التى أصدرت لحمايتهم . وكانت الأحزاب السياسية يقسو بعضها فى معاملة بعض قسوة شنيعة ، وكان الظفر الحربى الرومانى تذيع القسوة الشنيعة حتى بعد ذلك الظفر عند الاحتفال به وبعد الاحتفال به . وكانت الخوازيق التى يعير بها الأتراك والشرقيون من العقوبات الرومانية ، وكذلك الصلب والتمثيل بالمصلوبين وهم مصلوبون . وكانت ميادين الكوليسيوم معرضاً لجنون قسوة النفس الانسانية حتى صارت من ملذات الجمهور الرومانى رؤية الوحوش وهى تفترس أجسام الأحياء وتمزقها تمزيقا ، ورؤية حرق الأحياء كما كان المسيحيون يحرقون . ولم تكن مظاهر القسوة فى الحضارة مقصورة على حضارة أوربا الوثنية ، بل كانت على أفظع شكل حتى عند المتدينين من القائمين بأمور محاكم التفتيش الذين كان بعضهم يبكى رحمة بمن يعذبونهم فلا يزيدهم بكاء الرحمة إلا رغبة فى تعذيب ضحايا تلك المحاكم اعتقاداً أن ذلك التعذيب وأن تلك القسوة رحمة بالضحايا . ويقولون إن تعذيبهم فى الحياة الدنيا يقلل من عذابهم فى الآخرة . فيكون تعذيبهم فى الحياة الدنيا رحمة بهم ، ولم تكن مظاهر القسوة مقصورة على طائفة دينية دون الطوائف الأخرى بل اشتركوا فيها جميعاً . كما أن القوانين التى كانت تطبق فى الأمور غير الدينية كانت مثقلة بروح القسوة والتعذيب . ومن العجيب أن المؤرخين الذين ينعون على الدولة الاسلامية تنفيذ الحدود ينسون أن القوانين الأوربية والمحاكم الأوربية كانت إلى قبيل الثورة الفرنسية توقع عقوبات هى نفس الحدود التى ينتقدونها فى الدولة الاسلامية . فاننا نقرأ فى مؤلفات ماكولى وغير ماكولى من المؤرخين عن قطع الأيدى وجدع الأنوف وصلم الآذان وغير ذلك من أجزاء الجسم ، وقراءة وصف العقوبات التى وقعت بعد فشل ثورة دوق مونموث تكفى للدلالة على أن المؤرخين ينسون ما كان فى الحضارات الأوربية من مظاهر القسوة عند ذكرها فى الحضارات الشرقية . فاننا نقرأ كيف كانت أجسام الأحياء تقطع وتنصب أجزاؤها على النصب والمبانى والأعمدة وعند ملتقى الطرق ، فمن رءوس وأحشاء وأرجل وأيد منصوبة نتنة كانت تفسد الهواء فى انجلترا بعد ثورة دوق مونموث وغيرها من الثورات الفاشلة . والمستعمرون الأوربيون فى أمريكا حتى المتطهرون منهم لم يقصروا فى مظاهر القسوة ، وقد استعرض فان لون المؤرخ الأمريكى مظاهر القسوة فى الحضارة الأوربية والأمريكية فى كتابه المسمى (تحرير الانسانية) ولا تزال آلات التعذيب فى المتاحف الأوربية الخاصة بها تدل على أن النفوس فى أوربا لم تكن أقل قسوة من النفوس فى الشرق ، ولا نريد ذكر هذه الحقائق للغض من فضل الحضارة الأوربية . وإنما نريد تصحيح ما يشيعه بعض المؤرخين بحسن نية ، أو بسوء نية فيضلل ما يقولون ويؤدى إلى تخليد قسوة الانسانية ، وربما كانوا أبعد الناس عن الرغبة فى تخليدها .

والحقيقة أن النفس الانسانية إذا غضبت قست وأجرمت حتى ولو كان غضبها للحق أو الحرية أو الوطنية أو كرهاً للظلم . ولعل أكبر انتصار للنفس الانسانية فى المستقبل يكون انتصارها على نفسها بمنعها من الاجرام والقسوة الهمجية الوحشية عندما تغضب للحق أو الحرية أو الوطنية أو كرهاً للظلم . انظر مثلا ما ارتكبه ثوار الثورة الفرنسية من شرب للدماء ، وتمزيق أجسام الأحياء ، وأكل للحوم البشرية وسلخ لجلودها والتذاذ بإراقة الدماء والفخر بما كانوا يسمونه الغنائم والأسلاب من أحشاء نتنة ورءوس كانوا يضعونها على الرماح . ولم يفعل كل هذا أناس شرقيون ولا أناس من قبائل نيام نيام فى أواسط أفريقيا بل أناس غضبوا للحرية وكرهوا الظلم وكانوا يدعون إلى الحرية والأخاء والمساواة وإلى محو الشر . وهذه الثورة الفرنسية كانت مقدمة للديمقراطية الحديثة ، ولكن بعد أن كره العالم اسم الحرية زمناً وارتضى الحكومة المطلقة زمناً بسبب هذه الفظائع وهذه النذالة فى الاجرام والقسوة .

ثم انظر إلى فظائع الحروب الاستعمارية

وفظائع الحرب الكبرى فقد قاسى من أجلها من المحاربين ومن الأطفال والنساء آلاماً كثيرة عدد لم يقاس مثله في الحضارات الشرقية بشهادة بعض المؤرخين الموثوق بقولهم وبشهادة المفكرين مثل هالدين وليونارد وولف .

ثم انظر إلى مستقبل الانسانية وما هو منظور أن تقاسيه من الويلات بسبب الحضارة الأوربية وجشعها ومخترعاتها مما ينسى المفكر كل مظاهر القسوة في الحضارات الشرقية التي ينتقدها بعض المؤرخين الأوربيين . والحقيقة أن النفس الانسانية في السلم والحرب وفي أعمالها وأقوالها اليومية لا تزال أكثر ولوعاً بالقسوة مما يظن المستعرض لها بنظرية سطحية عجلى ، كما هي أكثر ولوعاً بالمجون وقصصه وأعماله مما يظن المستعرض للأكاذيب المقررة التي هي طلاء الحضارة والتي تخفى مظاهر القسوة والمجون في أعمال النفوس البشرية .

وإني ما ذكرت تنور المتوكل الذي عذب فيه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات إلا ذكرت الغلاف الحديدي ذا المسامير الذي كان يوضع فيه الأحياء في أوربا . وما ذكرت الرقيق في الدول الشرقية إلا ذكرت أن الرقيق كان شائعاً في أوربا وأمريكا إلى عصور قريبة ، وإلا ذكرت أنه عندما بدأ الرحماء يدعون إلى تحرير الرقيق ووجدوا نصراً من رجال الدين في أوربا ألفوا أعداء من رجال آخرين من رجال الدين كانوا يتذرعون بآيات من الكتاب المقدس من العهد القديم كي يزكوا بها الاستعباد . وذكرت ما كان يقاسيه الرقيق في الحضارات الأوربية مما يطول شرحه ووصفه ، وذكرت أن الكنيسة نفسها كانت تشترى الرقيق من الغلمان الصغار الملاح وتخصيهم ، وكانوا يسمون خصيان الكنيسة ، وكانت تفعل ذلك كي يرق صوتهم فيرتلون الآيات في الصلوات بصوت عذب شبيه بأصوات النساء . وكان بعضهم يهلك من عذاب الخصى .

وبعد فان مثل المؤرخين الأوربيين الذين ينكرون أو يصغرون من أمر مظاهر القسوة في الحضارات الأوربية ويكبرون أمرها في الحضارات الشرقية مثل كل إنسان في هذه الحياة الدنيا يصغر ويهون من أمر مظاهر القسوة التي ترتكبها نفسه ويكبر من أمر مظاهرها الصادرة عن نفوس غيره من الناس . وهو يفعل ذلك إما غفلة وعن حسن نية ، وإما يفعل ذلك وهو يدرى ما يفعل . ولن تنصلح الانسانية إلا إذا امتنع تضليل النفس هذا .

عبد الرحمن شكري

١٩٣٨

حول كتاب "هتلر"

قضية طريفة أمام القضاء الباريسي

نعرف أن للهر أدولف هتلر رئيس الحكومة الألمانية الحالية ، وزعيم الحزب الوطني الاشتراكي الألماني ، كتاباً كتبه أيام المحنة ، وقت أن كان زعيم جماعة صغيرة وحزب ناشيء ، وكان وقتئذ معتقلا في إحدى القلاع يقضي حكماً صدر عليه لاشتراكه في مؤامرة دبرت في ميونيخ لقلب الحكومة . ولم يكن لهذا الكتاب الذي صدر في سنة ١٩٢٥ بعنوان : جهادي (Mein Kampf) أهمية سياسية أو أدبية . وفيه يقص هتلر سيرة حياته ، ويعرض برنامج حزبه ، وآراءه السياسية في أسلوب عادي لا يمتاز بشيء إلا بما يتخلله من المبادىء والآراء المتطرفة . فلما تطورت الحوادث ، وغدا هتلر زعيم أعظم الأحزاب الألمانية ، واستولى على مقاليد الحكم ، اتجهت الأنظار الى كتابه ، وتخاطفته الملايين ، وطبع مراراً عدة ، وترجم إلى عدة لغات ، واتخذ أهمية جديدة يسبغها عليه مركز مؤلفه وما انتهى إليه من السلطان والنفوذ .

وقد رأى أحد الناشرين الباريسيين أن يخرج الكتاب باللغة الفرنسية لما للكتاب من خطر في نظر الجمهور الفرنسي بعد أن غدا مؤلفه أعظم خصم لفرنسا ، فأرسل إلى شركة فرانز أيهر الألمانية التي فوضت جميع حقوق النشر يستأذنها في الترجمة ، فأجابت بالرفض المطلق . والظاهر أن ذلك يرجع الى أسباب سياسية أكثر مما يرجع الى أسباب مالية ، لأن الهر هتلر لم يشأ أن يطلع الشعب الفرنسي على ماكتبه ، وفيه كثير مما لا يدعو الى الطمأنينة .

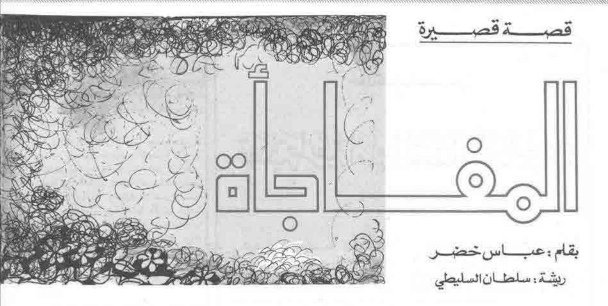
ولكن الناشر الباريسي لم يعبأ بهذا الرفض ، وأخرج لكتاب « جهادي » ترجمة فرنسية بديعة كاملة بقلم ثلاثة من الكتاب المعروفين . فبادرت شركة فرانز أيهر الألمانية الى رفع الأمر الى القضاء الفرنسي ، واستصدرت أمراً بالحجز على النسخ المطبوعة لدى الناشر الباريسي ، ورفعت عليه دعوى تطلب مصادرة النسخ المحجوزة ، والحكم عليه بغرامة قدرها ألف فرنك عن كل نسخة ، والحكم عليه فوق ذلك بتعويض مالي كبير .

وكانت نظرية الشركة الألمانية أمام المحكمة أن نشر الترجمة دون إذن يعتبر اعتداء واختلاساً ، وقانون سنة ١٧٩٣ الفرنسي الذي يحمي الملكية الأدبية يعتبر ذلك « تزويراً » تترتب عليه جميع حقوق التعويض والمصادرة .

ولكن الناشر الباريسي أجاب على لسان الأستاذين : « جابيه وفيليب لامور » أن هذه الحالة لا يشملها قانون سنة ١٧٩٣ . ذلك أنه لا يمكن أن نشبه كتاب هتلر بكتاب عادي أو رواية لمؤلف عادي ، والواقع أن كتاب « جهادي » إنما هو كتاب عمومي لرجل من الرجال العموميين ، ورؤساء الحكومات الذين تغدو كتاباتهم ملكاً للجميع على نحو ما يغدو تصريح وزاري أو خطبة عرش ، فلكل إنسان الحق ، بل ومن واجب كل إنسان يهمه الاطلاع على الشئون العامة أن يعرفها وأن يقرأها . هذا الى أن العقد الذي تزعم الشركة الألمانية أنها حصلت بمقتضاه على حقوق النشر لا يوجد ولم يقدم ، وليس لديها غير تصريح شفوي من « الزعيم » هتلر . ورفع الدعوى بهذه الصورة باطل ، وكان واجباً على هر هتلر ، إذا شاء أن يحمي حقوقه أن يتقدم بنفسه ، وعلى أساس الاعتبارات السياسية التي هي جوهر القضية ، ولكنه لم يكن لديه من الشجاعة أو الصراحة ما يحمله على اتباع هذا الطريق ، ولهذا آثر أن يتقدم بواسطة شركة للنشر وعلى أساس الاعتبارات التجارية .

وقد أثارت هذه القضية اهتماماً كبيراً في الدوائر القضائية والأدبية ، ولا تزال منظورة أمام محكمة السين التجارية ، رهن صدور الحكم فيها . على أنه يرجح منذ الآن أن يأخذ القضاء الفرنسي بنظرية الناشر الباريسي في اعتبار كتابات الرجال العموميين وأقوالهم ملكاً مباحاً يسوغ لكل إنسان أن يحصل عليه وأن يذيعه .

١٩٣٤



قصة قصيرة

المفاجأة

بقلم: عباس خضر

ريشة: سلطان السليطي

لمحها من الشباك .. فتذكر أياماً كان فيها الشباك يلعب الدور الأول فى خفقات القلوب ، يشير الفتى للفتاة . فتستجيب وتبتسم إن أعجبها الفتى ، يكون نظرة فابتسامة فموعد فلقاء . كما قال أمير الشعراء شوقى ، أو تعرض وتغلق الشباك فى وجهه . ويكون ذلك إما إعراضاً حقيقياً أو دلالا .

كان الشباك فى ذلك الزمن له شأن أى شأن ، إذ تلوح منه الوجوه الحسان ، كان مثل القمر الذى ينشر أشعته المبهجة . ولا يهم ما وراء هذه الأشعة من جبال ورمال وتضاريس يحكى عنها رواد القمر ، كذلك الشباك يلوح منه الوجه الجميل ولا يهم ما وراء هذا الوجه .. قد يكون الأب القاسى الذى يجر البنت من شعرها ويصفعها ويغلق الشباك ويهددها إن رآه فتح بعد ذلك فسيكون الوبال وشر الأعمال .

كان الشباك كذلك فى زمن مضى ، وكانت الأغنية القديمة تقول :

« يا نينه شفته من الشباك جدع حليوة وأسمر ، وعدى عليه يا نينه » ..

كانت بنت الجيران التى تطل من الشباك أول خطوة نحو الحب ، ولم تعد كذلك الآن : فالبنات والستات فى الطرقات وفى المدارس والكليات « على قفا من يشيل » وتراهن فى كل مكان ولا حاجة الى التحديق فى الشبابيك .

على أى حال شعر صاحبنا بالارتياح عندما لمحها ، وهو فى شقته وحيداً ، يشعر بالانقباض وما يشبه الكآبة : ذلك المرض النفسى المقول عنه ، وذلك لطول وحدته ، كاد صوته أن يفقد التعبير بتلوينه حسب الحال ، لقلة التحدث مع أحد ، والعضو – كما تعلم – يضعف إذا لم يعمل . انتبه لذلك أخيراً ، فشرع يكلم نفسه بصوت عال كتمرين لحنجرته ، ينشد بيتاً من الشعر ، أى بيت يجىء على لسانه ، أو حكمة ، يقول فى نفسه وهو يضحك على نفسه : لو سمعنى أحد وأنا أكلم نفسى لظن بى الظنون وأقربها أنى مجنون .

لا يحب الستائر التى تحجب عنه مناظر الخارج ، وتشعره بأنه حبيس بين الجدران ، فهو بدون الستائر يتطلع الى هذه المناظر من النافذة أو باب الشرفة ، وهو الآن يجد فائدة من ذلك ، فلولا تجرد النافذة من الستارة ما رآها .. ما انتعش بمرآها ، وجهها جميل ، ليشر إليها ، ربما تبتسم له ..

فعلا نظرت اليه ، وخيل له أن رأى شبه ابتسامة على شفتيها .. رآها تستعد للخروج ، ليخرج هو أيضاً ، فقد يقابلها فى الطريق ، ولكن الجو لا يبدو له ملائماً للخروج ، الدنيا برد ، والهواء نشط ، مثل « السم » لأنه يسمم البدن ، أليس يصيبه بنزلات البرد وخاصة الزكام ؟ انه يرى الملابس المنشورة على حبال الغسيل فى الشرفات وعلى الأسطح تهتز بسرعة ، فيخشى لفحة البرد إن خرج ، ولكنها هى ستخرج ، فليتوكل وينزل ..

سخر من من نفسه ، كيف يغازل مثل الشباب ويحسب حساب الجو ونزلات البرد مثل الشيوخ ؟ ولكن لا وقت للتفكير فى هذه المتناقضات ، فهيا وانتهز الفرصة قبل أن تفلت منك .

ولكن ماذا يريد منها ؟ أليست جارة وللجيران حقوق وحرمات ؟ ولكنه يعلل النفس بصحبة بريئة .. فقد تلين له فيذهبان الى الحديقة العامة ويجلسان فى الشمس ، آه .. الشمس ، الشمس لا تدخل هذه الشقة الباردة ، فيستعين فيها بالمدفأة الكهربائية ، هرع الى المدفأة فأطفأها استعداداً للخروج ، الخروج ؟ وهل أنت مصر على الخروج ؟ نعم ولم لا ؟

استشعر السخرية من نفسه مرة ثانية : يزمع أن يطارد المرأة مثل المراهقين ويخاف من الجو البارد مثل العجائز ؟

أسرع فارتدى ثياب الخروج ، وهبط .. ما إن صار فى الشارع حتى أحس بأن الجو ليس سيئاً كما كان يتوقع ويخشى ، النسمات منعشة ، والشمس مشرقة ، لماذا يحرم نفسه من الهواء الطلق ويظل حبيساً بين الجدران ؟

كذلك العمل ، يخيل للمرء أنه صعب فإذا أخذ فيه وجده سهلا .

ما إن وصل الى ناحية الشارع حتى تذكر أيام كان يقف ساعات مع أصدقائه وأنداده الشبان يعاكسون الغاديات والرائحات ، ويتطلعون الى الشبابيك التى تنظر منها البنات .. لم يعد ذلك كما كان . فشبان هذه الأيام يرون البنات والنساء فى كل مكان ، وخاصة فى المدارس والكليات المختلطة ، والفتاة تحادث الفتى بشكل عادى ، فلا يقول لها : « يا باشا ! » كما كانوا يقولون فى الزمن الماضى ، ولا تقول له : « ياسم ! » ردا على غزله الجرىء . انتهت « الباشوية » ولم يعد هناك « سم » .



ولكنه لا تزال فى أعماقه تلك النزعات أو النزغات .. أليس يسعى الآن وراء التى لاحت له من الشباك وخيل اليه أنها تبتسم له .. ؟

ها هى ذى .. يالله ! ماذا يرى ؟ بيدها عصا تتوكأ عليها ، رجلها اليمنى ملوية ، وقدمها اليمنى تسقط على الأرض منحرفة ، وبدنها يميل جزء منه ، وهى لهذا تمشى بصعوبة ، فهى عرجاء اذن ، وهذا العرج لا يظهر من النافذة ، وسبحان من ركب هذا الوجه على ذلك الجسم ! مسكينة .. إنها تستدعى العطف لا الغزل ، ولو علمت ما غازلتها حينما رأيتها من النافذة !

ثم أفاق الى نفسه ، وتساءل يؤنب نفسه : هب أنها غير ذلك ، أعنى كما ظننتها أولا فماذا كنت تريد ؟ أيليق هذا وأنت فى هذه السن ؟ أمازلت مراهقاً وغداً ؟ كنت كذلك أيام الصبا . أتذكر يوم مشيت وراء فتاة توجه اليها ألفاظ الغزل البذىء ، وهى تمشى صامتة كأنها لا تشعر بك ، وبعد أن حفيت قدماك التفتت اليك وقالت مؤنبة : أما كفاك ؟ دعنى واذهب لحالك .

شعر نحو العرجاء بشعور آخر يختلط بالإشفاق .. تأملها من بعيد .. يالله ! أتكون هى « أمانى » ؟ وما الذى جرى لها ؟ كان طفل يتقافز حولها ، فلما بعد عنها نادت :

ــ يا حمادة .. حمادة .. تعال هنا .

اقترب منها ، لم يملك نفسه أن سألها :

ــ أنت .. أنت أمانى ؟

ــ نعم يا أحمد .

ــ أهلا يا أمانى .

ــ أهلا بك يا أحمد .

ــ عشر سنين لم أرك . أهذا ولدك ؟

ربت كتف الصغير ، ومسح على رأسه وقبله .

قالت :

ــ نعم .. انه أحمد ولدى !

ــ أحمد ؟ سميته أحمد ؟

ــ ماذا حدث لك ؟

ــ نصيب .. ليس لنا الا أن نرضى بما قسم الله .

ــ لم أنسك قط ، وانى سعيد بلقائك .

كان نصيبه الحرمان منها ، لأنه لم يكن لديه شقة ، وكانت أزمة المساكن قد استحكمت ، وكان حصول مثله على شقة مستحيلا ، وطالت مدة خطبتها ، ضغط عليها أهلها عندما تقدم لها آخر عنده شقة ، فتزوجت به مستسلمة لقضاء الله .

توفى والداه ، فورث عنهما فيما ورث ، الشقة المستأجرة ، بعد فوات الأوان . وها هو ذا يعيش وحيداً ، قسمة ونصيب !

شعر بالحب القديم يستيقظ فى أعماقه .. يأخذ شكلا جديداً ، يتحول من العنفوان الى الهدوء ، ومن الرغبة الجامحة فى الامتلاك الى الاستقرار النفسى القانع ، جعل يردد :

حسبى وحسب الذى كلفت به
منى ومنه الحديث والنظر

قال لها :

ــ هل أسعد بجلسة معك فى الحديقة ؟

أشارت برأسها موافقة .

ــ إيه يا أمانى .. هل تذكرين هذه الشجرة التى طالما تفيأنا ظلالها ؟

ــ ومن ذا الذى ينسى أحلى ماكان ؟

ــ انها باقية على العهد ، تحنو علينا كما كانت ، كنت أجيء هنا وحدى فأشعر وأنا أتأملها كأنها تسألنى عنك ..

ــ أما تزال شاعراً .. ؟

ــ ان لم أكن فقد صرت ، من يرى هذا الجمال ولا يشعر به ؟ هذه الأشجار السامقة تهتز فروعها فى رقة ودلال ، وهذه الأزهار تبهرنا بألوانها ، وخرير الماء .. أتسمعين خرير الماء فى هذا الجدول ؟ وتغريد الطيور ؟ ان الطبيعة تحتفل بلقائنا ..

تسكت كأنها خجلى وتبتسم .

يركز بصره على ابتسامتها التى طالما فتنته ..

* * *

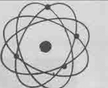
لما عاد كان يقفز على سلم المنزل بشباب لم يعهده منذ سنين .. ودخل الشقة وهو يدندن :

« شباك حبيبى .. شبك قلبى .. شبك قلبى » .

وصوته يطرد من الشقة أشباح الوحدة ويطهرها من جراثيم الكآبة .

واتجه ببصره نحو شباكها ، فرآه أحسن الشبابيك !

القاهرة



الربوت المنزلي مساعد ورفيق



من المتوقع أن يصبح الربوت المنزلي رفيقاً دائماً ونافعاً للاسرة فى غضون السنوات القليلة القادمة . فقبل نهاية هذا القرن سيقوم الربوت بمهام الحراسة والأمن والأعمال المنزلية البسيطة فضلا عن تسلية الكبار والصغار .

وأكثر هذه الأنواع تطوراً ربوت أمريكي طوله ٩٠ سم ويزن ١٨ كيلوجراماً ويتحرك بسرعة ٥٥ سم فى الثانية . وهو يتمتع بذاكرة قوية تتسع لثلاثة ملايين وحدة تخزين ، كما أنه مزود بخمسة أجهزة رصد تعمل بالموجات فوق الصوتية يستطيع بواسطتها تحديد مواضع الأجسام التى قد تصادفه فى طريقه ، وأحد هذه الأجهزة موجه نحو الأرض لحمايته من التعثر وبالتالى فان هذا الربوت يتحرك بحرية فى غرف المنزل دون ان يصطدم فى أى شيء .

ومن ناحية أخرى فهو يستطيع التمييز بفضل جهازى رصد للأشعة تحت الحمراء بين الكائنات الحية والجوامد ، ومن ثم يمكنه اكتشاف وجود أى متسلل أو دخيل .

ويتميز هذا الربوت عن اقرانه بأنه يضم داخل هيكله المتواضع دوائر الكترونية لثلاثة أجهزة ميكروكمبيوتر تعمل بشكل متواز يقوم كل واحد منها بجزء من المهمة المطلوب تنفيذها . مما يجعله أقوى ثلاث مرات من أى كمبيوتر شخصى .

ونظراً لأن سعة ذاكرته أكبر بكثير من أى ربوت منزلى فهو يستطيع القيام بالعديد من المهام مثل الحراسة ورصد الدخان والحرائق فضلا عن التسلية ، كما يمكن تزويده بمكنسة كهربائية خفيفة ليقوم بأعمال التنظيف فهو له ذراعان متحركان . وباختزان المواعيد فى ذاكرته يقوم بتنبيه صاحبه بصوت واضح وكلمات مفهومة عندما يحين الموعد المحدد .

واذا شعر بان قواه بدأت تضعف فانه يتوجه من تلقاء نفسه الى أقرب مصدر للتيار الكهربى ليقوم وحده بشحن بطاريته .

عدسات لاصقة ذاتية التكيف



العدسات فى المستقبل تكون ذاتية التكيف

تحاول الأبحاث فى مجال علاج عيوب البصر الوصول الى عدسات قادرة على التكيف مثلها مثل عدسة العين الطبيعية .

ويتوقع الباحثون أن تصبح العدسات اللاصقة فى مطلع القرن الواحد والعشرين عدسات ذاتية التكيف باستخدام تقنيات الكترونية وكيمائية خاصة .

ففى مؤتمر عن قصور النظر عقد مؤخراً فى باريس قدمت أبحاث هامة عن تقنيات جديدة للعدسات اللاصقة .

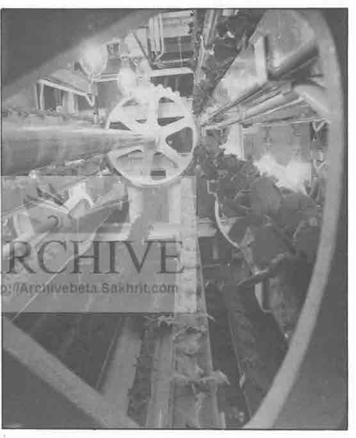
فلقد قدم باحث أمريكى شاب عدسات كيمائية يتغير سمكها تبعاً لنوع الوسط الموجودة فيه . فعندما وضعت فى محلول يوريا انتفخت وتغير تقوسها وبالتالى قوتها وعند وضع العدسة نفسها بعد ذلك فى محلول يماثل تركيب دموع العين عادت الى مواصفاتها الأصلية . ومعنى ذلك أن العدسة أمكنها التكيف أى تغيير درجة تقوسها تبعاً للوسط الموجودة فيه وهو ما يسمى بالتكيف الكيمائى .

ولكن التكيف الطبيعى لعدسة العين يتم بشكل لحظى فى حين تستغرق هذه العدسات اللاصقة وقتاً لتقوم بعملية التكيف . ولذلك تواصل الأبحاث تجاربها للوصول الى مواد جديدة لتصنيع هذا النوع من العدسات بحيث تتغير درجة تقوسها وبالتالى قوتها بالسرعة المطلوبة .

اما التقنية الثانية فهى عبارة عن عدسات الكترونية متغيرة القوة . ويعتمد عمل هذه العدسات على التحكم الكهربى فى ترتيب الجزيئات المكونة لها . حيث يتغير اتجاه وترتيب هذه الجزيئات تبعاً للجهد الكهربى الذى تتعرض له . وصنعت هذه العدسات من مادة عضوية تتميز بنشاط ضوئى محاطة بطبقتين رقيقتين من مادة شفافة موصلة للكهرباء .

وبالتالى فان أى تعديل فى ترتيب الجزيئات ينتج عنه تعديل لعامل انكسار العدسة ككل مما يتيح لها امكانية التكيف .

مصنع الخس

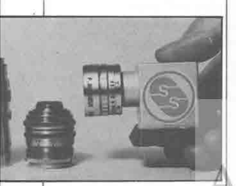


بدلا من الصوبة الزجاجية التقليدية يقدم اليابانيون صوبة تكنولوجية لزراعة الخس ويطلقون عليها اسم « مصنع الخس » وهو مصنع فريد من نوعه فالنبتات موضوعة على سير دائم الحركة (كما تبين الصورة) بحيث تؤمن حركة السير المستمرة تعرض كل نبتة لقدر متساو من الحرارة والضوء.

ويتميز هذا المصنع بأن نمو الخس فيه أسرع خمسة أضعاف عن الطبيعي حيث ينضج خلال عشرين يوماً فقط. ويفسر الباحثون المشرفون على هذه الصوبة الآلية بأن توفر المواد الغذائية على شكل سوائل والجو الغنى بثانى أكسيد الكربون والحرارة الثابتة والأشعة الضوئية المستمرة لمدة ٢٤ ساعة تساعد على سرعة النمو.

وتكلف هذا المصنع الذى عرض نموذج له فى معرض التكنولوجيا الدولى « تسوكوبا ــ ٨٥ » الذى أقيم مؤخراً فى اليابان مائتى ألف دولار. ويمكن بالطبع استخدام نفس التقنية لزراعة مختلف الخضروات.

أصغر كاميرا في العالم



انتهى المهندسون الفرنسيون فى معهد الالكترونيات فى جامعة « تولوز » من تصميم أصغر كاميرا الكترونية فى العالم، فوزنها لايزيد عن ٧٥ جراماً وارتفاعها ٣٦ ملليمترا وعرضها ٢٤ ملليمترا. فهى أشبه بعلبة ثقاب مزودة بعدسة.

وتحمل الأعجوبة الفرنسية اسم « ميكام » وهى اختصار لكلمة ميكرو كاميرا، وبدأت فكرة هذه الكاميرا بتصميم نظام يسمح لمن فقدوا البصر بالقراءة. ويتكون هذا النظام من كاميرا صغيرة يحركها الكفيف بيده اليمنى فوق النص المطبوع ليقوم الميكروكمبيوتر الموجود داخلها بالتعرف على حروف هذا النص واظهارها على السطح العلوى للكاميرا فى شكل حروف « بريل » بحيث يستطيع الكفيف قراءتها بيده اليسرى.

وتتعدد استخدامات « ميكام » فى الأغراض الصناعية سواء فى المراقبة عن بعد أو الربوت الصناعى كما يمكن استعمالها فى الطب والمجالات الفضائية بالإضافة بالطبع الى أنشطة الجاسوسية.

وتتميز هذه الكاميرا الفرنسية عن مثيلاتها اليابانية والالمانية بأنها أصغر حجماً وأرخص ثمناً كما يمكن ان يركب لها عدد كبير من العدسات مثل الزوم وتلك التى تعطى رؤية بانورامية الخ.



تحقق في القاهرة .. ما نادت به "الدوحة" منذ سبع سنوات

السينما المصرية بين حرّية الفكر.. وحرّية التهريج!

بقلم: رءوف توفيق

تحقق فى القاهرة أخيراً .. ما نادت به مجلة « الدوحة » منذ سبع سنوات ..

فقد تشكلت فى القاهرة ، لجنة عليا للرقابة على الأعمال الفنية ، وضم قرار تشكيل اللجنة عدداً من علماء الدين . وأساتذة الاجتماع وعلم النفس .. وعددا من الكتاب والنقاد .. وخبراء السينما فى مجال الانتاج والاخراج والتأليف .. والاستوديوهات والتوزيع .. بالاضافة الى ممثلى أجهزة الرقابة الحالية ..

وبهذا وصل عدد أعضاء هذه اللجنة الى ٣٧ عضواً .! اجتمعوا بالفعل على مدى الثلاثة شهور الأخيرة ، لبلورة هدف اللجنة فى « حماية حرية الفكر » و « اطلاق حرية الابداع الفنى الهادف والارتقاء بالذوق الفنى » .

وهكذا .. أصبح من المأمول في القاهرة .. أن يتقلص الدور التقليدي لأجهزة الرقابة الحكومية والتي يمارسها ـ بحكم اللوائح والقوانين ـ عدد من صغار الموظفين ، يهمهم في المقام الأول عدم التعرض للمساءلة ، واتباع الأحوط والأسلم لهم .. مما أدى الى رفض كثير من الأفكار والموضوعات الجادة ، والتي تناقش قضايا اجتماعية وسياسية هامة .

وانتقلت المهمة ـ بحكم تشكيل اللجنة العليا للرقابة ـ على عاتق ومسئولية رجال العلم والدين والاجتماع .

ماذا كتبت « الدوحة » ؟

وهذا الاتجاه في الرقابة على الفن .. هو ما نادت به « الدوحة » في عددها الصادر في مايو عام ١٩٧٥ .. في مقال بعنوان : « الرقابة على السينما .. شر لابد منه .. ولكن هناك حل » كتبت أقول :

« لاشك أن المطالبة بإلغاء الرقابة على الأفلام .. يعد أمراً خيالياً مستحيلا ـ وقد كنت أوضحت في نفس المقال موقف دول العالم من اللجوء للرقابة ، لحماية النشء من الانحرافات .. وحماية البسطاء وقليلي التعليم من السموم المدسوسة بذكاء في بعض الأفلام » .

واستطرد ذلك المقال .. وصولا الى الحل المقترح .. فكانت هذه السطور :

« ما يمكن المطالبة به .. أن تشكل أجهزة الرقابة من ذوى الخبرة والدراية من الشخصيات العامة » .

« فليس هناك أسوأ من أن يتولى صغار الموظفين اصدار الحكم على الفكر السينمائي » .

« واذا اتفقنا على أن الرقابة شر لابد منه .. فإننا يمكننا تحويل مسارها الى خدمة حقيقية للمواطنين ، وللثقافة ، وللفن عموماً .. اذا أتحنا الفرصة لأصحاب العقول المتفتحة وخبراء السياسة والاجتماع ، للمشاركة في تحديد الممنوع والمسموح » .

« ولا يمكن أن يختلف اثنان على مشروعية هذا الطلب » !

كان هذا ما نشرته « الدوحة » منذ سبع سنوات ..

وتحقق ذلك أخيراً في القاهرة ..

وهذه المرحلة الجديدة من الرقابة على الفن في مصر .. لابد أنها ستمر بتجارب واختبارات مختلفة .. وستتصادم بعض الآراء .. ويمضى بعض الوقت حتى تظهر النتائج الحقيقية لهذه التجربة ..

وعلينا من الآن أن ننتبه لبعض المحاذير .. ونطرح التساؤلات في احتمالات المستقبل .. ذلك لأن هذه التجربة المصرية لابد أنها ستنعكس بشكل وآخر على مسار الفن في مصر .. وبالتالي سيكون لها



نبيلة عبيد وأحمد زكي في لقطة من فيلم « التخشيبة » للمخرج عاطف الطيب .. ولم يكن على نفس مستوى فيلمه « سواق الأتوبيس » .



لقطتان : الأولى لشادية ويسرا في فيلم « لاتسألني من أنا » والفيلم لم يكن على المستوى المتوقع من ناحية الموضوع .. واللقطة الأخرى لأحمد زكي ووفاء سالم في فيلم « النمر الأسود » .





بعض التأثير على الفن عموماً في المنطقة العربية .
فالفن ـ كما هو معروف ـ من أكثر وسائل التعبير انتشاراً .. وله سحر خاص في تشكيل الوجدان .

نظرة .. من حولنا

وحرية الفكر ، والتعبير عنه ، من أكثر القضايا التى صاحبت مسيرة البشرية منذ فجر التاريخ وحتى الآن .. تعاقبت العصور ، والأنظمة .. وتعاقبت أيضاً وسائل تقييد حرية الفكر ، تحت مسميات مختلفة ! .

ورغم ان كل القوانين والمواثيق الدولية تنص على حق الانسان في التعبير عن أفكاره .. الا أن هذا « الحق » ليس دائماً حقاً مطلقاً .. فهناك حدود ملزمة يقف عندها هذا « الحق » . ! !

وفي أكثر الدول ديمقراطية ، على خريطة العالم الآن .. لا يوجد الحق المطلق في التعبير ، على مستوى أجهزة الاعلام ، أو من خلال السينما أو التليفزيون أو المسرح .. وانما هذا « الحق » مرتبط بشكل أو بآخر بالمؤسسات الاقتصادية الكبرى ، يلتزم بمصالحها ، ويتحرك من خلالها .. واذا حاول أحد أن يتمرد على هذه الحدود .. فعليه أن يتحمل النتائج .. صحيح انه لن يتعرض للسجن أو المصادرة ، ولكنه سيتعرض لما هو أقسى وأبشع .. سيتعرض للفصل والمطاردة في رزقه .. واغلاق كل الأبواب في وجهه .. سيدرج اسمه في قائمة غير المرغوب في التعامل معهم .

وأقرب مثال لنا ـ في المنطقة العربية ـ ما تعرضت له الممثلة « فانسيا ريدجريف » من اضطهاد وتعطل نتيجة مواقفها من تأييد حقوق الشعب الفلسطيني .. ثم ما تعرضت له أيضاً الممثلة « جيل كلايبرج » نتيجة اشتراكها في فيلم « حنا . ك » الذى يطرح بوضوح حق الشعب الفلسطيني في أرضه ..

العقاب مستمر .. بالنفي من العمل ..
يحدث هذا في أمريكا « الديمقراطية » .. حيث المؤسسات الصهيونية تقبض على زمام الاقتصاد ، وتحرك البشر من خلال مدى انتمائهم لها ! !

حتى في انجلترا .. أعرق دولة أوربية تعتز بتاريخها مع الديموقراطية .. من المستحيل ان تمارس الحرية الكاملة في التعبير .. الا من خلال ركن المتحدثين أو الخطباء في حديقة « هايد بارك » الشهيرة .. وتحت حراسة الشرطة ! .

وتحول هذا « الركن » الى مزار سياحى .. يقف أمامه السياح بكاميراتهم .. وأجهزة التسجيل .. وكأنهم يتفرجون على شيء غريب ونادر ! !

الأفـلام تحكى عن حرية الفكر

ومن أهم الأعمال السينمائية التى تعرضت للضغوط التى تمارس على حرية الفكر والتعبير .. فيلم (٤٥١ فهرنهيت) للمخرج الفرنسى الراحل فرانسوا تريفو .. والفيلم مأخوذ عن رواية للكاتب الأمريكى « راى برادبرى » .. وقد اعتبرت هذه الرواية عند صدورها عام ١٩٥٧ صرخة عنيفة ضد الارهاب المكارثى الذى صادر كل الاتجاهات الفكرية ، وحاول تخريب الانسان من الداخل والغاء عقله .

وقد جاء الفيلم تجسيداً بارعاً لمدى الخوف والشراسة التى يمارسها « نظام ما » لو اكتشف أن أحد أفراد الشعب « يفكر » خارج النطاق المرسوم الذى حدده هذا النظام ! .

والفيلم تدور أحداثه في مدينة غير محددة .. وفي زمن غير معروف .. حتى يعطى لموضوعه حالة من العمومية .

في تلك المدينة تظهر حكومة تصدر قراراً بتحريم قراءة الكتب ، لأن الكتب تجعل الناس يفكرون .. والتفكير يجعلهم غير سعداء ! .. وتخصص تلك الحكومة فرقة من رجال الاطفاء مهمتهم احراق الكتب أينما اكتشفوها .. ولذلك سميت هذه الفرقة « ٤٥١ فهرنهيت » وهى درجة الحرارة التى تحترق عندها الكتب !

وبطل الفيلم .. هو أحد رجال حرق الكتب قضى ست سنوات في هذا العمل .. ثم التقى مصادفة بفتاة ظلت تلح عليه بأسئلتها عن حرق الكتب .. وذات مرة سألته بذكاء شديد : « هل قرأت شيئاً من هذه الكتب التى تحرقها ؟ » فاستنكر بشدة .. ولكنه في ليلة أخفى كتاباً من الكتب المصادرة .. وبدأ يقرأ .. وفجأة اكتشف أنه لا يعيش ! ! . وقرر أن يعيش .. أن يقرأ الكتب ويدافع عنها .. وضحى في سبيل ذلك بكل شيء .. زوجته ، بيته ، وظيفته .. ولم يندم .. فقد اكتشف انسانيته لأول مرة .. واكتشف الحياة ..

والمعنى الذى يقصده الفيلم .. أن الكتب تعنى المعرفة .. والمعرفة تقود الى التأمل والتفكير .. وهذا ما ترفضه سلطة النظام الحاكم ، لأنها تريد من الناس أن يتحولوا الى قطيع مطيع يتلقى ما يعطى له ، بلا مناقشة أو تفكير .

وهذا الفيلم نموذج لتيار هام في السينما .. يقف ضد كل المحاولات ـ تحت أى اسم ـ لمصادرة حرية الفكر والتعبير .

وقد شهدت السينما العالمية في تاريخها الطويل .. فصولا من المعارك المشرفة انتصرت فيها لحق الانسان في التعبير عن رأيه .. وقد سقط في هذه المعارك الكثير من الضحايا : مؤلفين ومخرجين وممثلين ، أصابتهم حراب أجهزة التسلط والارهاب الفكرى ..

ولكن من قال إن هناك معارك .. بلا ضحايا .. ؟

الحرية .. والفوضى

المهم ان هذه المعارك التي خاضها المثقفون والفنانون عبر أجيال طويلة من أجل رفع الظلام عن العقل الانسانى .. هذه المعارك استغلها البعض لنزواتهم الخاصة .. ولمضاعفة ثرواتهم .

حولوا الحرية الى فوضى .. وأشاعوا قيماً لا أخلاقية .. تاجروا بالجريمة والعنف والجنس .

استغلوا الحرية لاشعال نيران الغرائز .. واطفاء أنوار العقل .

ومع هذا العبث المتعمد .. كان لابد من وجود « الرقابة » .

رقابة أخلاقية .. ورقابة دينية .. ورقابة تحمى المجتمع من المفسدين وتجار الغرائز ..

وهناك فرق بين المطالبة بحرية التعبير وحرية



نور الشريف وأحمد راتب وعلى الشريف فى فيلم « آخر الرجال المحترمين » الذى لم تحذف منه الرقابة أى مشهد أو حوار

الفكر .. والمطالبة بحرية الاسفاف والابتذال ..

وفى كل دول العالم المتقدم .. هناك أجهزة رقابة ، تصنف الأفلام أخلاقيا ودينيا .. وتشترط ألا يعلن عن فيلم بدون التصنيف الذى تحدده له .. حتى لايقع الجمهور فى المصيدة .

وأصبح معروفا - مثلا - أن الفيلم الذى يحمل تصنيف (X) هو فيلم غير مرحب به لأنه يحتوى على مشاهد جنس صارخة .. أو مشاهد عنف بشعة .

وفى أمريكا .. ثارت مناقشات عنيفة خلال العام الماضى عند بداية عرض فيلم « انديانا جونز .. والمعبد الملعون » فقد اعترض الكثير من النقاد ورجال المجتمع على مدى فظاعة مشاهد الدم والعنف فى الفيلم وطالبوا بتصنيف جديد - يضاف الى التصنيفات القائمة بالفعل - يدين مثل هذه الأفلام التى فاقت كل الحدود المتوقعة .

الافلام الهابطة .. هل ستختفى ؟

ومن هنا تبدو أهمية أن يتولى جهاز الرقابة .. أشخاص يمثلون نبض المجتمع وعقله وضميره .

وما نادت به « الدوحة » منذ سبع سنوات .. ومانحقق أخيرا فى القاهرة بإنشاء « لجنة عليا للرقابة » .. كشف فى الجلسات الأولى من اجتماع هذه اللجنة ، عن حماس بالغ ضد تيارات الابتذال والسوقية والتهريج التى أصابت الفن المصرى فى السنوات الأخيرة .

ولكن هل من المكن القضاء على هذه التيارات المسمومة .. بين يوم وليلة ؟

الأجابة المنطقية .. لا ..

فهذه التيارات انعكاس لتيارات عالمية تعانى منها السينما فى كل بلاد العالم ..

السينما الايطالية تعانى من نفس الحالة .. السينما الفرنسية .. السينما الامريكية .. السينما الهندية .. السينما الانجليزية .

وأصبح من المعروف عالميا .. أن نسبة الأفلام الجادة والتى تثير الفكر والتأمل .. لاتتعدى ١٠ فى المائة من مجموع الانتاج السنوى فى أى صناعة سينما فى العالم .

كما أن أسلوب المنع والمصادرة لمثل هذه الافلام التافهة .. يعطى قيمة لها لاتستحقها .. ومن حيث لانقصد تتحول هذه الافلام الى سلعة مطلوبة ، تطبيقا لنظرية « كل ممنوع .. مرغوب » .

ومع الاعتراف بحقيقة انتشار أجهزة « الفيديو كاسيت » فقد تسللت نسخ هذه الأفلام الى البيوت والمقاهى والنوادى .. تماما كما حدث مع فيلمى « درب الهوى » و « خمسة باب » .

إذن .. ماهو الحل ، ؟

فى تصورى .. أن الوقوف بجانب الأفلام الجادة فكرا وفنا .. سيدفع بالضرورة الأفلام الهزيلة للانسحاب تدريجيا من السوق .

وقد شهد السوق المصرى بالفعل .. انخفاضا مذهلا فى مدى اقبال الجمهور على الأفلام التجارية الهزيلة .. والفيلم الذى كان يتخطى العشرة أسابيع فى عرضه الأول بالقاهرة .. أصبح لايصمد الآن لأكثر من ثلاثة أسابيع أو أربعة ..

وساد فى القاهرة تعبير .. أن الجمهور الذى كان يشجع مثل هذه الأفلام .. وصل الى حالة « التشبع » ولم يعد يرغب فى المزيد !

صحيح ان ظاهرة انخفاض الايرادات .. امتدت فى السوق المصرى لتشمل كافة الأفلام الجيد منها .. والردئ .

ولكن التفسير الأقرب الى المنطق .. أن الجمهور قد أعلن احتجاجه على السينما عموما .. وهذا الاحتجاج بمثابة رد فعل متوقع .. مايلبث أن يعود لحالته الطبيعية .. ولكن بالتأكيد ليس مع الأفلام التى أصابته بخيبه أمل !!

والدليل على ذلك أن صناعة السينما فى مصر شهدت خلال الشهر الماضى - فقط - تنفيذ ١٢ فيلما جديدا مابين بداية التصوير .. أو إنهاء العمل بها !!

حق الفنان فى التظلم

اذن .. ماهو الدور المتوقع من اللجنة العليا للرقابة فى مصر ؟

الآمال كلها معقودة على إتاحة فرصة أكبر وأجرأ .. لحرية الفكر والتعبير الواقعى عن المشاكل الحقيقية للمجتمع .

فقد كانت أجهزة الرقابة الحكومية على السينما .. تخشى التصريح بالأفلام الجادة .. خوفا من الوقوع فى المساءلات .. أو بمعنى آخر خوفا من إغضاب السلطة .

وهذا الخوف والتشكك .. أحيانا يكون حقيقيا .. وأحيانا يكون « وهما » فى رءوس صغار الموظفين الذين بأيديهم الموافقة أو المنع .. ومن أجل إيثار السلامة والبعد عن المشاكل .. فهم « غالبا » مايلجأون الى قرار المنع .

وأصبح معروفا أن أفلام التهريج والإسفاف .. من الممكن أن تمر بسهولة من باب الرقابة .. لأن



سعاد حسنى فى لقطة من أحد أفلامها الأخيرة «موعد على العشاء».. وهى حاليا لاتشارك فى أفلام غير مقتنعة بموضوعها

قانون الرقابة لايتعرض لمثل هذه الأفلام.. ولكن يضع المتاريس والمحاذير أمام الافلام التى تناقش مسائل جوهرية وتحرك الفكر.. !

وانشاء لجنة عليا للرقابة.. سيرفع الخوف التقليدى من على عاتق موظفى جهاز الرقابة الحالى.. ليصبح مسئولية أعضاء اللجنة الذين يمثلون نبض المجتمع.

فقد تقرر أن تكون هذه اللجنة العليا.. بمثابة القاضي الذى سيلجأ إليه كل متظلم من قرارات المنع أو الحذف..

من حق المؤلف أن يتظلم.. ومن حق المخرج والمنتج أن يتظلما أيضا.. وستكون قرارات هذه اللجنة نهائية لصالح ماتراه فى خدمة الفن والمجتمع.

ومما يعطى لهذه اللجنة ــ قوة وثقلاً.. أنها جمعت فى تشكيلها بين شخصيات دينية وثقافية وفنية.. وتبادل الآراء بينها سيخلق بالتأكيد مناخا أفضل وأكثر إثراء لحركة الفن.

هل سيتعطل الانتاج الفنى ؟

وان كانت هناك بعض المخاوف التى بدأت تنتشر فى الوسط الفنى بالقاهرة.. بأن تعدد أعضاء اللجنة ــ ٣٧ عضوا ــ واختلاف معتقداتهم الفكرية.. وتبادل المناقشات بينهم.. قد يؤدى الى ضياع الوقت.. وتعطيل عجلة الانتاج. وبمعنى آخر.. ان مناقشات هذه اللجنة.. قد تؤدى الى تحجيم النشاط الفنى فى مصر.. خصوصا ان هذه اللجنة مسئولة عن الانتاج السينمائى.. والانتاج المسرحى.. والانتاج الغنائى... والرقابة على المؤلفات والكتب.. وقد يمتد نشاطها الى الرقابة على التليفزيون.. !!

ولكن هذه المخاوف حسمت من خلال القرارات الأولى التى أصدرتها اللجنة.. بتشكيل لجان فرعية متخصصة من أعضائها.. فى مجالات السينما والمسرح والغناء.

وهذه اللجان الفرعية تواصل عملها، كل فى اختصاصه.. لتبحث فيما يؤول لها من منازعات وخلافات بين المؤلفين والفنانين وأجهزة الرقابة الحالية..

فإنشاء لجنة عليا للرقابة.. لايلغى أجهزة الرقابة الحالية.. بل ستكون امتدادا لها.

وفى نفس الوقت تشكلت لجنة فرعية.. لدراسة تعديل قانون الرقابة الحالى فى مصر.. ليكون أساسا سليما وقويا لمستقبل الفن.

ان هذه الخطوة تعنى مزيدا من التفاؤل للمثقفين والفنانين الذين طالما اشتكوا من تعنت موظفى الرقابة مع أعمالهم.. وعملية التفتيش المستمرة فى معنى

كل كلمة يكتبونها.

وقد شهدت الرقابة على السينما في مصر خلال العام الماضي انفراجا واضحا .. شهد به السينمائيون والنقاد .. من خلال الافلام التى سمح بعرضها .. ومنها « بيت القاصرات » و « آخر الرجال المحترمين » و « حتى لايطير الدخان » و « بيت القاضى » و « الحب فوق هضبة الاهرام »

وهذا الانفراج ، وإن كان قد أوحى به جو الديموقراطية وتعدد الأحزاب ، وصحف المعارضة في مصر .. الا أن إنشاء لجنة عليا للرقابة .. بالتأكيد سيضيف الى هذا ، مزيدا من الضمان والأمان لحرية الفكر والتعبير .. بحيث لايصبح « الانفراج » و « الانغلاق » مجرد مرحلة .. أو سلاحا يستخدمه أحد المسئولين ، كما يشاء وفي الوقت الذى يحدده .. بل تصبح هناك قاعدة ثابتة محكومة بممثلى المجتمع .

وعلينا ان ننتظر ثمار هذه التجربة .

رءوف توفيق



محسنة توفيق وسماح أنور .. في فيلم « بيت القاصرات » للمخرج أحمد فؤاد

عادل إمام من أكثر النجوم شعبية وأغلاهم أجرا .. شارك في العديد من الأفلام خلال الخمس سنوات الأخيرة وأصبح يختار أفلامه بعناية .. اللقطة من فيلم : الحريف

● مهداة إلى شعب السودان العربي في انتفاضته الجديدة ●

مسار تنقّل النسمات

د. خالد حسن إدريس
جامعة قطر

ويـــداي أرملتـــان
من نَزَقٍ وزيــف
وكالعَنج (١) المُجْدلِ
من قَديــد
ذراعــاي
مغروســـان
في حمـــأة (٢) الضيق المُنيفْ (٣)
وبدينة الأعطاف مترفةُ الكلامْ
أقواسُ نصرٍ من جماجـــمْ
وسُقْيَاها غمـــامُ
مــن دم
وفي أوحالهـــا
جِيَفٌ وزُهري
ونَشْقٌ أذْفَر (٤)
وسكرةُ مـــوت
ياويح بُعْدك يا نجـــومْ
ويا جداراً من صميم الغيبِ
قد تطاولَ كالظِّلالِ وكالغيـــومْ
يَخيمُ أسىً
حتى ثُرَيّات الطريق
تدورُ حول إبْصاري
تَقَطّعُ في اختزالِ
كمواقد « أمْ سيرو » (٥)
رحمي طَعِمت بـــه
وَيَطْعَمُ من مخاضِي
شرسُ الكـــلابْ
أرضي هنـــاكْ
نوقٌ وإبْكارٌ وأزْهـــارُ
ونغرفُ من سحـــابْ
يا وعدَ الأبوةِ بالبنين
وعْداً توهجَ كالقِبابْ
ويا سهوبُ
يا ليلنا المُضنى
تُغالبه الجلامد
إذ يضيق ... وينحسر
تماده طمْتٌ (٦) رفيقْ
وكالبُصـــاقْ
سلبلُ النيلِ تهَرّاقا (٧) أبي
ومن دمائك يا نُجُومي (٨)
تَنِث (٩) أصابعُ أرجلي العشرةْ
أُغيبُ وجهي المَنْحُولَ
أخشى ان ألامْ
العَيْهران (١٠) جابَ مقاطعي
ومن خـــلاف
قطّعَ الأوصـــالْ
اشعاعاتٍ هَبائبُ ذَرّةٍ
تَساقَطُ كالقُرُوح
وكالهُمُـــومْ
تُمزّقُ « حمرةَ الوزّةْ » (١١)
و « أمْ بادر »
وتُفْقِدُ أرضنـــا الذِكْرَى
فَجيعَتُنـــا
سكونٌ عَمْ
لا غورٌ يُنَهْنِهُ خيبةَ الأملِ
ولا أُفُقُ
ولا طيبُ الصِّبا
ولا قَطَراتُ الا من مَدامِعِنَا
وأبْكارُ الهوام تَخرّمتْ
ويَلْعقُ من مآقينا
وتنزفُ دمْ
صال يبكر طهارتي
نهم الضراوة
متقدٌ
وبهذي بَعْدُ
فوق حصيرة خَرْقَاء
أنا شيخ الحضرةِ المُلْهَم
أنا سيفُ اللعنةِ الصمـــاءْ
وجومُكِ يا بَيادِرنَا
نُجُومُكِ يا مَرابعنَا
وحول قُراكِ مَاتَ الكونُ
منهالاً على الأركانْ
ومن سُدُم (١٢)
اليافعاتُ هوىً
المائتاتُ على الطريقْ
وعلى الصَّفير « حمائمُ » (١٣)
وَرفيفُها نقرٌ
لوقْعِ مواكب وبريقْ
تكُرّ تدورُ تُدرُ
تَسحُ تَهْطال
هُمُومُكِ يا بَيادِرَنا
سحاباتٌ عقيمـاتٌ
وأمْحَـــالُ (١٤)
أقلبُ وجه مَوْتانا

سرى بردٌ
يَصُكُّ نُخاعَ وجْداني
رأيت الموت ألوانا
رأيتُ حبيبتي زهْرة
وتَبْتَسِمْ
وينهش من تَبَسُّمِها
دُودٌ وذُبَّـــانُ
سوقُ خـــلاً (١٥)
لأجيـــاف
أما كانت بكل جَدائل الوادي
تَرِفُّ تَضُوعُ ..
ومن نَدِّي الطَّلْح (١٦)
رباها .. أليفُ نُشُوغٌ (١٧)
ومن رطيب غُيُومِها
نَضِيدٌ (١٨) « صُبَاغٌ »
وَمَعْذِرَةً لأطْيافي
لأجمل ما سَرَى ليلٌ
على الأكْوَانْ
لأرواحٍ
لِفرْقَانٍ
أخَنَتْ على الأرضِ
تعُودُ مَرَاتِعا خَضْراء
من بُطُونِ النُوقْ
ومن ضفاف شُرُوقْ
من سيتِيتْ (١٩)
من طفلٍ تكبّدَ رحلةَ العدَمْ
ليلقي فوق ظهْرانيْكَ ألف عَدَمْ
ومن نَغَم
يُهَسْهِسُ سَعْفَ « تُوتِيل » (٢٠)
يعودُ عواصِفًا هوجاء
ومن غَوَادِي النيلْ
وأدرك أرْضَنا شَبَحٌ
وَعَمّ
طَوَانا كما لفَّ الفَضَا نَغَمْ

وكَوْكَبَةٌ وخُدَّامُ (٢١)
لِتُفْري تَخِينَ دَمٍ
وَيُدْرِكُنا
أهدي المُثْخَنَاتُ جِرَاح رَبَاحْ
رباحُ أخي
لقَبْضَةِ هَيْنٍ وَرَشْفَةُ مَــاءْ
من الذي قَتَلَه
أزْهَقَ روح ميلادِي
وحاضِـــرُنا
وأمضي ......
أزْحَفُ فوق أجســـادِ
بنبضٍ واجفٍ
يَقْسُو على أوصالِ أحبَابي
أدَمْدِمُ :
فليكن مِنَ بعض دمائهم غذا
وللأطفال في عُمْري
سنبحث في شُقُوقِ الأرض
عن أمل
وعن عَمَل
وما جمعا
أجر ثقيلَ أصْفَادِي
ومن أقعد خَطْوَهُ المَحَلُ :
تركنا أم مَيَّاسَا
وعلى حَواجبِها
اتكأتْ حبائِلُ محْنَةِ الزَمَنِ
تركناها الى الخُرْطُومْ
لأن الأرض في الخرطومْ ـ
لو تَصْدق الأنباءُ ـ
ورقاءٌ من دِمَنٍ(٢٢)
لأن حزَامَ المَوْتِ في الخرطومِ
ممـــدودٌ
وقوس النصرِ في الخرطومِ
مَشْدُودٌ
شواهد أمةً شَمَّاءْ

أنا طفلةٌ
ولم يتجاوَزْ عُمْرِيَ العَشَرةْ
قَدِمْتُ مَعَ سيلٍ من الظُّعَانْ
رِحْلَةَ استغْرَقَتْ عُمْري
وأنيقَ تذْكَاري
وَفَضِّي من شعورِ الناسِ
بالإنْسَانْ
دخلتُ مسار تَنَقُّلِ النَسَماتْ
حَطَطْنَا غربَ أمْ دُرْمَانْ
أشلاءً وأطْيافَا

هوامش :

(١) العتج : في اللغة جماعة الناس والاشارة الى جماعة بعينها في السودان نسبت اليها سياط « العنج »
(٢) الحمأة : الطين الأسود المنتن
(٣) المنيف : الذي طال وأشرق
(٤) أدفر : له رائحة كريهة
(٥) أم سيرو : أصله في التراث السوداني مواقد الجن التي تبدو للساري فيقصدها ويضل بها
(٦) طمث : الدم
(٧) تهراقا : الملك والقائد السوداني الفذ قبل الميلاد
(٨) نجومي : هو عبدالرحمن النجومي بطل السودان العظيم
(٩) تمت : ترش
(١٠) العيهران : الغول
(١١) حمرة الوزة وأم بادر : موضعان ببادية السودان تغني بهما الركبان
(١٢) السدم : الطمر والدفن
(١٣) الحمائم : شريط خلق ذو ألوان تضفر به شعور الصبيات
(١٤) الأمحال : القحط والشدة .
(١٥) سوق الخلا : مفارق الطرق تقام عليها أسواق قصيات
(١٦) الطلح والصباغ : نوعان من الشجر عرفا بطيب العود والشذى
(١٧) النشوغ : الهجرة الفصلية في بادية السودان الغربية
(١٨) نضيد : متشابك بعضه فوق بعض
(١٩) سيتيت : أعالي نهر عطبرة
(٢٠) توتيل : قمة تآذر مدينة كسلا في شرق السودان
(٢١) كوكبة وخدام : الكوكبة هي الثلة من الفرسان استعملها نظام مايو ليصف سدنته ، والخدام من الشياطين تبذل نفسها تفانياً لمن يسقط أخلاقياً
(٢٢) الدمن : موضع الأوساخ غني بموادة العضوية وخصوبته .





استراحة الدوحة

مجموعة مسابقات بالرسوم بريشة:







كان الشيخ عبد العزيز البشرى من الأدباء المعروفين في الجيل الماضي، وقد تميز ببلاغته وأسلوبه الساخر وقدرته على تصوير الشخصيات تصويرا أدبيا ناجحا .. وفي اللوحتين المنشورتين هناك سبعة إختلافات طفيفة. حاول التعرف عليها لتحصل على جائزة



في هذا الرسم الكاريكاتيري محاولة للتهكم على التقليد الأعمى لكل شيء، وهذا الرسم ينطبق عليه المثل الشعبي المعروف، هل يمكنك التعرف على هذا المثل الشعبي لتحصل على جائزة ؟



هذه اللوحة التي لم تتم لقائد عسكري فذ، نفي إلى سانت هيلانة، ومات بداء السرطان في ٥ مايو ١٨٢١ .. أكمل اللوحة لتتعرف على هذا القائد وتحصل على جائزة

هات أجمل تعليق :



مطلوب منك أن تتوصل الى تعليق خفيف الظل على هذا الرسم الكاريكاتيرى ، فقد تفوز بجائزة





حاول أن تساعد هذا اللاعب فى العثور على ظله الحقيقى حتى تحصل على جائزة

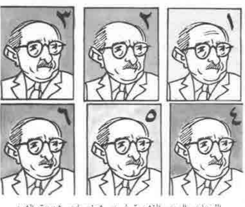
لأقوياء الملاحظة فقط !



أمامك رسوم لستة أشياء متداخلة ، هل تستطيع التعرف عليها ؟ .. إذا عرفت الحل أرسله إلينا لتحصل على جائزة







اللوحات الست المنشورة لست شخصيات شديدة الشبه بشخصية الدكتور محمد حسين هيكل الذى قدم التليفزيون العربى أخيرا روايته الشهيرة « زينب » .. هل تستطيع التعرف على اللوحة التى تشبهه تمام الشبه ؟





بقلم : عبد الله الجفري

ما دخل الهنود ؟

الهنود ينصحون العالم بالإقبال على الموسيقى .. والهنود ينصحون أنفسهم فقط (! !) .

ولكن هذه النصيحة تحتاج الى توضيح أكثر ، فالعالم كله ـ يقول ـ من الذى ينوّ أننا لا نحب الموسيقى ، أو أننا لا نقبل عليها ؟ .. فهذا الزعم مردود .. فنحن نسمع الموسيقى بالنهار فى الطائرات ، والقطارات ، والمؤسسات ، والسيارات ، وقد أصبح من الطبيعي الآن أن تدخل إلى أية مؤسسة أو شركة أو حتى مصنع وتقابلك الموسيقى ، وبعض الدول تفكر أيضاً أن تدخل الموسيقى الى فصول الدراسة فى المدارس والجامعات ، والمعاهد حتى يستمتع كل من يعمل أو يفكر ، والكثير من الناس اليوم لا يبقى فى مكتبه كثيراً ، فهو إما فى طائرة ، أو قطار ، أو سيارة ، وكلها تبث الموسيقى ! .

وهذا شيء جميل جـداً ؟ !

اما فى الليل .. فإن الموسيقى فى كل مكان .. على الأرض ، ومن السقف ، ومن الجدار .. شيء كالشلال الذى يجعلك تخاف الانزلاق ، أو الغرق ، أو الطرش ، أو على أقل توقع : أن تخاف من الملل والكآبة ! .. فأغلب الموسيقى فى ليل أوروبا وأمريكا ـ أي فى أغلب مناطق العالم ـ هى موسيقى صاخبة زاعقة .. فكيف تصدق أن الموسيقى تجلب الكآبة ؟ !

ربما أقول هذا الاعتبار ـ بصفة خاصة ـ لأننى لا أميل الى الأجواء الصاخبة ، وموسيقى الجاز وتطويح الرأس حتى لا يشعر به صاحبه فوق كتفيه . فالموسيقى الهادئة المنسابة فى اعتبارى هى النغم الحقيقى المريح للنفس ، والمبدد للملل وللملوحة النفسية !

ولكن .. ما دخل « الهنود » فى هذه النصيحة الداعية الى الإقبال على الموسيقى ؟ !

هنا الخبر ... ففى جامعة « راجستهان » بنيودلهى .. كشف بحث قدم لقسم الموسيقى .. أن لها تأثيراً فعالا فى شفاء الاضطرابات الذهنية ، والتوتر العاطفى ! !

ـ ويضيف الخبر : انه قد أجرى البحث على بعض المرضى ممن يعانون من حالات انقباض النفس والاكتئاب فى مستشفى لأمراض الرأس بولاية راجستهان الهندية . وثبت أن الموسيقى تتسرب الى ثنايا الجسم : حتى الى الأماكن التى لا تستطيع الوسائل العلاجية الأخرى أن تصل إليها . انتهى الخبر !

وبالطبع ... فإنهم لا يقصدون موسيقى الجاز ، أو أي لون من الموسيقى الصاخبة التي تعتمد على شدة قرع الطبل والأبواق النحاسية التى تصدر أصواتاً ـ لا أنغاماً ـ متشنجة .

فالهنود يعتزون بألحانهم وأنغامهم الشعبية ، وأنصحك ان تحدق فى وجه هندى وهو يستمع إلى موسيقى بلده .. ستراه منتشياً .. محلقاً .. مهموماً ، ورأسه مازال فوق كتفيه ، ولكنه يميل به كما تميل نسمة خفيفة بساق زهرة .. أو كأن الهندى وهو يغنى أو يستمع الى أنغام بلده يمزج خفقات قلبه بوحى عقله .. فالموسيقى الهندية عاطفة ، لكن الموسيقى الغربية قد تحولت الى جنس له قيمة مدفوعة ! !

وأعرف صديقاً لى ـ ليس هندياً ! ـ عندما تتناهى الى سمعه أنغام هندية يبادر الى الصمت ، والتأمل ، ويقول لى : دعنى أرى العشق مجسداً فى هذه الألحان : فالموسيقى الهندية لا تخرج من الحنجرة . أو أنها لا تعتمد على « النفخ » كثيراً ! . ولكنها تعتمد على الأوتار ، فكأنها تشد خيوط القلب خيطاً خيطاً !

ـ وقلت له : ولكنها موسيقى شرقية ، ولعل هذا هو السبب الوحيد الذى يشدك إليها ، فهى تتشابه مع النغم العربى ، والتركى ، والفارسى ، وحتى اليونانى أيضاً . وهذه الأنغام تستهوينا .. لأن فيها بيئة ، وفيها أصداء من الماضى ، وفيها ما تعودنا عليـه !

ـ قال : ربما ، ولكن ما قلته يعتبر جانباً من التأثير .. أما التأثير كله فى رأيى فيرجع الى طبيعة هذه الأنغام .. تشعر بأنها صادرة من النفس .. بواحة بما يقوله القلب . اما الألحان الغربية الحديثة ، فنحن نسمعها بأقدامنا وبأجسادنا .. اما أن ترقص وتتقافز وتتلوى ، أو لا طعم لها اطلاقاً !

ـ قلت ضاحكاً : ولكن من خواص اللحن الغربى أنك لا تسمعه وحدك ، وانما لابد أن يشاركك فى التأثر به شخص آخر .. أنثى تبادلك الحركة المجسدة لذلك النغم !

ـ قال : صحيح .. ولذلك يريدون أن يؤكدوا لنا أن اللحن الغربى تعبير عن الفرح والمرح .. أما ألحاننا الشرقية فيغلب عليها الحزن !

ـ قلت : ولكن هذا فى النغم فهو الذى يغسل الحزن فى النفس ويعالج الكآبة والانقباض لأنه تعبير صادق لمحتوى النفس ، وصدى للمشاعر المتراكمة أو المترسبة فى الأعماق .

ـ قال : أسمعنى اذن لحناً هندياً !

ـ قلت : أتريد موسيقى هندية ، أم صوتاً هندياً يغنى ؟ !

ـ قال : لا فرق ... ان الصوت والنغم ممتزجان ! !